جامع البيان

عن

تأويل آي القرآن

تأليف

أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

المتوفى سنة ٣١٠ هـ

الجزءان

١٧ - ١٨

دار الفكر

جامع البيان

عن

تأويل آي القرآن

تأليف

أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

المتوفى سنة ٣١٠ هـ

الجزء السابع عشر

دار الفكر

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

دار الفكر
بيروت
لبنان
المكاتب: البناية المركزية - هاتف: ٢٤٤٧٣٩ - ص.ب: ٧٠٦١ / ١١
المطابع والمعمل: حارة حريك - شارع عبد النور - هاتف: ٢٧٣٦٥٠ - ٢٧٣٤٨٧
برقيا: فكسي - تلكس ٤١٣٩٢ فكر FIKR 41392 LE

فهارس الجزء السابع عشر

من

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري

الفهرس الأول : للآيات المفسرة

الفهرس الثاني : مواضيع الآيات المفسرة

الفهرس الثالث : للقوافي

الفهرس الرابع : للأحاديث النبوية.

١ – فهرس الآيات

٢ — فهرس الموضوعات

٣ — فهرس القوافى

٤ ـ فهرس الأحاديث

(٢١) سورة الأنبياء مكية وآياتها اثنتا عشرة ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

* ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾

❁ يقول تعالى ذكره : دنا حساب الناس على أعمالهم التى عملوها فى دنياهم ونعمهم التى أنعمها عليهم فيها فى أبدانهم ، وأجسامهم ، ومطاعمهم ، ومشاربهم ، وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم ، ومسئلته إياهم ماذا عملوا فيها ، وهل أطاعوه فيها ، فانتهوا إلى أمره ونهيه فى جميعها ، أم عصوه فخالفوا أمره فيها ؟ (وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) يقول : وهم فى الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة ، وعن دنوّ محاسبته إياهم منهم ، واقترابه لهم فى سهو وغفلة ، وقد أعرضوا عن ذلك ، فتركوا الفكر فيه ، والاستعداد له ، والتأهب جهلاً منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء ، وشديد الأهوال .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل قوله (وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) قال أهل التأويل ، وجاء الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا أبو الوليد ، قال : ثنى أبو معاوية ، قال : أخبرنا الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم (وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) قال : فى الدنيا .

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾

﴿ يقول تعالى ذكره: ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس، ويذكرهم به ويعظهم إلا استمعوه، وهم يلعبون لاهية قلوبهم.

وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك، قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ)... الآية، يقول: ما ينزل عليهم من شيء من القرآن إلا استمعوه وهم يلعبون.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

﴿ يقول تعالى ذكره (لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) غافلة: يقول: ما يستمع هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم هذا القرآن إلا وهم يلعبون غافلة عنه قلوبهم، لايتدبرون حكمه، ولا يتفكرون فيما أودعه الله من الحجج عليهم.

كما حدثنا بشر قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) يقول: غافلة قلوبهم.

وقوله (وأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) يقول: وأسرّ هؤلاء الناس الذين اقتربت الساعة منهم وهم في غفلة معرضون، لاهية قلوبهم، النجوى بينهم، يقول: وأظهروا المناجاة بينهم فقالوا: هل هذا الذي يزعم أنه رسول من الله أرسله إليكم، إلا بشر مثلكم: يقولون: هل هو إلا إنسان مثلكم في صوركم وخلقكم، يعنون بذلك محمدا صلى الله عليه وسلم، وقال الذين ظلموا فوصفهم بالظلم بفعلهم وقيلهم الذي أخبر به عنهم في هذه الآيات إنهم يفعلون ويقولون من الإعراض عن ذكر الله، والتكذيب برسوله وللذين من قوله (وأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) في الإعراب وجهان: الخفض على أنه تابع للناس في قوله (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ) والرفع على الردّ على الأسماء الذين [1] في قوله (وأَسَرُّوا النَّجْوَى) من ذكر الناس كما قيل: (ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ) وقد يحتمل أن يكون رفعا على الابتداء، ويكون معناه وأسرّوا النجوى، ثم قال: هم الذين ظلموا.

وقوله (أفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) يقول: وأظهروا هذا القول بينهم، وهي النجوى

(١) لعله على الاسم الذى الخ.

التى أسرّوها بينهم ، فقال بعضهم لبعض : أتقبلون السحر ، وتصدّقون به وأنتم تعلمون أنه سحر ؟ يعنون بذلك القرآن .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) قال : قاله أهل الكفر لنبيهم لما جاء به من عند الله ، زعموا أنه ساحر ، وأن ماجاء به سحر ، قالوا : أتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾

اختلفت القرّاء فى قراءة قوله (قُلْ رَبِّى) فقرأ ذلك عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة وبعض الكوفيين (قُلْ رَبِّى) على وجه الأمر ، وقرأه بعض قرّاء مكة ، وعامة قرّاء الكوفة (قالَ رَبِّى) على وجه الخبر ، وكأن الذين قرءوه على وجه الأمر أرادوا من تأويله : قل يا محمد للقائلين (أَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) ربى يعلم قول كلّ قائل فى السماء والأرض ، لايخفى عليه منه شىء وهو السميع لذلك كله ، ولما يقولون من الكذب العليم بصدق ، وحقيقة ما أدعوكم إليه ، وباطل ما تقولون ، وغير ذلك من الأشياء كلها . وكأن الذين قرءوا ذلك قال على وجه الخبر أرادوا ، قال محمد : ربى يعلم القول خبرا من الله عن جواب نبيه إياهم .

والقول فى ذلك أنهما قراءتان مشهورتان فى قرأة الأمصار ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء ، وجاءت بهما مصاحف المسلمين متفقتا المعنى ، وذلك أن الله إذا أمر محمدا بقيل ذلك قاله ، وإذا قاله فعن أمر الله قاله ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب فى قراءته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذكره : ما صدّقوا بحكمة هذا القرآن ، ولا أنه من عند الله ، ولا أقرّوا بأنه وحى أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، بل قال بعضهم : هو أهاويل رؤيا رآها فى النوم . وقال بعضهم : هو فِرْية واختلاق افتراه واختلقه من قِبَل نفسه . وقال بعضهم : بل محمد شاعر ، وهذا الذى جاءكم به شعر (فَلْيَأْتِنا) به يقول : قالوا فليجئنا محمد إن كان صادقا فى قوله ، إن الله بعثه رسولا إلينا ، وإن هذا الذى يتلوه علينا وحى من الله أوحاه إلينا (بآية) يقول : بحجة ودلالة على حقيقة ما يقول ويدّعى (كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ) يقول : كما جاءت به الرسل الأوّلون من قبله من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص وكناقة صالح ، وما أشبه ذلك من المعجزات التى لايقدر عليها إلا الله ، ولا يأتى بها إلا الأنبياء والرسل .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) أى فعل حالم ، إنما هى رؤيا رآها (بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) كل هذا قد كان منهم . وقوله (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) يقول : كما جاء عيسى بالبيّنات وموسى بالبينات ، والرسل .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) قال : مشتبهة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) قال : أهاويلها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله ، وقال تعالى ذكره : بل قالوا : ولا جحد فى الكلام ظاهر ، فيحقق ببل ، لأن الخبر عن أهل الجحود والتكذيب ، فاجتُزِى بمعرفة السامعين بما دلّ عليه قوله ، بل من ذكر الخبر عنهم على ما قد بينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذكره : ما آمن من قبل هؤلاء المكذّبين محمدا من مشركى قومه الذين قالوا : فليأتنا محمد بآية كما جاءت به الرسل قبله من أهل قرية عذّبناهم بالهلاك فى الدنيا ، إذ جاءهم رسولنا إليهم بآية معجزة (أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) يقول : أفهؤلاء المكذّبون محمدا السائلوه الآية يؤمنون به إن جاءتهم آية ، ولم تؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية التى أهلكناها برسلها مع مجيئها .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) يصدّقون بذلك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) أى الرسل كانوا إذا جاءوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم يناظروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه : وما أرسلنا يا محمد قبلك رسولا إلى أمة من الأمم التى خلت قبل أمتك إلا

رجالا مثلهم نوحى إليهم ، ما نريد أن نوحيه إليهم من أمرنا ونهينا ، لاملائكة ، فاذا أنكروا من إرسالنا لك إليهم ، وأنت رجل كسائر الرسل الذين قبلك إلى أممهم . وقوله (فاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ) يقول للقائلين لمحمد صلى الله عليه وسلم فى تناجيهم بينهم : هل هذا إلا بشر مثلكم ، فإن أنكرتم وجهلتم أمر الرسل الذين كانوا من قبل محمد ، فلم تعلموا أيها القوم أمرهم إنسا كانوا أم ملائكة ، فاسألوا أهل الكتب من التوراة والإنجيل ما كانوا يخبروكم عنهم .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ) يقول : فاسألوا أهل التوراة والإنجيل - قال أبو جعفر : أراه أنا قال : - يخبروكم أن الرسل كانوا رجالا يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق .

وقيل : أهل الذكر : أهل القرآن .

ذكر من قال ذلك

حدثنى أحمد بن محمد الطوسىّ ، قال : ثنى عبد الرحمن بن صالح ، قال : ثنى موسى بن عثمان ، عن جابر الجعفىّ ، قال : لما نزلت (فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ) قال : علىّ : نحن أهل الذِّكر .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ) قال : أهل القرآن ، والذكر : القرآن ، وقرأ (إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَاجَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذكره : وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم من قبلك يامحمد إلى الأمم الماضية قبل أمتك . (جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ) يقول : لم نجعلهم ملائكة لايأكلون الطعام ،ولكن جعلناهم أجسادا مثلك يأكلون الطعام .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَما جَعَلْناهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ) يقول : ما جعلناهم جسدا إلا ليأكلوا الطعام .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَما جَعَلْناهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ) يقول : لم أجعلهم جسدا ليس فيهم أرواح لايأكلون الطعام ، ولكن جعلناهم جسدا فيها أرواح يأكلون الطعام .

قال أبو جعفر : وقال : وما جعلناهم جسدا ، فوحَّد الجسد وجعله موحدا ، وهو من صفة الجماعة ، وإنما جاز ذلك ، لأن الجسد بمعنى المصدر ، كما يقال فى الكلام : وما جعلناهم خلْقا لايأكلون .

وقوله (وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) يقول : ولا كانوا أربابا لايموتون ولا يفنون ، ولكنهم كانوا بشرا أجسادا فماتوا ، وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قد أخبر الله عنهم (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعا) . . . إلى قوله (أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً) قال الله تبارك وتعالى لهم : مافعلنا ذلك بأحد قبلكم فنفعل بكم ، وإنما كنا نرسل إليهم رجالا نوحى إليهم كما أرسلنا إليكم رسولا نوحى إليه أمرنا ونهينا .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) : أى لابد لهم من الموت أن يموتوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذكره : ثم صدقنا رسلنا الذين كذبتهم أممهم ، وسألتهم الآيات ، فآتيناهم ماسألوه من ذلك ، ثم أقاموا على تكذيبهم إياها ، وأصرّوا على جحودهم نبوّتها بعد الذى أتتهم به من آيات ربها ، وعدَنا الذى وعدناهم من الهلاك على إقامتهم على الكفر بربهم بعد مجىء الآية التى سألوا ، وذلك كقوله جلّ ثناؤه (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاأُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ) وكقوله (وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) ونحو ذلك من المواعيد التى وعد الأمم مع مجىء الآيات . وقوله (فَأَنْجَيْنَاهُمْ) يقول تعالى ذكره : فأنجينا الرسل عند إصرار أممها على تكذيبها بعد الآيات (وَمَنْ نَشاءُ) وهم أتباعها الذين صدّقوها وآمنوا بها. وقوله (وأَهْلَكْنا المُسْرِفِينَ) يقول تعالى ذكره : وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بربهم .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وأهْلَكْنا المُسْرِفِينَ) والمسرفون : هم المشركون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك ، فقال بعضهم : معناه ، لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ، فيه حديثكم .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ، قوله (فِيهِ ذِكْرُكُمْ) قال : حديثكم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتابا فيه ذِكْرُكُمْ) قال : حديثكم (أَفَلا تَعْقِلُونَ) قال فى قد أفلح (بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ ، فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا سفيان ، نزل القرآن بمكارم الأخلاق ، ألم تسمعه يقول (لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتابا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ) .

وقال آخرون : بل عنى بالذكر فى هذا الموضع : الشرف ، وقالوا : معنى الكلام : لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه شرفكم .

❁ قال أبو جعفر : وهذا القول الثانى أشبه بمعنى الكلمة ، وهو نحو مما قال سفيان الذى حكينا عنه ، وذلك أنه شرف لمن اتبعه وعمل بما فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾

❁ يقول تعالى ذكره : وكثيرا قصمنا من قرية ، والقصم : أصله الكسر ، يقال منه : قصمت ظهر فلان إذا كسرته ، وانقصمت سنه : إذا انكسرت ، وهو ههنا معنىّ به أهلكنا ، وكذلك تأوّله أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (وَكَمْ قَصَمْنا) قال : أهلكنا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قوله (وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ) قال : أهلكناها ، قال ابن جُرَيج : قصمنا من قرية ، قال : باليمن قصمنا بالسيف أهلكوا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قول الله (قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ) قال : قصمها أهلكها .

وقوله (مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً) أجرى الكلام على القرية ، والمراد بها أهلها لمعرفة السامعين بمعناه ، وكأن ظلمها : كفرها بالله ، وتكذيبها رسله . وقوله (وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْما آخَرِينَ) يقول تعالى ذكره : وأحدثنا بعد ما أهلكنا هؤلاء الظلمة من أهل هذه القرية التى قصمناها بظلمها قوما آخرين سواهم .

وقوله (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا) يقول : فلما عاينوا عذابنا قد حلّ بهم ، ورأوه قد وجدوا مسه ، يقال منه : قد أحسست من فلان ضعفا ، وأحسته منه (إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ) يقول : إذا هم مما

أحسوا بأسنا النازل بهم يهربون سراعا عَجْلَى ، يَعْدُون منهزمين ، يقال منه : ركض فلان فرسه : إذا كَدَّه بسياقته .

القول في تأويل قوله تعالى :

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذكره : لا تهربوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه : يقول : إلى ما أُنعمتم فيه من عيشتكم ومساكنكم كما حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ) يعنى من نزل به العذاب فى الدنيا ممن كان يعصى الله من الأمم .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (لا تَرْكُضُوا) : لا تفرّوا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بِشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قَتادة (وَارْجِعُوا إلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ) يقول : ارجعوا إلى دنياكم التى أُترفتم فيها .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور عن معمر ، عن قتادة (وَارْجِعُوا إلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ) قال : إلى ما أُترفتم فيه من دنياكم .

واختلف أهل التأويل فى معنى قوله (لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ) فقال بعضهم : معناه : لعلكم تفقهون ، وتفهمون بالمسئلة .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ) قال : تفقهون .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ) قال : تفقهون .

وقال آخرون : بل معناه لعلكم تسئلون من دنياكم شيئا على وجه السخرية والاستهزاء .

ذكر من قال ذلك

حدثنى بِشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قَتادة (لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ) استهزاء بهم .

حدثنى محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ) من دنياكم شيئا ، استهزاء بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ۞ ﴾

يقول تعالى ذكره : قال هؤلاء الذين أحلّ الله بهم بأسه بظلمهم ، لما نزل بهم بأس الله : يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، بكفرنا بربنا ، فما زالت تلك دعواهم ؛ يقول فلم تزل دعواهم ، حين أتاهم بأس الله ، بظلمهم أنفسهم : (يا وَيْلَنا إنّا كُنّا ظالِمِينَ) حتى قتلهم الله ، فحصدهم بالسيف كما يُحصَد الزرع ويستأصل قطعا بالمناجل . وقوله (خامِدِينَ) يقول : هالكين قد انطفأت شرارتهم ، وسكنت حركتهم ، فصاروا همودا كما تخمد النار فتطفأ .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ) ... الآية ، فلما رأوا العذاب وعاينوه لم يكن لهُمْ هِجِّيرَى إلا قولهم (يا وَيْلَنا إنّا كُنّا ظالِمِينَ) حتى دمّر الله عليهم وأهلكهم .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (قالُوا يا وَيْلَنا إنّا كُنّا ظالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حتى جَعَلْناهُمْ حَصِيدًا خامِدِينَ) يقول : حتى هلكوا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال ابن عباس (حَصِيدًا) الحصاد (خامدين) خمود النار إذا طفئت .

حدثنا سعيد بن الربيع ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : إنهم كانوا أهل حصون ، وإن الله بعث عليهم بختنصر ، فبعث إليهم جيشا فقتلهم بالسيف ، وقتلوا نبيا لهم فحُصِدوا بالسيف وذلك قوله (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حتى جَعَلْناهُمْ حَصِيدًا خامِدِينَ) بالسيف .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ ﴾

يقول تعالى ذكره : (وَما خَلَقْنا السَّماءَ والأرْضَ وَما بَيْنَهُما) إلا حجة عليكم أيها الناس ، ولتعتبروا بذلك كله ، فتعلموا أن الذى دبره وخلقه لا يشبهه شيء ، وأنه لا تكون الألوهة إلا له ، ولا تصلح العبادة لشيء غيره ، ولم يَخْلق ذلك عبثا ولعبا .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَما خَلَقْنا السَّماءَ والأرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ) يقول : ما خلقناهما عبثا ولا باطلا .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

⁂ يقول تعالى ذكره: لو أردنا أن نتخذ زوجة وولدا لاتخذنا ذلك من عندنا، ولكنا لانفعل ذلك، ولا يصلح لنا فعله، ولا ينبغى، لأنه لاينبغى أن يكون لله ولد ولا صاحبة.

وبنحو الذى قلنا فى ذلك، قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سليمان بن عبيد الله الغيدانى، قال: ثنا أبو قُتيبة، قال: ثنا سلام بن مسكين، قال: ثنا عقبة بن أبى حمزة، قال: شهدت الحسن بمكة، قال: وجاءه طاوس وعطاء ومجاهد، فسألوه عن قول الله تبارك وتعالى (لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْناهُ) قال الحسن: اللهو: المرأة.

حدثنى سعيد بن عمرو السكونى، قال: ثنا بقية بن الوليد، عن علىّ بن هارون، عن محمد، عن ليث، عن مجاهد فى قوله (لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا) قال: زوجة.

حدثنا بِشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة، قوله (لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا) . . . الآية، أى أن ذلك لايكون ولا ينبغى. واللهو بلغة أهل اليمن: المرأة.

حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قَتادة (لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا) قال: اللهو فى بعض لغة أهل اليمن: المرأة (لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا).

وقوله (إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ) حدثنا ابن عبدالأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قَتادة، قوله (إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ) يقول: ما كنا فاعلين.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، قال: قالوا مريم صاحبته، وعيسى ولده، فقال تبارك وتعالى (لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا) نساء وولدا (لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ) قال: من عندنا، ولا خلقنا جنة ولا نارا، ولا موتا ولا بعثا ولا حسابا.

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثنى الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، فى قوله (لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا) من عندنا، وما خلقنا جنة ولا نارا، ولا موتا ولا بعثا.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾

⁂ يقول تعالى ذكره: ولكن ننزل الحقّ من عندنا، وهو كتاب الله وتنزيله على الكفر به وأهله، فيدمغه: يقول: فيهلكه كما يدمغ الرجل الرجل بأن يشجه على رأسه شجة تبلغ الدماغ، وإذا بلغت الشجة ذلك من المشجوج لم يكن له بعدها حياة.

وقوله (فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) يقول : فإذا هو هالك مضمحل .

كما حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) قال : هالك .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) قال : ذاهب .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) والحق كتاب الله القرآن ، والباطل : إبليس ، فيدمغه فإذا هو زاهق : أى ذاهب .

وقوله (وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) يقول : ولكم الويل من وصفكم ربكم بغير صفته ، وقيلكم : إنه اتخذ زوجة وولدا ، وفريتكم عليه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل ، إلا أن بعضهم قال : معنى تصفون : تكذبون .

وقال آخرون : معنى ذلك : تشركون ، وذلك وإن اختلفت به الألفاظ فمتفقة معانيه ، لأن من وصف الله بأن له صاحبة فقد كذب فى وصفه إياه بذلك ، وأشرك به ، ووصفه بغير صفته ، غير أن أولى العبارات أن يعبر بها عن معانى القرآن أقربها إلى فهم سامعيه .

ذكر من قال ماقلنا فى ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) أى تكذبون .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) قال : تشركون ، وقوله (عَمَّا يَصِفُونَ) قال : يشركون ؛ قال : وقال مجاهد (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) قال : قولهم الكذب فى ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ١٩

يقول تعالى ذكره : وكيف يجوز أن يتخذ الله لهوا ، وله ملك جميع من فى السموات والأرض ، والذين عنده من خلقه ، لايستنكفون عن عبادتهم إياه ، ولايعيون من طول خدمتهم له ، وقد علمتم أنه لايستعبد والد ولده ولا صاحبته ، وكل من فى السموات والأرض عبيده ، فأنى يكون له صاحبة وولد : يقول : اولا تتفكرون فيما تفترون من الكذب على ربكم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا علىّ ، قال : ثنا عبدالله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) لايرجعون .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) لايحسَرون .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتَادة ، قوله (وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) قال : لايُعيون .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبدالرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتَادة ، قوله : (وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) قال : لايعيون .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (لَايَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) قال : لايستحسرون ، لايملُّون ذلك الاستحسار ، قال : ولا يفترون ، ولا يسأمون ، هذا كله معناه واحد ، والكلام مختلف ، وهو من قولهم : بعير حَسِير : إذا أعيا وقام ؛ ومنه قول علقمة بن عبدة :

بِها جِيَفُ الحَسْرَى فأمَّا عِظامُها فَبِيضٌ ، وأمَّا جِلْدُها فَصَلِيبُ[1]

القول في تأويل قوله تعالى :

يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝

يقول تعالى ذكره : يسبح هؤلاء الذين عنده من ملائكة ربهم الليل والنهار لايفتُرون من تسبيحهم إياه .

كما حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن عُلَيّة ، قال : أخبرنا حميد ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث ، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعبا عن قوله : (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لَايَفْتُرُونَ) و (يسبحون الليل والنهار لايسأمون)[2] فقال : هل يَئُودك طرفك ، هل يَئُودك نَفَسُك ؟ قال : لا ، قال : فإنهم ألهموا التسبيح كما أُلهمتَ الطَّرْف والنَّفَس .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى أبومعاوية ، عن أبى إسحاق الشيبانى ، عن حسان

(١) البيت لعلقمة بن عبدة التميمى ، من قصيدة له يمدح بها الحارث بن أبى شمر الغسانى (مختار الشعر الجاهلى ، بشرح مصطفى السقا ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ص ٤٢١ ، وهو البيت العشرون فى القصيدة) والحسرى : جمع حسير من الدواب ، وهو الذى كل من السير ، فات إعياء . و صليب : يابس لم يدبغ . والضمير فى (بها) راجع إلى المفازة التى سلكها ، فوجد فيها بقايا الدواب التى سارت فيها من قبل ، من عظام وجلود .

(٢) التلاوة « يسبحون له بالليل والنهار وهم » الخ .

ابن مخارق، عن عبد الله بن الحرث، قال: قلت: لكعب الأحبار (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لايَفْتُرونَ) أما يشغلهم رسالة أو عمل ؟ قال : يا ابن أخى إنهم جُعل لهم التسبيح ، كما جُعل لكم النفس ، ألست تأكل وتشرب وتقوم وتقعد ، وتجىء وتذهب ، وأنت تنفّس ؟ قلت : بلى ، قال : فكذلك جُعل لهم التسبيح .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن وأبو داود ، قالا : ثنا عمران القطان ، عن قتادة ، عن سالم ابن أبى الجعد ، عن معدان بن أبى طلحة ، عن عمرو البكالى ، عن عبد الله بن عمر ، قال : إن الله خلق عشرة أجزاء ، فجعل تسعة أجزاء الملائكة ، وجزء سائر الخلق ، وجزء الملائكة عشرة أجزاء . فجعل تسعة أجزاء يسبحون الليل والنهار لايفترون ، وجزءا لرسالته ، وجزء الخلق عشرة أجزاء . فجعل تسعة أجزاء الجنّ ، وجزأ سائر بنى آدم ، وجزأ بنى آدم عشرة أجزاء ، فجعل يأجوج ومأجوج تسعة أجزاء ، وجزءا سائر بنى آدم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لايَفْتُرُونَ) يقول : الملائكة الذين هم عند الرحمن لايستكبرون عن عبادته ، ولا يسأمون فيها .

وذُكر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ قال: «تَسْمَعُونَ ما أَسْمَعُ ؟ قالوا : ما نسمع من شىء يا نبىّ الله ، قال : إنّى لأَسْمَعُ أَطِيطَ السَّماءِ ، وَما تُلامُ أَنْ تَئِطَّ وَلَيْسَ فِيها مَوْضِعُ رَاحَةٍ إلاّ وَفِيهِ مَلَكٌ ساجِدٌ أَوْقائِمٌ » .

وقوله (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ) يقول تعالى ذكره : أتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض هم ينشرون : يعنى بقوله هم : الآلهة ، يقول : هذه الآلهة التى اتخذوها تنشر الأموات ، يقول : يحيون الأموات ، وينشرون الخلق ، فإن الله هو الذى يحيي ويميت .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنى عيسى « ح » ؛ وحدثنى الحارث ، قال: ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا . عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (يُنْشِرُونَ) يقول : يُحيون .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ) يقول: أفى آلهتهم أحد يحيي ذلك ينشرون ، وقرأ قول الله (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ) . . . إلى قوله (مالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ

يقول تعالى ذكره : لو كان فى السموات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذى هو خالق الأشياء ، وله العبادة والألوهة التى لاتصلح إلا له (لَفَسَدَتا) يقول : لفسد أهل السموات والأرض (فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) يقول جلّ ثناؤه : فتنزيه لله وتبرئة له مما يفترى به عليه هؤلاء المشركون به من الكذب .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا ، فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) يسبح نفسه إذا قيل عليه البهتان .

القول في تأويل قوله تعالى :

لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ يقول تعالى ذكره : لاسائل يسأل ربّ العرش عن الذى يفعل بخلقه من تصريفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال ، وغير ذلك من حكمه فيهم ، لأنهم خلقه وعبيده ، وجميعهم فى ملكه وسلطانه ، والحكم حكمه ، والقضاء قضاؤه ، لاشىء فوقه ، يسأله عما يفعل ، فيقول له : لم فعلت ؟ ولمَ لم تفعل ؟ (وَهُمْ يُسْأَلُونَ) يقول جلّ ثناؤه : وجميع من فى السموات والأرض من عباده مسئولون عن أفعالهم ، ومحاسبون على أعمالهم ، وهو الذى يسألهم عن ذلك ، ويحاسبهم عليه ، لأنه فوقهم ومالكهم ، وهم فى سلطانه.

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (لايُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) يقول : لايسئل عما يفعل بعباده ، وهم يُسئلون عن أعمالهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قوله (لايُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) قال : لايسئل الخالق عن قضائه فى خلقه ، وهو يسأل الخلق عن عملهم .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (لايُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) قال : لايسئل الخالق عما يقضى فى خلقه ، والخلق مسئولون عن أعمالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ يقول تعالى ذكره : أتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة تنفع وتضرّ ، وتخلق وتحيى وتميت ، قل يا محمد لهم : هاتوا برهانكم ، يعنى حجتكم ، يقول : هاتوا إن كنتم تزعمون أنكم محقون فى قيلكم ذلك حجة ودليلا على صدقكم .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ) يقول : هاتوا بينتكم على ما تقولون .

وقوله (هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ) يقول : هذا الذى جئتكم به من عندالله من القرآن والتنزيل (ذِكْرُ

مَنْ مَعِيَ) يقول : خبر من معى مما لهم من ثواب الله على إيمانهم به ، وطاعتهم إياه ، وماعليهم من عقاب الله على معصيتهم إياه وكفرهم به (وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي) يقول : وخبر من قبلى من الأمم التى سلفت قبلى ، وما فعل الله بهم فى الدنيا وهو فاعل بهم فى الآخرة .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى بِشْر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قَتادة ، قوله (هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ) يقول : هذا القرآن فيه ذكر الحلال والحرام (وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي) يقول : ذكر أعمال الأمم السالفة وما صنع الله بهم وإلى ما صاروا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ) قال : حديث من معى ، وحديث من قبلى .

وقوله (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُونَ الحَقَّ) يقول : بل أكثر هؤلاء المشركين لايعلمون الصواب فيما يقولون ، ولا فيما يأتون ويذرون ، فهم معرضون عن الحقّ جهلا منهم به ، وقلّة فهم .

وكان قَتادة يقول فى ذلك ما حدثنا بِشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قَتادة (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ) عن كتاب الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذكره : وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلا نوحى إليه أنه لامعبود فى السموات والأرض ، تصلح العبادة له سواى فاعبدون : يقول : فأخلصوا لى العبادة ، وأفردوا لى الألوهة .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بِشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيْهِ أنَّهُ لاإلَهَ إلاَّ أنا فاعْبُدُونِ) قال : أرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد . لايقبل منهم « قال أبوجعفر : أظنه أنا قال » : عمل حتى يقولوه ويقرّوا به . والشرائع مختلفة فى التوراة شريعة ، وفى الإنجيل شريعة ، وفى القرآن شريعة . حلال وحرام . وهذا كله فى الإخلاص لله والتوحيد له .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذكره : وقال هؤلاء الكافرون بربهم : اتخذ الرحمن ولدا من ملائكته ، فقال جلّ ثناؤه استعظاما مما قالوا ، وتبريا مما وصفوه به سبحانه ، يقول تنزيها له عن ذلك ، ما ذلك من صفته (بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ) يقول : ما الملائكة كما وصفهم به هؤلاء الكافرون من بنى آدم، ولكنهم عباد مكرمون يقول : أكرمهم الله .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحانَهُ ، بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ) قال : قالت اليهود : إن الله تبارك وتعالى صاهر الجنّ ، فكانت منهم الملائكة ، قال الله تبارك وتعالى تكذيبا لهم وردًّا عليهم ، (بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ) وإن الملائكة ليس كما قالوا ، إنما هم عباد أكرمهم الله بعبادته .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ؛ وحدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) قالت اليهود وطوائف من الناس : إن الله تبارك وتعالى خاتن إلى الجنّ والملائكة من الجنّ ، قال الله تبارك وتعالى(سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ) ، وقوله (لايَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ) يقول جلّ ثناؤه : لايتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم ، ولا يعملون عملا إلا به .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ،قال: قال الله(لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ) يثنى عليهم (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

القول في تأويل قوله تعالى:

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذكره : يعلم ما بين أيدى ملائكته مالم يبلغوه ، ما هو ، وما هم فيه قائلون وعاملون ، وما خلفهم : يقول : وما مضى من قبل اليوم مما خلفوه وراءهم من الأزمان والدهور ماعملوا فيه ، قالوا ذلك كله محصى لهم وعليهم ، لايخفى عليه من ذلك شيء .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال: ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (يَعْلَمُ ما بينَ أيْديهِمْ وَما خَلْفَهُمْ) يقول : يعلم ما قدّموا وما أضاعوا من أعمالهم (ولا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى) يقول : ولا تشفع الملائكة إلا لمن رضى الله عنه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (ولا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى) يقول : الذين ارتضى لهم شهادة أن لاإله إلا الله .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله(إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى) قال : لمن رضى عنه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال: ثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى) يوم القيامة (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبدالرزاق ، قال أخبرنا معمر، عن قتادة يقول : ولايشفعون يوم القيامة.

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، مثله ، وقوله (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) يقول : وهم من خوف الله وحذار عقابه أن يحلّ بهم مشفقون : يقول : حذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

* وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذكره : ومن يقل من الملائكة : إنى إله من دون الله (فَذَلِكَ) الذى يقول ذلك منهم (نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) يقول : نثيبه على قيله ذلك جهنم (كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) يقول : كما نجزى من قال من الملائكة : إنى إله من دون الله جهنم ، كذلك نجزى ذلك كل من ظلم نفسه ، فكفر بالله وعبد غيره . وقيل : عني بهذه الآية إبليس . وقال قائلو ذلك : إنما قلنا ذلك ، لأنه لاأحد من الملائكة قال : إنى إله من دون الله سواه .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ) قال: قال ابن جُرَيج : من يقل من الملائكة إنى إله من دونه ، فلم يقله إلا إبليس دعا إلى عبادة نفسه ، فنزلت هذه فى إبليس .

حدثنا بشر ،قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ) وإنما كانت هذه الآية خاصة لعدوّ الله إبليس لما قال ما قال ،لعنه الله وجعله رجيما ، فقال (فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ)

حدثنا ابن عبد الأعلى، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) قال : هى خاصة لإبليس .

القول في تأويل قوله تعالى :

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

❁ يقول تعالى ذكره: أو لم ينظر هؤلاء الذين كفروا بالله بأبصار قلوبهم : فيروا بها ، ويعلموا أن السموات والأرض كانتا رَتْقا : يقول : ليس فيهما ثقب ، بل كانتا ملتصقتين ؛ يقال منه : رتق فلان الفتق : إذا شدّه . فهو يرتقه رتقا ورتوقا . ومن ذلك قيل للمرأة التي فرجها ملتحم : رتقاء ، ووحد الرتق، وهو من صفة السماء والأرض ، وقد جاء بعد قوله (كانَتا) لأنه مصدر ، مثل قول الزور والصوم والفطر

وقوله (فَفَتَقْناهُما) يقول : فصدعناهما وفرجناهما .

ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصف الله السموات والأرض بالرتق ، وكيف كان الرتق ، وبأيّ معنى فتق ؟ فقال بعضهم : عنى بذلك أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ، ففصل الله بينهما بالهواء .

ذكر من قال ذلك

حدثني عليّ . قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قوله (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقا) يقول : ملتصقتين .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس : قوله (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقا فَفَتَقْناهُما) . . . الآية ؛ يقول : كانتا ملتصقتين ، فرفع السماء ووضع الأرض .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقا فَفَتَقْناهُما) كان ابن عباس يقول : كانتا ملتزقتين ، ففتقهما الله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقا فَفَتَقْناهُما) قال : كان الحسن وقتادة يقولان : كانتا جميعا ، ففصل الله بينهما بهذا الهواء .

وقال آخرون : بل معنى ذلك أن السموات كانت مرتتقة طبقة ، ففتقها الله فجعلها سبع سموات . وكذلك الأرض كانت كذلك مرتتقة ، ففتقها ، فجعلها سبع أرضين .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قول الله تبارك وتعالى (رَتْقا فَفَتَقْناهُما) من الأرض ستّ أرضين معها ، فتلك سبع أرضين معها ، ومن السماء ستّ سموات معها ، فتلك سبع سموات معها ، قال : ولم تكن الأرض والسماء متماسّتين .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (رَتْقا فَفَتَقْناهُما) قال : فتقهنّ سبع سموات ، بعضهنّ فوق بعض ، وسبع أرضين بعضهنّ تحت بعض .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد نحو حديث محمد ابن عمرو ، عن أبي عاصم .

حدثنا عبد الحميد بن بيان ، قال : أخبرنا محمد بن يزيد ، عن إسماعيل ، قال : سألت أبا صالح عن قوله (كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) قال : كانت الأرض رتقا والسموات رتقا ، ففتق من السماء سبع سموات ، ومن الأرض سبع أرضين .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : كانت سماء واحدة ثم فتقها ، فجعلها سبع سموات فى يومين ، فى الخميس والجمعة ، وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض ، فذلك حين يقول (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ)يقول(كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) .

وقال آخرون : بل عنى بذلك أن السموات كانت رتقا لاتمطر ، والأرض كذلك رتقا لاتنبت ، ففتق السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

ذكر من قال ذلك

حدثنا هناد ، قال : ثنا أبو الأحوص ، عن سماك ، عن عكرمة (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) قال : كانتا رتقا لايخرج منهما شىء ، ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات ، قال : وهو قوله (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ، وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) .

حدثنى الحسين بن علىّ الصدائى ، قال : ثنا أبى ، عن الفضيل بن مرزوق ، عن عطية ، فى قوله (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) قال : كانت السماء رتقا لاتمطر ، والأرض رتقا لاتنبت ، ففتق السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات ، ، وجعل من الماء كلّ شىء حىّ ، أفلا يؤمنون ؟

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) قال : كانت السموات رتقا لاينزل منها مطر ، وكانت الأرض رتقا لايخرج منها نبات ، ففتقهما الله ، فأنزل مطر السماء ، وشقّ الأرض فأخرج نباتها ، وقرأ (فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ) .

وقال آخرون : إنما قيل (فَفَتَقْنَاهُمَا) لأن الليل كان قبل النهار ، ففتق النهار .

ذكر من قال ذلك

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورى ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : خلق الليل قبل النهار ، ثم قال :(كانتا رتقا ففتقناهما).

⁂ قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : معنى ذلك : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا من المطر والنبات ، ففتقنا السماء بالغيث ، والأرض بالنبات .

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب فى ذلك لدلالة قوله (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ) على ذلك ، وأنه جلّ ثناؤه لم يعقب ذلك بوصف الماء بهذه الصفة إلا والذى تقدمه من ذكر أسبابه .

⁂ فإن قال قائل : فإن كان ذلك كذلك ، فكيف قيل : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا

رتقا ، والغيث إنما ينزل من السماء الدنيا ؟ قيل : إن ذلك مختلف فيه ، قد قال قوم : إنما ينزل من السماء السابعة . وقال آخرون : من السماء الرابعة ، ولو كان ذلك أيضا كما ذكرت من أنه ينزل من السماء الدنيا ، لم يكن فى قوله (أنَّ السَّمَوَاتِ والأرْضَ) دليل على خلاف ما قلنا ، لأنه لايمتنع أن يقال السموات ، والمراد منها واحدة فتجمع ، لأن كل قطعة منها سماء ، كما يقال : ثوب أخلاق ، وقميص أسمال .

❊ فإن قال قائل : وكيف قيل إن السموات والأرض كانتا ، فالسموات جمع ، وحكم جمع الإناث أن يقال فى قليله كنّ ، وفى كثيره كانت ؟ قيل : إنما قيل ذلك كذلك ، لأنهما صنفان ، فالسموات نوع ، والأرض آخر ؛ وذلك نظير قول الأسود بن يعفر :

إنَّ المَنِيَّـــةَ والحُتُوفَ كِلاهُما تُو فِى المَخارِمَ يَرْقُبانِ سَوَادِى[1]

فقال كلاهما ، وقد ذكر المنية والحتوف لما وصفت من أنه عنى النوعين ، وقد أخبرت عن أبى عبيدة معمر ابن المثنى ، قال : أنشدنى غالب النفيلى للقطامى :

أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنَّ حِبالَ قَيْسٍ وَتَغْلِبَ قَدْ تَبايَنَتا انْقِطاعَا[2]

فجعل حبال قيس وهى جمع ، وحبال تغلب وهى جمع اثنين .

وقوله (وَجَعَلْنا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) يقول تعالى ذكره : وأحيينا بالماء الذى ننزله من السماء كلّ شىء .

كما حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (وَجَعَلْنا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) قال : كلّ شىء حىّ خلق من الماء .

❊ فإن قال قائل : وكيف خص كل شىء حىّ بأنه جعل من الماء دون سائر الأشياء غيره ، فقد علمت أنه يحيا بالماء الزروع والنبات والأشجار ، وغير ذلك مما لاحياة له ، ولا يقال له حىّ ولا ميت ؟ قيل : لأنه لاشىء من ذلك إلا وله حياة وموت ، وإن خالف معناه فى ذلك معنى ذوات الأرواح فى أنه لاأرواح فيهنّ وأن فى ذوات الأرواح أرواحا ، فلذلك قيل (وَجَعَلْنا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) .

وقوله (أَفَلا يُؤْمِنُونَ) يقول : أفلا يصدّقون بذلك ، ويقرّون بألوهة من فعل ذلك ويفردونه بالعبادة .

(١) البيت للأسود بن يعفر النهشلى التميمى (المفضليات ١٠١) والمنية . الموت ، والحتوف جمع حتف ، يريد به أنواع الأخطار التى تؤدى إلى الموت والمخارم جمع مخرم : الطريق فى الغلظ (عن السكرى) . وقيل : الطرق فى الجبال وأفواه الفجاج ، وسواد الإنسان شخصه . والشاهد فى البيت أن الشاعر ذكر المنية والحتوف ثم قال يرقبان بالتثنية ، لأنه جعل المنية والحتوف نوعين للهلاك ، ثم قال : يرقبان . ولو جرى على مايقتضيه اللفظ لقال : ترقب سوادى ، لأن المنية والحتوف عدة أشياء .

(٢) البيت للقطامى ، وهو الرابع من عينيته المشهورة التى مطلعها « قفى قبل التفرق ياضباعا » (انظر ديوانه طبعة ليدن سنة ١٩٠٢ ص ٣٧) . قال : تباينت تفرقت . والحبال : العلائق والعهود . والشاهد فى البيت أن الشاعر قال : تباينتا بلفظ التثنية ، مع أن حبال قيس جمع ، وحبال تغلب جمع ، فكان ظاهر اللفظ يقتضى أن يقول : (تباينت انقطاعا) مراعاة لمعنى الجمعية فى حبال قيس وتغلب.

القول في تأويل قوله تعالى :

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾

☆☆ يقول تعالى ذكره : أو لم ير هؤلاء الكفار أيضا من حججنا عليهم وعلى جميع خلقنا ، أنا جعلنا فى الأرض جبالا راسية ، والرواسى : جمع راسية ، وهى الثابتة .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَجَعَلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِيَ) أى جبالا .

وقوله (أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ) يقول : أن لاتتكفأ بهم ، يقول جل ثناؤه : فجعلنا فى هذه الأرض هذه الرواسى من الجبال ، فثبتناها لئلا تتكفأ بالناس ، وليقدروا بالثبات على ظهرها .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كانوا على الأرض تمور بهم ، لاتستقرّ ، فأصبحوا ، وقد جعل الله الجبال ، وهى الرواسى أوتادا للأرض، وجعلنا فيها فجاجا سبلا : يعنى مسالك ، واحدها فجّ .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا) : أى أعلاما . وقوله (سُبُلاً) أى طرقا ، وهى جمع السبيل .

وكان ابن عباس فيما ذُكر عنه يقول : إنما عنى بقوله (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا) وجعلنا فى الرواسى ، فالهاء والألف فى قوله (وَجَعَلْنَا فِيهَا) من ذكر الرواسى .

حدثنا بذلك القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس ، قوله (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا) سبلا ، قال : بين الجبال .

وإنما اخترنا القول الآخر فى ذلك ، وجعلنا الهاء والألف من ذكر الأرض ، لأنها إذا كانت من ذكرها دخل فى ذلك السهل والجبل ، وذلك أن ذلك كله من الأرض ، وقد جعل الله لخلقه فى ذلك كله فجاجا سبلا ، ولا دلالة تدلّ على أنه عنى بذلك فجاج بعض الأرض التى جعلها لهم سبلا ، دون بعض ، فالعموم بها أولى.

وقوله (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) يقول تعالى ذكره : جعلنا هذه الفجاج فى الأرض ليهتدوا إلى السير فيها.

القول في تأويل قوله تعالى :

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

☆☆ يقول تعالى ذكره : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا) للأرض مسموكا ، وقوله (مَحْفُوظًا) يقول : حفظناها من كلّ شيطان رجيم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد، في قوله (سَقْفًا مَحْفُوظًا) قال : مرفوعا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال: ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال: ثنا سعيد ، عن قتادة، قوله (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) . . . الآية : سقفا مرفوعا، وموجا مكفوفا .

وقوله (وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) يقول: وهؤلاء المشركون عن آيات السماء ، ويعني بآياتها : شمسها وقمرها ونجومها (معرضون) : يقول: يعرضون عن التفكر فيها ، وتدبر ما فيها من حجج الله عليهم ، ودلالتها على وحدانية خالقها ، وأنه لاينبغي أن تكون العبادة إلا لمن دبرها وسوّاها ، ولا تصلح إلا له .

وبنحو الذي قلنا في ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (وَهُمْ عن آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) قال: الشمس والقمر والنجوم آيات السماء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

وقوله (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) يقول تعالى ذكره : والله الذي خلق لكم أيها الناس الليل والنهار ، نعمة منه عليكم وحجة ، ودلالة على عظيم سلطانه ، وأن الألوهة له دون كلّ ما سواه فهما يختلفان عليكم لصلاح معايشكم وأمور دنياكم وآخرتكم ، وخلق الشمس والقمر أيضا ، كلّ في فلك يسبحون ، يقول : كلّ ذلك في فلك يسبحون .

واختلف أهل التأويل في معنى الفلك الذي ذكره الله في هذه الآية ، فقال بعضهم : هو كهيئة حديدة الرحى .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) قال : فلك كهيئة حديدة الرحى .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال: ثني حجاج ، قال : قال ابن جريج (كُلٌّ فِي فَلَكٍ) قال : فلك كهيئة حديدة الرحى .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثني جرير ، عن قابوس بن أبي ظَبيان ، عن أبيه ، عن ابن عباس (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) قال : فلك السماء .

وقال آخرون : بل الفلك الذي ذكره الله في هذا الموضع سرعة جرى الشمس والقمر والنجوم وغيرها .

ذكر من قال ذلك

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) الفلك : الجرى والسرعة .

وقال آخرون : الفلك موج مكفوف تجرى الشمس والقمر والنجوم فيه .

وقال آخرون : بل هو القطب الذى تدور به النجوم ، واستشهد قائل هذا القول لقوله هذا بقول الراجز :

بَاتَتْ تُنَاجِى الفَلَكَ الدَّوَّارَا　　حَتَّى الصَّبَاحِ تعمَل الأَقْتَارَا[1]

وقال آخرون فى ذلك ، ما حدثنا به بِشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) : أى فى فلك السماء .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) قال : يجرى فى فلك السماء كما رأيت .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد ، فى قوله (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يسْبَحُون) قال : الفلك الذى بين السماء والأرض من مجارى النجوم والشمس والقمر ، وقرأ (تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّماءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيها سِرَاجا وَقَمَرًا مُنِيرًا) وقال : تلك البروج بين السماء والأرض وليست فى الأرض (كلٌّ فى فلكٍ يَسْبَحُونَ) قال : فيما بين السماء والأرض : النجوم والشمس والقمر .

وذُكر عن الحسن أنه كان يقول : الفلك طاحونة كهيئة فلكة المغزل .

والصواب من القول فى ذلك أن يقال : كما قال الله عزّ وجلّ (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وجائز أن يكون ذلك الفلك كما قال مجاهد كحديدة الرحى ، وكما ذُكر عن الحسن كطاحونة الرحى ، وجائز أن يكون موجا مكفوفا ، وأن يكون قطب السماء ، وذلك أن الفلك فى كلام العرب هو كل شىء دائر ، فجمعه أفلاك ، وقد ذكرت قول الراجز :

بَاتَتْ تُنَاجِى الفُلْكَ الدَّوَّارَا

وإذ كان كل ما دار فى كلامها ، ولم يكن فى كتاب الله ، ولا فى خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عمن يقطع بقوله العذر ، دليل يدل على أىّ ذلك هو من أىّ كان الواجب أن نقول فيه ما قال ، ونسكت عما لا علم لنا به .

فإذ كان الصواب فى ذلك من القول عندنا ما ذكرنا ، فتأويل الكلام : والشمس والقمر ، كلٌّ ذلك فى دائر يسبحون .

(١) البيت شاهد على أن الفلك هو القطب الذى تدور به النجوم . وقال فى (اللسان : فلك) : الفلك : مدار النجوم ، والجمع : أفلاك . وفى حديث ابن مسعود : أن رجلا أتى رجلا وهو جالس عنده فقال : « إنى تركت فرسك كأنه يدور فى فلك » . قال أبو عبيد : قوله « فى فلك » : فيه قولان : فأما الذى تعرفه العامة ، فإنه شبهه بفلك السماء الذى تدور عليه النجوم ، وهو الذى يقال له القطب ، شبه بقطب الرحى . قال ؛ وقال بعض العرب : الفلك هو الموج إذا ماج فى البحر فاضطرب ، وجاء وذهب ، فشبه الفرس فى اضطرابه بذلك .

وأما قوله (يُسَبِّحُونَ) فإن معناه : يَجْرُونَ .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قوله (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) قال : يجرون .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (يَسْبَحُونَ) قال : يجرون .

وقيل (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) فأخرج الخبر عن الشمس والقمر مخرج الخبر عن بني آدم بالواو والنون ، ولم يقل : يسبحن أو تسبح ، كما قيل (والشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) لأن السجود من أفعال بني آدم ، فلما وصفت الشمس والقمر بمثل أفعالهم ، أجرى الخبر عنهما مجرى الخبر عنهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۞ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وما خلدنا أحدا من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها ، ولا بد لك من أن تموت كما مات من قبلك رسلنا (أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ) يقول : فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك ، لا ما ذلك كذلك ، بل هم ميتون بكلّ حال عشت أو متّ ، فأدخلت الفاء في إن وهي جزاء ، وفي جوابه ، لأن الجزاء متصل بكلام قبله ، ودخلت أيضا في قوله فهم لأنه جواب للجزاء ، ولو لم يكن في قوله فهم الفاء جاز على وجهين : أحدهما : أن تكون محذوفة ، وهي مرادة ، والآخر أن يكون مرادا تقديمها إلى الجزاء ، فكأنه قال : أفهم الخالدون إن متّ .

وقوله (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ) يقول تعالى ذكره : كل نفس منفوسة من خلقه ، معالجة غصص الموت ، ومتجرّعة كأسها .

وقوله (وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً) يقول تعالى ذكره : ونختبركم أيها الناس بالشرّ ، وهو الشدّة نبتليكم بها ، وبالخير ، وهو الرخاء والسعة العافية ، فنفتنكم به .

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين : قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس ، قوله (وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً) قال : بالرخاء والشدة ، وكلاهما بلاء .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) يقول : نبلوكم بالشرّ بلاء ، والخير فتنة ، (وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) قال : نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون ؛ نختبرهم بذلك لننظر كيف شكرهم فيما يحبون ، وكيف صبرهم فيما يكرهون .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ) يقول : نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة ، وقوله (وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) يقول: وإلينا يردّون فيجازون بأعمالهم ، حسنها وسيئها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وَإِذَا رَآكَ) يا محمد (الَّذِينَ كَفَرُوا) بالله (إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) يقول : مايتخذونك إلا سخريا يقول بعضهم لبعض (أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) يعنى بقوله : يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها ، تعجبا منهم من ذلك ، يقول الله تعالى ذكره : فيعجبون من ذكرك يامحمد آلهتهم التى لاتضرّ ولا تنفع بسوء (وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ) الذى خلقهم وأنعم عليهم ، ومنه نفعهم ، وبيده ضرّهم ، وإليه مرجعهم بما هو أهله منهم أن يذكروه به كافرون ، والعرب تضع الذكر موضع المدح والذمّ ، فيقولون : سمعنا فلانا يذكر فلانا ، وهم يريدون سمعناه يذكره بقبيح ويعيبه ، ومن ذلك قول عنترة :

لا تَذْكُرِى مُهْرِى وَمَا أَطْعَمْتُهُ فَيَكُونَ جِلْدُكِ مِثْلَ جِلْدِ الأَجْرَبِ (١)

يعنى بذلك : لاتعيبى مهرى ، وسمعناه يُذكر بخير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

(١) البيت لعنترة بن عمرو بن شداد العبسى (مختار الشعر الجاهلى ، بشرح مصطفى السقا ، طبعة الحلبى ص ٣٩٦) يقول : لا تلومينى بذكر مهرى وطعامه ، وإلا نفرت منك كما ينفر الصحيح من الأجرب . يعنى لا تعيبى مهرى ولا تلومينى من أجل اهتمامى به ، فهو وسيلتى للدفاع عنك وعن قومى .

⁂ يقول تعالى ذكره : (خُلِقَ الإنْسانُ) يعني آدم (مِنْ عَجَلٍ) .

واختلف أهل التأويل فى تأويله ، فقال بعضهم : معناه : من عجل فى بنيته وخلقته ، كان من العجلة ، وعلى العجلة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد فى قوله (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ) قال : لما نفخ فيه الروح فى ركبتيه ذهب لينهض ، فقال الله (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ)

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : لما نُفخ فيه ، يعنى فى آدم الروح فدخل فى رأسه عطس ، فقالت الملائكة : قل الحمد لله ، فقال : الحمد لله ، فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ) يقول : خلق الإنسان عجولا .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ) قال : خلق عجولا .

وقال آخرون : معناه : خلق الإنسان من عجل : أى من تعجيل فى خلق الله إياه ومن سرعة فيه وعلى عجل ، وقالوا : خلقه الله فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس على عجل فى خلقه إياه قبل مغيبها .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ) قال : قول آدم حين خُلق بعد كلّ شىء آخر النهار من يوم خلق الخلق : فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ، ولم تبلغ أسفله ، قال : يا ربّ استعجل بخلقى قبل غروب الشمس .[1]

حدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال مجاهد (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ) قال آدم حين خُلق بعد كلّ شىء ثم ذكر نحوه ، غير أنه قال فى حديثه : استعجلْ بخلقى فقد غربت الشمس .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ) قال : على عجل خلق آدم آخر ذلك اليوم من ذينك اليومين ، يريد يوم الجمعة ، وخلقه على عجل ، وجعله عجولا .

وقال بعض أهل العربية من أهل البصرة ممن قال نحو هذه المقالة : إنما قال : خُلق الإنسان من عجل ،

(١) هذا السند تكرار للذى قبله من غير فرق .

وهو يعني أنه خلقه من تعجيل من الأمر، لأنه قال (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) قال : فهذا العجل . وقوله (فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) إنى (سَأُرِيكُمْ آيَاتِي) وعلى قول صاحب هذه المقالة ، يجب أن يكون كلّ خلق الله خُلق على عجل ، لأن كل ذلك خلق بأن قيل له كن فكان . فإذا كان ذلك كذلك ، فما وجه خصوص الإنسان إذًا بذكر أنه خُلق من عجل دون الأشياء كلها ، وكلها مخلوق من عجل ، وفى خصوص الله تعالى ذكره الإنسان بذلك الدليل الواضح ، على أن القول فى ذلك غير الذى قاله صاحب هذه المقالة .

وقال آخرون منهم : هذا من المقلوب ، وإنما خُلق العَجَل من الإنسان ، وخُلقت العجلة من الإنسان ، وقالوا ذلك مثل قوله (ما إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِى القُوَّةِ) إنما هو لتنوء العصبة بها متثاقلة ، وقالوا : هذا وما أشبهه فى كلام العرب كثير مشهور . قالوا : وإنما كلم القوم بما يعقلون ، قالوا : وذلك مثل قولهم : عَرَضْتُ الناقة ، وكقولهم إذا طلعت الشعرى ، واستوت العود على الحِرْباء : أى استوت الحرباء على العود ، كقول الشاعر :

وَتَرْكَبُ خَيْلاً لا هَوَادَةَ بَيْنَهَا ... وَتَشْقَى الرماحُ بالضياطِرَةِ الحُمْرِ[1]

وكقول ابن مقبل :

حَسَرْتُ كَفِّى عَنِ السِّرْبالِ آخُذُهُ ... فَرْدًا يُجَرُّ عَلَى أَيْدِى المُفَدِّينا[2]

يريد : حسرت السربال عن كفى ، ونحو ذلك من المقلوب . وفى إجماع أهل التأويل على خلاف هذا القول ، الكفاية المغنية عن الاستشهاد على فساده بغيره .

❁ قال أبو جعفر : والصواب من القول فى تأويل ذلك عندنا : الذى ذكرناه عمن قال معناه : خُلق الإنسان من عجل فى خلقه : أىْ على عجل وسرعة فى ذلك ، وإنما قيل ذلك كذلك ، لأنه بُودر بخلقه مغيب الشمس فى آخر ساعة من نهار يوم الجمعة ، وفى ذلك الوقت نفخ فيه الروح .

وإنما قلنا أولى الأقوال التى ذكرناها فى ذلك بالصواب ، لدلالة قوله تعالى (سَأُرِيكُمْ آيَاتِي ، فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) علىّ ذلك .

وأن أبا كريب ، حدثنا قال : ثنا ابن إدريس ، قال أخبرنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة

---

(١) البيت لخداش بن زهير (اللسان : ضطر) . الجوهرى : الضيطر : الرجل الضخم الذى لاغناء عنده ؛ وكذلك الضوطر والضوطرى . وفى حديث على : من يعذرنى من هؤلاء الضياطرة : هم الضخام الذين لاغناء عندهم ، الواحد ضيطار . وقول خداش : « وتركب خيلا . . . البيت » : قال ابن سيده : يجوز أن يكون عنى أن الرماح تشقى بهم ، أى أنهم لا يحسنون حملها ، ولا الطعن بها ، ويجوز أن يكون على « القلب » أى تشقى الضياطرة الحمر بالرماح ؛ يعنى أنهم يقتلون بها . والهوادة : المصالحة والموادعة . والبيت شاهد على القلب .

(٢) البيت لتميم بن أبى بن مقبل ، كما قال المؤلف . وحسرت كفى عن السربال : يريد حسرت السربال عنها . والسربال : القميص والدرع . والمفدون : الذى يقولون لى فديناك من المكاره ، تعظيما لى ، وإكبارا لبلائى فى الحرب ؛ وهو كالشاهد قبله على أن الكلام فيه مقلوب ؛ لأنه يريد حسرت السربال عن كفى ، لشجاعتى .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ في الجُمُعَةِ لَساعَةً يُقَلِّلُها [١] ، قال لايُوافِقُها عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسأَلُ اللهَ فِيها خَيْرًا إلاَّ آتاهُ اللهُ إيَّاهُ » فقال عبدالله بن سلام : قد علمت أىَّ ساعة هى ، هى آخر ساعات النهار من يوم الجمعة ، قال الله : (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ ، سأُرِيكُمْ آياتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونَ) .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا المحاربى وعبدة بن سليمان وأسير بن عمرو ، عن محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوسلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بنحوه ، وذكر كلام عبد الله بن سلام بنحوه .

⁂ فتأويل الكلام إذا كان الصواب فى تأويل ذلك ما قلنا بما به استشهدنا (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ) ولذلك يستعجل ربه بالعذاب (سأُرِيكُمْ آياتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونِ) أيها المستعجلون ربهم بالآيات القائلون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم : بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأوّلون آياتى ، كما أريتها من قبلكم من الأمم التى أهلكناها بتكذيبها الرسل ، إذا أتتها الآيات فلا تستعجلون ، يقول : فلا تستعجلوا ربكم ، فإنا سنأتيكم بها ونريكموها .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ) فقرأته عامة قرّاء الأمصار (خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ) بضمّ الخاء على مذهب ما لم يسمّ فاعله . وقرأه حُميد الأعرج (خَلَقَ) بفتحها ، بمعنى : خلق الله الإنسان ؛ والقراءة التى عليها قرّاء الأمصار ، هى القراءة التى لاأستجيز خلافها .

وقوله (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) يقول تعالى ذكره : ويقول هؤلاء المستعجلون ربهم بالآيات والعذاب لمحمد صلى الله عليه وسلم : متى هذا الوعد : يقول : متى يجيئنا هذا الذى تعدنا من العذاب إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به من ذلك . وقيل : هذا الوعد والمعنى الموعود لمعرفة السامعين معناه . وقيل (إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) كأنهم قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به . ومتى فى موضع نصب ، لأن معناه : أى وقت هذا الوعد ، وأىّ يوم هو فهو نصب على الظرف لأنه وقت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾

⁂ يقول تعالى ذكره : لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون عذاب ربهم ماذا لهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار ، وهم فيها كالحون ، فلا يكفون عن وجوههم النار التى تلفحها ، ولا عن ظهورهم فيدفعونها عنها بأنفسهم (وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) يقول : ولا لهم ناصر ينصرهم ، فيستنقذهم حينئذ من عذاب الله لما أقاموا على ماهم عليه مقيمون من الكفر بالله ، ولسارعوا إلى التوبة منه والإيمان بالله ، ولما استعجلوا لأنفسهم البلاء .

(١) فى ابن كثير ، رواية ابن أبى حاتم : « وقبض أصابعه يقللها » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

يقول تعالى ذكره : لاتأتى هذه النار التى تلفح وجوه هؤلاء الكفار الذين وصف أمرهم فى هذه السورة حين تأتيهم عن علم منهم بوقتها ، ولكنها تأتيهم مفاجأة لايشعرون بمجيئها فتبهتهم : يقول : فتغشاهم فجأة ، وتلفح وجوههم معاينة كالرجل يبهت الرجل فى وجهه بالشىء ، حتى يبقى المبهوت كالحيران منه ، (فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها) يقول : فلا يطيقون حين تبغتهم ، فتبهتهم دفعها عن أنفسهم (وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) يقول : ولا هم وإن لم يطيقوا دفعها عن أنفسهم يؤخرون بالعذاب بها لتوبة يحدثونها ، وإنابة ينيبون ، لأنها ليست حين عمل و ساعة توبة وإنابة ، بل هى ساعة مجازاة وإثابة .

القول فى تأويل قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إن يتخذك يامحمد هؤلاء القائلون لك : هل هذا إلا بشر مثلكم ، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ، إذ رأوك هزُوا ويقولون : هذا الذى يذكر آلهتكم كفرا منهم بالله ، واجتراء عليه ، فلقد استهزئ برسل من رسلنا الذين أرسلناهم من قبلك إلى أممهم ، يقول : فوجب ونزل بالذين استهزءوا بهم ، وسخروا منهم من أممهم ما كانوا به يستهزءون : يقول جلّ ثناؤه : حلّ بهم الذى كانوا به يستهزءون من البلاء والعذاب الذى كانت رسلهم تخوّفهم نزوله بهم ، يستهزءون : يقول جلّ ثناؤه ، فلن يعدو هؤلاء المستهزءون بك من هؤلاء الكفرة أن يكونوا كأسلافهم من الأمم المكذّبة رسلها ، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم بك نظير الذى نزل بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يامحمد لهؤلاء المستعجليك بالعذاب ، القائلين : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين : من يكلؤكم أيها القوم : يقول : من يحفظكم ويحرسكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرّفتم من الرحمن ؟ يقول : من أمر الرحمن إن نزل بكم ، ومن عذابه إن حلّ بكم ، وترك ذكر الأمر ، وقيل من الرحمن اجتزاء بمعرفة السامعين لمعناه من ذكره .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس ، فى قوله (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمَنِ) قال : يحرسكم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد، عن قتادة (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ) قل من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن . يقال منه : كلأت القوم : إذا حرستهم أكلؤهم ؛ كما قال ابن هَرْمة :

إِنَّ سُلَيْمَى (وَاللهُ يَكْلَؤُها) ضَنَّتْ بِشَيْءٍ ما كانَ يَرْزَؤُها[1]

قوله (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) وقوله بل : تحقيق لجحد قد عرفه المخاطبون بهذا الكلام ، وإن لم يكن مذكورا فى هذا الموضع ظاهرا ، ومعنى الكلام : وما لهم أن لا يعلموا أنه لا كالئ لهم من أمر الله إذا هو حلّ بهم ليلا أو نهارا ، بل هم عن ذكر مواعظ ربهم وحججه التى احتجّ بها عليهم معرضون لا يتدبرون ذلك ، فلا يعتبرون به ، جهلا منهم وسفها .

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذكره : أهؤلاء المستعجلى ربهم بالعذاب آلهة تمنعهم ، إن نحن أحللنا بهم عذابنا ، وأنزلنا بهم بأسنا من دوننا ، ومعناه : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم منا ، ثم وصف جلّ ثناؤه الآلهة بالضعف والمهانة ، وما هى به من صفتها ، فقال وكيف تستطيع آلهتهم التى يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا وهى لا تستطيع نصر أنفسها ، وقوله (وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بذلك ، وفى معنى يُصْحبون ، فقال بعضهم : عنى بذلك الآلهة ، وأنها لا تصحب من الله بخير .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ) يعنى الآلهة (وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) يقول : لا يصحبون من الله بخير .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولا هم منا ينصرون .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال ثنا أبو ثور ، عن معمر ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) قال : لا ينصرون .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس ، قوله

---

(١) البيت لإبراهيم بن هرمة ، كما قال المؤلف . وقد جاء فى (اللسان : كلأ) غير منسوب . وفيه « يزاد » فى موضع « بشىء » . قال : يقال : كلاك الله كلاءة (بالكسر) حفظك وحرسك . وأنشد : « إن سليمى . . . البيت » . وجملة (والله يكلؤها) اعتراضية للدعاء . ويرزؤها : ينقص منها ويضيرها . يريد : ضنت بشىء هين عليها او بذلته لنا واستشهد المؤلف به على أن معنى يكلأ يحفظ ، كما قال أهل اللغة .

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ؟)إلى قوله (يُصْحَبُونَ) قال : ينصرون ، قال: قال مجاهد : ولا هم يُحْفظون .

حدثنا علىّ ، قال : ثنا أبوصالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس، قوله (وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) يُجارُون ١ .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى، قال : ثنى أبى، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) يقول : ولا هم منا يجارون ، وهوقوله (وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ) يعنى الصاحب ، وهو الإنسان يكون له خفير مما يخاف ، فهو قوله يصحبون .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : هذا القول الذى حكيناه عن ابن عباس وأن (هُمْ) من قوله (وَلا هُمْ) من ذكر الكفار ، وأن قوله (يُصْحَبُونَ) بمعنى : يجارون يصحبون بالجوار ، لأن العرب محكىّ عنها أنا لك جار من فلان وصاحب ، بمعنى : أجيرك وأمنعك ، وهم إذا لم يصحبوا بالجوار ، ولم يكن لهم مانع من عذاب الله مع سخط الله عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذكره : ما لهؤلاء المشركين من آلهة تمنعهم من دوننا ، ولا جار يجيرهم من عذابنا ، إذا نحن أردنا عذابهم ، فاتكلوا على ذلك ، وعصوا رسلنا اتكالا منهم على ذلك ، ولكنا متّعناهم بهذه الحياة الدنيا وآباءهم من قبلهم حتى طال عليهم العمر ، وهم على كفرهم مقيمون ، لاتأتيهم منا واعظة من عذاب ، ولا زاجرة من عقاب على كفرهم وخلافهم أمرنا ، وعبادتهم الأوثان والأصنام ، فنسوا عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا عليهم ، ولم يعرفوا موضع الشكر . وقوله (أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرَافِها) يقول تعالى ذكره : أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله السائلو محمد صلى الله عليه وسلم الآيات المستعجلو بالعذاب ، أنا نأتى الأرض نخرّبها من نواحيها بقهرنا أهلها ، وغلبتناهم ، وإجلائهم عنها، وقتلهم بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ، ويحذروا منا أن ننزل من بأسنا بهم نحو الذى قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف ، وقد تقدم ذكر القائلين بقولنا هذا ومخالفيه ، بالروايات عنهم فى سورة الرعد ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

وقوله (أَفَهُمُ الغالِبُونَ) يقول تبارك وتعالى : أفهؤلاء المشركون المستعجلو محمد بالعذاب

(١) لم يقدم قبل هذا القول الأخير خلاصته ، كعادته التى سار عليها ، قبل ذكر القائلين له . كان يقول : وقال بعضهم : بل معناه يجارون .

الغالبونا ، وقد رأوا قهرنا من أحللنا بساحته بأسنا فى أطراف الأرضين ، ليس ذلك كذلك ، بل نحن الغالبون، وإنما هذا تقريع من الله تعالى لهؤلاء المشركين به بجهلهم يقول: أفيظنون أنهم يغلبون محمدا ويقهرونه ، وقد قهر من ناوأه من أهل أطراف الأرض غيرهم .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (أَفَهُمُ الغالِبُونَ) يقول ليسوا بغالبين ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الغالب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء القائلين فليأتنا بآية كما أرسل الأولون : إنما أنذركم أيها القوم بتنزيل الله الذى يوحيه إلى من عنده ، وأخوّفكم به بأسه .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بالوَحْيِ) أى بهذا القرآن .

وقوله (وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ) اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الأمصار ، ولا يسمع بفتح الياء من (يَسْمَعُ) بمعنى أنه فعل للصمّ ، والصمّ حينئذ مرفوعون . ورُوى عن أبى عبد الرحمن السلمى أنه كان يقرأ (وَلا تُسْمِعُ) بالتاء وضمها ، فالصمّ على هذه القراءة مرفوعة ، لأن قوله (وَلا تُسْمِعُ) لم يسمّ فاعله ، ومعناه على هذه القراءة : ولا يسمع الله الصمّ الدعاء .

قال أبو جعفر : والصواب من القراءة عندنا فى ذلك ما عليه قرّاء الأمصار لإجماع الحجة من القرّاء عليه ، ومعنى ذلك : ولا يصغى الكافر بالله بسمع قلبه إلى تذكر ما فى وحى الله من المواعظ والذكر ، فيتذكر به ويعتبر ، فينزجر عما هو عليه مقيم من ضلاله إذا تُلى عليه وأُريد به ، ولكنه يعرض عن الاعتبار به والتفكر فيه ، فعل الأصمّ الذى لا يسمع ما يقال له فيعمل به .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذَا ما يُنْذَرُونَ) يقول : إن الكافر قد صمّ عن كتاب الله لا يسمعه ، ولا ينتفع به ولا يعقله ، كما يسمعه المؤمن وأهل الإيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذكره : ولئن مست هؤلاء المستعجلين بالعذاب يا محمد نفحة من عذاب ربك ، يعنى بالنفحة النصيب والحظّ ، من قولهم : نفح فلان لفلان من عطائه : إذا أعطاه قسما أو نصيبا من المال .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ) . . . الآية ، يقول : لئن أصابتهم عقوبة .

وقوله (لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمِينَ) يقول : لئن أصابتهم هذه النفحة من عقوبة ربك يامحمد بتكذيبهم بك وكفرهم ، ليعلمنّ حينئذ غبّ تكذيبهم بك ، وليعترفن على أنفسهم بنعمة الله وإحسانه إليهم ، وكفرانهم أياديه عندهم ، وليقولنّ يا ويلنا إنا كنا ظالمين فى عبادتنا الآلهة والأنداد ، وتركنا عبادة الله الذى خلقنا وأنعم علينا ، ووضعنا العبادة غير موضعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره (وَنَضَعُ المَوَازِينَ) العدل وهو (القِسْطَ) وجعل القسط وهو موحد من نعت الموازين ، وهو جمع لأنه فى مذهب عدل ورضا ونظر . وقوله (لِيَوْمِ القِيامَةِ) يقول : لأهل يوم القيامة ، ومن ورد على الله فى ذلك اليوم من خلقه . وقد كان بعض أهل العربية يوجه معنى ذلك إلى « فى » كأن معناه عنده : ونضع الموازين القسط فى يوم القيامة . وقوله (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) يقول : فلا يظلم الله نفسا ممن ورد عليه منهم شيئا بأن يعاقبه بذنب لم يعمله أو يبخسه ثواب عمل عمله ، وطاعة أطاعه بها ، ولكن يجازى المحسن بإحسانه ، ولا يعاقب مسيئا إلا بإساءته .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ) . . . إلى آخر الآية ، وهو كقوله (وَالوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ) يعنى بالوزن : القسط بينهم بالحقّ فى الأعمال الحسنات والسيئات ؛ فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه ، يقول : أذهبت حسناته سيئاته ، ومن أحاطت سيئاته بحسناته فقد خفّت موازينه وأمه هاوية ، يقول : أذهبت سيئاته حسناته .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ) قال : إنما هو مثل ، كما يجوز الوزن كذلك يجوز الحقّ ، قال الثورى : قال ليث عن مجاهد (وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ) قال : العدل .

وقوله (وَإنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتَيْنا بِها) يقول : وإن كان الذى له من عمل الحسنات ، أو عليه من السيئات وزن حبة من خردل أتينا بها : يقول : جئنا بها فأحضرناها إياه .

• كما حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها) قال : كتبناها وأحصيناها له وعليه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها) قال : يؤتى بها لك وعليك ، ثم يعفو إن شاء أو يأخذ ، ويجزى بما عمل له من طاعة . وكان مجاهد يقول فى ذلك ماحدثنى يونس ،قال: أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها) قال: جازينا بها .

حدثنا عمرو بن عبد الحميد ، قال : ثنا سفيان ، عن ليث ، عن مجاهد أنه كان يقول (وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها) قال: جازينا بها ، وقال : أتينا بها ، فأخرج قوله بها مخرج كناية المؤنث ، وإن كان الذى تقدم ذلك قوله مثقال حبة ، لأنه عنى بقوله بها الحبة دون المثقال ، ولو عنى به المثقال لقيل به . وقد ذكر أن مجاهدا إنما تأوّل قوله (أَتَيْنا بِها) على ما ذكرنا عنه ، لأنه كان يقرأ ذلك (آتَيْنا بِها) بمدّ الألف . وقوله (وَكَفَى بِنا حاسِبِينَ) يقول : وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين ، لأنه لاأحد أعلم بأعمالهم ، وما سلف فى الدنا من صالح أو سيئ منا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذكره : ولقد آتينا موسى بن عمران وأخاه هارون الفرقان ، يعنى به الكتاب الذى يفرق بين الحقّ والباطل ، وذلك هو التوراة فى قول بعضهم .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (الفُرْقانَ) قال : الكتاب .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى وَهارُونَ الفُرْقانَ) الفرقان : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق الله به بين الحق والباطل .

وكان ابن زيد يقول فى ذلك ماحدثنى به يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى وَهارُونَ الفُرْقانَ) قال : الفرقان : الحق آتاه الله موسى وهارون ، فرق بينهما وبين فرعون ، قضى بينهم بالحقّ ، وقرأ (وَما أَنْزَلْنا عَلَى عَبْدِنا يَوْمَ الفُرْقانِ) قال : يوم بدر .

قال أبو جعفر : وهذا القول الذى قاله ابن زيد فى ذلك أشبه بظاهر التنزيل ، وذلك لدخول الواو فى الضياء ، ولو كان الفرقان هو التوراة كما قال من قال ذلك ، لكان التنزيل : ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء ، لأن الضياء الذى آتى الله موسى وهارون هو التوراة التى أضاءت لهما ولمن اتبعهما أمر دينهم

فبصرّهم الحلال والحرام ، ولم يقصد بذلك فى هذا الموضع ضياء الإبصار ، وفى دخول الواو فى ذلك دليل على أن الفرقان غير التوراة التى هى ضياء .

فإن قال قائل : وما ينكر أن يكون الضياء من نعت الفرقان ، وإن كانت فيه واو فيكون معناه : وضياء آتيناه ذلك ، كما قال (بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ وَحِفْظًا) ؟ قيل له : إن ذلك وإن كان الكلام يحتمله ، فإن الأغلب من معانيه ما قلنا . والواجب أن يوجه معانى كلام الله إلى الأغلب الأشهر من وجوهها المعروفة عند العرب ما لم يكن بخلاف ذلك مايجب التسليم له من حجة خبر أو عقل .

وقوله (وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ) يقول : وتذكيرا لمن اتقى الله بطاعته وأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، ذكّرهم بما آتى موسى وهارون من التوراة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٤٩)

يقول تعالى ذكره : آتينا موسى وهارون الفرقان : الذكر الذى آتيناهما للمتقين الذين يخافون ربهم بالغيب ، يعنى فى الدنيا أن يعاقبهم فى الآخرة إذا قدموا عليه بتضييعهم ما ألزمهم من فرائضه فهم من خشيته ، يحافظون على حدوده وفرائضه ، وهم من الساعة التى تقوم فيها القيامة مشفقون ، حذرون أن تقوم عليهم ، فيردوا على ربهم قد فرّطوا فى الواجب عليهم لله ، فيعاقبهم من العقوبة بما لاقِبَل لهم به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (٥٠)

يقول جلّ ثناؤه : وهذا القرآن الذى أنزلناه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ذكر لمن تذكر به ، وموعظة لمن اتعظ به (مباركٌ ، أنزلناهُ) كما أنزلنا التوراة إلى موسى وهارون ذكرا للمتقين (أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) يقول تعالى ذكره : أفأنتم أيها القوم لهذا الكتاب الذى أنزلناه إلى محمد منكرون وتقولون (هُوَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، بَلِ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ، فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ) وإنما الذى آتيناه من ذلك ذكر للمتقين ، كالذى آتينا موسى وهارون ذكرا للمتقين .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ) . . . إلى قوله (أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) : أى هذا القرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

* ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥١) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (٥٢)

☼ يقول تعالى ذكره (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ) موسى وهارون ، ووفَّقناه للحقّ ، وأنقذناه من بين قومه وأهل بيته من عبادة الأوثان ، كما فعلنا ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى إبراهيم فأنقذناه من قومه وعشيرته من عبادة الأوثان ، وهديناه إلى سبيل الرشاد توفيقا منا له .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى « ح » وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ) قال : هديناه صغيرا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ) قال : هداه صغيرا .

حدثنا ابن بشار ، قال ، ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ) قال : هداه صغيرا .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيدٌ ، عن قتادة ، قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ) يقول : آتيناه هداه .

وقوله (وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) يقول : وكنا عالمين به أنه ذو يقين وإيمان بالله وتوحيد له ، لايشرك به شيئا (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ) يعنى فى وقت قيله وحين قيله لهم : (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) يقول : قال لهم : أىّ شىء هذه الصور التى أنتم عليها مقيمون ، وكانت تلك التماثيل أصنامهم التى كانوا يعبدونها .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) قال : الأصنام .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله . وقد بيَّنا فيما مضى من كتابنا هذا أن العاكف على الشىء المقيم عليه بشواهد ذلك ، وذكرنا الرواية عن أهل التأويل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۝﴾

☼ يقول تعالى ذكره : قال أبو إبراهيم وقومه لإبراهيم : وجدنا آباءنا لهذه الأوثان عابدين ، فنحن على ملة آبائنا نعبدها كما كانوا يعبدون ، (قَالَ) إبراهيم : (لَقَدْ كُنْتُمْ) أيها القوم (أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) بعبادتكم

إياها (فِى ضَلالٍ مُبِينٍ) يقول : فى ذهاب عن سبيل الحقّ ،وجور عن قصد السبيل مبين :يقول : بين لمن تأمله بعقل ، إنكم كذلك فى جور عن الحقّ (قالُوا أجِئْتَنا بالحَقِّ ؟) يقول : قال أبوه وقومه له : أجئتنا بالحقّ فيما تقول (أمْ أنْتَ) هازل لاعب (مِنَ اللاَّعِبِينَ)

القول في تأويل قوله تعالى :

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

❁ يقول تعالى ذكره : قال إبراهيم لهم : بل جئتكم بالحقّ لااللعب ، ربكم ربّ السموات والأرض الذى خلقهنّ ، وأنا على ذلكم من أن ربكم هو ربّ السموات والأرض الذى فطرهنّ ، دون التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، ودون كلّ أحد سواه شاهد من الشاهدين ، يقول : فإياه فاعبدوا لاهذه التماثيل التى هى خلقه التى لاتضرّ ولا تنفع

القول في تأويل قوله تعالى :

وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

❁ ذكر أن إبراهيم صلوات الله عليه حلف بهذه اليمين فى سرّ من قومه وخفاء ، وأنه لم يسمع ذلك منه إلا الذى أفشاه عليه حين قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، فقالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أصْنامَكُمْ) قال : قول إبراهيم حين استتبعه قومه إلى عيد لهم فأبى وقال : إنى سقيم ، فسمع منه وعيد أصنامهم رجل منهم استأخر ، وهو الذى يقول (سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إبْرَاهِيمُ)

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أصْنامَكُمْ) قال : نرى أنه قال ذلك حيث لم يسمعوه بعد أن تولّوا مدبرين .

وقوله (فَجَعَلَهُمْ جُذاذًا إلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ) اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الأمصار سوى يحيى بن وثاب والأعمش والكسائىّ (فَجَعَلَهُمْ جُذاذًا) ١ بمعنى جمع جذيذ ، كأنهم أرادوا به جمع جذيذ وجذاذ ، كما يجمع الخفيف خفاف ، والكريم كرام .

(١) فى العبارة هنا قصور ، ولعل بها سقطا ، وسيوضحها المؤلف فى كلامه الآتى بعدها . والحاصل أن قراءة عامة القراء « جذاذا » بضم الجيم ، قيل هومفرد كحطام ، وقيل من الجمع العزيز . وقرأ ابن وثاب وجماعة بالكسر ، وهوجذيذ ، ونظيره كريم وكرام .

☆ وأولى القراءتين فى ذلك عندنا بالصواب قراءة من قرأه (جُذَاذًا) بضمّ الجيم ، لإجماع قرّاء الأمصار عليه ، وأن ما أجمعت عليه فهو الصواب ، وهو إذا قرئ كذلك مصدر مثل الرُّفات ، والفُتات ، والدُّقاق لاواحد ، وأما من كسر الجيم فإنه جمع للجذيذ ، والجذيذ : هو فعيل صُرِف من مجذوذ إليه ، مثل كسير ، وهشيم ، والمجذوذة : المكسورة قِطَعا .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا) يقول : حُطاما .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (جُذَاذًا) كالصَّرِيم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا) : أى قطعا .

وكان سبب فعل إبراهيم صلوات الله عليه بآلهة قومه ذلك ، كما حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط عن السدىّ أن إبراهيم قال له أبوه : يا إبراهيم إن لنا عيدا لو قد خرجت معنا إليه قد أعجبك ديننا ، فلما كان يوم العيد ، فخرجوا إليه ، خرج معهم إبراهيم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : إنى سقيم ، يقول : أشتكى رجلى فتواطئوا رجليه وهو صريع ؛ فلما مضوا نادى فى آخرهم ، وقد بقى ضَعَفَى الناس (تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) فسمعوها منه ، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة ، فإذا هنّ فى بهو عظيم ، مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى بعض ، كل صنم يليه أصغر منه ، حتى بلغوا باب البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاما ، فوضعوه بين أيدى الآلهة ، قالوا : إذا كان حين نرجع رجعنا ، وقد باركت الآلهة فى طعامنا ، فأكلنا ؛ فلما نظر إليهم إبراهيم ، وإلى ما بين أيديهم من الطعام (قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) فلما لم تجبه ، قال (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) فأخذ فأس حديد ، فنقر كلّ صنم فى حافتيه ثم علّق الفأس فى عنق الصنم الأكبر ، ثم خرج ؛ فلما جاء القوم إلى طعامهم نظروا إلى آلهتهم (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا ؟ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) .

وقوله (إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ) يقول : إلا عظيما للآلهة ، فإن إبراهيم لم يكسره ، ولكنه فيما ذكر علق الفأس فى عنقه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال اهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ) قال :

قال ابن عباس : إلا عظيما لهم عظيم آلهتهم . قال ابن جُرَيْج ، وقال مجاهد : وجعل إبراهيم الفأس التى أهلك بها أصنامهم مُسْنَدة إلى صدر كبيرهم الذى ترك .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : جعل إبراهيم الفأس التى أهلك بها أصنامهم مسندة إلى صدر كبيرهم الذى ترك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : أقبل عليهنّ كما قال الله تبارك وتعالى (ضَرْبًا باليَمِينِ) ثم جعل يكسرهنّ بفأس فى يده ، حتى إذا بقى أعظم صنم منها ربط الفأس بيده ، ثم تركهنّ ؛ فلما رجع قومه ، رأوا ما صنع بأصنامهم ، فراعهم ذلك وأعظموه وقالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، وقوله (لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) يقول : فعل ذلك إبراهيم بآلهتهم ليعتبروا ويعلموا أنها إذا لم تدفع عن نفسها ما فعل بها إبراهيم ، فهى من أن تدفع عن غيرها من أراده بسوء أبعد ، فيرجعوا عما هم عليه مقيمون من عبادتها إلى ما هو عليه من دينه وتوحيد الله ، والبراءة من الأوثان .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) قال : كادهم بذلك لعلهم يتذكرون أو يبصرون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذكره : قال قوم إبراهيم لما رأوا آلهتهم قد جذّت ، إلا الذى ربط به الفأس إبراهيم : من فعل هذا بآلهتنا ، إن الذى فعل هذا بآلهتنا لمن الظالمين : أى لمن الفاعلين بها مالم يكن له فعله (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) يقول : قال الذين سمعوه يقول (تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) سمعنا فتى يذكرهم بعيب يقال له إبراهيم .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ) قال ابن جُرَيج : يذكرهم يعيبهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قوله (سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) سمعناه يسبها ويعيبها ويستهزئ بها ، لم نسمع أحدا يقول ذلك غيره ، وهو الذى نظن صنع هذا بها .

وقوله (فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) يقول تعالى ذكره : قال قوم إبراهيم

بعضهم لبعض : فأتوا بالذى فعل هذا بآلهتنا الذى سمعتموه يذكرها بعيب ويسبها ويذمها على أعين الناس ، فقيل : معنى ذلك : على رءوس الناس . وقال بعضهم : معناه : بأعين الناس ومرأى منهم ، وقالوا : إنما أريد بذلك أظهروا الذى فعل ذلك للناس كما تقول العرب إذا ظهر الأمر وشهر : كان ذلك على أعين الناس ، يراد به كان بأيدى الناس .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) فقال بعضهم : معناه : لعلّ الناس يشهدون عليه ، أنه الذى فعل ذلك ، فتكون شهادتهم عليه حجة لنا عليه ، وقالوا : إنما فعلوا ذلك لأنهم كرهوا أن يأخذوه بغير بينة .

ذكر من قال ذلك

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ (قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) عليه أنه فعل ذلك .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) قال : كرهوا أن يأخذوه بغير بيِّنة .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : لعلهم يشهدون ما يعاقبونه به ، فيعاينونه ويرونه .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : بلغ ما فعل إبراهيم بآلهة قومه نمرود ، وأشراف قومه ، فقالوا (فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) : أى ما يُصنع به ، وأظهر معنى ذلك أنهم قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عقوبتنا إياه ، لأنه لو أريد بذلك ليشهدوا عليه بفعله كان يقال : انظروا من شهده يفعل ذلك ، ولم يقل : أحضروه بمجمع من الناس .

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذكره : فأتوا بابراهيم ، فلما أتوا به قالوا له : أأنت فعلت هذا بآلهتنا من الكسر بها يا إبراهيم ؟ فأجابهم إبراهيم : بل فعله كبيرهم هذا وعظيمهم ، فاسألوا الآلهة من فعل بها ذلك وكسرها إن كانت تنطق ، أو تعبر عن نفسها .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : لما أُتى به واجتمع له قومه عند ملكهم نمرود

(قالُوا أأنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنا يا إبْراهِيمُ ؟ قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ، فاسْئَلُوهُمْ إنْ كانُوا يَنْطِقُونَ) غضب من أن يعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها ، فكسرهن .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) . . . الآية ، وهى هذه الخصلة التى كادهم بها .

وقد زعم بعض من لايصدّق بالآثار ، ولا يقبل من الأخبار إلا ما استفاض به النقل من العوامّ ، أن معنى قوله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) إنما هو : بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم ، أى إن كانت الآلهة المكسورة تنطق ، فإن كبيرهم هو الذى كسرهم . وهذا قول خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كَذَبات ، كلها فى الله : قوله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) ، وقوله (إنّى سَقِيمٌ) ، وقوله لسارة : هى أختى ؛ وغير مستحيل أن يكون الله تعالى ذكْره أذِن لخليله فى ذلك ، ليقرِّع قومه به ، ويحتجّ به عليهم ، ويعرّفهم موضع خطئهم ، وسوء نظرهم لأنفسهم ، كما قال مؤذّن يوسف لإخوته (أيَّتُها العيرُ إنَّكُمْ لَسارِقُونَ) ولم يكونوا سرقوا شيئا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى ذكره : فذكروا حين قال لهم إبراهيم صلوات الله عليه (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ، فاسْئَلُوهُمْ إنْ كانُوا يَنْطِقُونَ) فى أنفسهم ، ورجعوا إلى عقولهم ، ونظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا إنكم معشر القوم الظالمون هذا الرجل فى مسألتكم إياه ، وقيلكم له : من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ وهذه آلهتكم التى فعل بها ما فعل حاضرتكم فاسألوها .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق (فَرَجَعُوا إلى أنْفُسِهِمْ فَقالُوا إنَّكُمْ أنْتُمُ الظّالِمُونَ) قال : ارعوَوْا ورجعوا عنه ، يعنى عن إبراهيم ، فيما ادّعوا عليه من كسرهنّ ، إلى أنفسهم فيما بينهم ، فقالوا : لقد ظلمناه ، وما نراه إلا كما قال .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (فَرَجَعُوا إلى أنْفُسِهِمْ) قال : نظر بعضهم إلى بعض (فَقالُوا إنَّكُمْ أنْتُمُ الظّالِمُونَ) .

وقوله (ثُمَّ نُكِسُوا على رُءُوسِهِمْ) يقول جلّ ثناؤه : ثم غُلِبوا فى الحجة ، فاحتجوا على إبراهيم بما هو حجة لإبراهيم عليهم ، فقالوا : لقد علمت ما هؤلاء الأصنام ينطقون .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثم قالوا : يعنى قوم إبراهيم ، وعرفوا

أنها، يعنى آلهتهم لاتضرّ ولا تنفع ولاتبطش (لَقَدْ عَلِمْتَ ما هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ): أى لاتتكلم فتخبرنا من صنع هذا بها، وما تبطش بالأيدى فنصدّقك. يقول الله (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ) فى الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم، فقال عند ذلك إبراهيم حين ظهرت الحجة عليهم بقولهم (لَقَدْ عَلِمْتَ ما هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ).

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة قال الله (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ) أدركت الناسَ حَيْرة سَوْء.

وقال آخرون: معنى ذلك: ثم نُكِسوا فى الفتنة.

ذكر من قال ذلك

حدثنى موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السّدىّ (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ) قال نكسوا فى الفتنة على رءوسهم، فقالوا: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون.

وقال بعض أهل العربية: معنى ذلك: ثم رجعوا عما عرفوا من حجة إبراهيم، فقالوا: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون.

وإنما اخترنا القول الذى قلنا فى معنى ذلك، لأن نَكْس الشىء على رأسه: قلبه على رأسه، وتصيير أعلاه أسفله، ومعلوم أن القوم لم يُقْلبوا على رءوس أنفسهم، وأنهم إنما نُكست حجتهم، فأقيم الخبر عنهم، مقام الخبر عن حجتهم، وإذ كان ذلك كذلك، فنَكْس الحجة لاشك، إنما هو احتجاج المحتجّ على خصمه، بما هو حجة لخصمه. وأما قول السدىّ: ثم نكسوا فى الفتنة، فإنهم لم يكونوا خرجوا من الفتنة قبل ذلك، فنكسوا فيها. وأما قول من قال من أهل العربية ما ذكرنا عنه، فقول بعيد من الفهوم، لأنهم لو كانوا رجعوا عما عرفوا من حجة إبراهيم، ما احتجوا عليه بما هو حجة له، بل كانوا يقولون له: لاتسألهم، ولكن نسألك فأخبرنا مَنْ فعل ذلك بها، وقد سمعنا أنك فعلت ذلك، ولكن صدقوا القول (فَقالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ) وليس ذلك رجوعا عما كانوا عرفوا، بل هو إقرار به.

القول فى تأويل قوله تعالى:

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لقومه: أفتعبدون أيها القوم ما لاينفعكم شيئا ولا يضرّكم، وأنتم قد علمتم أنها لم تمنع نفسها ممن أرادها بسوء، ولا هى تقدر أن تنطق إن سئلت عمن يأتيها بسوء، فتخبر به، أفلا تستحيون من عبادة ما كان هكذا.

كما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق (قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ

شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ) . . . الآية ، يقول يرحمه الله : ألا ترون أنهم لم يدفعوا عن أنفسهم الضرّ الذى أصابهم ، وأنهم لاينطقون فيخبرونكم من صَنَع ذلك بهم ، فكيف ينفعونكم أو يضرّون .

وقوله (أُفٍّ لَكُمْ) يقول : قُبحا لكم وللآلهة التى تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون قبح ماتفعلون من عبادتكم ما لايضرّ ولا ينفع ، فتتركوا عبادته ، وتعبدوا الله الذى فطر السموات والأرض ، والذى بيده النفع والضرّ .

القول في تأويل قوله تعالى :

قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذكره : قال بعض قوم إبراهيم لبعض : حرّقوا إبراهيم بالنار (وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ) يقول : إن كنتم ناصريها ، ولم تريدوا ترك عبادتها :

وقيل : إن الذى قال ذلك : رجل من أكراد فارس .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن ليث ، عن مجاهد ، فى قوله (حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ) قال : قالها رجل من أعراب فارس ، يعنى الأكراد .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : أخبرنى وهب بن سليمان ، عن شعيب الجبئى ، قال : إن الذى قال حرّقوه « هيزن » فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : أجمع نمرود وقومه فى إبراهيم فقالوا : (حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ) : أى لاتنصروها منه إلا بالتحريق بالنار إن كنتم ناصريها .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن دينار ، عن ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد ، قال : تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر ، فقال : أتدرى يا مجاهد من الذى أشار بتحريق إبراهيم بالنار ؟ قال : قلت لا ، قال : رجل من أعراب فارس ، قلت : يا أبا عبد الرحمن ، أوَ هل للفرس أعراب ؟ قال : نعم الكرد هم أعراب فارس ، فرجل منهم هو الذى أشار بتحريق إبراهيم بالنار .

وقوله (قُلْنا يا نارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلاما عَلَى إِبْراهِيمَ) فى الكلام متروك اجتزئ بدلالة ماذكر عليه منه ، وهو : فأوقدوا له نارا ليحرّقوه ثم ألقوه فيها ، فقلنا للنار : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم

وذُكر أنهم لما أرادوا إحراقه بنوا له بنيانا ؛ كما حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال (قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيانًا فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ) قال : فحبسوه فى بيت ، وجمعوا له حطبا ، حتى

إن كانت المرأة لتمرض فتقول : لئن عافانى الله لأجمعنّ حطبا لإبراهيم ؛ فلما جمعوا له ، وأكثروا من الحطب[١] حتى إن الطير لتمرّ بها فتحترق من شدّة وهجها ، فعمدوا إليه فرفعوه على رأس البنيان ، فرفع إبراهيم صلى الله عليه وسلم رأسه إلى السماء ، فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة : ربنا ، إبراهيم يحرق فيك ، فقال : أنا أعلم به ، وإن دعاكم فأغيثوه ؛ وقال إبراهيم حين رفع رأسه إلى السماء: اللهمّ أنت الواحد فى السماء ، وأنا الواحد فى الأرض ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى ، حسبى الله ونعم الوكيل ، فقذفوه فى النار ، فناداها فقال (يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاما على إبْرَاهِيمَ) فكان جبريل عليه السلام هو الذى ناداها.

وقال ابن عباس : لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من شدّة بردها ، فلم يبق يومئذ نار فى الأرض إلا طفئت ، ظنت أنها هى تعنى ؛ فلما طُفئت النار نظروا إلى إبراهيم ، فإذا هو رجل آخر معه ، وإذا رأس إبراهيم فى حجره يمسح عن وجهه العرق ، وذكر أن ذلك الرجل هو ملك الظلّ ، وأنزل الله نارا فانتفع بها بنو آدم ، وأخرجوا إبراهيم ، فأدخلوه على الملك ، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه .

حدثنى إبراهيم بن المقدام أبو الأشعث ، قال : ثنا المعتمر ، قال : سمعت أبى ، قال : ثنا قتادة ، عن أبى سليمان ، عن كعب : قال : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاما عَلَى إبْرَاهِيمَ) قال : ذُكر لنا أن كعبا كان يقول : ما انتفع بها يومئذ أحد من الناس ، وكان كعب يقول : ما أحرقت النار يومئذ إلا وثاقه .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن شيخ ، عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى قوله (يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاما عَلَى إبْرَاهِيمَ) قال : بردت عليه حتى كادت تقتله ، حتى قيل : وسلاما ، قال : لاتضرّيه .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح ، قال : أخبرنا إسماعيل ، عن المنهال بن عمرو ، قال : قال إبراهيم خليل الله : ما كنت أياما قطّ أنعم منى من الأيام التى كنت فيها فى النار .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب ، عن جعفر ، عن سعيد ، قال : لمَّا ألقى إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فى النار ، قال الملك خازن المطر : ربّ خليلك إبراهيم ، رجا أن يؤذن له فيرسل المطر ، قال : فكان أمر الله أسرع من ذلك فقال (يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاما عَلَى إبْرَاهِيمَ) فلم يبق فى الأرض نار إلا طُفئت.

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن الحرث ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة ، قال : إن أحسن شىء قاله أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو فى النار ، وجده يرشح جبينه ، فقال عند ذلك : نعم الربّ ربك يا إبراهيم .

---

(١) سقطت من هذا الخبر عبارة ذكر نحوها الثعلبى المفسر فى عرائس المجالس ، وهى : أشعلوا النار فى كل ناحية بالحطب ، فاشتعلت النار ، حتى إن كان الطير ليمر بها فيحترق . . . الخ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ،عن ابن جريج ، قال : أخبرنى وهب بن سليمان عن شعيب الجَبَئِيّ ، قال : ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ستّ عشرة سنة ، وذبح إسحاق وهو ابن سبع سنين ، وولدته سارّة وهى ابنة تسعين سنة ، وكان مذبحه من بيت إيلياء على ميلين ، ولما علمت سارّة بما أراد بإسحاق بُطِنت يومين ، وماتت اليوم الثالث. قال ابن جُرَيج : قال كعب الأحبار : ما أحرقت النار من إبراهيم شيئا غير وثاقه الذى أوثقوه به .

حدثنا الحسن ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا معتمر بن سليمان التيمى ، عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم عليهما السلام وهو يوثق أويقمّط ليلقى فى النار ، قال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أمّا إليك فلا .

قال : ثنا معتمر ، قال : ثنا ابن كعب ، عن أرقم أن إبراهيم قال حين جعلوا يوثقونه ليلقوه فى النار : لاإله إلا أنت سبحانك ربّ العالمين ، لك الحمد ، ولك الملك لاشريك لك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، فى قوله (قُلْنَا يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَاما عَلَى إِبْرَاهِيمَ) قال : السلام لايؤذيه بردها ، ولولا أنه قال : وسلاما لكان البرد أشدّ عليه من الحرّ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قوله (بَرْدًا) قال : بردت عليه (وَسَلَاما) لاتؤذيه .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (قُلْنَا يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَاما عَلَى إِبْرَاهِيم) قال : قال كعب : ما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار ، ولا أحرقت النار يومئذ شيئا إلا وثاق إبراهيم .

وقال قتادة : لم تأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار ، إلا الوزغ .

وقال الزهرى : أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتله ، وسماه فُوَيسقا .

وقوله (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا) يقول تعالى ذكره : وأرادوا بإبراهيم كيدا (فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ) يعنى الهالكين .

وقد حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ) قال : ألقوا شيخا منهم فى النار لأن يصيبوا نجاته ، كما نجى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فاحترق .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

يقول تعالى ذكره : ونجينا إبراهيم ولوطا من أعدائهما ، نمرود وقومه من أرض العراق (إلى الأرضِ

التى باركنا فيها للعالمين) وهى أرض الشأم ، فارق صلوات الله عليه قومه ودينهم ، وهاجر إلى الشأم .

وهذه القصة التى قص الله من نبأ إبراهيم وقومه تذكير منه بها قوم محمد صلى الله عليه وسلم من قريش أنهم قد سلكوا فى عبادتهم الأوثان ، وأذاهم محمدا على نهيه عن عبادتها ، ودعائهم إلى عبادة الله مخلصين له الدين ، مسلك أعداء أبيهم إبراهيم ، ومخالفتهم دينه ، وأن محمدا فى براءته من عبادتها ، وإخلاصه العبادة لله ، وفى دعائهم إلى البراءة من الأصنام ، وفى الصبر على ما يلقى منهم فى ذلك سالك منهاج أبيه إبراهيم ، وأنه مخرجه من بين أظهرهم ، كما أخرج إبراهيم من بين أظهر قومه حين تمادوا فى غيهم إلى مهاجره من أرض الشأم ، ومسل بذلك نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عما يلقى من قومه من المكروه والأذى ، ومعلمه أنه منجيه منهم كما نجى أباه إبراهيم من كفرة قومه .

وقد اختلف أهل التأويل فى الأرض التى ذكر الله أنه نجى إبراهيم ولوطا إليها ، ووصفه أنه بارك فيها للعالمين . فقال بعضهم بنحو الذى قلنا فى ذلك .

ذكر من قال ذلك

حدثنا الحسين بن حريث المروزى أبو عمار ، قال : ثنا الفضل بن موسى ، عن الحسين بن واقد ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) قال : الشأم ، وما من ماء عذب إلا خرج من تلك الصخرة التى ببيت المقدس .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن فرات القزاز ، عن الحسن ، فى قوله (إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا) قال : الشام .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) كانا بأرض العراق ، فأنجيا إلى أرض الشام ، وكان يقال للشأم عماد دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد فى الشأم ، وما نقص من الشأم زيد فى فلسطين ، وكان يقال : هى أرض المحشر والمنشر . وبها مجمع الناس ، وبها ينزل عيسى بن مريم ، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال .

وحدثنا أبو قلابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ حَمَلَتْ عَمُودَ الْكِتَابِ فَوَضَعَتْهُ بِالشَّأْمِ ، فَأَوَّلْتُهُ أَنَّ الْفِتَنَ إِذَا وَقَعَتْ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالشَّأْمِ » .

وذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم فى خطبه : « إِنَّهُ كَائِنٌ بِالشَّأْمِ جُنْدٌ ، وَبِالْعِرَاقِ جُنْدٌ ، وَبِالْيَمَنِ جُنْدٌ » ، فقال رجل : يا رسول الله خر لى ، فقال : عَلَيْكَ بِالشَّأْمِ فَإِنَّ اللهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِى بِالشَّأْمِ وَأَهْلِهِ ، فَمَنْ أَبَى فَلْيَلْحَقْ بِأَمْنِهِ وَلْيَسْقِ بِغُدُرِهِ » .

وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : يا كعب ألا تحول إلى المدينة فانها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضع قبره ، فقال له كعب : يا أمير المؤمنين ، إنى أجد فى كتاب الله المنزل ، أن الشام كنز الله من أرضه ، وبها كنزه من عباده .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إلى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) قال : هاجرا جميعا من كُوثَى إلى الشام .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ،قال : انطلق إبراهيم ولوط قِبَل الشأم ، فلقى إبراهيم سارّة ، وهى بنت ملك حَرّان، وقد طعنت على قومها فى دينهم ، فتزوّجها على أن لايغيرها ¹

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : خرج إبراهيم مهاجرا إلى ربه ، وخرج معه لوط مهاجرا ، وتزوّج سارّة ابنة عمه ، فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه ، والأمان على عبادة ربه ، حتى نزل حرّان ، فمكث فيها ما شاء الله أن يمكث ، ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ، ثم خرج من مصر إلى الشام ، فنزل السبع من أرض فلسطين ، وهى بريّة الشام ، ونزل لوط بالمؤتفكة ، وهى من السبع على مسيرة يوم وليلة ، أو أقرب من ذلك ، فبعثه الله نبيا صلى الله عليه وسلم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قوله (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إلى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) قال : نجاه من أرض العراق إلى أرض الشام

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى جعفر الرازىّ ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، أنه قال فى هذه الآية (بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) قال : ليس ماء عذب إلا يهبط إلى الصخرة التى ببيت المقدس ، قال : ثم يتفرّق فى الأرض .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إلى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) قال : إلى الشأم .

وقال آخرون : بل يعنى مكة وهى الأرض التى قال الله تعالى (الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس، قوله (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إلى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) يعنى مكة ، ونزول إسماعيل البيت . ألا ترى أنه يقول (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ) .

❊ قال أبوجعفر : وإنما اخترنا ما اخترنا من القول فى ذلك لأنه لاخلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام ، وبها كان مُقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة ، وبنى بها البيت ، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر ، غير أنه لم يُقِيم بها،ولم يتخذها وطنا لنفسه ، ولا لوط ، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .

(١) فى ابن كثير : على أن يفر بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : ووهبنا لإبراهيم إسحاق ولدا . ويعقوب ولد ولده : نافلة لك .

واختلف أهل التأويل في المعنىّ بقوله (نَافِلَةً) فقال بعضهم : عنى به يعقوب خاصة .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس : قوله (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) يقول : ووهبنا له إسحاق ولدا ، ويعقوب ابن ابن نافلة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة . قوله (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) والنافلة : ابن ابنه يعقوب .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) قال : سأل واحدا فقال : ربّ هب لي من الصالحين ، فأعطاه واحدا ، وزاده يعقوب ، ويعقوب ولد ولده .

وقال آخرون : بل عني بذلك إسحاق ويعقوب . قالوا : وإنما معنى النافلة : العطية . وهما جميعا من عطاء الله أعطاهما إياه .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء ، في قوله (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) قال : عطية .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قوله (إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) قال : عطاء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

قال أبو جعفر : وقد بينا فيما مضى قبل ، أن النافلة : الفضل من الشيء ، يصير إلى الرجل ، من أيّ شيء كان ذلك ، وكلا ولديه إسحاق ويعقوب كان فضلا من الله تفضل به على إبراهيم ، وهبة منه له . وجائز أن يكون عنى به أنه آتاهما إياه جميعا ، نافلة منه له ، وأن يكون عنى أنه آتاه نافلة يعقوب ، ولا برهان يدلّ على أيّ ذلك المراد من الكلام ، فلا شيء أولى أن يقال في ذلك مما قال الله . ووهب الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب نافلة .

وقوله (وَكُلا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) يعني عاملين بطاعة الله ، مجتنبين محارمه ، وعنى بقوله (كُلا) :

إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب . وقوله (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) يقول تعالى ذكره : وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أئمة يؤتم بهم فى الخير فى طاعة الله فى اتباع أمره ونهيه ، ويقتدى بهم ، ويُتَّبعون عليه .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) جعلهم الله أئمة يُقتدى بهم فى أمر الله وقوله (يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) يقول : يهدون الناس بأمر الله إياهم بذلك ، ويدعونهم إلى الله وإلى عبادته . وقوله (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) يقول تعالى ذكره : وأوحينا فيما أوحينا أن افعلوا الخيرات ، وأقيموا الصلاة بأمرنا بذلك (وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) يقول : كانوا لنا خاشعين ، لايستكبرون عن طاعتنا وعبادتنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذكره : وآتينا لوطا حكما ، وهو فصل القضاء بين الخصوم ، وعلما : يقول : وآتيناه أيضا علما بأمر دينه ، وما يجب عليه لله من فرائضه .

وفى نصب لوط وجهان : أن ينصب لتعلق الواو بالفعل كما قلنا : وآتينا لوطا ، والآخر بمضمر بمعنى : واذكر لوطا .

وقوله (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ) يقول : ونجيناه من عذابنا الذى أحللناه بأهل القرية التى كانت تعمل الخبائث ، وهى قرية سَدُوم التى كان لوط بعث إلى أهلها ، وكانت الخبائث التى يعملونها : إتيانَ الذكران فى أدبارهم ، وخَذْفهم الناس ، وتضارطهم فى أنديتهم ، مع أشياء أُخَرَ كانوا يعملونها من المُنكر ، فأخرجه الله حين أراد إهلاكهم إلى الشام .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : أخرجهم الله ، يعنى لوطا وابنتيه زيثا وزعرثا إلى الشام حين أراد إهلاك قومه .

وقوله (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ) مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته ومايرضى من العمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ذكره : وأدخلنا لوطا فى رحمتنا بإنجائنا إياه مما أحللنا بقومه من العذاب والبلاء ، وإنقاذناه منه إنه من الصالحين : يقول : إن لوطا من الذين كانوا يعملون بطاعتنا ، وينتهون إلى أمرنا ونهينا ولايعصوننا

وكان ابن زيد يقول فى معنى قوله (وأدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَا) ما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وأدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَا) قال : فى الإسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذكره : واذكر يا محمد نوحا إذ نادى ربه من قبلك ، ومن قبل إبراهيم ولوط ، وسألنا أن نهلك قومه الذين كذّبوا الله فيما توعدهم به من وعيده ، وكذّبوا نوحا فيما أتاهم به من الحقّ من عند ربه ، (وَقَالَ رَبِّ لاتَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيَّارًا) فاستجبنا له دعاءه ، ونجّيناه وأهله : يعنى بأهله : أهل الإيمان من ولده وحلائلهم (مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ) يعنى بالكرب العظيم : العذاب الذى أُحلّ بالمكذّبين من الطوفان والغرق . والكرب : شدّة الغمّ ، يقال منه : قد كربنى هذا الأمر فهو يكربُنى كربا . وقوله (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا) يقول : ونصرنا نوحا على القوم الذين كذّبوا بحججنا وأدلتنا ، فأنجيناه منهم ، فأغرقناهم أجمعين ، إنهم كانوا قوم سوء ، يقول تعالى ذكره إن قوم نوح الذين كذّبوا بآياتنا كانوا قوم سوء ، يسيئون الأعمال ، فيعصون الله ويخالفون أمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكر داود وسليمان يامحمد إذ يحكمان فى الحرث . واختلف أهل التأويل فى ذلك الحرث ما كان ؟ فقال بعضهم : كان نبتا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن إسحاق ، عن مرّة فى قوله (إذْ يَحْكُمانِ فِى الحَرْثِ) قال : كان الحرث نبتا .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد عن قتادة ، قال : ذُكر لنا أن غنم القوم وقعت فى زرع ليلا .

وقال آخرون : بل كان ذلك الحرث كَرْما .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا المحاربىّ ، عن أشعث ، عن أبى إسحاق ، عن مرّة ، عن ابن مسعود ، فى قوله (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِى الحَرْثِ) قال : كَرْمٌ قد أنبت عناقيده .

حدثنا تميم بن المنتصر ، قال : أخبرنا إسحاق ، عن شريك ، عن أبى إسحاق ، عن مسروق ، عن شريح ، قال : كان الحرث كرما .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ما قال الله تبارك وتعالى (إِذْ يَحْكُمانِ فِى الحَرْثِ) والحرث : إنما هو حرث الأرض . وجائز أن يكون ذلك كان زرعا ، وجائز أن يكون غرسا ، وغير ضائر الجهل بأىّ ذلك كان .

وقوله (إِذْ نَفَشَتْ [1] فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ) يقول : حين دخلت فى هذا الحرث غنم القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلا ، فرعته أو أفسدته (وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ) يقول : وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدت غنم أهل الغنم من حرث أهل الحرث ، شاهدين لا يخفى علينا منه شىء ، ولا يغيب عنا علمه وقوله (فَفَهَّمْناها) يقول : ففهمنا القضية فى ذلك (سُلَيْمانَ) دون داود ، (وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً) يقول : وكلهم من داود وسليمان والرسل الذين ذكرهم فى أوّل هذه السورة آتينا حكما وهو النبوة ، وعلما : يعنى وعلما بأحكام الله .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الأصمّ قالا : ثنا المحاربىّ ، عن أشعث ، عن أبى إسحاق ، عن مرّة ، عن ابن مسعود ، فى قوله (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِى الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ) قال : كرم قد أنبت عناقيده فأفسدته ، قال : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان غير هذا يا نبىّ الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتُدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا كان الكرم كما كان دَفعت إلى الكرم صاحبه ، ودَفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله (فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ)

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِى الحَرْثِ) . . . إلى قوله (وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ) يقول : كنا لما حكما شاهدين . وذلك أن رجلين دخلا على داود ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن هذا أرسل غنمه فى حرثى ، فلم يُبق من حرثى شيئا ، فقال له داود : اذهب فإن الغنم كلها لك ، فقضى بذلك داود ، ومرّ صاحب الغنم بسليمان ، فأخبره بالذى قضى به داود ، فدخل سليمان على داود فقال : يا نبىّ الله إن القضاء سوى الذى قضيت ، فقال : كيف ؟ قال

(١) نفشت الماشية فى الزرع : تفرقت فيه ليلا ترعاه وليس معها راع . والفعل : من باب نصر وضرب وفرح .

سليمان : إن الحرث لايخفى على صاحبه ما يخرج منه فى كل عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفى ثمن الحرث ،فإن الغنم لها نسل فى كلّ عام ، فقال داود: قد أصبت . القضاء كما قضيت ، ففهّمها الله سليمان .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيْج ، عن علىّ بن زيد ، قال: ثنى خليفة ، عن ابن عباس قال : قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث ، فخرج الرُّعاة معهم الكلاب، فقال سليمان : كيف قضى بينكم ؟ فأخبروه ، فقال : لو وافيت أمركم لقضيت بغير هذا ،فأُخبر بذلك داود ، فدعاه فقال ; كيف تقضى بينهم ؟ قال : أدفع الغنم إلى أصحاب الحرث ، فيكون لهم أولادها وألبانها وسِلاؤها ومنافعها ،ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم ، فإذا بلغ الحرث الذى كان عليه ، أخذ أصحاب الحرث الحرث ، وردّوا الغنم إلى أصحابها

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، قال : ثنا ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : فى قول الله (إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) قال : أعطاهم داود رقاب الغنم بالحرث ،وحكم سليمان بجِزَّة الغنم وألبانها لأهل الحرث ، وعليهم رعايتها على أهل الحرث ، ويحرث لهم أهل الغنم حتى يكون الحرث كهيئته يوم أُكل ، ثم يدفعونه إلى أهله ، ويأخذون غنمهم .

حدثنى الحارث، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنى ورقاء ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين، قال : ثنى حجاج بنحوه ، إلا أنه قال : وعليهم رعيها .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن إسحاق ، عن مرّة فى قوله (إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) قال : كان الحرث نبتا ، فنفشت فيه ليلا ، فاختصموا فيه إلى داود ، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث ، فمرّوا على سليمان ،فذكروا ذلك له،فقال : لا ، تُدفع الغنم فيصيبون منها ، يعنى أصحاب الحرث ،ويقوم هؤلاء على حرثهم ،فإذا كان كما كان ردّوا عليهم،فنزلت (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ)

حدثنا تميم بن المنتصر ، قال : أخبرنا إسحاق ، عن شريك ، عن أبى إسحاق ، عن مسروق ، عن شريح ، فى قوله (إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) قال : كان النفش ليلا ، وكان الحرث كرما ، قال : فجعل داود الغنم لصاحب الكرم ، قال : فقال سليمان : إن صاحب الكرم قد بنى له أصل أرضه ، وأصل كرمه ، فاجعل له أصوافها وألبانها ، قال : فهو قول الله (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) .

حدثنا ابن أبى زياد ، قال : ثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا إسماعيل ، عن عامر ، قال : جاء رجلان إلى شُرَيح ، فقال أحدهما : إن شياه هذا قطعت غَزْلاً لى ، فقال شريح : نهارا أم ليلا ؟ قال : إن كان نهارا فقد برئ صاحب الشياه ، وإن كان ليلا فقد ضمن ، ثم قرأ (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) قال : كان النفش ليلا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، قال : ثنا إسماعيل بن أبى خالد ، عن عامر ، عن شريح بنحوه .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبىّ ، عن شريح ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إذْ يَحْكُمان فِي الحَرْثِ) . . . الآية ، النفْش بالليل ، والهَمَل بالنهار . وذُكر لنا أن غنم القوم وقعت فى زرع ليلا ، فرُفع ذلك إلى داود ، فقضى بالغنم لأصحاب الزرع ، فقال سليمان : ليس كذلك ، ولكن له نسلها وَرِسْلها وعوارضها وجُزازها ، حتى إذا كان من العام المقبل كهيئته يوم أكل ، دفعت الغنم إلى ربها ، وقبض صاحب الزرع زرعه ، فقال الله (فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ) .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة والزهرى (إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ) قال : نفشت غنم فى حرث قوم . قال الزهرى : والنفش لا يكون إلا ليلا ، فقضى داود أن يأخذ الغنم ، ففهمها الله سليمان ؛ قال : فلما أخبر بقضاء داود ، قال : لا ، ولكن خذوا الغنم ، ولكم ما خرج من رسلها وأولادها وأصوافها إلى الحول .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، فى قوله (إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ) قال : فى حرث قوم . قال معمر : قال الزهرى : النفش لا يكون إلا بالليل ، والهمل بالنهار . قال قتادة : فقضى أن يأخذوا الغنم ، ففهمها الله سليمان ، ثم ذكر باقى الحديث نحو حديث ابن عبد الأعلى .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إذْ يَحْكُمان فِي الحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ) . . . الآيتين ، قال : انفلت غنم رجل على حرث رجل فأكلته ، فجاء إلى داود ، فقضى فيها بالغنم لصاحب الحرث بما أكلت ، وكأنه رأى أنه وجه ذلك ، فمرّوا بسليمان ، فقال : ماقضى بينكم نبيّ الله ؟ فأخبروه ، فقال : ألا أقضى بينكما عسى أن ترضيا به ؟ فقالا : نعم ، فقال : أما أنت ياصاحب الحرث ، فخذ غنم هذا الرجل فكن فيها كما كان صاحبها ، أصب من لبنها وعارضتها وكذا وكذا ما كان يصيب ، واحرث أنت ياصاحب الغنم حرث هذا الرجل ، حتى إذا كان حرثه مثله ليلة نفشت فيه غنمك ، فأعطه حرثه ، وخذ غنمك ، فذلك قول الله تبارك وتعالى (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إذْ يَحْكُمان فِي الحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ) وقرأ حتى بلغ قوله (وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس ، فى قوله (إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ) قال : رعت .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : النفش : الرعية تحت الليل .

قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن الزهرى ، عن حرام بن محيصة بن مسعود ، قال : «دخلت ناقة للبراء بن عازب حائطا لبعض الأنصار فأفسدته ، فرُفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : (إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ) فقضى على البراء بما أفسدته الناقة ، وقال على أصحاب الماشية حفظُ الماشية بالليل ، وعلى أصحاب الحوائط حفظُ حيطانهم بالنهار »

قال الزهرى : وكان قضاء داود وسليمان فى ذلك أن رجلا دخلت ماشيته زرعا لرجل فأفسدته ، ولا

يكون النفوش إلا بالليل ، فارتفعا إلى داود ، فقضى بغنم صاحب الغنم لصاحب الزرع ؛ فانصرفا ، فمرّا بسليمان . فقال : بماذا قضى بينكما نبيّ الله ؟ فقالا : قضى بالغنم لصاحب الزرع ؛ فقال : إن الحكم لعلى غير هذا . انصرفا معي . فأتى أباه داود . فقال : يا نبيّ الله ؛ قضيت على هذا بغنمه لصاحب الزرع ؛ قال نعم . قال : يا نبيّ الله ؛ إن الحكم لعلى غير هذا . قال : وكيف يا بنيّ ؟ قال : تدفع الغنم إلى صاحب الزرع . فيصيب من ألبانها وسمونها وأصوافها . وتدفع الزرع إلى صاحب الغنم يقوم عليه ؛ فإذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته الغنم عليها . رُدّت الغنم على صاحب الغنم ؛ وردّ الزرع إلى صاحب الزرع ، فقال داود : لايقطع الله فمك . فقضى بما قضى سليمان ، قال الزهريّ : فذلك قوله (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ) . . . إلى قوله (حُكْمًا وَعِلْمًا) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، وعليّ بن مجاهد ، عن محمد بن إسحاق ، قال : فحدثني من سمع الحسن يقول : كان الحكم بما قضى به سليمان ، ولم يعنّف الله داود في حكمه .

وقوله (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ) يقول تعالى ذكره : وسخرنا مع داود الجبال والطير ، يسبحن معه إذا سبح .

وكان قتادة يقول في معنى قوله (يُسَبِّحْنَ) في هذا الموضع ما حدثنا به بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ) : أى يصلين مع داود إذا صلى .

وقوله (وَكُنَّا فَاعِلِينَ) يقول : وكنا قد قضينا أنا فاعلو ذلك ، ومسخرو الجبال والطير في أمّ الكتاب ، مع داود عليه الصلاة والسلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى ذكره : وعلمنا داود صنعة لَبوس لكم ، واللَّبوس عند العرب : السلاح كله . درعا كان أو جوشنا أو سيفا أو رمحا . يدلّ على ذلك قول الهُذليّ :

وَمَعِي لَبُوسٌ لِلْبَئِيسِ كَأَنَّهُ رَوْقٌ بِجَبْهَةِ ذِي نِعاجٍ مُجْفِلِ

وإنما يصف بذلك رمحا . وأما في هذا الموضع فإن أهل التأويل قالوا : عنى الدروع .

ذكر من قال ذلك

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ

(١) [illegible] ([illegible]) [illegible] والبوس . الثياب والسلاح ، مذكر ، فإن ذهبت به إلى الدرع أنثت . [illegible] في الحروب .

[illegible] والصيف والرمح والمغفر . [illegible] والمنعب في البيت يصف [illegible] [illegible] كو حاطوه .

لَكُمْ) . . . الآية ، قال : كانت قبل داود صفائح ، قال : وكان أوّل من صنع هذا الحلق وسرد داود .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ) قال : كانت صفائح ، فأوّل من سَرَدَها وحلّقها داود عليه السلام .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (لِتُحْصِنَكُمْ) فقرأ ذلك أكثر قرّاء الأمصار (لِيُحْصِنَكُمْ) بالياء ، بمعنى : ليحصنكم اللّبوس من بأسكم ، ذكّروه لتذكير اللّبوس . وقرأ ذلك أبوجعفر يزيد بن القعقاع (لِتُحْصِنَكُمْ) بالتاء ، بمعنى : لتحصنكم الصنعة ، فأنث لتأنيث الصنعة . وقرأ شيبة بن نصاح وعاصم ابن أبى النّجود (لِنُحْصِنَكُمْ) بالنون ، بمعنى : لنحصنكم نحن من بأسكم .

⁂ **قال أبو جعفر** : وأولى القراءات فى ذلك بالصواب عندى قراءة من قرأه بالياء ، لأنها القراءة التى عليها الحجة من قرّاء الأمصار ، وإن كانت القراءات الثلاث التى ذكرناها متقاربات المعانى ، وذلك أن الصنعة هى اللبوس ، واللّبوس هى الصنعة ، والله هو المحصن به من البأس ، وهو المحصن بتصيير الله إياه كذلك ، ومعنى قوله (لِيُحْصِنَكُمْ) ليحرزكم ، وهو من قوله : قد أحصن فلان جاريته . وقد بيّنا معنى ذلك بشواهده فيما مضى قبل . والبأس : القتال ، وعلّمنا داود صنعة سلاح لكم ليحرزكم إذا لبستموه ، ولقيتم فيه أعداءكم من القتل .

وقوله (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) يقول : فهل أنتم أيها الناس شاكرو الله على نعمته عليكم بما علّمكم من صنعة اللبوس المحصن فى الحرب وغير ذلك من نعمه عليكم ، يقول : فاشكرونى على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

⁂ يقول تعالى ذكره (وَ) سخرنا (لِسُلَيْمَانَ) بن داود (الرِّيحَ عَاصِفَةً) وعصوفها : شدة هبوبها (تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) يقول : تجرى الريح بأمر سليمان ، إلى الأرض التى باركنا فيها ، يعنى : إلى الشام ، وذلك أنها كانت تجرى بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان ، ثم تعود به إلى منزله بالشام ، فلذلك قيل (إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبه قال : كان سليمان إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير ، وقام له الجنّ والإنس حتى يجلس إلى سريره ، وكان امرأ غزّاء ، قلما يقعد عن الغزو ، ولا يسمع فى ناحية من الأرض بملك إلا أتاه حتى يذله ، وكان فيما يزعمون إذا أراد الغزو ، أمر بعسكره فضُرب له بخشب ، ثم نصب له على الخشب ، ثم حمل عليه الناس والدوابّ وآلة الحرب كلها ، حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح ، فدخلت تحت ذلك

الخشب فاحتملته ، حتى إذا استقلت أمر الرخاء ، فمدّته شهرا فى روحته ، وشهرا فى غدوته إلى حيث أراد، يقول الله عزّ وجلّ (فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بأمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أصابَ) قال (وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ) قال : فذكر لى أن منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه كتاب كتبه بعض صحابة سليمان ، إما من الجنّ وإما من الإنس ، نحن نزلناه وما بنيناه ، ومبنيا وجدناه ، غدونا من إصطخر فقلناه ، ونحن راحلون منه إن شاء الله قائلون الشام .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً) . . . إلى قوله (وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ) قال : ورث الله سليمان داود ، فورثه نبوّته وملكه وزاده على ذلك أن سخر له الريح والشياطين .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِى بأمْرِهِ) قال : عاصفة شديدة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ، قال : الشام .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ) فقرأته عامة قرّاء الأمصار بالنصب على المعنى الذى ذكرناه ، وقرأ ذلك عبد الرحمن الأعرج (الرِّيحُ) رفعا بالكلام فى سليمان على ابتداء الخبر عن أن لسليمان الريح .

قال أبو جعفر : والقراءة التى لاأستجيز القراءة بغيرها فى ذلك ما عليه قرّاء الأمصار لإجماع الحجة من القرّاء عليه .

وقوله (وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عالِمِينَ) يقول : وكنا عالمين بأن فعلنا ما فعلنا لسليمان من تسخيرنا له ، وإعطائنا ما أعطيناه من الملك وصلاح الخلق . فعلى علم منا بموضع مافعلنا به من ذلك فعلنا ، ونحن عالمون بكلّ شىء لايخفى علينا منه شىء .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

يقول تعالى ذكره : وسخرنا أيضا لسليمان من الشياطين من يغوصون له فى البحر ، ويعملون عملا دون ذلك من البنيان والتماثيل والمحاريب (وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ) يقول : وكنا لأعمالهم ولأعدادهم حافظين ، لايئودنا حفظ ذلك كله .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾

﴿﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكر أيوب يامحمد، إذ نادى ربه وقد مسه الضرّ والبلاء، (رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) يقول تعالى ذكره : فاستجبنا لأيوب دعاءه إذ نادانا ، فكشفنا ما كان به من ضرّ وبلاء وجهد ، وكان الضرّ الذى أصابه ، والبلاء الذى نزل به ، امتحانا من الله له واختبارا .

وكان سبب ذلك كما حدثنى محمد بن سهل بن عسكر البخارىّ ، قال : ثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن هشام، قال : ثنى عبد الصمد بن معقل[1] ، قال : سمعت وهب بن منبه يقول : كان بدء أمر أيوب الصديق صلوات الله عليه ، أنه كان صابرا نعم العبد . قال وهب : إن لجبريل بين يدى الله مقاما ليس لأحد من الملائكة فى القُربة من الله، والفضيلة عنده ، وإن جبريل هو الذى يتلقى الكلام ، فإذا ذكر الله عبدا بخير ، تلقاه جبرائيل منه ، ثم تلقاه ميكائيل ، وحوْله الملائكة المقرّبون حافين من حول العرش ، وشاع ذلك فى الملائكة المقرّبين ، صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات ، فإذا صلت عليه ملائكة السموات ، هبطت عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض ، وكان إبليس لا يُحجَب بشيء من السموات ، وكان يقف فيهنّ حيث شاء ما أرادوا ، ومن هنالك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة ، فلم يزل على ذلك يصعد فى السموات ، حتى رفع الله عيسى بن مريم ، فحُجِب من أربع ، وكان يصعد فى ثلاث ؛ فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، حُجِب من الثلاث الباقية ، فهو محجوب هو وجميع جنوده من جميع السموات إلى يوم القيامة (إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)، ولذلك أنكرت الجنّ ما كانت تعرف حين قالت : (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا) . . . إلى قوله (شِهَابًا رَصَدًا) :

قال وهب : فلم يَرُعْ إبليس إلا تجاوبُ ملائكتها بالصلاة على أيوب ، وذلك حين ذكره الله، وأثنى عليه، فلما سمع إبليس صلاة الملائكة ، أدركه البغى والحسد ، وصعد سريعا ، حتى وقف من الله مكانا كان يقفه ، فقال : يا إلهى ، نظرت فى أمر عبدك أيوب ، فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، ثم لم تجربه بشدة ، ولم تجربه ببلاء ، وأنا لك زعيم : لئن ضربته بالبلاء ليكفرنّ بك ولينسينك ، وليعبدنّ غيرك . قال الله تبارك وتعالى له : انطلق ، فقد سلطتك على ماله ، فإنه الأمر الذى تزعم أنه من أجله يشكرنى ، ليس لك سلطان على جسده ، ولا على عقله ، فانقضّ عدوّ الله ، حتى وقع على الأرض ، ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم ، وكان لأيوب البَثَنية من الشام كلها ، بما فيها من شرقها وغربها ، وكان له بها ألف شاة برعاتها ، وخمس مئة فدان ، يتبعها خمس مئة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ومال ، وحمل آلة كل فدان أتان ، لكل أتان ولد من اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك ؛ فلما جمع إبليس الشياطين ، قال لهم : ماذا عندكم من القوّة والمعرفة ، فإنى قد سُلطت على مال أيوب ، فهى المصيبة الفادحة ، والفتنة التى لا يصبر عليها الرجال ؛ قال عفريت من الشياطين : أعطيتُ من القوّة ما إذا شئت تحوّلت إعصارا من نار ، فأحرقت كل شيء آتى عليه ، فقال له

(١) عبدالصمد بن معقل، بكسر القاف اليمانى ؛ يروى عن عمه وهب بن منبه وعنه ابن أخيه اسماعيل بن عبد الكريم . وثقه أحمد . مات سنة ثلاث وثمانين ومئة . (عن الخلاصة) . وهذا الحديث من أحاديث أهل الكتاب ، رواه وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتاب ، كما قال الثعلبى فى عرائس المجالس (ص ١٥٣–١٦٣) طبعة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بالقاهرة . وأصله فى الكتاب المقدس سفر أيوب (٧٩٣ – ٨٣٣) .

إبليس : فأت الإبل ورُعاتَها ، فانطلق يؤمّ الإبل . وذلك حين وضعت رءوسها ، وثبتت فى مراعيها ، فلم تشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار . تنفخ منها أرواح السَّموم ، لايدنو منها أحد إلا احترق ، فلم يزل يُحرّقها ورعاتَها حتى أتى على آخرها ؛ فلما فرغ منها تمثل إبليس على قَعود منها براعيها ، ثم انطلق يؤمّ أيوب . حتى وجده قائما يصلى . فقال : يا أيوب . قال : لبيك : قال : هل تدرى ما الذى صنع ربك الذى اخترت ، وعبدت ووحدت ، بإبلك ورعاتها ؟ قال أيوب : إنها ماله أعارنيه ، وهو أولى به إذا شاء نزعه ، وقديما ما وطّنْت نفسى ومالى على الفناء . قال إبليس : وإن ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت ورعاتَها ، حتى أتى على آخر شىء منها ومن رعاتها ؛ فتركت الناس مبهوتين ، وهم وقوف عليها يتعجبون ؛ منهم من يقول : ما كان أيوب يعبد شيئا ، وما كان إلا فى غرور ، ومنهم من يقول : لو كان إله أيوب يقدر على أن يمنع من ذلك شيئا لمنع وليه ؛ ومنهم من يقول : بل هو فَعَل الذى فعل ، ليشمت به عدوّه ، وليفجع به صديقه . قال أيوب : الحمد لله حين أعطانى ، وحين نزع منى ، عُرْيانا خرجت من بطن أمى ، وعريانا أعود فى التراب ، وعريانا أحشر إلى الله . ليس ينبغى لك أن تفرح حين أعارك الله ، وتجزع حين قبض عاريّته . الله أولى بك . وبما أعطاك ، ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا ، لنقل روحك مع ملك الأرواح ، فآجرنى فيك ، وصرت شهيدا ، ولكنه علم منك شرّا ، فأخرك من أجله ، فعرّاك الله من المصيبة ، وخلصك من البلاء ، كما يخلص الزُّوان من القمح الخلاص .

ثم رجع إبليس إلى أصحابه خاسئا ذليلا ، فقال لهم : ماذا عندكم من القوّة ؟ فإنى لم أُكَلِّم قلبه . قال عفريت من عظمائهم : عندى من القوّة ما إذا شئت صحت صوتا لايسمعه ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه ، قال له إبليس : فأت الغنم ورعاتَها . فانطلق يؤمّ الغنم ورعاتها . حتى إذا وَسَطها صاح صوتا جَثَمَتْ أمواتا من عند آخرها ورعاتها . ثم خرج إبليس متمثلا بقَهْرمان الرُّعاء[1] . حتى إذا جاء أيوب وجده وهو قائم يصلى . فقال له القول الأوّل ، وردّ عليه أيوب الردّ الأوّل . ثم إن إبليس رجع إلى أصحابه . فقال لهم : ماذا عندكم من القوّة . فإنى لم أُكَلِّم قلب أيوب . فقال عفريت من عظمائهم : عندى من القوّة إذا شئت تحوّلت ريحا عاصفا تنسف كل شىء تأتى عليه ، حتى لاأبقى شيئا ، قال له إبليس : فأت الفدادين والحرث : فانطلق يؤمهم . وذلك حين قرّبوا الفدادين ، وأنشئوا فى الحرث ، والأتن وأولادها رُتوع . فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف ، تنسف كل شىء من ذلك ، حتى كأنه لم يكن . ثم خرج إبليس متمثلا بقهرمان الحرث ، حتى جاء أيوب وهو قائم يصلى ، فقال له مثل قوله الأوّل ، وردّ عليه أيوب مثل ردّه الأوّل .

فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ، ولم ينجح منه[2] . صعد سريعا ، حتى وقف من الله الموقف الذى كان يقفه . فقال : يا إلهى ، إن أيوب يرى أنك ما متعته بنفسه وولده[3] . فأنت معطيه المال ، فهل أنت مسلطى على ولده ؟ فإنها الفتنة المضلة ، والمصيبة التى لاتقوم لها قلوب الرجال ، ولا يقوى عليها صبرهم ، فقال الله تعالى له : انطلق ، فقد سلطتك على ولده ، ولا سلطان لك على قلبه ولا جسده ، ولا على عقله ؛ فانقضّ

(١) [illegible] أمير الرعاة .

(٢، ٣) [illegible] التفسير فى هذا المقام فى عرائس المجالس ص ١٤٥ فإنها أوضح وأدل .

عدوّ الله جوادا، حتى جاء بنى أيوب وهم فى قصرهم، فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده، ثم جعل يناطح الجُدُر بعضها ببعض، ويرميهم بالخشب والجندل، حتى إذا مثّل بهم كل مُثْلة، رفع بهم القصر، حتى إذا أقلّه بهم، فصاروا فيه منكّسين، انطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلّم الذى كان يعلمهم الحكمة، وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه، ودماغه متغير لايكاد يعرف من شدّة التغير، والمُثْلة التى جاء متمثلا فيها؛ فلما نظر إليه أيوب هاله، وحزن ودمعت عيناه، وقال له: يا أيوب، لو رأيت كيف أفلتّ من حيث أفلت، والذى رمانا به من فوقنا ومن تحتنا، ولو رأيت بنيك كيف عُذّبوا، وكيف مُثّل بهم، وكيف قُلِبوا فكانوا منكّسين على رءوسهم، تسيل دماؤهم ودماغهم من أنوفهم وأجوافهم، وتقطر من أشفارهم، ولو رأيت كيف شُقّت[١] بطونهم، فتناثرت أمعاؤهم، ولو رأيت كيف قُذِفوا بالخشب والجندل، يشدخ دماغهم، وكيف دقّ الخشب عظامهم، وخرق جلودهم، وقطع عصبهم، ولو رأيت العصب عُريانا، ولو رأيت العظام متهشمة فى الأجواف، ولو رأيت الوجوه مشدوخة، ولو رأيت الجُدُر تَناطَحُ عليهم، ولو رأيت ما رأيت، قطع قلبك، فلم يزل يقول هذا ونحوه، ولم يزل يرقّقه حتى رقّ أيوب فبكى، وقبض قبضة من تراب، فوضعها على رأسه، فاغتنم إبليس [الفُرصة منه][١] عند ذلك، فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب، مسرورا به، ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر، فاستغفر، وصَعَد قرناؤه من الملائكة بتوبةٍ منه، فبدروا إبليس إلى الله، فوجدوه قد علم بالذى رُفع إليه من توبة أيوب، فوقف إبليس خازيا ذليلا، فقال: يا إلهى، إنما هوّن على أيوب خَطَرَ المال والولد، أنه يرى أنك ما متعته بنفسه، فأنت تعيد له المال والولد، فهل أنت مسلّطى على جسده؟ فأنا لك زعيم لئن ابتليته فى جسده لينسينك، وليكفرنّ بك، وليَجْحَدَنّكَ نعمتك» قال الله: انطلق فقد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه، ولا على قلبه، ولا على عقله:

فانقضّ عدوّ الله جوادا، فوجد أيوب ساجدا، فعجّل قبل أن يرفع رأسه، فأتاه من قِبَل الأرض فى موضع وجهه، فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده، فترهّل، ونبتت [به][١] ثآليل مثل أليات الغنم، ووقعت فيه حِكّة لايملكها، فحكّ بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكّ بالعظام، وحكّ بالحجارة الخشنة، وبقطع المُسوح الخشنة، فلم يزل يحكّه حتى نَفِد لحمه وتقطع، ولما نَغِل جلد أيوب، وتغير وأنتن، أخرجه أهل القرية، فجعلوه على تلّ، وجعلوا له عريشا، ورفضه خلق الله غيرَ امرأته، فكانت تختلف إليه بما يُصلحه ويلزمه، وكان ثلاثة من أصحابه اتبعوه على دينه؛ فلما رأوا ما ابتلاه الله به رفضوه، من غير أن يتركوا دينه واتهموه، يُقال لأحدهم بلدد، وأليفز، وصافر[٢]، قال: فانطلق إليه الثلاثة، وهو فى بلائه، فبكتوه؛ فلما سمع منهم أقبل على ربه، فقال أيوب صلى الله عليه وسلم: ربّ لأىّ شىء خلقتنى؟ لو كنتَ إذْ كرهتنى فى الخير تركتنى فلم تخلقنى، يا ليتنى كنت حَيْضة ألقتنى أمى، ويا ليتنى مِتّ فى بطنها، فلم أعرف شيئا ولم تعرفنى، ما الذنب الذى أذنبت لم يذنبه أحد غيرى؟ وما العمل الذى عملت فصرفت وجهك الكريم عنى، لو كنت أمتنى فألحقتنى بآبائى، فالموت كان أجمل بى، فأسوة لى بالسلاطين الذين صُفّت من دونهم الجيوش، يضربون عنهم بالسيوف، بخلا بهم عن الموت، وحرصا على بقائهم، أصبحوا فى القبور جاثمين،

(١) انظر عرائس المجالس للثعلبى المفسر ص ١٥٥.

(٢) وردت أسماء أصحاب أيوب الثلاثة فى الكتاب المقدس ص ٧٩٥ وهم: أليفاز التيمانى، وبلدد الشوحى، وصوفر النعمانى.

حتى ظنوا أنهم سيخلّدون . وأُسوة لى بالملوك الذين كنزوا الكنوز ، وطمّروا المطامير ، وجمعوا الجموع ، وظنوا أنهم سيخلدون . وأُسوة لى بالجبارين الذين بنوا المدائن والحصون . وعاشوا فيها المئين من السنين ، ثم أصبحت خرابا ، مأوى للوحوش ، ومثنى للشياطين .

قال أليفز التيمانى : قد أعيانا أمرك يا أيوب : إن كلّمناك فانرجو للحديث منك موضعا . وإن نسكت عنك مع الذى نرى فيك من البلاء . فذلك علينا . قد كنا نرى من أعمالك أعمالا كنا نرجو لك عليها من الثواب غير ما رأينا ، فإنما يحصد امرؤ ما زرع ، ويجزى بما عمل ؛ أشهد على الله الذى لايقدر قدر عظمته ؛ ولا يحصى عدد نعمه ، الذى ينزل الماء من السماء ، فيحيي به الميت : ويرفع به الخافض ، ويقوّى به الضعيف ، الذى تضلّ حكمة الحكماء عند حكمته ، وعلم العلماء عند علمه ، حتى تراهم من العىّ فى ظلمة يموجون ؛ أن من رجا معونة الله هو القوىّ ، وإن من توكل عليه هو المكفىّ ، هو الذى يكسر ويجبر ، ويجرح ويداوى .

قال أيوب : لذلك سكتّ فعضضْت على لسانى ، ووضعت لسوء الخدمة رأسى ؛ لأنى علمت أن عقوبته غيرت نور وجهى ، وإن قوّته نزعت قوّة جسدى ، فأنا عبده ، ما قضى علىّ أصابنى ، ولا قوّة لى إلا ما حمل علىّ . لو كانت عظامى من حديد ؛ وجسدى من نحاس ، وقلبى من حجارة ؛ لم أطق هذا الأمر ، ولكن هو ابتلانى ، وهو يحمله عنى ، أتيتمونى غضابا ، رهبتم قبل أن تسترهبوا ، وبكيتم من قبل أن تضربوا ، كيف بى لو قلت لكم : تصدّقوا عنى بأموالكم ؛ لعلّ الله أن يخلصنى ؛ أو قرّبوا عنى قربانا ، لعلّ الله أن يتقبله منى ، ويرضى عنى ؟ إذا استيقظت تمنّيت النوم ، رجاء أن أستريح ؛ فإذا نمت كادت تجود نفسى ، تقطّعت أصابعى ، فإنى لأرفع اللقمة من الطعام بيدىّ جميعا ، فما تبلغان فى إلا على الجهد منى ؛ تساقطت لهواتى ، ونخر رأسى ، فما بين أذنىّ من سداد ، حتى إن إحداهما لتُرى من الأخرى ، وإن دماغى ليسيل من فمى ، تساقط شعرى عنى ، فكأنما حرّق بالنار وجهى ، وحدقتاى هما متدليتان على خدى ؛ ورم لسانى حتى ملأ فمى ، فما أدخل فيه طعاما إلا غصنى ، وورمت شفتاى حتى غطّت العليا أنفى ؛ والسفلى ذقنى ؛ تقطّعت أمعائى فى بطنى ، فإنى لأدخل الطعام فيخرج كما دخل ، ما أحسه ولا ينفعنى ، ذهبت قوّة رجلىّ ، فكأنهما قربتا ماء ملئتا ، لاأطيق حملهما ، أحمل لحافى بيدىّ وأسنانى ، فما أطيق حمله ، حتى يحمله معى غيرى ؛ ذهب المال فصرت أسأل بكفى ، فيطعمنى من كنت أعوله اللقمةَ الواحدة ، فيمنّنها علىّ ويعيّرنى ، هلك بنىّ وبناتى ، ولو بقى منهم أحد أعاننى على بلائى ونفعنى ، وليس العذاب بعذاب الدنيا ، إنه يزول عن أهلها ، ويموتون عنه ، ولكن طوبى لمن كانت له راحة فى الدار التى لايموت أهلها ، ولا يتحوّلون عن منازلهم ، السعيد من سعد هنالك ، والشقىّ من شقى فيها .

قال بلدد : كيف يقوم لسانك بهذا القول ، وكيف تفصح به ، أتقول إن العدل يجور ، أم تقول إن القوى يضعف ؟ ابك على خطيئاتك ، وتضرّع إلى ربك عسى أن يرحمك ، ويتجاوز عن ذنبك ، وعسى إن كنت بريئا أن يجعل هذا لك ذخرا فى آخرتك ، وإن كان قلبك قد قسا ، فإن قولنا لن ينفعك ، ولن يأخذ

فيك ، هيهات أن تنبت الآجام فى المفاوز ، و هيهات أن ينبت البَرْدىّ فى الفلاة ، من توكل على الضعيف كيف يرجو أن يمنعه ، ومن جحد الحقّ كيف يرجو أن يوفّىَ حقه ؟

قال أيوب : إنى لأعلم أن هذا هو الحقّ ، لن يَفْلُجَ العبد على ربه ، ولا يطيق أن يخاصمه ، فأىّ كلام لى معه وإن كان إلىّ القوّة ؟ هو الذى سمك السماء فأقامها وحده ، وهو الذى يكشطها إذا شاء ، فتنطوى له ، وهو الذى سطح الأرض ، فدحاها وحده ، ونصب فيها الجبال الراسيات ، ثمّ هو الذى يزلزلها من أصولها ، حتى تعود أسافلها أعاليها ، وإن كان فىّ الكلام ، فأىّ كلام لى معه ؟ من خلق العرش العظيم بكلمة واحدة ، فحشاه السموات والأرض وما فيهما من الخلق ، فوسعه وهو فى سعة واسعة ، وهو الذى كلّم البحار ففهمت قوله ، وأمرها فلم تعدُ أمره ، وهو الذى يفقه الحيتان والطير وكل دابّة ، وهو الذى يكلم الموتى فيحييهم قوله ، ويكلم الحجارة فتفهم قوله ، ويأمرها فتطيعه .

قال أليفز : عظيم ما تقول يا أيوب ، إن الجلود لتقشعرّ من ذكر ما تقول ، إن ما أصابك ما أصابك بغير ذنب أذنبته ، مثل هذه الحدّة وهذا القول أنزلك هذه المنزلة ، عظُمت خطيئتك ، وكثر طلابك ، وغَصَبْتَ أهل الأموال على أموالهم ، فلبست وهم عراة ، و أكلت وهم جياع ، وحبست عن الضعيف بابك ، وعن الجائع طعامك ، وعن المحتاج معروفك ، وأسررت ذلك وأخفيته فى بيتك ، وأظهرت أعمالا كنا نراك تعملها ، فظننت أن الله لا يجزيك إلا على ماظهر منك ، وظننت أن الله لايطلع على ما غيبت فى بيتك ، وكيف لايطّلع على ذلك وهو يعلم ما غيَّبت الأرضون ، وما تحت الظلمات والهواء ؟

قال أيوب صلى الله عليه وسلم : إن تكلمت لم ينفعنى الكلام ، وإن سكتّ لم تعذرونى ، قد وقع علىّ كَيْدى ، وأسخطت ربى بخطيئتى ، وأشمتّ أعدائى ، وأمكنتهم من عنقى ، وجعلتنى للبلاء غَرَضا ، وجعلتنى للفتنة نُصبا ، لم تنفسنى مع ذلك ، ولكن أتبعنى ببلاء على إثر بلاء ، ألم أكن للغريب دارا ؟ وللمسكين قرارا ، ولليتيم وليًّا ، وللأرملة قيِّما ؛ ما رأيت غريبا إلا كنت له دارا مكان داره ، وقرارا مكان قراره ؛ ولا رأيت مسكينا إلا كنت له مالا مكان ماله ، وأهلا مكان أهله ؛ وما رأيت يتيما إلا كنت له أبا مكان أبيه ، وما رأيت أيِّما إلا كنت لها قيِّما ترضَى قيامه ، وأنا عبد ذليل ، إن أحسنت لم يكن لى كلام بإحسان ، لأن المنّ لربى وليس لى ، وإن أسأت فبيده عقوبتى ، وقد وقع علىّ بلاء لو سلّطته على جبل ضعف عن حمله ، فكيف يحمله ضعفى ؟

قال أليفز : أتحاجّ الله يا أيوب فى أمره ، أم تريد أن تناصفه وأنت خاطئ ، أو تبرئها وأنت غير برىء ؟ خلق السموات والأرض بالحقّ ، وأحصى مافيهما من الخلق ، فكيف لايعلم ما أسررت ، وكيف لايعلم ما عملت ، فيجزيك به ؟ وضع الله ملائكة صفوفا حول عرشه ، وعلى أرجاء سمواته ، ثم احتجب بالنور ، فأبصارهم عنه كليلة ، وقوّتهم عنه ضعيفة ، وعزيزهم عنه ذليل ، وأنت تزعم أن لو خاصمك ، وأدلى إلى الحكم معك ، وهل تراه فتناصفه ؟ أم هل تسمعه فتحاوره ؟ قد عرفنا فيك قضاءه ، إنه من أراد أن يرتفع وضعه ، ومن اتضع له رفعه .

قال أيوب صلى الله عليه وسلم : إن أهلكنى فمن ذا الذى يعرض له فى عبده ؟ ويسأله عن أمره ، لايردّ غضبه شىء إلا رحمته . ولا ينفع عبده إلا التضرّع له ؛ قال : ربّ أقبل علىّ برحمتك ، وأعلمنى ما ذنبى الذى أذنبت ؟ أو لأىّ شىء صرفت وجهك الكريم عنى ، وجعلتنى لك مثل العدوّ ، وقد كنت تكرمنى ؟ ليس يغيب عنك شىء . تُحصى قَطْر الأمطار ، وورق الأشجار ، وذرّ التراب ، أصبح جلدى كالثوب العفن . بأيه أمسكت سقط فى يدى . فهب لى قُربانا من عندك . وفرجا من بلائى ، بالقدرة التى تبعث موتى العباد . وتنشر بها ميت البلاد . ولا تُهلكنى بغير أن تعلمنى ما ذنبى ؛ ولا تُفسد عمل يديك ؛ وإن كنت غنيا عنى . ليس ينبغى فى حكمك ظلم . ولا فى نقمتك عَجَل ، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف ؛ وإنما يعجل من يخاف الفوت . ولا تذكرنى خطئى وذنوبى . اذكر كيف خلقتنى من طين ، فجَعلتَ مضغة ؛ ثم خلقت المضغة عظاما . وكسوت العظام لحما وجلدا ، وجعلت العصب والعروق لذلك قواما وشدّة ، وربّيتنى صغيرا . ورزقتنى كبيرا . ثم حفظت عهدك . وفعلت أمرك ؛ فإن أخطأت فبين لى ، ولا تُهلكنى غمّا . وأعلمنى ذنبى . فإن لم أرضك . فأنا أهل أن تعذّبنى ، وإن كنت من بين خلقك تحصى علىّ عملى ، وأستغفرك فلا تغفر لى . إن أحسنت لم أرفع رأسى . وإن أسأت لم تبلعنى ريقى ، ولم تُقِيلنى عثرتى ، وقد ترى ضعفى تحتك . وتضرّعى لك . فلم خلقتنى ؟ أو لم أخرجتنى من بطن أمى ؟ لو كنت كمن لم يكن لكان خيرا لى ، فليست الدنيا عندى بخطر لغضبك . وليس جسدى يقوم بعذابك ، فارحمنى وأذقنى طعم العافية ، من قبل أن أصير إلى ضيق القبر . وظلمة الأرض ، وغمّ الموت .

قال صافر : قد تكلمت يا أيوب ، وما يطيق أحد أن يحبس فمك . تزعم أنك برىء ، فهل ينفعك أن كنت بريئا . وعليك من يحصى عملك ؟ وتزعم أنك تعلم أن الله يغفر لك ذنوبك ، هل تعلم سَمْك السماء كم بعده ؟ أم هل تعلم عمق الهواء كم بعده ؟ أم هل تعلم أىّ الأرض أعرضُها ؟ أم عندك لها من مقدار تقدرها به ؟ أم هل تعلم أىّ البحر أعمقه ؟ أم هل تعلم بأىّ شىء تحبسه ؟ فإن كنت تعلم هذا العلم وإن كنت لاتعلمه ، فإن الله خلقه وهو يحصيه . لو تركت كثرة الحديث . وطلبت إلى ربك ، رجوتَ أن يرحمك ، فبذلك تستخرج رحمته ، إن كنت تقيم على خطيئتك . وترفع إلى الله يديك عند الحاجة ، وأنت مُصِرّ على ذنبك إصرار الماء الجارى فى صَبَب لايستطاع إحتباسه . فعند طلب الحاجات إلى الرحمن تسودّ وجوه الأشرار ، وتظلم عيونهم ، وعند ذلك يسرّ بنجاح حوائجهم ، الذين تركوا الشهوات تزينا بذلك عند ربهم ، وتقدّموا فى التضرّع ، ليستحقوا بذلك الرحمة حين يحتاجون إليها ، وهم الذين كابدوا الليل ، واعتزلوا الفرش ، وانتظروا الأسحار ؛

قال أيوب : أنتم قوم قد أعجبتكم أنفسكم ، وقد كنت فيما خلا والرجال يوقّرونّى ، وأنا معروف حقّى ، منتصف من خصمى ، قاهر لمن هو اليوم يقهرنى . يسألنى عن علم غيب الله لاأعلمه ، ويسألنى ، فلعمرى ما يصنع الأخ لأخيه حين نزل به البلاء كذلك ، ولكنه يبكى معه . وإن كنت جاهلا فإن عقلى يقصر عن الذى تسألنى عنه ، فسل طير السماء هل تخبرك ؟ وسل وحوش الأرض هل ترجع إليك ؟ وسل سباع البرية هل تجيبك ؟ وسل حيتان البحر هل تصف لك كل ما عددت ؟ تعلم أنّ صنع هذا بحكمته ، وهيأه بلطفه ؛

أما يعلم ابن آدم من الكلام ماسمع بأذنيه ، وما طعم بفيه ، وما شمّ بأنفه ، وأن العلم الذى سألت عنه لايعلمه إلا الله الذى خلقه ، له الحكمة والجبروت ، وله العظمة واللطف ، وله الجلال والقدرة ، إن أفسد فمن ذا الذى يصلح ؟ وإن أعجم فمن ذا الذى يُفْصِح ؟ إن نظر إلى البحار يبست من خوفه ، وإن أذن لها ابتلعت الأرض ، فإنما يحملها بقدرته هو الذى تبهت الملوك عند ملكه ، وتطيش العلماء عند علمه ، وتعيا الحكماء عند حكمته ، ويخسأ المبطلون عند سلطانه ، هو الذى يذكر المنسىّ ، وينسى المذكور ، ويجرى الظلمات والنور ، هذا علمى ، وخلقه أعظم من أن يحصيه عقلى ، وعظمته أعظم من أن يقدرها مثلى .

قال بِلدد : إن المنافق يُجْزَى بما أسرّ من نفاقه ، وتضلّ عنه العلانية التى خادع بها ، وتوكل على الجزاء بها الذى عملها ، ويهلك ذكره من الدنيا ، ويظلم نوره فى الآخرة ، ويوحش سبيله ، وتوقعه فى الأحبولة سريرته ، وينقطع اسمه من الأرض ، فلا ذكر فيها ولا عمران ، لايرثه ولد مصلحون من بعده ، ولا يبقى له أصل يعرف به ، ويبهت من يراه ، وتقف الأشعار عند ذكره .

قال أيوب : إن أكن غويا فعلىّ غواى ، وإن أكن بريا فأىّ منعة عندى؟ إن صرخت فمن ذا الذى يُصْرخنى ، وإن سكت فمن ذا الذى يَعْذِرنى ، ذهب رجائى وانقضت أحلامى ، وتنكرت لى معارفى ، دعوت غلامى ، فلم يجبنى ، وتضرّعت لأمتى فلم ترحمنى ، وقع علىّ البلاء فرفضونى ، أنتم كنتم أشدّ علىّ من مصيبتى ، انظروا وابْهتوا من العجائب التى فى جسدى ، أما سمعتم بما أصابنى ، وما شغلكم عنى ما رأيتم بى ؟ لو كان عبد يخاصم ربه ، رجوت أن أتغلب عند الحكم ، ولكن لى ربا جبارا تعالى فوق سمواته ، وألقانى هاهنا ، وهُنْت عليه ، لاهو عذرنى بعذرى ، ولا هو أدنانى ، فأخاصم عن نفسى : يسمعنى ولا أسمعه ، ويرانى ولا أراه ، وهو محيط بى ، ولو تجلى لى لذابت كليتاى ، وصَعِق روحى ، ولو نفسنى فأتكلم بملء فمى ، ونزع الهيبة منى ، علمت بأىّ ذنب عذّبنى . نودى فقيل : يا أيوب ، قال : لبيك ، قال : أنا هذا قد دنوت منك ، فقم فاشدد أزارك ، وقم مقام جبار ، فإنه لاينبغى لى أن يخاصمنى إلا جبار مثلى ، ولا ينبغى أن يخاصمنى إلا من يجعل الزمام فى فم الأسد ، والسِّخال فى فم العنقاء ، واللحم فى فم التِّنين ، ويكيل مكيالا من النور ، ويزن مثقالا من الريح ، ويصُر صُرّة من الشمس ، ويرد أمس لغد ، لقد منّتك نفسك أمرا ما يبلغ بمثل قوّتك ، ولو كنت إذ منتك نفسك ذلك ودعتك إليه ، تذكرت أىّ مرام رامت بك ، أردت أن تخاصمنى بغيك ؟ ، أم أردت أن تحاجّنى بخطئك ، أم أردت أن تكاثرنى بضعفك ، أين كنت منى يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها ، هل علمت بأىّ مقدار قدّرتها ؟ أم كنت معى تمرّ بأطرافها ؟ أم تعلم ما بُعْد زواياها ؟ أم على أىّ شىء وضعت أكنافها ؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض ؟ أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء ؟ أين كنت منى يوم رفعت السماء سقفا فى الهواء لابعلائق ثبتت من فوقها ، ولا يحملها دعائم من تحتها ؟ هل يبلغ من حكمتك أن تجرى نورها ، أو تسير نجومها ، أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها ، أين كنت منى يوم سجرت البحار وأنبعت الأنهار ؟ أقدرتك حبست أمواج البحار على حدودها ، أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها ؟ أين أنت منى يوم صببت الماء على التراب ، ونصبت شوامخ الجبال ، هل لك من ذراع تطيق حملها ؟ أم هل تدرى كم من مثقال فيها ؟ أم أين الماء الذى أنزل من السماء ؟ هل تدرى أمّ تلده أو أب يولده ؟ أحكمتك

أحصت القطر . وقسمت الأرزاق . أم قدرتك تثير السحاب ، وتغشيه الماء ؟ هل تدرى ما أصوات الرعود؟ أم من أىّ شىء لهب البروق ؟ هل رأيت عمق البحور ؟ أم هل تدرى ما بُعد الهواء ؟ أم هل خزنت أرواح الأموات؟ أم هل تدرى أين خزانة الثلج ؛ أو أين خزائن البرد ؟ أم أين جبال البرد ؟ أم هل تدرى أين خزانة الليل بالنهار . وأين خزانة النهار بالليل؟ وأين طريق النور ؟ وبأىّ لغة تتكلم الأشجار؟ وأين خزانة الريح ؛ وكيف تحبسه الأغلاق ؟ ومن جعل العقول فى أجواف الرجال ؟ ومن شقّ الأسماع والأبصار ؟ ومن ذلّت الملائكة لملكه ؟ وقهر الجبارين بجبروته ؟ وقسم أرزاق الدوابّ بحكمته ؟ ومن قسم للأسد أرزاقها ؟ وعرّف الطير معايشها ؛ وعطفها على أفراخها ؟ من أعتق الوحش من الخدمة ؟ وجعل مساكنها البرية؟ لاتستأنس بالأصوات ، ولا تهاب المسلطين ؟ أمن حكمتك تفرّعت أفراخ الطير وأولاد الدّوابّ لأمهاتها ؟ أم من حكمتك عطفت أمهاتها عليها ؛ حتى أخرجت لها الطعام من بطونها ، وآثرتها بالعيش على نفوسها ؟ أم من حكمتك يبصر العقاب . فأصبح فى أماكن القتلى ؟ أين أنت منى يوم خلقت بهموت[1] ، مكانه فى منقطع التراب ، والوتينان[2] يحملان الجبال والقرى والعمران ، آذانهما كأنها شجر الصنوبر الطوال ؛ رءوسهما كأنها آكام الجبال ؛ وعروق أفخاذهما كأنها أوتاد الحديد ، وكأن جلودهما فِلَق الصخور ، وعظامهما كأنها عَمَد النحاس ، هما رأسا خلقى الذين خلقت للقتال ، أأنت ملأت جلودهما لحما ؟ أم أنت ملأت رءوسهما دماغا ؟ أم هل لك فى خلقهما من شِرك ؟ أم لك بالقوّة التى عملتهما يدان؟ أوهل يبلغ من قوّتك أن تخطم على أنوفهما ، أو تضع يدك على رءوسهما ، أو تقعد لهما على طريق فتحبسهما ، أو تصدّهما عن قوّتهما ؟ أين أنت يوم خلقت التّنين ورزقه فى البحر ، ومسكنه فى السحاب ، عيناه تَوَقّدان نارا ، ومنخراه يثوران دخانا ، أذناه مثل قوس السحاب ، يثور منهما لهب كأنه إعصار العجاج ، جوفه يحترق ، ونَفَسه يلتهب ، وزبده كأمثال الصخور ، وكأن صريف أسنانه صوت الصواعق ، وكأن نظر عينيه لهب البرق ، أسراره لاتدخله الهموم ، تمرّ به الجيوش وهو متكئ ، لايفزعه شىء ليس فيه مفصل [زُبَر] الحديد عنده مثل التبن ، والنحاس عنده مثل الخيوط ، لايفزع من النُّشّاب ، ولايحسّ وقع الصخور على جسده ، ويضحك من النيازك ، ويسير فى الهواء كأنه عصفور ، ويهلك كلّ شىء يمرّ به ملك الوحوش ، وإياه آثرت بالقوّة على خلقى ، هل أنت آخذه بأحبولتك فرابطه بلسانه ؟ أو واضع اللجام فى شدقه ؟ أتظنه يوفى بعهدك ؟ أو يسبح من خوفك ؟ هل تحصى عمره ؟ أم هل تدرى أجله ؟ أو تفوّت رزقه ؟ أم هل تدرى ماذا خرّب من الأرض ؟ أم ماذا يخرّب فيما بقى من عمره ؟ أتطيق غضبه حين يغضب ؟ أم تأمره فيعطيك ؟ تبارك الله وتعالى ؟

قال أيوب صلى الله عليه وسلم : قَصُرْتُ عن هذا الأمر الذى تعرض لى ، ليت الأرض انشقت بى ، [illegible] بلائى ، ولم أتكلم بشىء يسخط ربى ، اجتمع علىّ البلاء ، إلهى جعلتنى لك مثل العدوّ ، وقد كنت [illegible] صحبى ، وقد علمت أن الذى ذكرت صنع يديك ، وتدبير حكمتك ، وأعظم من هذا [illegible] لايعجزك شىء ، ولا يخفى عليك خافية ، ولا تغيب عنك غائبة ، مَنْ هذا الذى يظنّ أن [illegible] وأنت تعلم مايخطر على القلوب ، وقد علمت منك فى بلائى هذا ما لم أكن أعلم ، وخفت

(١) [illegible] (٢) فى الكتاب المقدس ص ٨٤٢ : « لوياثان » .

حين بلوت أمرك أكثر مما كنت أخاف ، إنما كنت أسمع بسطوتك سمعا ، فأمَّا الآن فهو بصر العين ، إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرنى ، وسكتّ حين سكتّ لترحمنى ، كلمة زلت فلن أعود ، قد وضعت يدىّ على فمى ، وعضضت على لسانى ، وألصقت بالتراب خدّى ، ودست وجهى لصغارى ، وسكتّ كما أسكتتنى خطيئتى ، فاغفر لى ماقلت فلن أعود لشىء تكرهه منى .

قال الله تبارك وتعالى : يا أيوب نفذ فيك علمى ، وبحلمى صرفت عنك غضبى ، إذ خطئت فقد غفرت لك ، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ؛ فاغتسل بهذا الماء ، فإن فيه شفاءك ، وقرِّب عن صحابتك قُربانا ، واستغفر لهم ، فإنهم قد عصونى فيك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، عمن لايتهم ، عن وهب بن منبه اليمانىّ ، وغيره من أهل الكتب الأُوَل ، أنه كان من حديث أيوب أنه كان رجلا من الروم . وكان الله قد اصطفاه ونبأه ، وابتلاه فى الغنى بكثرة الولد والمال ، وبسط عليه من الدنيا ، فوسَّع عليه فى الرزق ، وكانت له البثَنية من أرض الشأم ، أعلاها وأسفلها ، وسهلها وجبلها ، وكان له فيهامن أصناف المال كله ، من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لايكون للرجل أفضل منه فى العدّة والكثرة ، وكان الله قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء ، وكان برّا تقيا رحيما بالمساكين ، يطعم المساكين ، ويحمل الأرامل ، ويكفُل الأيتام ، ويكرم الضيف ، ويبلِّغ ابن السبيل ؛ وكان شاكرا لأنعم الله عليه ، مؤدّيا لحقّ الله فى الغنى ، قد امتنع من عدوّ الله إبليس أن يصيب منه ما أصاب من أهل الغنى من العزّة والغفلة ، والسهو والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا ، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدّقوه ، وعرفوا فضل ما أعطاه الله على من سواه منهم رجل من أهل اليمن يقال له : أليفز ، ورجلان من أهل بلاده يقال لأحدهما : صوفر ، وللآخر : بِلدد ، وكانوا من بلاده كهولا ، وكان لإبليس عدوّ الله منزل من السماء السابعة يقع به كلّ سنة موقعا يسألَ فيه ؛ فصعد إلى السماء فى ذلك اليوم الذى كان يصعد فيه ، فقال الله له : أو قيل له عن الله : هل قدرت من أيوب عبدى على شىء ؟ قال : أى ربّ وكيف أقدرمنه على شىء؟ أو إنما ابتليته بالرخاء والنعمة والسعة والعافية ، وأعطيته الأهل والمال والولد والغنى والعافية فى جسده وأهله وماله ، فماله لايشكرك ويعبدك ويطيعك ، وقد صنعت ذلك به ، لوابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما كان عليه من شكرك ، ولترك عبادتك ، ولخرج من طاعتك إلى غيرها ، أو كما قال عدوّ الله ؛ فقال : قد سلطتك على أهله وماله ، وكان الله هو أعلم به ، ولم يسلطه عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب بالذى يصيبه من البلاء ، وليجعله عبرة للصابرين ؛ وذكرى للعابدين فى كل بلاء نزل بهم ، ليتأسَّوا به ، وليرجوا من عاقبة الصبر فى عرَض الدنيا ثواب الآخرة وما صنع الله بأيوب ، فانحطّ عدوّ الله سريعا ، فجمع عفاريت الجنّ ومرَدة الشياطين من جنوده ، فقال : إنى قد سُلِّطت على أهل أيوب وماله ، فماذا عليكم ؟ فقال قائل منهم : أكون إعصارا فيه نار ، فلا أمرّ بشىء من ماله إلا أهلكته ؛ قال : أنت وذاك ، فخرج حتى أتى إبله ، فأحرقها ورعاتها جميعا ؛ ثم جاء عدوّ الله إلى أيوب فى صورة قيِّمه عليها وهو فى مصلَّى فقال : يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك

فأحرقتها ومن فيها غيرى ، فجئتك أخبرك بذلك ، فعرفه أيوب ، فقال : الحمد لله الذى هو أعطاها ، وهو أخذها ، الذى أخرجك منها كما يخرج الزُّوان من الحبّ النقىّ ، ثم انصرف عنه ، فجعل يصيب ماله مالا مالا حتى مرّ على آخره ، كلما انتهى إليه هلاك مال من ماله حمد الله وأحسن عليه الثناء ورضى بالقضاء ، ووطّن نفسه بالصبر على البلاء ، حتى إذا لم يبق له مال أتى أهله وولده ، وهم فى قصر لهم معهم حَظِيّاتهم وخدّامهم ، فتمثّل ريحا عاصفا ، فاحتمل القصر من نواحيه ، فألقاه على أهله وولده ، فشدخهم تحته ، ثم أتاه فى صورة قَهْرمانه عليهم ،قد شدخ وجهه ، فقال : يا أيوب قد أتت ريح عاصف ، فاحتملت القصر من نواحيه ، ثم ألقته على أهلك وولدك فشدختهم غيرى ، فجئتك أخبرك ذلك ، فلم يجزع على شىء أصابه جزعه على أهله وولده ، وأخذ ترابا فوضعه على رأسه ، ثم قال : ليت أمى لم تلدنى ، ولم أك شيئا ، وسرّ بها عدوّ الله منه ؛ فأصعد إلى السماء جَذِلا ،وراجع أيوب التوبة مما قال ، فحمد الله ، فسبقت توبته عدوّالله إلى الله ؛ فلما جاءوذكر ماصنع ، قيل له قد سبقتك توبته إلى الله ومراجعته .قال : أى ربّ فسلطنى على جسده ، قال : قد سلّطتك على جسده إلا على لسانه وقلبه ونفسه وسمعه وبصره ؛ فأقبل إليه عدوّ الله وهوساجد ، فنفخ فى جسده نفخة أشعل ما بين قرنه إلى قدمه ، كحريق النار ، ثم خرج فى جسده ثآليل كأليات الغنم ،فحكّ بأظفاره حتى ذهبت ، ثم بالفَخّار والحجارة حتى تساقط لحمه ، فلم يبق منه إلا العروق والعصب والعظام ،عيناه تجولان فى رأسه للنظر ، وقلبه للعقل ، ولم يخلص إلى شىء من حشو البطن ، لأنه لابقاء للنفس إلا بها ، فهو يأكل ويشرب على التواء من حشوته ، فمكث كذلك ماشاء الله أن يمكث.

فحدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة عن ابن إسحاق ، عن ابن دينار ، عن الحسن أنه كان يقول : مكث أيوب فى ذلك البلاء سبع سنين وستة أشهر ملقى على رماد مكنسة فى جانب القرية . قال وهب بن منبه : ولم يبق من أهله إلا امرأة واحدة تقوم عليه وتكسب له ، ولا يقدر عدوّ الله منه على قليل ولا كثير مما يريد . فلما طال البلاء عليه وعليها ، وسئمها الناس ، وكانت تكسب عليه ماتطعمه وتسقيه . قال وهب بن منبه : فحدثت أنها التمست له يوما من الأيام تطعمه ،فما وجدت شيئا حتى جزّت قَرْنا من رأسها فباعته برغيف ؛ فأتته به فعشته إياه ، فلبث فى ذلك البلاء تلك السنين ، حتى إن كان المارّ ليمرّ فيقول : لو كان لهذا عند الله خير لأراحه مما هو فيه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : فحدثنى محمد بن إسحاق ، قال :وكان وهب بن منبه يقول : لبث فى ذلك البلاء ثلاث سنين لم يزد يوما واحدا ؛ فلما غلبه أيوب فلم يستطع منه شيئا ، اعترض لامرأته فى هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والطول على مركب ليس من مراكب الناس ، له عظم وبهاء وجمال ليس لها ، فقال لها : أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى ؟ قالت نعم ، قال : هل تعرفيني ؟ قالت لا ، قال . فأنا إله الأرض ، وأنا الذى صنعت بصاحبك ماصنعت ، وذلك أنه عبد إله السماء وتركنى فأغضبنى ، ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليه وعليك كلّ ما كان لكما من مال وولد ؛ فإنه عندى ، ثم أراها إياهم فيما ترى ببطن الوادى الذى لقيها فيه . قال : وقد سمعت أنه إنما قال : لو أن صاحبك أكل

طعاما ولم يسمّ عليه، لعوفى مما به من البلاء، والله أعلم . وأراد عدوّ الله أن يأتيه من قبلها، فرجعت إلى أيوب، فأخبرته بما قال لها وما أراها ؛ قال : أو قد أتاك عدوّ الله، ليفتنك عن دينك ؟ ثم أقسم إن الله عافاه ليضربنها مئة ضربة ؛ فلما طال عليه البلاء ، جاءه أولئك النفر الذين كانوا معه قد آمنوا به وصدّقوه، معهم فتى حديث السنّ ، قد كان آمن به وصدّقه ، فجلسوا إلى أيوب ونظروا إلى ما به من البلاء ، فأعظموا ذلك وفظعوا به ، وبلغ من أيوب صلوات الله عليه مجهوده، وذلك حين أراد الله أن يفرّج عنه ما به ؛ فلما رأى أيوب ما أعظموا مما أصابه ، قال : أى ربّ لأىّ شىء خلقتنى ؟ ولو كنت إذ قضيت علىّ البلاء تركتنى فلم تخلقنى ، ليتنى كنت دما ألقتنى أمى ، ثم ذكر نحو حديث ابن عسكر ، عن إسماعيل بن عبد الكريم ، إلى : وكابدوا الليل ، واعتزلوا الفراش ، وانتظروا الأسحار ، ثم زاد فيه : أولئك الآمنون الذى لا يخافون ، ولا يهتمون ولا يحزنون ؛ فأين عاقبة أمرك يا أيوب من عواقبهم ؟ .

قال فتى حضرهم ، وسمع قولهم ، ولم يفطنوا له ، ولم يأبهوا لمجلسه ، وإنما قيّضه الله لهم ، لما كان من جورهم فى المنطق وشططهم ؛ فأراد الله أن يصغر به إليهم أنفسهم ، وأن يسفّه بصغره لهم أحلامهم ؛ فلما تكلم تمادى فى الكلام ، فلم يزدد إلا حكما ، وكان القوم من شأنهم الاستماع والخشوع إذا وُعظوا أو ذُكّروا ؛ فقال : إنكم تكلمتم قبلى أيها الكهول ، وكنتم أحقّ بالكلام وأولى به منى ، لحقّ أسنانكم ، ولأنكم جربتم قبلى ، ورأيتم وعلمتم ما لم أعلم ، وعرفتم ما لم أعرف ، ومع ذلك قد تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ، ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ، ومن الأمر أجمل من الذى أتيتم ، ومن الموعظة أحكم من الذى وصفتم ، وقد كان لأيوب عليكم من الحقّ والذّمام أفضلُ من الذى وصفتم ، هل تدرون أيها الكهول حقّ من انتقصتم ؟ وحرمة من انتهكتم ؟ ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ؟ ولم تعلموا أيها الكهول أن أيوب نبىّ الله وخيرته وصفوته من أهل الأرض يومكم هذا ، اختاره الله لوحيه ، واصطفاه لنفسه ، وأتمنه على نبوّته ، ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على أنه سخط شيئا من أمره مذ آتاه ما آتاه إلى يومكم هذا ، ولا على أنه نزع منه شيئا من الكرامة التى أكرمه بها مذ آتاه ما آتاه إلى يومكم هذا ، ولا أن أيوب غيّر الحقّ فى طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا ، فإن كان البلاء هو الذى أزرى به عندكم ، ووضعه فى أنفسكم ، فقد علمتم أن الله يبتلى النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، ثم ليس بلاؤه لأولئك بدليل سخطه عليهم ، ولا لهوانه لهم ، ولكنها كرامة وخيرة لهم ، ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة ، ولا فى النبوّة ولا فى الأثرة ولا فى الفضيلة ولا فى الكرامة ، إلا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحابة ، لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذُل أخاه عند البلاء ، ولا يعيره بالمصيبة بما لا يعلم وهو مكروب حزين ، ولكن يرحمه ويبكى معه ، ويستغفر له ، ويحزن لحزنه ، ويدله على مراشد أمره ، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا ، فالله الله أيها الكهول فى أنفسكم .

قال : ثم أقبل على أيوب صلى الله عليه وسلم فقال : وقد كان فى عظمة الله وجلاله وذكر الموت ، ما يقطع لسانك ، ويكسر قلبك ، وينسيك حججك ، ألم تعلم يا أيوب أن لله عبادا أسكتتهم خشيته من غير عىّ ولا بكم ؟ وإنهم لهم الفصحاء النطقاء النبلاء الألباء ، العالمون بالله وبآياته ، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله

انقطعت ألسنتهم . واقشعرّت جلودهم ، وانكسرت قلوبهم ، وطاشت عقولهم إعظاما لله، وإعزازا وإجلالا فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية، يعدّون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين ، وإنهم لأنزاه برآء . ومع المقصّرين والمفرّطين ، وإنهم لأكياس أقوياء ، ولكنهم لايستكثرون لله الكثير ، ولا يرضون لله بالقليل . ولا يدلّون عليه بالأعمال فهم مروّعون مفزعون مغتمون خاشعون وجلون مستكينون معترفون ، متى ما رأيتهم يا أيوب .

قال أيوب : إن الله يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب الصغير والكبير ، فمتى نبتت فى القلب يظهرها الله على اللسان . وليست تكون الحكمة من قبل السنّ . ولا الشيبة ، ولا طول التجربة ، وإذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم يسقط منزله عند الحكماء ، وهم يرون عليه من الله نور الكرامة ، ولكنكم قد أعجبتكم أنفسكم ، وظننتم أنكم عوفيتم باحسانكم . فهنالك بغيتم وتعززتم ، ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ، ثم صدقتم أنفسكم لوجدتم لكم عيوبا سترها الله بالعافية التى ألبسكم ، ولكنى قد أصبحت اليوم وليس لى رأى ولا كلام معكم . قد كنت فيما خلا مسموعا كلامى ، معروفا حقى ، منتصفا من خصمى ، قاهرا لمن هو اليوم يقهرنى ، مهيبا مكانى ، والرجال مع ذلك ينصتون لى ويوقروني ، فأصبحت اليوم قد انقطع رجائى ، ورفع حذرى . وملّنى أهلى ، وعقنى أرحامى ، وتنكرت لى معارفى ، ورغب عنى صديقى ، وقطعنى أصحابى ، وكفرنى أهل بيتى . وجحدت حقوقى ، ونسيت صنائعى ، أصرخ فلا يصرخوننى ، وأعتذر فلا يعذروننى ، وإن قضاءه هو الذى أذلنى ، وأقمأنى ، وأخسأنى ، وإن سلطانه هو الذى أسقمنى ، وأنحل جسمى ، ولو أن ربى نزع الهيبة التى فى صدرى ، وأطلق لسانى حتى أتكلم بملء فمى ، ثم كان ينبغى للعبد أن يحاجّ عن نفسه . ارجوت أن يعافينى عند ذلك مما بى ، ولكنه ألقانى ، وتعالى عنى ، فهو يرانى ، ولا أراه ، ويسمعنى ولا أسمعه ، لانظر إلىّ فرحمنى ، ولا دنا منى ولا أدنانى ، فأدلى بعذرى ، وأتكلم ببراءتى ، وأخاصم عن نفسى ،

لما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده ، أظله غمام حتى ظنّ أصحابه أنه عذاب ، ثم نودى منه : ثم قيل له : يا أيوب ، إن الله يقول : ها أنا ذا قد دنوت منك ، ولم أزل منك قريبا ، فقم فأدل بعذرك الذى زعمت . وتكلم ببراءتك ، وخاصم عن نفسك ، واشدد إزارك ، ثم ذكر نحو حديث ابن عسكر ، عن إسماعيل . إلى آخره . وزاد فيه : ورحمتى سبقت غضبى ، فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاؤك . وقد وهبت لك أهلك ، ومثلهم معهم ، ومالك ومثله معه : وزعموا : ومثله معه لتكون لمن خلفك آية . ولتكون عبرة لأهل البلاء ، وعزاء للصابرين ، فركض برجله ، فانفجرت له عين ، فدخل فيها فاغتسل . فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء ، ثم خرج فجلس ، وأقبلت امرأته تلتمسه فى مضجعه ، فلم تجده ، فقامت كالوالهة متلدّدة ، ثم قالت : يا عبد الله ، هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا ؟ قال : لا ، ثم تبسّم ، فعرفته بمضحكه ، فاعتنقته .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبه ،

قال : فحدثت عبد الله بن عباس حديثه ، واعتناقها إياه ، فقال عبد الله : فوالذى نفس عبد الله بيده مافارقته من عناقه حتى مرّ بها كلّ مال لهما وولد .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : وقد سمعت بعض من يذكر الحديث عنه أنه دعاها حين سألت عنه ، فقال لها : وهل تعرفينه إذرأيته ؟ قالت : نعم ، ومالى لاأعرفه ؟ فتبسّم ، ثم قال : ها أنا هو ، وقد فرّج الله عنى ما كنت فيه ، فعند ذلك اعتنقته . قال وهب : فأوحى الله فى قسمه ليضربنها فى الذى كلمته ،أن (وخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فاضْرِبْ بِهِ ولا تَحْنَثْ) أى قد برّت يمينك، يقول الله تعالى (إنّا وَجَدْناه صَابِرًا ، نِعْمَ العَبْدُ إنّهُ أوّابٌ) يقول الله (وَوَهَبْنا لَهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنّا ، وَذِكْرَى لأُولى الألْبابِ) .

حدثنا يحيى بن طلحة اليربوعى ، قال : ثنا فضيل بن عياض ، عن هشام ، عن الحسن ، قال : لقد مكث أيوب مطروحا على كناسة سبع سنين وأشهرا ما يسأل الله أن يكشف مابه . قال : وما على وجه الأرض خلق أكرم على الله من أيوب ، فيزعمون أن بعض الناس قال : لو كان لربّ هذا فيه حاجة ما صنع به هذا ، فعند ذلك دعا .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن يونس ، عن الحسن ، قال : بقى أيوب على كناسة لبنى إسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف عليه الدوابّ .

حدثنى محمد بن إسحاق ، قال : ثنا يحيى بن معين ، قال : ثنا ابن عيينة ، عن عمرو ، عن وهب بن منبه ، قال : لم يكن بأيوب أكلة ، إنما كان يخرج به مثل ثدى النساء ثم ينقفه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا مخلد بن حسين ، عن هشام ، عن الحسن ، وحجاج عن مبارك ، عن الحسن : زاد أحدهما على الآخر قال : إن أيوب آتاه الله مالا ، وأوسع عليه ، وله من النساء والبقر والغنم والإبل ، وإن عدوّ الله إبليس قيل له : هل تقدر أن تفتن أيوب ؟ قال : ربّ إن أيوب أصبح فى دنيا من مال وولد ، ولا يستطيع أن لايشكرك ، ولكن سلطنى على ماله وولده ، فسترى كيف يطيعنى ويعصيك ، قال : فسلطه على ماله وولده ، قال : فكان يأتى بالماشية من ماله من الغنم فيحرقها بالنيران ، ثم يأتى أيوب ، وهو يصلى متشبها براعى الغنم ، فيقول : يا أيوب تصلى لربك ماترك الله لك من ماشيتك شيئا من الغنم إلا أحرقها بالنيران ، وكنت ناحية فجئت لأخبرك ، قال : فيقول أيوب : اللهمّ أنت أعطيت، وأنت أخذت ، مهما تبقى نفسى أحمدك على حُسن بلائك ، فلا يقدر منه على شىء مما يريد ، ثم يأتى ماشيته من البقر فيحرقها بالنيران ، ثم يأتى أيوب فيقول له ذلك ، ويردّ عليه أيوب مثل ذلك . قال : وكذلك فعل بالإبل حتى ما ترك له من ماشية حتى هدم البيت على ولده ، فقال : يا أيوب أرسل الله على ولدك من هدم عليهم البيوت ، حتى هلكوا ؛ فيقول أيوب مثل ذلك ، قال ربّ هذا حين أحسنت إلىّ الإحسان كله ؛ قد كنت قبل اليوم يشغلنى حبّ المال بالنهار ، ويشغلنى حبّ الولد بالليل شفقة عليهم ، فالآن أفرغ سمعى

وبصرى ، وليلى ونهارى بالذكر والحمد ، والتقديس والتهليل ، فينصرف عدوّ الله من عنده لم يصب منه شيئا مما يريد .

قال : ثم إن الله تبارك وتعالى قال : كيف رأيت أيوب ؟ قال إبليس : أيوب قد علم أنك سترد عليه ماله وولده . ولكن سلطني على جسده ، فإن أصابه الضرّ فيه أطاعني وعصاك ، قال : فسلط على جسده ، فأتاه فنفخ فيه نفخة قرح من لدن قرنه إلى قدمه ، قال : فأصابه البلاء بعد البلاء ، حتى حمل فوضع على مزبلة كناسة لبنى إسرائيل ، فلم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ، ولا أحد يقربه غير زوجته ، صبرت معه بصدق ، وكانت تأتيه بطعام ، وتحمد الله معه إذا حمد ، وأيوب على ذلك لايفتر من ذكر الله ، والتحميد والثناء على الله ، والصبر على ما ابتلاه الله . قال الحسن : فصرخ إبليس عدوّ الله صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض ، جزعا من صبر أيوب ، فاجتمعوا إليه وقالوا له : جمعتنا ، ما خبرك ؟ ما أعياك ؟ قال : أعيانى هذا العبد الذى سألت ربى أن يسلطنى على ماله وولده ، فلم أدع له مالا ولا ولدا ، فلم يزدد بذلك إلا صبرا وثناء على الله وتحميدا له ، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة بنى إسرائيل ، لايقربه إلا امرأته ، فقد افتضحت بربى ، فاستعنت بكم ، فأعينونى عليه ، قال : فقالوا له : أين مكرك ؟ أين علمك الذى أهلكت به من مضى ، قال : بطل ذلك كله فى أيوب ، فأشيروا علىّ ، قالوا : نشير عليك ، أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة ، من أين أتيته ؟ قال : من قبل امرأته ، قالوا : فشأنك بأيوب من قبل امرأته ، فإنه لايستطيع أن يعصيها ، وليس أحد يقربه غيرها ، قال : أصبتم ، فانطلق حتى أتى امرأته وهى تتصدق ، فتمثل لها فى صورة رجل ، فقال : أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت : هو ذاك يحك قروحه ، ويتردد الدواب فى جسده ، فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع ، فوقع فى صدرها ، فوسوس إليها ، فذكرها ما كانت فيه من النعم والمال والدواب ، وذكرها جمال أيوب وشبابه ، وما هو فيه من الضرّ ، وأن ذلك لاينقطع عنهم أبدا . قال الحسن : فصرخت ، فلما صرخت علم أن قد صرخت وجزعت ، أتاها بسخلة ، فقال : ليذبح هذا إلىّ أيوب ويبرأ ، قال : فجاءت تصرخ يا أيوب ، يا أيوب ، حتى متى يعذبك ربك ، ألا يرحمك ؟ أين الماشية ؟ أين المال ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين لونك الحسن ؟ قد تغير ، وصار مثل الرماد ؟ أين جسمك الحسن الذى قد بلى وتردد فيه الدواب ؟ اذبح هذه السخلة واسترح ، قال أيوب : أتاك عدوّ الله ، فنفخ فيك ، فوجد فيك رفقا ، وأجبته ؟ ويلك ! أرأيت ماتبكين عليه مما تذكرين ، مما كنا فيه من المال والولد والصحة والشباب ؟ من أعطانيه ؟ قالت : الله ، قال : فكم متعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة ، قال : فمذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء الذى ابتلانا به ؟ قالت : منذ سبع سنين وأشهر ، قال : ويلك ! والله ما عدلت ، ولا أنصفت ربك ، ألا صبرت حتى نكون فى هذا البلاء الذى ابتلانا ربنا به ثمانين سنة ، كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة ؟ والله لئن شفانى الله لأجلدنك مئة جلدة ، هيه أمرتينى أن أذبح لغير الله ، طعامك وشرابك الذى تأتينى به علىّ حرام ، وأن أذوق ما تأتينى به بعد ، إذ قلت لى هذا فاغربى عنى ، فلا أراك ، فطردها ، فذهبت ، فقال الشيطان : هذا قد وطّن نفسه ثمانين سنة على هذا البلاء الذى هو فيه ،

فباء بالغلبة ورفضه . ونظر أيوب إلى امرأته وقد طردها ، وليس عنده طعام ، ولا شراب ، ولا صديق . قال الحسن : ومرّ به رجلان وهو على تلك الحال ، ولا والله ما على ظهر الأرض يومئذ أكرم على الله من أيوب ، فقال أحد الرجلين لصاحبه: لو كان لله فى هذا حاجة ، ما بلغ به هذا ، فلم يسمع أيوب شيئا كان أشدّ عليه من هذه الكلمة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن جرير بن حازم ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، قال : كان لأيوب أخوان ، فأتياه ، فقاما من بعيد لايقدران أن يدنوا منه من ريحه ، فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم فى أيوب خيرا ما ابتلاه بما أرى ، قال : فما جزع أيوب من شىء أصابه جزعه من كلمة الرجل ، فقال أيوب : اللهمّ إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة شبعان قطّ وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى ، فصُدِّق وهما يسمعان، ثم قال : اللهمّ إن كنت تعلم أنى لم أتخذ قميصين قطّ وأنا أعلم مكان عار فصدقنى ، فصُدِّق وهما يسمعان ، قال : ثم خرّ ساجدا .

فحدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : فحدثنى مخلد بن الحسنين ، عن هشام ، عن الحسن ، قال: فقال (رَبِّ إِنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ) ثم ردّ ذلك إلى ربه فقال (وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين، قال : ثنى حجاج ، عن جرير ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، قال : فقيل له : ارفع رأسك فقد استجيب لك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين، قال : ثنى حجاج ، عن مبارك ، عن الحسن ومخلد ، عن هشام ، عن الحسن ، دخل حديث أحدهما فى الآخر قالا : فقيل له (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) فركض برجله فنبعت عين ، فاغتسل منها ، فلم يبق عليه من دائه شىء ظاهر إلا سقط ، فأذهب الله كل ألم وكل سقم ، وعاد إليه شبابه وجماله، أحسن ما كان وأفضل ما كان ، ثم ضرب برجله ، فنبعت عين أخرى فشرب منها ، فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج ،فقام صحيحا،وكُسِىَ حُلة ، قال : فجعل يتلفت ولا يرى شيئا مما كان له من أهل ومال إلا وقد أضعفه الله له ، حتى والله ذُكر لنا أن الماء الذى اغتسل به ، تطاير على صدره جرادا من ذهب ، قال : فجعل يضمه بيده ، فأوحى الله إليه : يا أيوب ألم أغنك ؟ قال : بلى ، ولكنها بركتك ، فمن يشبع منها ، قال : فخرج حتى جلس على مكان مشرف ، ثم إن امرأته قالت : أرأيت إن كان طردنى إلى من أكله ؟ أدعه يموت جوعا أو يضيع فتأكله السباع ؟ لأرجعنّ إليه فرجعت ،فلا كُناسة ترى،ولا من تلك الحال التى كانت،وإذا الأمور قد تغيرت ، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى ، وذلك بعين أيوب ، قالت : وهابت صاحب الحُلة أن تأتيه فتسأل عنه ، فأرسل إليها أيوب فدعاها ، فقال : ما تريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت: أردت ذلك المبتلَى الذى كان منبوذا على الكُناسة، لاأدرى أضاع ، أم ما فعل ؟ قال لها أيوب : ما كان منك ؟ فبكت وقالت : بعلى ، فهل رأيته ؟ وهى تبكى إنه قد كان هاهنا ،قال : وهل تعرفينه إذا رأيتيه ؟ قالت : وهل يخفى على

أحد رآه ؟ ثم جعلت تنظر إليه وهى تهابه ، ثم قالت : أما إنه كان أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحا . قال : فإنى أنا أيوب الذى أمرتنى أن أذبح للشيطان ، وإنى أطعت الله وعصيت الشيطان ، فدعوت الله فردّ على ماترين ؛ قال الحسن : ثم إن الله رحمها بصبرها معه على البلاء أن أمره تخفيفا عنها أن يأخذ جماعة من الشجر فيضربها ضربة واحدة تخفيفا عنها بصبرها معه .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : قوله (وأيُّوبَ إذْ نادَى رَبَّهُ أنّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ) . . . . إلى آخر الآيتين ، فإنه لما مسه الشيطان بنصب وعذاب ، أنساه الله الدعاء أن يدعوه ، فيكشف ما به من ضرّ ، غير أنه كان يذكر الله كثيرا ، ولا يزيده البلاء فى الله إلا رغبة وحسن إيمان ؛ فلما انتهى الأجل ، وقضى الله أنه كاشف ما به من ضرّ أذن له فى الدعاء ، ويسَّره له ، وكان قبل ذلك يقول تبارك وتعالى : لاينبغى لعبدى أيوب أن يدعونى ، ثم لاأستجيب له ، فلما دعا استجاب له ، وأبدله بكل شىء ، ذهب له ضعفين ردّ إليه أهله ومثلهم معهم ، وأثنى عليه فقال : (إنَّا وَجَدْناه صَابِرًا . نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أوّابٌ) .

واختلف أهل التأويل فى الأهل الذى ذكر الله فى قوله (وآتَيْناهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) أهم أهله الذين أوتيهم فى الدنيا ، أم ذلك وعد وعده الله أيوب أن يفعل به فى الآخرة ؟ فقال بعضهم : إنما آتى الله أيوب فى الدنيا مثل أهله الذين هلكوا ، فإنهم لم يُرَدّوا عليه فى الدنيا ، وإنما وعد الله أيوب أن يؤتيه إياهم فى الآخرة .

حدثنى أبو السائب سلم بن جنادة ، قال : ثنا ابن إدريس ، عن ليث ، قال : أرسل مجاهد رجلا يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول الله لأيوب (وآتَيْناهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) فقال : قيل له : إن أهلك لك فى الآخرة ، فإن شئت عجلناهم لك فى الدنيا ، وإن شئت كانوا لك فى الآخرة ، وآتيناك مثلهم فى الدنيا ، فقال : يكونون لى فى الآخرة ، وأُوتى مثلهم فى الدنيا ، قال : فرجع إلى مجاهد فقال أصاب

وقال آخرون : بل ردّهم إليه بأعيانهم ، وأعطاه مثلهم معهم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام بن سلم ، عن أبى سنان ، عن ثابت ، عن الضحاك ، عن ابن مسعود (وآتَيْناهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) قال : أهله بأعيانهم .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، لما دعا أيوب استجاب الله له ، وأبدله بكل شىء ذهب له ضعفين ، ردّ إليه أهله ومثلهم معهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَوَهَبْنا لَهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) قال : أحياهم بأعيانهم ، وردّ إليه مثلهم[1] .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد ، فى قوله (وآتَيْناهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ

(١) هذا يناسب الاستشهاد على عدم ردهم بأعيانهم ، فلعله مؤخر عن تقديم .

مَعَهُمْ) قال : قيل له : إن شئت أحييناهم لك ، وإن شئت كانوا لك فى الآخرة ، وتعطى مثلهم فى الدنيا ، فاختار أن يكونوا فى الآخرة ومثلهم فى الدنيا .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) قال الحسن وقتادة : أحيا الله أهله بأعيانهم ، وزاده إليهم مثلهم .

وقال آخرون : بل آتاه المثل من نسل ماله الذى ردّه عليه وأهله ، فأما الأهل والمال فإنه ردّهما عليه.

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن رجل ، عن الحسن (وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) قال : من نسلهم .

وقوله (رَحْمَةً) نصبت بمعنى : فعلنا بهم ذلك رحمة منا له . وقوله (وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) يقول : وتذكرة للعابدين ربهم ، فعلنا ذلك به ليعتبروا به ، ويعلموا أن الله قد يبتلى أولياءه ومن أحبّ من عباده فى الدنيا بضروب من البلاء فى نفسه وأهله وماله ، من غير هوان به عليه ، ولكن اختبارا منه له ليبلغ بصبره عليه ، واحتسابه إياه ، وحسن يقينه منزلته التى أعدها له تبارك وتعالى من الكرامة عنده .

وقد حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن كعب القرظى ، فى قوله (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) قال : أيما مؤمن أصابه بلاء فذكر ما أصاب أيوب فليقل : قد أصاب من هو خير منا نبيا من الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ﴾

يعنى تعالى ذكره بإسماعيل : إسماعيل بن إبراهيم صادق الوعد ، وبإدريس : أخنوخ ، وبذى الكفل : رجلا تكفل من بعض الناس ، إما من نبيّ وإما من ملك من صالحى الملوك بعمل من الأعمال ، فقام به من بعده ، فأثنى الله عليه حسن وفائه بما تكفل به ، وجعله من المعدودين فى عباده ، مع من حمد صبره على طاعة الله . وبالذى قلنا فى أمره جاءت الأخبار عن سلف العلماء .

ذكر الرواية بذلك عنهم

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، أن نبيا من الأنبياء ، قال : من تكفل لى أن يصوم النهار ويقوم الليل ، ولا يغضب ، فقام شاب فقال : أنا ، فقال : اجلس . ثم عاد فقال : من تكفل لى أن يقوم الليل ، ويصوم النهار ، ولا يغضب ؟ فقام ذلك الشاب فقال : أنا ، فقال : اجلس . ثم عاد فقال : من تكفل لى أن يقوم الليل ، ويصوم النهار ، ولا يغضب ؟ فقام ذلك الشاب فقال : أنا ، فقال : تقوم الليل ، وتصوم النهار ، ولا تغضب

فمات ذلك النبيّ ، فجلس ذلك الشاب مكانه يقضي بين الناس ، فكان لايغضب . فجاءه الشيطان فى صورة إنسان ليُغضبه وهو صائم يريد أن يَقيل ، فضرب الباب ضربا شديدا ، فقال: من هذا ؟ فقال : رجل له حاجة ، فأرسل معه رجلا ، فقال: لاأرضى بهذا الرجل ، فأرسل معه آخر ، فقال : لاأرضى بهذا ، فخرج إليه فأخذ بيده ، فانطلق معه ، حتى إذا كان فى السوق خلاه وذهب ، فسُمّي ذا الكفل .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عفان بن مسلم ، قال : ثنا وهيب ، قال : ثنا داود ، عن مجاهد ، قال : لما كبر اليسع قال : «لو أنى استخلفت على الناس رجلا يعمل عليهم فى حياتى ، حتى أنظر كيف يعمل، قال: فجمع الناس ، فقال: من يتقبّل لى بثلاث أستخلفه: يصوم النهار ، ويقوم الليل، ولا يغضب ». قال : فقام رجل تزدريه العين ، فقال : أنا ، فقال : أنت تصوم النهار ، وتقوم الليل ، ولا تغضب ؟ قال : نعم ؛ قال: فردّهم ذلك اليوم. وقال مثلها اليوم الآخر . فسكت الناس وقام ذلك الرجل، فقال: أنا ، فاستخلفه . قال : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان ، فأعياهم ، فقال : دعونى وإياه ، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير ، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لاينام الليل والنهار إلا تلك النومة ، فدقّ الباب ، فقال من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم ، قال : فقام ففتح الباب ، فجعل يقصّ عليه ، فقال : إن بينى وبين قومى خصومة ، وإنهم ظلمونى ، وفعلوا بى وفعلوا ، فجعل يطوّل عليه ، حتى حضر الرَّواح ، وذهبت القائلة ، وقال : إذا رحت فأتنى آخذ لك بحقك ، فانطلق وراح ، فكان فى مجلسه ، فجعل ينظر هل يرى الشيخ ، فلم يره ، فجعل يبتغيه : فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه ؛ فلما رجع إلى القائلة ، فأخذ مضجعه ، أتاه فدقّ الباب ، فقال : من هذا ؟ قال : الشيخ الكبير المظلوم ، ففتح له ، فقال : ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى ، فقال : إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد ، قالوا : نحن نعطيك حقك ، وإذا قمت جحدونى ، قال : فانطلق فإذا رحت فأتنى ، قال : ففاتته القائلة ، فراح فجعل ينظر فلا يراه ، فشقّ عليه النعاس ، فقال لبعض أهله : لاتدعنّ أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام ، فإنى قد شقّ علىّ النوم ؛ فلما كان تلك الساعة جاء ، فقال له الرجل وراءك ، فقال : إنى قد أتيته أمس ، فذكرت له أمرى ، قال : والله لقد أمرنا أن لاندع أحدا يقربه ؛ فلما أعياه نظر فرأى كوّة فى البيت ، فتسوّر منها ، فإذا هو فى البيت ، وإذا هو يدقّ الباب ، قال : واستيقظ الرجل فقال : يافلان ، ألم آمرك ؟ قال : أما من قِبَلى والله فلم تُؤْتَ ، فانظر من أين أُتيت ، قال : فقام إلى الباب ، فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا هو معه فى البيت ، فعرفه فقال : أعدوّ الله ؟ قال : نعم أعييتنى فى كل شيء ، ففعلت ما ترى لأغضبك ، فسماه ذا الكفل ، لأنه تكفل بأمر فوفى به .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، فى قوله : (وذا الكفل) قال رجل صالح غير نبيّ ، تكفل لنبيّ قومه أن يكفيه أمر قومه ، ويقيمه لهم ، ويقضى بينهم بالعدل ، ففعل ذلك ، فسمى ذا الكفل .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ،

قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد بنحوه ، إلا أنه قال : ويقضي بينهم بالحق .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن أبي معشر ، عن محمد بن قيس قال : كان فى بنى إسرائيل مِلك صالح ، فكبر ، فجمع قومه فقال : أيكم يكفل لى بِمُلكى هذا ، على أن يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويحكم بين بنى إسرائيل بما أنزل الله ولا يغضب ؟ قال : فلم يقم أحد إلا فتى شاب ، فازدراه لحداثة سنه ، فقال : أيكم يكفل لى بملكى هذا ، على أن يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب ، ويحكم بين بنى إسرائيل بما أنزل الله ، فلم يقم إلا ذلك الفتى ؛ قال : فازدراه ، فلما كانت الثالثة قال مثل ذلك ، فلم يقم إلا ذلك الفتى ، فقال : تعال ، فخلى بينه وبين ملكه ، فقام الفتى ليلة ؛ فلما أصبح جعل يحكم بين بنى إسرائيل ؛ فلما انتصف النهار دخل ليقيل ، فأتاه الشيطان فى صورة رجل من بنى آدم ، فجذب ثوبه ، فقال : أتنام والخصوم ببابك ؟ قال : إذا كان العشية فأتنى ، قال : فانتظره بالعشىّ فلم يأته ؛ فلما انتصف النهار دخل لِيَقِيل ، جذب ثوبه وقال : أتنام والخصوم على بابك ؟ قال : قلت لك : ائتنى العشىّ فلم تأتنى ، ائتنى بالعشىّ ؛ فلما كان بالعشىّ انتظره فلم يأت ؛ فلما دخل ليقيل جذب ثوبه ، فقال : أتنام والخصوم ببابك ؟ قال : أخبرنى من أنت ، لو كنت من الإنس سمعت ما قلت ، قال : هو الشيطان ، جئت لأفتنك ، فعصمك الله منى . فقضى بين بنى إسرائيل بما أنزل الله زمانا طويلا ، وهو ذو الكفل ، سمى ذا الكفل لأنه تكفل بالملك .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قَتادة ، عن أبي موسى الأشعرىّ ، قال وهو يخطب الناس : إن ذا الكفل لم يكن نبيا ، ولكن كان عبدا صالحا ، تكفل بعمل رجل صالح عند موته ، كان يصلى لله كل يوم مئة صلاة ، فأحسن الله عليه الثناء فى كفالته إياه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا الحكم ، قال : ثنا عمرو ، قال : أمَّا ذو الكفل فإنه كان على بنى إسرائيل مَلِك ؛ فلما حضره الموت ، قال : من يكفل لى أن يكفينى بنى إسرائيل ، ولا يغضب ، ويصلى كل يوم مئة صلاة ، فقال ذو الكفل : أنا ، فجعل ذو الكفل يقضى بين الناس ، فإذا فرغ صلى مئة صلاة ، فكاده الشيطان ، فأمهله حتى إذا قضى بين الناس ، وفرغ من صلاته ، وأخذ مضجعه فنام ، أتى الشيطان بابه فجعل يدقه ، فخرج إليه ، فقال : ظُلمت وصُنع بى ، فأعطاه خاتمه وقال : اذهب فأتنى بصاحبك ، وانتظره ، فأبطأ عليه الآخر ، حتى إذا عرف أنه قد نام وأخذ مضجعه ، أتى الباب أيضا كى يغضبه ، فجعل يدقه ، وخدش وجه نفسه ، فسالت الدماء ، فخرج إليه فقال : مالك ؟ فقال : لم يتبعنى ، وضُربت وفعل ، فأخذه ذو الكفل ، وأنكر أمره ، فقال : أخبرنى من أنت ؟ وأخذه أخذا شديدا ، قال : فأخبره من هو .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (وَذَا الكِفْلِ) قال : قال أبو موسى الأشعرىّ : لم يكن ذو الكفل نبيا ، ولكنه كَفَل بصلاة رجل كان يصلى كل يوم مئة صلاة ، فوفى ، فكفل بصلاته ، فلذلك سمى ذا الكفل ، ونُصِبَ إسماعيل وإدريس وذا الكفل ، عطفا على

أيوب ، ثم استؤنف بقوله (كُلٌّ) فقال (كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ) ومعنى الكلام : كلهم من أهل الصبر فيما نابهم فى الله .

وقوله (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) يقول تعالى ذكره : وأدخلنا إسماعيل وإدريس وذا الكفل ، والهاء والميم عائدتان عليهم (فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) يقول : إنهم ممن صلح ، فأطاع الله ، وعمل بما أمره ..

القول في تأويل قوله تعالى :

وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝

۝ يقول تعالى ذكره : واذكر يا محمد ذا النون ، يعنى صاحب النون ، والنون : الحوت . وإنما عنى بذى النون : يونس بن متى ، وقد ذكرنا قصته فى سورة يونس بما أغنى عن ذكره فى هذا الموضع . وقوله (إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا) يقول : حين ذهب مغاضبا .

واختلف أهل التأويل فى معنى ذهابه مغاضبا ، وعمن كان ذهابه ، وعلى من كان غضبه . فقال بعضهم : كان ذهابه عن قومه وإياهم غاضب .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا) يقول : غضب على قومه .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا) أما غضبه ، فكان على قومه .

وقال آخرون : ذهب عن قومه مغاضبا لربه ، إذ كشف عنهم العذاب بعد ما وعدهموه .

ذكر من قال ذلك ، وذكر سبب مغاضبته ربه فى قولهم

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن يزيد بن زياد ، عن عبد الله بن أبى سلمة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : بعثه الله ، يعنى يونس إلى أهل قريته ، فردّوا عليه ما جاءهم به ، وامتنعوا منه ، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه : إنى مرسل عليهم العذاب فى يوم كذا وكذا ، فاخرج من بين أظهرهم ، فأعلم قومه الذى وعده الله من عذابه إياهم ، فقالوا : ارمقوه ، فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم ، فلما كانت الليلة التى وُعدوا بالعذاب فى صبحها أدلج ورآه القوم ، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم ، وفرّقوا بين كل دابة وولدها ، ثم عجوا إلى الله ، فاستقالوه ، فأقالهم ، وتنظّر يونس الخبر عن القرية وأهلها ، حتى مرّ به مارّ ، فقال : ما فعل أهل القرية ؟ فقال : فعلوا أن نبيهم خرج من بين أظهرهم ، عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب ، فخرجوا من قريتهم إلى براز من

الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها ، وعجُّوا إلى الله ، وتابوا إليه ، فقبل منهم ، وأخَّر عنهم العذاب ؛ قال : فقال يونس عند ذلك وغضب : والله لاأرجع إليهم كذّابا أبدا . وعدتهم العذاب فى يوم ثم رُدّ عنهم ، ومضى على وجهه مغاضبا .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا عوف ، عن سعيد بن أبى الحسن ، قال : بلغنى أن يونس لما أصاب الذنب ، انطلق مغاضبا لربه ، واستزلّه الشيطان .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة ، عن مجالد بن سعيد ، عن الشعبىّ ، فى قوله (إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبا) قال : مغاضبا لربه .

حدثنا الحارث ، قال : ثنا عبد العزيز ، قال : ثنا سفيان ، عن إسماعيل بن عبد الملك ، عن سعيد بن جبير ، فذكر نحو حديث ابن حميد ، عن سلمة ، وزاد فيه : قال : فخرج يونس ينظر العذاب ، فلم ير شيئا ، قال : جرّبوا علىّ كذبا ، فذهب مغاضبا لربه حتى أتى البحر .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا محمد بن إسحاق ، عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، عن وهب بن منبه اليمانى ، قال : سمعته يقول : إن يونس بن متى كان عبدا صالحا ، وكان فى خلقه ضيق ؛ فلما حملت عليه أثقال النبوّة ، ولها أثقال لايحملها إلاقليل ، تفسخ تحتها تفسخ الربع [1] تحت الحمل ، فقذفها بين يديه ، وخرج هاربا منها ، يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ - وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ) : أى لاتلق أمرى كما ألقاه ، وهذا القول ، أعنى قول من قال : ذهب عن قومه مغاضبا لربه ، أشبه بتأويل الآية ، وذلك لدلالة قوله (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) على ذلك ، على أن الذين وجهوا تأويل ذلك إلى أنه ذهب مغاضبا لقومه ، إنما زعموا أنهم فعلوا ذلك استنكارا منهم أن يغاضب نبىّ من الأنبياء ربه ، واستعظاما له . وهم بقيلهم أنه ذهب مغاضبا لقومه قد دخلوا فى أمر أعظم مما أنكروا ، وذلك أن الذين قالوا : ذهب مغاضبا لربه ، اختلفوا فى سبب ذهابه كذلك . فقال بعضهم : إنما فعل مافعل من ذلك كراهة أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم ، واستحيا منهم ، ولم يعلم السبب الذى دفع به عنهم البلاء . وقال بعض من قال هذا القول : كان من أخلاق قومه الذين فارقهم قتل من جرّبوا عليه الكذب ، عسى أن يقتلوه من أجل أنه وعدهم العذاب ، فلم ينزل بهم ما وعدهم من ذلك . وقد ذكرنا الرواية بذلك فى سورة يونس ، فكرهنا إعادته فى هذا الموضع .

وقال آخرون : بل إنما غاضب ربه من أجل أنه أمر بالمصير إلى قوم لينذرهم بأسه ، ويدعوهم إليه ، فسأل ربه أن ينظره ، ليتأهب للشخوص إليهم ، فقيل له : الأمر أسرع من ذلك ، ولم ينظر حتى شاء أن ينظر إلى أن يأخذ نعلا ليلبسها ، فقيل له نحو القول الأوّل ، وكان رجلا فى خلقه ضيق ، فقال : أعجلنى ربى أن آخذ نعلا ، فذهب مغاضبا .

(١) الربع : ولد الناقة أول مايحمل عليه .

ومن ذُكر هذا القول عنه : الحسن البصريّ ، حدثني بذلك الحارث ، قال : ثنا الحسن بن موسى ، عن أبي هلال ، عن شهر بن حوشب ، عنه .

قال أبو جعفر : وليس في واحد من هذين القولين من وصف نبيّ الله يونس صلوات الله عليه شيء إلا وهو دون ما وصفه بما وصفه الذين قالوا : ذهب مغاضبا لقومه ، لأن ذهابه عن قومه مغاضبا لهم ، وقد أمره الله تعالى بالمُقام بين أظهرهم ، ليبلغهم رسالته ، ويحذّرهم بأسه وعقوبته ، على تركهم الإيمان به ، والعمل بطاعته لاشك أن فيه ما فيه ؛ ولولا أنه قد كان صلى الله عليه وسلم أتى ما قاله الذين وصفوه بإتيان الخطيئة ، لم يكن الله تعالى ذكره ليعاقبه العقوبة التي ذكرها في كتابه ؛ ويصفه بالصفة التي وصفه بها ؛ فيقول لنبيه صلى الله عليه وسلم (وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ) ويقول : (فالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ، فَلَوْلا أنهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .

وقوله (فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) اختلف أهل التأويل في تأويله ، فقال بعضهم : معناه : فظنّ أن لن نعاقبه بالتضييق عليه ، من قولهم قدرت على فلان : إذا ضيقت عليه ، كما قال الله جلّ ثناؤه (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ) .

ذكر من قال ذلك

حدثني عليّ ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قوله (فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) يقول : ظنّ أن لن يأخذه العذاب الذي أصابه .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) يقول ؛ ظنّ أن لن نقضيَ عليه عقوبة ، ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه إذ غضب عليهم وفراره ، وعقوبته أخذ النون إياه .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، أنه قال في هذه الآية (فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) قال : فظنّ أن لن نعاقبه بذنبه .

حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي ، قال : ثنا زيد بن حباب ، قال : ثني شعبة ، عن مجاهد ، ولم يذكر فيه الحكم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) قال : يقول : ظنّ أن لن نعاقبه .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة والكلبيّ (فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) قالا : ظنّ أن لن نقضيَ عليه العقوبة .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله

(فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) يقول : ظنّ أن الله لن يقضى عليه عقوبة ، ولا بلاء فى غضبه الذى غضب على قومه ، وفراقه إيّاهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن ابن عباس ، فى قوله (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) قال : البلاء الذى أصابه .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : فظنّ أنه يُعجز ربه ، فلا يقدر عليه .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا عوف ، عن سعيد بن أبى الحسن ، قال : بلغنى أن يونس لما أصاب الذنب ، انطلق مغاضبا لربه ، واستزلّه الشيطان ، حتى ظن أن لن نقدر عليه ، قال : وكان له سلف وعبادة وتسبيح ، فأبى الله أن يدعه للشيطان، فأخذه فقذفه فى بطن الحوت، فمكث فى بطن الحوت أربعين ، من بين ليلة ويوم، فأمسك الله نفسه ، فلم يقتله هناك ، فتاب إلى ربه فى بطن الحوت ، وراجع نفسه ؛ قال : فقال (سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) قال : فاستخرجه الله من بطن الحوت برحمته ، بما كان سلف من العبادة والتسبيح ، فجعله من الصالحين . قال عوف : وبلغنى أنه قال فى دعائه : وبنيت لك مسجداً فى مكان لم يبنه أحد قبلى .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا هوذة ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) وكان له سلف من عبادة وتسبيح ، فتداركه الله بها ، فلم يدعه للشيطان .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الرحمن بن الحارث ، عن إياس بن معاوية المدنى ، أنه كان إذا ذكر عنده يونس، وقوله (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) يقول إياس : فلِم فرّ ؟

وقال آخرون : بل ذلك بمعنى الاستفهام ، وإنما تأويله : أفظنّ أن لن نقدر عليه .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ؟) قال : هذا استفهام ، وفى قوله (فَمَا تُغْنِى النُّذُرُ) قال : استفهام أيضا .

❁ قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال فى تأويل ذلك عندى بالصواب ، قول من قال : عنى به : فظنّ يونس أن لن نحبسه ونضيق عليه ، عقوبة له على مغاضبته ربه .

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الكلمة ، لأنه لايجوز أن يُنْسب إلى الكفر ، وقد اختاره لنبوّته ، ووصفه بأن ظنّ أن ربه يعجز عما أراد به ، ولا يقدر عليه ، وصف له بأنه جهل قدرة الله ، وذلك وصف له بالكفر ، وغير جائز لأحد وصفه بذلك . وأما ما قاله ابن زيد، فإنه قول لو كان فى الكلام دليل على أنه استفهام حسن، ولكنه لادلالة فيه على أن ذلك كذلك، والعرب لاتحذف من الكلام شيئا لهم إليه حاجة، إلا وقد أبقت دليلا على أنه مراد فى الكلام ، فإذا لم يكن فى قوله (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) دلالة على

أن المراد به الاستفهام ، كما قال ابن زيد : كان معلوما أنه ليس به ؛ وإذ فسد هذان الوجهان ، صحّ الثالث وهو ما قلنا .

وقوله (فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ) اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بهذه الظلمات ، فقال بعضهم : عنى بها ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون (فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ) قال : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وكذلك قال أيضا ابن جُرَيْج .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن يزيد بن زياد ، عن عبد الله بن أبى سلمة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : نادى فى الظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت (لاإِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) .

حدثنى محمد بن إبراهيم السلمى ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : أخبرنا محمد بن رفاعة ، قال : سمعت محمد ابن كعب يقول فى هذه الآية (فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ) قال : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ) قال : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ) قال : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

وقال آخرون : إنما عنى بذلك أنه نادى فى ظلمة جوف حوت فى جوف حوت آخر فى البحر ، قالوا : فذلك هو الظلمات .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبى الجعد ، (فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ) قال : أوحى الله إلى الحوت أن لاتضرّ له لحما ولا عظما ، ثم ابتلع الحوت حوت آخر ، قال (فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ) قال : ظلمة الحوت ، ثم حوت ، ثم ظلمة البحر .

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله أخبر عن يونس أنه ناداه فى الظلمات (أَنْ لاإِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) ولا شك أنه قد عنى بإحدى الظلمات : بطن الحوت ، وبالأخرى : ظلمة البحر ، وفى الثالثة اختلاف ، وجائز أن تكون تلك الثالثة : ظلمة الليل ، وجائز أن تكون كون الحوت فى جوف حوت آخر ، ولا دليل يدلّ على أىّ ذلك من أىّ ، فلا قول فى ذلك أولى بالحق من التسليم لظاهر التنزيل .

وقوله (لاإلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحانَكَ) يقول : نادى يونس بهذا القول معترفا بذنبه ، تائبا من خطيئته (إنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فى معصيتى إياك .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن يزيد بن زياد ، عن عبد الله بن أبى سلمة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال (نادَى فى الظُّلُماتِ أنْ لاإلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحانَكَ إنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) معترفا بذنبه ، تائبا من خطيئته .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال أبومعشر : قال محمد بن قيس : قوله (لاإلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحانَكَ) ما صنعتُ من شىء فلم أعبد غيرك (إنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) حين عصيتك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا جعفر بن سليمان ، عن عوف الأعرابى . قال : لما صار يونس فى بطن الحوت ، ظن أنه قد مات ، ثم حرّك رجله ، فلما تحركت سجد مكانه ، ثم نادى : يا ربّ اتخذتُ لك مسجدا فى موضع ما اتخذه أحد .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنى ابن إسحاق عمن حدثه ، عن عبد الله بن رافع ، مولى أمّ سلمة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَمَّا أرَادَ اللهُ حَبْسَ يُونُسَ فِى بَطْنِ الحُوتِ ، أوْحَى اللهُ إلى الحُوتِ : أنْ خُذْهُ ، وَلا تَخْدِشْ لَهُ لَحْما ، وَلا تَكْسِرْ عَظْما ، فأخَذَهُ ثُمَّ هَوَى بِهِ إلى مَسْكَنِهِ مِنَ البَحْرِ فَلَمَّا انْتَهَى بِهِ إلى أسْفَلِ البَحْرِ ، سَمِعَ يُونُسُ حِسًّا ، فَقَالَ فِى نَفْسِهِ : ما هَذَا ؟ قالَ : فَأوْحَى اللهُ إلَيْهِ وَهُوَ فِى بَطْنِ الحُوتِ : إنَّ هَذَا تَسْبِيحُ دَوَابِّ البَحْرِ . قالَ : فَسَبَّحَ وَهُوَ فِى بَطْنِ الحُوتِ ، فَسَمِعَتِ المَلائِكَةُ تَسْبِيحَهُ ، فَقالُوا : يا رَبَّنا إنَّا نَسْمَعُ صَوْتا ضَعِيفا بِأرْضٍ غَرِيبَةٍ ، قالَ : ذَاكَ عَبْدِى يُونُسُ ، عَصَانِى فَحَبَسْتُهُ فِى بَطْنِ الحُوتِ فِى البَحْرِ . قالُوا : العَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِى كانَ يَصْعَدُ إلَيْكَ مِنْهُ فِى كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلٌ صَالِحٌ ؟ قالَ : نَعَمْ ، قالَ : فَشَفَعُوا لَهُ عِنْدَ ذلكَ ، فَأمَرَ الحُوتَ فَقَذَفَهُ فِى السَّاحِلِ . كما قالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى : وَهُوَ سَقِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى ذكره : (فاسْتَجَبْنَا) ليونس دعاءه إيانا ، إذ دعانا فى بطن الحوت ، ونجيناه من الغمّ الذى كان فيه بحبسناه فى بطن الحوت ، وغمه بخطيئته وذنبه (وكَذَلكَ نُنْجِى المُؤْمِنِينَ) يقول جل ثناؤه : وكما أنجينا يونس من كرب الحبس فى بطن الحوت فى البحر إذ دعانا ، كذلك ننجى المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك جاء الأثر .

ذكر من قال ذلك

حدثنا عمران بن بكار الكُلاعىّ ، قال : ثنا يحيى بن صالح ، قال : ثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، قال : ثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، قال : ثنى بشر بن منصور ، عن علىّ بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : سمعت سعد بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اسْمُ اللهِ الَّذِى إِذَا دُعِىَ بِهِ أَجَابَ ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ، دَعْوَةُ يُونُسَ بْنِ مَتَّى . قال : فقلت : يا رسول الله ، هى ليونس بن متى خاصة ، أم لجماعة المسلمين ؟ قالَ : هِىَ لِيُونُسَ بْنِ مَتَّى خاصَّةً ، ولِلْمُؤْمِنِينَ عامَّةً إِذَا دَعَوْا بِهَا . أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى (فَنَادَى فِى الظُّلُماتِ أَنْ لاإِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنا لَهُ ، وَنَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِى المُؤْمِنِينَ) ، فهو شرط الله لمن دعاه بها .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (نُنْجِى المُؤْمِنِينَ) فقرأت ذلك قرّاء الأمصار : سوى عاصم ، بنونين الثانية منهما ساكنة ،من أنجيناه ، فنحن ننجيه . وإنما قرءوا ذلك كذلك ، وكتابته فى المصاحف بنون واحدة ، لأنه لو قرئ بنون واحدة وتشديد الجيم ، بمعنى ما لم يسمّ فاعله ، كان « المؤمنون » رفعا ، وهم فى المصاحف منصوبون ، ولو قرئ بنون واحدة ، وتخفيف الجيم ، كان الفعل للمؤمنين ، وكانوا رفعا ، ووجب مع ذلك أن يكون قوله « نجى » مكتوبا بالألف ، لأنه من ذوات الواو ، وهو فى المصاحف بالياء .

فإن قال قائل : فكيف كتب ذلك بنون واحدة ، وقد علمت أن حكم ذلك إذا قرئ (نُنْجِى) أن يُكتب بنونين ؟ قيل : لأن النون الثانية لما سكنت ، وكان الساكن غير ظاهر على اللسان ، حذفت كما فعلوا ذلك بإلا ، فحذفوا النون من « إنْ » لخفائها ، إذ كانت مندغمة فى اللام من « لا » ، وقرأ ذلك عاصم (نُجِّى المُؤْمِنِينَ) بنون واحدة ، وتثقيل الجيم ، وتسكين الياء ، فان يكن عاصم وجه قراءته ذلك إلى قول العرب ، ضرب الضرب زيدا ، فكنى عن المصدر الذى هو النجاء ، وجعل الخبر ، أعنى خبر ما لم يسمّ فاعله المؤمنين ، كأنه أراد : وكذلك نُجِّى النَّجاءُ المؤمنين ، فكَنَى عن النجاء ، فهو وجه ، وإن كان غيره أصوب ، وإلا فإن الذى قرأ من ذلك على ماقرأه لحنٌ ، لأن المؤمنين اسم على القراءة التى قرأها ما لم يسمّ فاعله ، والعرب ترفع ما كان من الأسماء كذلك ، وإنما حمل عاصما على هذه القراءة أنه وجد المصاحف بنون واحدة وكان فى قراءته إياه على ما عليه قراءة القرّاء ، إلحاق نون أخرى ليست فى المصحف ، فظنّ أن ذلك زيادة ما ليس فى المصحف ، ولم يعرف لحذفها وجها يصرفه إليه .

قال أبو جعفر : والصواب من القراءة التى لاأستجيز غيرها فى ذلك عندنا ما عليه قرّاء الأمصار ، من قراءته بنونين ، وتخفيف الجيم ، لإجماع الحجة من القرّاء عليها ، وتخطئتها خلافه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا

لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

❁ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكر يا محمد زكريا حين نادى ربه (رَبِّ لاتَذَرْنِي) وحيدا (فَرْدًا) لاولد لى ولا عقب (وأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ) يقول: فارزقنى وارثا من آل يعقوب يرثنى ، ثم ردّ الأمر إلى الله فقال : وأنت خير الوارثين ، يقول الله جلّ ثناؤه : فاستجبنا لزكريا دعاءه ، ووهبنا له يحيى ولدا ووارثا يرثه ، وأصلحنا له زوجه .

واختلف أهل التأويل فى معنى الصلاح الذى عناه الله جلّ ثناؤه بقوله (وأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَه) فقال بعضهم : كانت عقيما فأصلحها ، بأن جعلها وَلُودا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عبيد المحاربىّ ، قال : ثنا حاتم بن إسماعيل ، عن حميد بن صخر ، عن عمار ، عن سعيد، فى قوله (وأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ) قال : كانت لاتلد .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس . فى قوله (وأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ) قال : وهبنا له ولدها .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله : (وأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) : كانت عاقرا ، فجعلها الله وَلودا ، ووهب له منها يحيى .

وقال آخرون : كانت سيئة الخُلق ، فأصلحها الله له بأن رزقها حُسْن الخُلُق .

❁ قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله أصلح لزكريا زوجه ، كما أخبر تعالى ذكره بأن جعلها ولودا حسنة الخُلُق ، لأن كل ذلك من معانى إصلاحه إياها ، ولم يخصص الله جلّ ثناؤه بذلك بعضا دون بعض فى كتابه ، ولا على لسان رسوله ، ولا وضع على خصوص ذلك دلالة ، فهو على العموم ما لم يأت ما يجب التسليم له بأن ذلك مراد به بعض دون بعض .

وقوله (إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ) يقول الله : إن الذين سميناهم ، يعنى زكريا وزوجه ويحيى ، كانوا يسارعون فى الخيرات فى طاعتنا ، والعمل بما يقرّبهم إلينا . وقوله (وَيَدْعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا) يقول تعالى ذكره : وكانوا يعبدوننا رغبا ورهبا ، وعَنَى بالدعاء فى هذا الموضع : العبادة ، كما قال : (وأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وأَدْعُو رَبّى عَسَى أَن لاأَكُونَ بِدُعاءِ رَبّى شَقِيًّا) ويعنى بقوله (رَغَبًا) أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله (وَرَهَبًا) يعنى رهبة منهم من عذابه وعقابه ، بتركهم عبادته ، وركوبهم معصيته .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا) قال : رغبا فى رحمة الله ، ورهبا من عذاب الله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَيَدْعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا) قال : خوفا وطمعا ؛ قال : وليس ينبغى لأحدهما أن يفارق الآخر .

واختلفت القرّاء فى قراءة ذلك . فقرأته عامة قرّاء الأمصار (رَغَبًا وَرَهَبًا) بفتح الغين والهاء من الرغَب والرهَب . واختلف عن الأعمش فى ذلك ، فرُويت عنه الموافقة فى ذلك للقرّاء ، ورُوى عنه أنه قرأها رُغْبًا ورُهْبا بضم الراء فى الحرفين وتسكين الغين والهاء .

والصواب من القراءة فى ذلك ما عليه قرّاء الأمصار ؛ وذلك الفتح فى الحرفين كليهما .

وقوله (وكانُوا لَنا خاشِعِينَ) يقول : وكانوا لنا متواضعين متذللين ، ولا يستكبرون عن عبادتنا . ودعائنا .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكر التى أحصنت فرجها ، يعنى مريم بنت عمران . ويعنى بقوله (أَحْصَنَتْ) : حفظت ، ومنعت فرجها مما حرّم الله عليها إباحته فيه .

واختلف فى الفرْج الذى عنى الله جلّ ثناؤه أنها أحصنته ، فقال بعضهم : عنى بذلك فرج نفسها أنها حفظته من الفاحشة .

وقال آخرون : عنى بذلك جيب درعها أنها منعت جبرئيل منه قبل أن تعلم أنه رسول ربها ، وقبل أن تثبته معرفة . قالوا : والذى يدلّ على ذلك قوله (فَنَفَخْنا فيها) ويعقب ذلك قوله (والَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها) قالوا : وكان معلوما بذلك أن معنى الكلام : والتى أحصنت جيبها (فَنَفَخْنا فيها مِنْ رُوحِنا) .

قال أبو جعفر : والذى هو أولى القولين عندنا بتأويل ذلك ، قول من قال : أحصنت فرجها من الفاحشة ، لأن ذلك هو الأغلب من معنييه عليه ، والأظهر فى ظاهر الكلام (فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا) يقول : فنفخنا فى جيب درعها من روحنا . وقد ذكرنا اختلاف المختلفين فى معنى قوله (فَنَفَخْنا فِيها) فى غير هذا الموضع . والأولى بالصواب من القول فى ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

وقوله (وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ) يقول : وجعلنا مريم وابنها عبرة لعالمى زمانهما يعتبرون بهما ، ويتفكرون فى أمرهما ، فيعلمون عظيم سلطاننا وقدرتنا على مانشاء ؛ وقيل آية ولم يقل آيتين وقد ذكر آيتين ؛ لأن معنى الكلام : جعلناهما علما لنا وحجة ، فكل واحدة منهما فى معنى الدلالة على الله ، وعلى عظيم قدرته ، يقوم مقام الآخر إذا كان أمرهما فى الدلالة على الله واحدا .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره: إن هذه مِلتكم ملة واحدة، وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون دون الآلهة والأوثان، وسائر ما تعبدون من دونى.

وبنحو الذى قلنا فى ذلك، قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ، قال: ثنا عبد الله، قال: ثنى معاوية، عن علىّ، عن ابن عباس، قوله (أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) يقول: دينكم دين واحد.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، قال: قال مجاهد، فى قوله (إنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) قال: دينكم دين واحد. ونصبت الأمة الثانية على القطع، وبالنصب قرأه جماعة قرّاء الأمصار، وهو الصواب عندنا، لأن الأمة الثانية نكرة، والأولى معرفة.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان الخبر قبل مجىء النكرة مستغنيا عنها كان وجه الكلام النصب هذا مع إجماع الحجة من القرّاء عليه. وقد ذُكر عن عبد الله بن أبى إسحاق رفع ذلك أنه قرأه (أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ) بنية تكرير الكلام، كأنه أراد: إن هذه أمتكم هذه أمة واحدة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره: وتفرّق الناس فى دينهم الذى أمرهم الله به، ودعاهم إليه، فصاروا فيه أحزابا، فهوّدت اليهود، وتنصّرت النصارى، وعُبدت الأوثان، ثم أخبر جلّ ثناؤه عماهم إليه صائرون، وأن مرجع جميع أهل الأديان إليه متوعدا بذلك أهل الزيغ منهم والضلال، ومعلمهم أنه لهم بالمرصاد، وأنه مجاز جميعهم جزاء المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته.

وبنحو الذى قلنا فى تأويل قوله (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فى قوله (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) قال: تقطَّعوا: اختلفوا. فى الدين.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره: فمن عمل من هؤلاء الذين تفرّقوا فى دينهم بما أمره الله به من العمل الصالح، وأطاعه

فى أمره ونهيه ، وهو مقرّ بوحدانية الله ، مصدّق بوعده ووعيده ، متبرّئ من الأنداد والآلهة (فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) يقول : فإن الله يشكر عمله الذى عمل له مطيعا له، وهو به مؤمن ، فيثيبه فى الآخرة ثوابه الذى وعد أهل طاعته أن يثيبهم ، ولا يكفر ذلك له فيجحده ، ويحرمه ثوابه على عمله الصالح (وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ) يقول : ونحن نكتب أعماله الصالحة كلها ، فلا نترك منها شيئا لنجزيه على صغير ذلك وكبيره وقليله وكثيره .

قال أبو جعفر : والكفران مصدر من قول القائل: كفرت فلانا نعمته فأنا أكفُره كُفْرا وكُفْرانا، ومنه قول الشاعر :

مِنَ النَّاسِ ناسٌ ما تَنامُ خُدُودهمُ وخَدّى ولا كُفْرَانَ للهِ نائِمُ[1]

القول في تأويل قوله تعالى:

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

اختلفت القرّاء فى قراءة قوله (وَحَرَامٌ) فقرأته عامة قرّاء أهل الكوفة (وَحِرْمٌ) بكسر الحاء . وقرأ ذلك عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة (وَحَرَامٌ) بفتح الحاء والألف .

والصواب من القول فى ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متفقتا المعنى ، غير مختلفتيه ، وذلك أن الحِرْم هو الحرام ، والحرام هو الحِرْم ، كما الحلّ هو الحلال ، والحلال هو الحلّ ، فبأيتهما قرأ القارئ فصيب . وكان ابن عباس يقرؤه (وَحِرم) بتأويل : وعزم .

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن أبي المعلى، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، كان يقرؤها (وحِرْمٌ على قرية) قال : فقلت لسعيد : أىّ شىء حرم ؟ قال : عزم .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبي المعلى، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، كان يقرؤها (وحِرْمٌ عَلَى قَرْيَةٍ) قلت لأبي المعلى : ما الحرم ؟ قال : عزم عليها .

حدثنا ابن المثنى ،قال: ثنا عبد الأعلى،قال : ثنا داود،عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ هذه الآية (وَحِرْمٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لايَرْجِعُونَ) فلا يرجع منهم راجع ،ولا يتوب منهم تائب .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود عن عكرمة ، قال (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لايَرْجِعُونَ) قال : لم يكن ليرجع منهم راجع حرام عليهم ذلك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا عيسى بن فرقد ، قال : ثنا جابر الجعفى ، قال : سألت أبا جعفر عن الرجعة ، فقرأ هذه الآية (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لايَرْجِعُونَ) فكأن أبا جعفر وجه تأويل ذلك إلى أنه : وحرام على أهل قرية أمتناهم أن يرجعوا إلى الدنيا ، والقول الذى قاله عكرمة فى ذلك أولى بمعناه بالصواب ، وذلك أن الله تعالى ذكره ، أخبر عن تفريق الناس دينهم الذى بُعث به إليهم الرسل ،

(١) الشاهد على أن الكفران فى قوله تعالى « فلا كفران لسعيه » مصدر من قول القائل : كفرت فلانا نعمته ، فأنا أكفره كفرا وكفرانا. قال ... (... كفر) ... وتقول : كفر نعمة الله ، وبنعمة الله ، كفرا وكفرانا وكفورا .

ثم أخبر عن صنيعه بمن عمل بما دعته إليه رسله من الإيمان به ، والعمل بطاعته ، ثم أتبع ذلك قوله (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَايَرْجِعُونَ) فلأن يكون ذلك خبرا عن صنيعه بمن أبى إجابة رسله ، وعمل بمعصيته ، وكفر به ، أحرى ، ليكون بيانا عن حال القرية الأخرى التى لم تعمل الصالحات ، وكفرت به .

فإذا كان ذلك كذلك ، فتأويل الكلام : حرام على أهل قرية أهلكناهم بطبعنا على قلوبهم ، وختمنا على أسماعهم وأبصارهم ، إذ صدّوا عن سبيلنا ، وكفروا بآياتنا ، أن يتوبوا ، ويراجعوا الإيمان بنا ، واتباع أمرنا ، والعمل بطاعتنا . وإذ كان ذلك تأويل قول الله (وَحِرْمٌ) وعَزْم ، على ما قال سعيد ، لم تكن «لا» فى قوله (أَنَّهُمْ لَايَرْجِعُونَ) صلة ، بل تكون بمعنى النفى ، ويكون معنى الكلام : وعزم منا على قرية أهلكناها أن لايرجعوا عن كفرهم . وكذلك إذا كان معنى قوله (وَحَرَّمٌ) نوجبه . وقد زعم بعضهم أنها فى هذا الموضع صلة ، فإن معنى الكلام : وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا ، وأهل التأويل الذين ذكرناهم كانوا أعلم بمعنى ذلك منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾

❁ يقول تعالى ذكره : حتى إذا فُتح عن يأجوج ومأجوج ، وهما أمّتان من الأمم ردمهما .

كما حدثنى عصام بن داود بن الجراح ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنا سفيان بن سعيد الثورىّ ، قال : ثنا منصور بن المعتمر ، عن رِبْعِىّ بن حِرَاش ، قال : سمعت حُذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَوَّلُ الآيَاتِ : الدَّجَّالُ ، وَنُزُولُ عِيسَى ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنِ أَبْيَنَ ، تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى المَحْشَرِ ، تَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا ، وَالدُّخَانُ ، وَالدَّابَّةُ ، ثُمَّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » قال حُذيفة : قلت : يا رسول الله ، وما يأجوج ومأجوج ؟ قال : يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ : أُمَمٌ ، كُلُّ أُمَّةٍ أَرْبَعُ مِئَةِ أَلْفٍ ، لَا يَمُوتُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ حَتَّى يَرَى أَلْفَ عَيْنٍ تَطْرِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ صُلْبِهِ ، وَهُمْ وَلَدُ آدَمَ ، فَيَسِيرُونَ إِلَى خَرَابِ الدُّنْيَا ، يَكُونُ مُقَدِّمَتُهُمْ بِالشَّامِ وَسَاقَتُهُمْ بِالعِرَاقِ ، فَيَمُرُّونَ بِأَنْهَارِ الدُّنْيَا ، فَيَشْرَبُونَ الفُرَاتَ وَالدِّجْلَةَ وَبُحَيْرَةَ الطَّبَرِيَّةِ حَتَّى يَأْتُوا بَيْتَ المَقْدِسِ ، فَيَقُولُونَ قَدْ قَتَلْنَا أَهْلَ الدُّنْيَا ، فَقَاتِلُوا مَنْ فِي السَّمَاءِ ، فَيَرْمُونَ بِالنُّشَّابِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتَرْجِعُ نُشَّابُهُمْ مُخَضَّبَةً بِالدَّمِ ، فَيَقُولُونَ قَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي السَّمَاءِ ، وَعِيسَى وَالمُسْلِمُونَ بِجَبَلِ طُورِ سِينِينَ ، فَيُوحِي اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَى عِيسَى : أَنْ أَحْرِزْ عِبَادِي بِالطُّورِ ، وَمَا يَلِي أَيْلَةَ ، ثُمَّ إِنَّ عِيسَى يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَيُؤَمِّنُ المُسْلِمُونَ فَيَبْعَثُ اللهُ عَلَيْهِمْ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا النَّغَفُ ، تَدْخُلُ مِنْ مَنَاخِرِهِمْ ، فَيُصْبِحُونَ مَوْتَى ، مِنْ حَاقِ الشَّامِ إِلَى حَاقِ العِرَاقِ ، حَتَّى تَنْتُنَ الأَرْضُ مِنْ جِيَفِهِمْ ، وَيَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ

كأفواهِ القِرَبِ ، فتَغْسِلُ الأرضَ مِنْ جِيَفِهِمْ ونَتْنِهِمْ ، فعِنْدَ ذلكَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها » .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن أبي جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، قال : إن يأجوج ومأجوج يزيدون على سائر الإنس الضِّعف ، وإن الجنّ يزيدون على الإنس الضعف ، وإن يأجوج ومأجوج رجلان اسمهما يأجوج ومأجوج .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، قال : سمعت وهب ابن جابر يحدث ، عن عبد الله بن عمرو أنه قال : إن يأجوج ومأجوج يمرّ أولهم بنهر مثل دجلة ، ويمرّ آخرهم فيقول : قد كان في هذا مرّة ماء ، لايموت رجل منهم إلاترك من ذريته ألفا فصاعدا . وقال : مِن بعدهم ثلاثُ أمم لايعلم عددهم إلا الله : تاويل ، وتاريس ، وناسك أو منسك . شكّ شعبة .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى ، قال : ثنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن وهب بن جابر الخيواني ، قال : سألت عبد الله بن عمرو ، عن يأجوج ومأجوج ، أمن بني آدم هم ؟ قال : نعم ، ومن بعدهم ثلاث أمم لايعلم عددهم إلا الله : تاريس ، وتاويل ، ومنسك .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا سهل بن حماد أبوعتاب ، قال : ثنا شعبة ، عن النعمان بن سالم ، قال : سمعت نافع بن جبير بن مطعم يقول : قال عبد الله بن عمرو : يأجوج ومأجوج لهم أنهار يَلْقَمون ما شاءوا ، ونساء يجامعون ماشاءوا ، وشجر يلقمون ماشاءوا ، ولا يموت رجل إلا ترك من ذرّيته ألفا فصاعدا .

حدثنا محمد بن عمارة ، قال : ثنا عبد الله بن موسى ، قال : أخبرنا زكريا ، عن عامر ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله بن سلام ، قال : ما مات أحد من يأجوج ومأجوج إلا ترك ألف ذرء فصاعدا .

حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي ، قال : ثنا أبي ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن الأعمش ، عن عطية ، قال : قال أبوسعيد : يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون أحدا إلا قتلوه ، إلا أهل الحصون ، فيمرّون على البحيرة فيشربونها ، فيمرّ المارُّ فيقول : كأنه كان ههنا ماء ، قال : فيبعث الله عليهم النغف حتى يكسر أعناقهم فيصيروا خبالا ، فتقول أهل الحصون : لقد هلك أعداء الله ، فيدلون رجلا لينظر ، ويشترط عليهم إن وجدهم أحياء أن يرفعوه ، فيجدهم قد هلكوا ، قال : فينزل الله ماء من السماء فيقذفهم في البحر ، فتطهر الأرض منهم ، ويغرس الناس بعدهم الشجر والنخل ، وتخرج الأرض ثمرتها ، كما كانت تخرج في زمن يأجوج ومأجوج .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن عبيد الله بن أبي يزيد ، قال : رأى ابن عباس صبيانا ينزو بعضهم على بعض يلعبون ، فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا الحكم ، قال : ثنا عمرو بن قيس ، قال : بلغنا أن ملكا دون الردم يبعث خيلا كل يوم يحرسون الردم لايأمن يأجوج ومأجوج أن تخرج عليهم ، قال : فيسمعون جلبة وأمرا شديدا .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن أبي إسحاق أن عبد الله بن عمرو ، قال : مايموت الرجل من يأجوج ومأجوج حتى يولد له من صلبه ألف ، وإن من ورائهم لثلاث أمم ما يعلم عددهم إلا الله : منسك ، وتاويل ، وتاريس .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، عن عمرو البكالى ، قال : إن الله جزأ الملائكة والإنس والجنّ عشرة أجزاء ، فتسعة منهم الكروبيون ، وهم الملائكة الذين يحملون العرش ، ثم هم أيضا الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون . قال : ومن بقى من الملائكة لأمر الله ووحيه ورسالته . ثم جزّأ الإنس والجنّ عشرة أجزاء ، فتسعة منهم الجن ، لايولد من الإنس ولد إلا ولد من الجن تسعة . ثم جزأ الإنس على عشرة أجزاء ، فتسعة منهم يأجوج ومأجوج ، وسائر الإنس جزء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قوله (حتى إذَا فُتِحتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) قال : أُمتّان من وراء ردم ذى القرنين .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن غير واحد ، عن حميد بن هلال ، عن أبي الصيف ، قال : قال كعب : إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فئوسهم ، فإذا كان الليل قالوا : نجيء غدا فنخرج ، فيعيدها الله كما كانت ، فيجيئون من الغد ؛ فيجدونه قد أعاده الله كما كان ، فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فئوسهم ، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول : نجيء غدا فنخرج إن شاء الله ، فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه . فيحفرون ثم يخرجون ، فتمرّ الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها ، ثم تمرّ الزمرة الثانية فيلحسون طينها ، ثم تمرّ الزمرة الثالثة فيقولون : قد كان ههنا مرّة ماء - وتفرّ الناس منهم ، فلا يقوم لهم شيء ، يرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع مخضبة بالدماء ؛ فيقولون : غلبْنا أهل الأرض وأهل السماء ، فيدعو عليهم عيسى بن مريم ، فيقول : اللهمّ لاطاقة ولا يدين لنا بهم ، فاكفناهم بما شئت ؛ فيسلط الله عليهم دودا يقال له النغف ، فتفرس رقابهم ، ويبعث الله عليهم طيرا ؛ فتأخذهم بمناقرها ، فتلقيهم فى البحر ، ويبعث الله عينا يقال لها الحياة ، تطهر الأرض منهم ، وتنبتها ، حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن ؛ قيل : وما السكن يا كعب ؟ قال : أهل البيت ؛ قال : فبينا الناس كذلك ، إذ أتاهم الصريخ أن ذا السويقتين يريده ، فيبعث عيسى طليعة سبع مئة ، أو بين السبع مئة والثمان مئة ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة ، فيقبض الله فيها روح كلّ مؤمن ، ثم يبقى عجاج من الناس يتسافدون كما تتسافد البهائم ؛ فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع ، فمن تكلف بعد قولى هذا شيئا ، أو على هذا شيئا فهو المتكلف .

حدثنا العباس بن الوليد البيروتى ، قال : أخبرنى أبى ، قال : سمعت ابن جابر ، قال : ثنى محمد بن جابر الطائى ، ثم الحمصى ، ثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمى ، قال : ثنى أبى أنه سمع النوّاس بن سمعان الكلابى يقول : « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ، وذكر أمره ، وأن عيسى بن مريم

يقتله ، ثم قال : فبينا هو كذلك ، أوحى الله إليه : ياعيسى ، إنى قد أخرجت عبادا لى لا يَدَ لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادى إلى الطور ، فيبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كلّ حدب ينسلون ، فيمرّ أحدهم على بحيرة طبرية . فيشربون مافيها ؛ ثم ينزل آخرهم ، ثم يقول : لقد كان بهذه ماء مرّة ، فيحاصر نبيّ الله عيسى وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور يومئذ خيرا لأحدهم من مئة دينار لأحدكم ، فيرغب نبيّ الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم ، فيصبحون فرسى موت نفس واحدة ، فيهبط نبيّ الله عيسى وأصحابه . فلا يجدون موضعا إلا قد ملأه زهمهم ونتنهم ودماؤهم ، فيرغب نبيّ الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل عليهم طيرا كأعناق البُخت . فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا لايكنّ منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة .

وأما قوله (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) فإن أهل التأويل اختلفوا فى المعنىّ به . فقال بعضهم : عُنى بذلك بنوآدم أنهم يخرجون من كل موضع كانوا دفنوا فيه من الأرض ، وإنما عُنى بذلك الحشرُ إلى موقف الناس يوم القيامة .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله(مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) قال : جمع الناس من كلّ مكان جاءوا منه يوم القيامة ، فهو حدب .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) ، قال ابن جُرَيج : قال مجاهد : جمع الناس من كلّ حدب من مكان جاءوا منه يوم القيامة فهو حدب .

وقال آخرون : بل عنى بذلك يأجوج ومأجوج ، وقوله : وهم كناية أسمائهم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن سلمة بن كهيل ، قال : ثنا أبو الزعراء ، عن عبد الله أنه قال : يخرج يأجوج ومأجوج فيمرحون فى الأرض ، فيفسدون فيها ، ثم قرأ عبد الله (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) قال : ثم يبعث الله عليهم دابّة مثل النغف ، فتلج فى أسماعهم ومناخرهم فيموتون منها فتنتن الأرض منهم ، فيرسل الله عزّ وجلّ ماء فيطهر الأرض منهم .

والصواب من القول فى ذلك ما قاله الذين قالوا : عنى بذلك : يأجوج ومأجوج ، وإن قوله (وَهُمْ) كناية عن أسمائهم للخبر الذى حدثنا به ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر ، عن قتادة الأنصارى ، ثم الظفرى ، عن محمود بن لبيد أخى بنى عبد الأشهل ، عن أبى سعيد الخدرىّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ يَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ كَمَا قَالَ اللهُ (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) فَيَغْشَوْنَ الأَرْضَ » .

حدثنى أحمد بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم بن بشير ، قال : أخبرنا العوّام بن حوشب ، عن جبلة بن سحيم ، عن مؤثر ، وهو ابن عفازة العبدى ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يُذكر عن عيسى بن مريم ، قال : قال عيسى : عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ ، وأَنَّهُ مُهْبِطِي إِلَيْهِ ، فذكر أَنَّ مَعَهُ قَضِيبَيْنِ ، فإذَا رَآنِي أَهْلَكَهُ اللهُ ، قالَ : فَيَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ ، حتى إِنَّ الشَّجَرَ والحَجَرَ لَيَقُولُ : يا مُسْلِمُ هَذَا كافِرٌ فاقْتُلْهُ ، فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعالى ، وَيَرْجِعُ النَّاسُ إلى بِلادِهِمْ وأَوْطانِهِمْ ، فَيَسْتَقْبِلُهُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، لا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلاَّ أَهْلَكُوهُ ، وَلا يَمُرُّونَ على ماءٍ إلاَّ شَرِبُوهُ .

حدثنى عبيد بن إسماعيل الهبارى ، قال : ثنا المحاربى ، عن أصبغ بن زيد ، عن العوّام بن حوشب ، عن جبلة بن سحيم ، عن موثر بن عفازة ، عن عبد الله بن مسعود ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه .

وأما قوله (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ) فانه يعنى من كل شرف ونَشَز وأكمة .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) يقول : من كلّ شرف يقبلون .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر عن قتادة (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) قال : من كلّ أكمة .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) قال : الحدب : الشيء المشرف . وقال الشاعر :

. . . .　　. . .　. . . . . . عَلَى الحِدَابِ تَمُورُ[١]

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) قال : هذا مبتدأ يوم القيامة . وأما قوله (يَنْسِلُونَ) فإنه يعنى : أنهم يخرجون مشاة مسرعين فى مشيهم كنسلان الذئب ، كما قال الشاعر :

عَسَلانَ الذِّئْبِ أَمْسَى قارِبا　　بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَنَسَلْ[٢]

---

(١) هذا جزء من بيت لم ينسبه المؤلف عند قوله تعالى : « وهم من كل حدب ينسلون » قال فى (اللسان : حدب) يريد يظهرون من غليظ الأرض ومرتفعها . وقال الفراء : « من كل حدب ينسلون » : من كل أكمة ومن كل موضع مرتفع والجمع أحداب وحداب والحدب : الغلظ من الأرض فى ارتفاع ، والجمع الحداب . والحدبة : ما أشرف من الأرض وغلظ وارتفع . ولا تكون الحدبة إلا فى قف أو غلظ أرض . وتمور : من مار الشيء يمور مورا : تحرك وجاء وذهب ، كما تتكفأ النخلة لعيدانة .

(٢) البيت للبيد أو للنابغة الجعدى (اللسان : عسل ، ونسل) . وعسل الذئب والثعلب يعسل عسلا وعسلانا : مضى مسرعا ، واضطرب فى عدوه ، وهز رأسه . والقارب : الذى يطلب الماء ليلاً ، يسير إليه مسرعا . ونسل الماشى ينسل (كيضرب ويقتل) نسلا (بالتسكين والتحريك) ونسلانا : أسرع . وأصل النسلان للذئب ، ثم استعمل فى غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، اقترب الوعد الحقّ ، وذلك وعد الله الذى وعد عباده أنه يبعثهم من قبورهم للجزاء والثواب والعقاب ، وهو لاشكّ حق كما قال جلّ ثناؤه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا الحكم بن بشير ، قال : ثنا عمرو ، يعنى ابن قيس ، قال : ثنا حذيفة : لو أن رجلا اقتنى فَلوًا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم القيامة .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ) قال : اقترب يوم القيامة منهم . والواو فى قوله (وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ) مقحمة . ومعنى الكلام : حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحقّ ، وذلك نظير قوله (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ) معناه : ناديناه بغير واو ، كما قال امرؤ القيس :

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وَانْتَحَى ... بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِى حِقَافٍ عَقَنْقَلِ[١]

يريد : فلما أجزنا ساحة الحيّ انتحى بنا .

وقوله (فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) فى هى التى فى قوله فإذا هى وجهان : أحدهما أن تكون كناية عن الأبصار ، وتكون الأبصار الظاهرة بيانا عنها ، كما قال الشاعر :

لَعَمْرُو أَبِيهَا لا تَقُولُ ظَعِينَتِى ... أَلا فَرَّ عَنِّى مَالِكُ بنُ أَبِى كَعْبِ[٢]

---

(١) البيت من معلقة امرئ القيس بن حجر الكندى (مختار الشعر الجاهلى ، بشرح مصطفى السقا طبعة مصطفى البابى الحلبى ص ٢٧) قال : أجزنا : قطعنا . والساحة : الفناء . والخبت : أرض مطمئنة . والحقف من الرمل : المعوج ، والجمع حقاف ، ويروى «ركام» أى بعضه فوق بعض . وعقنقل : منعقد متداخل بعضه فى بعض . والبيت شاهد على أن الواو فى قوله : « وانتحى » : مقحمة ، يريد : فلما أجزنا ساحة الحى انتحى . وهى نظير الواو فى قوله تعالى : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق » . الواو فى « واقترب » : مقحمة . والفعل جواب للشرط « حتى إذا فتحت » . قال الفراء فى معانى القرآن (الورقة ٢٠٩ من مصورة الجامعة رقم ٢٤٠٥٩) : وقوله (واقترب الوعد الحق) معناه والله أعلم ، حتى إذا فتحت اقترب ، ودخول الواو فى الجواب فى « حتى إذا » بمنزلة قوله : « حتى إذا جاءوها وفتحت » . وفى قراءة عبد الله « فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية » ، فى قراءتنا بغير واو . ومثله فى الصافات « فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه » معناها : ناديناه . وقال امرؤ القيس : « فلما أجزنا ... البيت » يريد انتحى .

(٢) البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن (الورقة ٢٠٧ من مصورة الجامعة) عند قوله تعالى : « فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا » قال : تكون هى عمادا يصلح فى موضعها هو ، فتكون كقوله « إنه أنا الله العزيز » . ومثله قوله : « فإنها لا تعمى الأبصار » فجاء التأنيث لأن الأبصار مؤنثة ، والتذكير للعماد ... وإن شئت جعلت هى « للأبصار » ، كنيت عنها ثم أظهرت الأبصار لتفسرها ، كما قال الشاعر : لعمر أبيها ... البيت . اهـ .

فكنى عن الظعينة فى : لعمرو أبيها ، ثم أظهرها ، فيكون تأويل الكلام حينئذ : فإذا الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا .

والثانى : أن تكون عمادا كما قال جلّ ثناؤه (فإنّها لاتَعْمَى الأبْصَارُ) وكقول الشاعر :

فَهَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ بِما هَهُنا رأْس[1]

وقوله (يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا) يقول تعالى ذكره : فإذا أبصار الذين كفروا قد شخصت عند مجيء الوعد الحقّ بأهواله ، وقيام الساعة بحقائقها ، وهم يقولون : يا ويلنا قد كنا قبل هذا الوقت فى الدنيا فى غفلة من هذا الذى نرى ونعاين ، ونزل بنا من عظيم البلاء . وفى الكلام متروك تُرك ذكره استغناء بدلالة ما ذُكر عليه عنه ، وذلك يقولون من قوله (فاذَا هِىَ شاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) يقولون : يا ويلنا . وقوله (بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ) يقول مخبرا عن قيل الذين كفروا بالله يومئذ : ما كنا نعمل لهذا اليوم ما ينجينا من شدائده ، بل كنا ظالمين بمعصيتنا ربنا ، وطاعتنا إبليس وجنده فى عبادة غير الله عزّ وجلّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾

❁ يقول تعالى ذكره : إنكم أيها المشركون بالله ، العابدون من دونه الأوثان والأصنام ، وما تعبدون من دون الله من الآلهة .

كما حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول : فى قوله (إنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) يعنى الآلهة ومن يعبدها (حَصَبُ جَهَنَّمَ) وأما حصب جهنم ، فقال بعضهم : معناه : وقود جهنم وشجرها .

= وعلى كلام الفراء يكون الضمير « فى أبيها » مفسرا بقوله ظعينتى . ومثله الضمير « هى » فى الآية « فإذا هى » مفسر بقوله « أبصار » . وقال أبو البقاء العكبرى فى إعراب القرآن وهو كالوجه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما الفراء : إذا للمفاجأة ، وهى مكان . والعامل فيها شاخصة . و « هى » : ضمير القصة . و « أبصارَ الذين » : مبتدأ وشاخصة خبره . وقال الشوكانى فى فتح القدير (٣ : ٤١٣) مبينا الوجهين : الضمير فى فإذا هى للقصة ، أو مبهم يفسره ما بعده . وإذا للمفاجأة .

(١) هذا شطر بيت من أبيات ثلاثة وردت فى الجزء الأول من هذا التفسير ص ٤٠١ عند قوله تعالى « وهو محرم عليكم إخراجهم » . وقد بين أن الضمير « هو » فيه وجهان من التأويل ، كما قال فى قوله تعالى « فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا » ومثل قول الشاعر :

فأَبْلِغْ أبا يَحْيَى إذَا ما لَقِيتَهُ ... على العِيسِ فى آباطِها عَرَقٌ يَبْسْ
بأنَّ السُّلامِىَّ الَّذِى بِضَرِيَّةٍ ... أميرَ الحِمَى قدْ باعَ حَقِّى بنِى عَبْسْ
بِثَوْبٍ ودِينارٍ وشاةٍ ودِرْهَمٍ ... فَهَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ بِمَا هاهُنا رَأْسْ

والأبيات : من شواهد الفراء فى آية البقرة ولم يورد هنا إلا الشطر الثانى من البيت الثالث .

ذكر من قال ذلك

حدثني على ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثني معاوية ، عن على ، عن ابن عباس ، قوله (حَصَبُ جَهَنَّمَ) : شجر جهنم .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس : قوله (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) يقول : وقودها .

وقال آخرون : بل معناه : حطب جهنم .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قول الله (حَصَبُ جَهَنَّمَ) قال : حطبها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، وزاد فيه : وفي بعض القراءة (حَطَبُ جَهَنَّمَ) يعني في قراءة عائشة .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (حَصَبُ جَهَنَّمَ) قال : حطب جهنم يقذفون فيها .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن الحر ، عن عكرمة ، قوله (حَصَبُ جَهَنَّمَ) قال : حطب جهنم .

وقال آخرون : بل معنى ذلك أنهم يرمى بهم في جهنم .

ذكر من قال ذلك

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (حَصَبُ جَهَنَّمَ) يقول : إن جهنم إنما تحصب بهم ، وهو الرمى ، يقول : يرمى بهم فيها .

واختلف في قراءة ذلك ، فقرأته قرّاء الأمصار (حَصَبُ جَهَنَّمَ) بالصاد ، وكذلك القراءة عندنا لإجماع الحجة عليه .

ورُوى عن على وعائشة أنهما كانا يقرآن ذلك (حَطَبُ جَهَنَّمَ) بالطاء . ورُوى عن ابن عباس أنه قرأه (حَضَبُ) بالضاد .

حدثنا بذلك أحمد بن يوسف ، قال : ثنا القاسم ، قال : ثنا إبراهيم بن محمد ، عن عثمان بن عبد الله ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أنه قرأها كذلك . وكأن ابن عباس إن كان قرأ ذلك كذلك ، أراد أنهم الذين تسجر بهم جهنم ، ويوقد بهم فيها النار ، وذلك أن كل ماهيجت به النار ، وأوقدت به ، فهو عند العرب حضب لها . فاذا كان الصواب من القراءة في ذلك ماذكرنا ، وكان المعروف من معنى الحصب عند العرب : الرمى ، من قولهم : حصبت الرجل : إذا رميته ، كما قال جل ثناؤه (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا) كان الأولى بتأويل ذلك ، قول من قال : معناه : أنهم تقذف جهنم بهم ، ويرمى بهم فيها ، وقد ذكر أن الحصب

فى لغة أهل اليمن : الحطب ، فإن يكن ذلك كذلك ، فهو أيضا وجه صحيح . وأما ما قلنا من أن معناه الرمى فإنه فى لغة أهل نجد . وأما قوله (أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) فان معناه : أنتم عليها أيها الناس أو إليها واردون ، يقول : داخلون . وقد بيّنت معنى الورود فيما مضى قبل بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم أنهم ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ، وهم مشركو قريش أنتم أيها المشركون وما تعبدون من دون الله وارد وجهنم . ولو كان ما تعبدون من دون الله آلهة ما وردوها ، بل كانت تمنع من أراد أن يورد كموها إذ كنتم لها فى الدنيا عابدين ، ولكنها إذ كانت لا نفع عندها لأنفسها ، ولا عندها دفع ضرّ عنها ، فهى من أن يكون ذلك عندها لغيرها أبعد . ومن كان كذلك كان بينا بعده من الألوهة ، وإن الإله هو الذى يقدر على ما يشاء ، ولا يقدر عليه شىء ، فأما من كان مقدورا عليه ، فغير جائز أن يكون إلها . وقوله (وكلٌّ فيها خالِدُونَ) يعنى الآلهة ومن عبدها أنهم ماكثون فى النار أبدا بغير نهاية ، وإنما معنى الكلام : كلكم فيها خالدون) .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (لَوْ كَانَ هٰؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها ، وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ) قال : الآلهة التى عبد القوم . قال : العابد والمعبود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

يعنى تعالى ذكره بقوله (لَهُمْ) المشركين وآلهتهم ، والهاء والميم فى قوله (لَهُمْ) من ذكر كلّ التى فى قوله (وكُلٌّ فيها خالِدُونَ) يقول تعالى ذكره : لكلهم فى جهنم زفير (وَهُمْ فِيها لايَسْمَعُونَ) يقول : وهم فى النار لا يسمعون .

وكان ابن مسعود يتأوّل فى قوله (وَهُمْ فيها لايَسْمَعُونَ) ماحدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن المسعودى ، عن يونس بن خباب ، قال : قرأ ابن مسعود هذه الآية (لَهُمْ فِيها زَفِير وَهُمْ فِيها لايَسْمَعُونَ) قال : إذا أُلقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت من نار . ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت أخرى ، ثم جعلت التوابيت فى توابيت أخرى فيها مسامير من نار ، فلا يرى أحد منهم أن فى النار أحدا يعذّب غيره ، ثم قرأ (لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لايَسْمَعُونَ) .

وأما قوله (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ، أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) فإن أهل التأويل اختلفوا فى المعنىّ به ، فقال بعضهم : عنى به كل من سبقت له من الله السعادة من خلقه أنه عن النار مُبعد .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن يوسف بن سعد وليس بابن ماهك ، عن محمد بن حاطب ، قال : سمعت عليا يخطب فقرأ هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) . قال : عثمان رضى الله عنه منهم .

وقال آخرون : بل عنى : مَن عبد مِن دون الله ، وهو لله طائع ، ولعبادة من يَعبد كاره .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى . وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) قال : عيسى ، وعُزَير ، والملائكة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

قال ابن جُرَيج : قوله (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) ثم استثنى فقال (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، عن الحسين ، عن يزيد ، عن عكرمة ، والحسن البصرى قالا : قال فى سورة الأنبياء (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ . لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) ثم استثنى فقال : (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) فقد عُبدت الملائكة من دون الله ، وعُزَير وعيسى من دون الله .

حدثنا أبو كُرَيب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد (أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) قال : عيسى .

حدثنى إسماعيل بن سيف ، قال : ثنا علىّ بن مسهر ، قال : ثنا إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى صالح فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى) قال : عيسى ، وأمه ، وعُزَير ، والملائكة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : « جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغنى يوما مع الوليد بن المغيرة ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفى المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض له النضر بن الحارث ، وكلَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ، لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) ... إلى قوله (وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى بن قيس

ابن عدى السهمىّ ، حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزِّبَعْرى : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا ، وما قعد ، وقد زعم أنَّا وما نعبد من ءالهتنا هذه حَصَب جهنم ، فقال عبد الله بن الزِّبَعْرى : أما والله لو وجدته لخصَمته ، فسلوا محمدا : أكلّ من عبد من دون الله فى جهنم مع من عبَده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عُزَيرا ، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابنْ مريم ، فعجب الوليد بن المغيرة ، ومن كان فى المجلس من قول عبد الله بن الزِّبَعْرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نَعَمْ كُلُّ مَنْ أحَبَّ أنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ ، إنَّما يَعْبُدُونَ الشَّياطِينَ وَمَنْ أمَرَهُمْ بِعِبادَتِه ،فأنزل الله عليه (إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ) . . . إلى (خالِدُونَ) : أى عيسى ابن مريم ، وعزير ، ومن عبَدوا من الأحبار والرهبان الذين مضَوا على طاعة الله ، فاتخذهم مَنْ بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله فأنزل الله فيما ذكروا أنهم يعبدون الملائكة ، وأنها بنات الله (وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحانَهُ ، بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ) . . . إلى قوله (نَجْزِى الظَّالِمِينَ) .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك ، قال : يقول : ناس من الناس (إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ) يعنى من الناس أجمعين ، فليس كذلك ، إنما يعنى من يعبد الآلهة ، وهو لله مطيع مثل عيسى ، وأمه ، وعُزَير ، والملائكة ، واستثنى الله هؤلاء الآلهة المعبودة ،التى هى ومَنْ يعبدها فى النار .

حدثنا ابن سِنان القزاز ، قال : ثنا الحسن بن الحسين الأشقر ، قال : ثنا أبو كدينة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت (إنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنْتُمْ لَهَا وَارِدُون) قال المشركون ، فإن عيسى يُعبد وعُزَير والشمس والقمر يُعبدون ،فأنزل الله (إنَّ الَّذِينَ سبقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ) لعيسى وغيره .

❁ وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب : قول من قال : عنى بقوله : (إن الذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ) ما كان من معبود ، كان المشركون يعبدونه والمعبود لله مطيع ، وعابدوه بعبادتهم إياه بالله كفَّار ، لأن قوله تعالى ذكره (إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى) : ابتداء كلام محقق لأمر كان ينكره قوم ،على نحو الذى ذكرنا فى الخبر ، عن ابن عباس ، فكأن المشركين قالوا لنبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال لهم (إنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) ما الأمر كما تقول ، لأنا نعبد الملائكة ، ويعبد آخرون المسيح وعُزَيرا ، فقال عزّ وجلّ ردًّا عليهم قولهم ، بل ذلك كذلك ، وليس الذين سبقت لهم منا الحسنى هم عنها مبعدون ، لأنهم غير معنيين بقولنا (إنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) ،فأما قول الذين قالوا ذلك استثناء من قوله (إنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) فقول لامعنى له ، لأن الاستثناء إنما هو إخراج المستثنى من المستثنى منه ، ولا شكّ أن الذين سبقت لهم منا الحسنى ، إنما هم إما ملائكة ، وإما إنس أو جانّ ،

إنس أو جانّ وكلّ هؤلاء إذا ذكرتها العرب فإن أكثر ما تذكرها بمن ، لا بما ، والله تعالى ذكره إنما ذكر المعبودين الذين أخبر أنهم حَصَبُ جهنم بما ، قال: (إنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) إنما أريد به ما كانوا يعبدونه من الأصنام والآلهة من الحجارة والخشب ،لامن كان من الملائكة والإنس . فإذا كان ذلك كذلك لما وصفنا، فقوله (إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى) جواب من الله للقائلين ما ذكرنا من المشركين مبتدأ . وأما الحُسنى فإنها الفُعلى من الحسن، وإنما عنى بها السعادة السابقة من الله لهم .

كما حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد ، في قوله (إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى) قال : الحسنى : السعادة ، وقال : سبقت السعادة لأهلها من الله ، وسبق الشقاء لأهله من الله .

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى ذكره : لا يسمع هؤلاء الذين سبقت لهم منا الحسنى حَسِيس النار ،ويعني بالحسيس: الصوت والحسّ .

فإن قال قائل : فكيف لايسمعون حسيسها ، وقد علمت ما روى من أن جهنم يؤتى بها يوم القيامة فتزفر زفرة ، لايبقى ملك مقرّب ، ولا نبيّ مرسل إلا جثا على ركبتيه خوفا منها ؟ قيل: إن الحال التى لايسمعون فيها حسيسها هى غير تلك الحال ، بل هى الحال التى حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس، قوله (لايَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ) يقول : لايسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة . وقوله (وَهُمْ فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ) يقول: وهم فيما تشتهيه نفوسهم من نعيمها ولذّاتها ماكثون فيها ، لايخافون زوالا عنها ، ولا انتقالا عنها .

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

اختلف أهل التأويل فى الفزع الأكبر : أىّ الفزع هو ؟ فقال بعضهم : ذلك النار إذا أطبقت على أهلها.

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو هشام ، قال : ثنا يحيى بن يمان ، قال : ثنا سفيان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير (لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكْبَرُ) قال : النار إذا أطبقت على أهلها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قوله (لا يَحْزُنُهُمُ

الفَزَعُ الأكْبَرُ) قال : حين يطبق جهنم ، وقال : حين ذبح الموت .

وقال آخرون : بل ذلك النفخة الآخرة .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال: ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكْبَرُ) يعنى النفخة الآخرة .

وقال آخرون : بل ذلك حين يؤمر بالعبد إلى النار .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن رجل ، عن الحسن (لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكْبَرُ) قال : انصراف العبد حين يُؤْمر به إلى النار .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال : ذلك عند النفخة الآخرة ، وذلك أن من لم يحزنه ذلك الفزع الأكبر ، وأمن منه ، فهو مما بعده أحرى أن لا يفزع ، وأن من أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده .

وقوله (وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ) يقول : وتستقبلهم الملائكة ، يهنئونهم يقولون (هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فيه الكرامة من الله ، والحباء ، والجزيل من الثواب على ما كنتم تنصبون فى الدنيا لله فى طاعته .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال ابن زيد .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) قال : هذا قبل أن يدخلوا الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١٠٤)

يقول تعالى ذكره : لا يحزنهم الفزع الأكبر ، يوم نطوى السماء ، فيوم صلة من يحزنهم .

واختلف أهل التأويل فى معنى السجلّ الذى ذكره الله فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : هو اسم ملَك من الملائكة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، قال : ثنا أبو الوفاء الأشجعىّ ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، فى قوله (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ) قال : السجلّ : مَلَك ، فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبها نوراً .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، قال : سمعت السدىّ يقول ، فى قوله (يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ) قال : السجلّ : ملَك .

وقال آخرون : السجل : رجل كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا نصر بن علىّ ، قال : ثنا نوح بن قيس ، قال : ثنا عمرو بن مالك ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس فى هذه الآية (يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) قال : كان ابن عباس يقول : هو الرجل .

قال : ثنا نوح بن قيس ، قال : ثنا يزيد بن كعب عن عمرو بن مالك ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس ، قال : السجلّ : كاتب كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال آخرون : بل هو الصحيفة التى يُكتب فيها .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتابِ) يقول : كطىّ الصحيفة على الكتاب .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتابِ) يقول : كطىّ الصحف .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ـ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : السِّجِلّ : الصحيفة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيْج ، عن مجاهد ، قوله (يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتابِ) قال : السجل : الصحيفة .

وأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب : قول من قال : السجلّ فى هذا الموضع : الصحيفة ، لأن ذلك هو المعروف فى كلام العرب ، ولا يعرف لنبينا صلى الله عليه وسلم كاتب كان اسمه السجلّ ، ولا فى الملائكة ملَك ذلك اسمه .

فإن قال قائل : وكيف نطوى الصحيفة بالكتاب إن كان السجلّ صحيفة ؟ قيل : ليس المعنى كذلك ، وإنما معناه : يوم نطوى السماء كطىّ السجلّ على ما فيه من الكتاب ، ثم جعل نطوى مصدرا ، فقيل (كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتابِ) واللام فى قوله للكتاب ، بمعنى على .

واختلف القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الأمصار ، سوى أبى جعفر القارئ (يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ) بالنون ، وقرأ ذلك أبو جعفر (يَوْمَ تُطْوَى السَّماءُ) بالتاء وضمها ، على وجه ما لم يُسَمَّ فاعله .

والصواب من القراءة فى ذلك : ما عليه قرّاء الأمصار ، بالنون ، لإجماع الحجة من القرّاء عليه ، وشذوذ ما خالفه . وأما السِّجلّ فإنه فى قراءة جميعهم بتشديد اللام ، وأما الكتاب ، فإن قرّاء أهل المدينة ، وبعض

أهل الكوفة والبصرة قرءوه بالتوحيد ، كطىّ السجلّ للكتاب ، وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة (للْكُتُبِ) على الجماع .

وأولى القراءتين عندنا فى ذلك بالصواب : قراءة من قرأه على التوحيد للكتاب ، لما ذكرنا من معناه ، فإن المراد منه : كطىّ السجلّ على ما فيه مكتوب ، فلا وجه إذ كان ذلك معناه لجميع الكتب إلا وجه نتبعه من معروف كلام العرب ، وعند قوله (كَطَىِّ السِّجِلّ) انقضاء الخبر عن صلة قوله (لاَيَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ) ، ثم ابتدأ الخبر عما الله فاعل بخلقه يومئذ فقال تعالى ذكره : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) فالكاف التى فى قوله (كَمَا) من صلة نعيد ، تقدّمت قبلها ؛ ومعنى الكلام : نعيد الخلق عراة حفاة غرلا يوم القيامة ، كما بدأناهم أوّل مرّة ، فى حال خلقناهم فى بطون أمهاتهم ، على اختلاف من أهل التأويل فى تأويل ذلك .

وبالذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل ، وبه الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلذلك اخترت القول به على غيره .

ذكر من قال ذلك ، والأثر الذى جاء فيه

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ـ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) قال : حفاة عراة غرلا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله (أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) قال : حفاة غلفا . قال ابن جُرَيج أخبرنى إبراهيم بن ميسرة ، أنه سمع مجاهدا يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحدى نسائه : « يَأْتُونَهُ حُفَاةً عُرَاةً غُلْفا ، فاسْتَتَرَتْ بِكُمِّ دِرْعِها ، وَقالَتْ وَاسَوْأتاهُ » قال ابن جُرَيج : أخبرت أنها عائشة قالت : يا نبىّ الله ، لا يحتشم الناس بعضهم بعضا ، قال : « لِكُلِّ امْرِئٍ يَوْمِئذٍ شأْنٌ يُغْنِيهِ » .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : ثنا سفيان ، قال : ثنى المغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « يُحْشَرُ النَّاسُ حُفاةً عُرَاةً غُرْلاً ، فأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إبراهِيمُ ، ثم قرأ : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعْداً عَلَيْنا إنَّا كُنَّا فاعِلِينَ) » .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا إسحاق بن يوسف ، قال : ثنا سفيان ، عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد ابن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة ، فذكر نحوه . »

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن المغيرة بن النعمان النَّخَعىّ ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحوه . »

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن شعبة ، قال : ثنا المغيرة بن النعمان النخَعىّ ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، نحوه .

حدثنا عيسى بن يوسف بن الطباع أبو يحيى ، قال : ثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب فقال : : « إِنَّكُمْ مُلاقُو اللهِ مُشاةً غُرْلاً » .

حدثنا أبوكريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن عائشة ، قالت : « دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندى عجوز من بنى عامر ، فقال : مَنْ هَذِهِ العَجُوزُ يا عائِشَةُ ؟ فقلت : إحدى خالاتى ، فقالت : ادع الله أن يدخلنى الجنة ،فقال : إنَّ الجَنَّةَ لايَدْخُلُها العَجَزَةُ ، قالت : فأخذ العجوزَ ما أخذها ،فقال : إنَّ اللهَ يُنْشِئُهُنَّ خَلْقاً غيرَ خَلْقِهِنَّ ، ثم قال : يُحْشَرُونَ حُفاةً عُراةً غُلْفاً ، فقالت : حاش لله من ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بَلَى إنَّ اللهَ قالَ كَمَا بَدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا) . . . إلى آخر الآية ، فأوَّلُ مَنْ يُكْسَى إبْراهِيمُ خَلِيلُ اللهِ » .

حدثنى محمد بن عمارة الأسدى ، قال : ثنا عبيد الله . قال : ثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عطاء ، عن عقبة بن عامر الجهنى ،قال : يجمع الناس فى صعيد واحد ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعى ، حفاة عراة ، كما خُلقوا أوّل يوم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى عباد بن العوّام ، عن هلال بن حبان ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : « يحشر الناس يوم القيامة حُفاة عراة مشاة غرلا ، قلت : يا أبا عبد الله ما الغرل ؟ قال : الغلف ، فقال بعض أزواجه : يارسول الله ، أينظر بعضنا إلى بعض إلى عورته ؟ فقال لِكُلِّ امْرِئٍ مِنهم يَوْمَئِذٍ ما يَشْغَلُهُ عَنِ النَّظَرِ إلى عَوْرَةِ أخِيهِ » قال هلال : قال سعيد بن جُبير : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرَادَى كَمَا خَلَقْناكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ) قال : كيوم ولدته أمه ، يردّ عليه كل شىء انتقص منه مثل يوم وُلد .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : كما كنا ولا شىء غيرنا قبل أن نخلق شيئا ، كذلك نهلك الأشياء ، فنعيدها فانية ، حتى لايكون شىء سوانا .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، (كَمَا بَدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) . . . الآية ، قال : نهلك كل شىء كما كان أوّل مرة . وقوله (وَعْداً عَلَيْنا) يقول : وعدناكم ذلك وعدا حقا علينا أن نوفى بما وعدنا ، إنا كنا فاعلى ماوعدناكم ، من ذلك أيها الناس ، لأنه قد سبق فى حكمنا وقضائنا أن نفعله ، على يقين بأن ذلك كائن ، واستعدوا وتأهبوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾

اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بالزّبور والذكر فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : عنى بالزّبور : كتب الأنبياء كلها ، التى أنزلها الله عليهم ، وعنى بالذكر : أمّ الكتاب التى عنده فى السماء .

ذكر من قال ذلك

حدثنى عيسى بن عثمان بن عيسى الرملىّ ، قال : ثنا يحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، قال : سألت سعيدا ، عن قول الله (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) قال : الذكر : الذى فى السماء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا عيسى بن يونس ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، فى قوله (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ) قال : قرأها الأعمش (الزُّبُرِ) قال : الزبور ، والتوراة ، والإنجيل ، والقرآن (مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) قال : الذكر الذى فى السماء .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (الزَّبُورِ) قال : الكتاب (مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) قال : أمّ الكتاب عند الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (الزَّبُورِ) قال : الكتاب ، بعد الذكر : قال : أم الكتاب عند الله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ) قال : الزبور : الكتب التى أُنزلت على الأنبياء . والذكر : أمّ الكتاب الذى تُكتب فيه الأشياء قبل ذلك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن سعيد ، فى قوله (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) قال : كتبنا فى القرآن من بعد التوراة .

وقال آخرون : بل عنى بالزّبور : الكتب التى أنزلها الله على مَنْ بعد موسى من الأنبياء ، وبالذكر : التوراة .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) .. الآية ، قال : الذكر : التوراة ، والزبور : الكتب .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول ، فى قوله (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) . . . الآية ، قال : الذكر : التوراة ، ويعنى بالزبور من بعد التوراة : الكتب .

وقال آخرون : بل عنى بالزّبور : زَبور داود ، وبالذكر تَوراة موسى صلى الله عليهما .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن عامر أنه قال فى هذه الآية (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) قال : زبور داود ، من بعد الذكر : ذكر موسى التوراة .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا ابن أبي عديّ ، عن داود ، عن الشعبيّ ، أنه قال في هذه الآية (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) قال : في زبور داود ، من بعد ذكر موسى .

❊ وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في ذلك : ماقاله سعيد بن جُبير ومجاهد ، ومن قال بقولهما في ذلك ، من أن معناه : ولقد كتبنا في الكتب من بعد أمّ الكتاب الذي كتب الله كل ما هو كائن فيه ، قبل خلق السموات والأرض ، وذلك أن الزبور هو الكتاب ، يقال منه : زبرت الكتاب وذَبرته[1] : إذا كتبته ، وإن كلّ كتاب أنزله الله إلى نبيّ من أنبيائه ، فهو ذِكْر . فإذ كان ذلك كذلك ، فإن في إدخاله الألف واللام في الذكر ، الدلالة البينة أنه معنيّ به ذكر بعينه ، معلوم عند المخاطبين بالآية ، ولو كان ذلك غير أمّ الكتاب التي ذكرنا ، لم تكن التوراة بأولى من أن تكون المعنية بذلك ، من صحف إبراهيم ، فقد كان قبل زَبور داود .

فتأويل الكلام إذن . إذ كان ذلك كما وصفنا : ولقد قضينا ، فأثبتنا قضاءنا في الكتب من بعد أمّ الكتاب ، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ؛ يعني بذلك : أن أرض الجنة يرثها عبادي العاملون بطاعته ، المنتهون إلى أمره ونهيه من عباده ، دون العاملين بمعصيته منهم ، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عبد الله الهلالي ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : ثنا إسرائيل ، عن أبي يحيى القتّات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قوله (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) قال : أرض الجنة .

حدثني عليّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس قوله (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) قال : أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه ، قبل أن تكون السموات والأرض ، أن يورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم الأرض ، ويُدخلهم الجنة ، وهم الصالحون .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن سعيد بن جُبير في قوله (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) قال : كتبنا في القرآن بعد التوراة ، والأرض أرض الجنة .

حدثني عليّ بن سهل ، قال : ثنا حجاج ، عن أبي جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) قال : الأرض : الجنة .

حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى الرمليّ ، قال : ثنا يحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، قال : سألت سعيدا عن قول الله (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) قال : أرض الجنة .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قول الله (أَنَّ الْأَرْضَ) قال : الجنة (يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

(١) في (اللسان : ذبر) : الذبر : الكتابة ، مثل الزبر . ذبر الكتاب يذبره (كنصره) ويذبره (كضربه) ذبرا ، وذبره (بالتشديد) [illegible] كتبه ، وقيل : نقطه . وقيل : قرأه قراءة خفيفة ، بلغة هذيل .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبادِىَ الصَّالِحُونَ) قال : الجنة . وقرأ قول الله جلّ ثناؤه (وَقَالُوا الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى صَدَقَنا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ العامِلِينَ) قال : فالجنة. مبتدؤها فى الأرض ، ثم تذهب درجات علوّا، والنار مبتدؤها فى الأرض ، وبينهما حجاب سُور ، ما يدرى أحد ماذاك السور ، وقرأ (بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ،وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذابُ) قال: ودرجها تذهب سَفالا فى الأرض ، ودرج الجنة تذهب عُلوا فى السموات .

حدثنا محمد بن عوف ، قال : ثنا أبو المغيرة ، قال : ثنا صفوان ، سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان : هل أنفس المؤمنين تجتمع[1] ؟ قال : فقال : إن الأرض التى يقول الله (وَلَقَدْ كَتَبْنا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ) قال : هى الأرض التى تجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث .

وقال آخرون : هى الأرض يورثها الله المؤمنين فى الدنيا .

وقال آخرون : عُنِى بذلك بنو إسرائيل ، وذلك أن الله وعدهم ذلك فوفّى لهم به ، واستشهد لقوله ذلك بقول الله (وَأَوْرَثْنا القَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الأَرْضِ وَمَغارِبَها الَّتِى بارَكْنا فِيها).

وقد ذكرنا قول من قال (أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ)أنها أرض الأمم الكافرة، ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قول ابن عباس الذى روى عنه علىّ بن أبى طلحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾

يقول تعالى ذكره : إن فى هذا القرآن الذى أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لبلاغا لمن عبدالله بما فيه من الفرائض التى فرضها الله ، إلى رضوانه ، وإدراك الطَّلِبة عنده .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن عُليّة ، عن الجُريرىّ ، عن أبى الوَرْد بن ثُمامة ، عن أبى محمد الحضرمىّ ، قال : ثنا كعب فى هذا المسجد ، قال : والذى نفس كعب بيده ، إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ، إنهم لأهل أو أصحاب الصلوات الخمس ، سماهم الله عابدين .

حدثنا الحسين بن يزيد الطحان ، قال : ثنا ابن عُليّة ، عن سعيد بن إياس الجريرىّ ، عن أبى الوَرْد عن كعب ، فى قوله (إِنَّ فِى هٰذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ) قال : صوم شهر رمضان ، وصلاة الخمس، قال : هى ملء اليدين والبحر عبادة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا محمد بن الحسين ، عن الجريرىّ ، قال : قال كعب

(١) الأصل : هل لأنفس المؤمنين بمجتمع ؟ والصواب : ما أثبتناه .

الأحبار (إنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) : لأمة محمد .

حدثني عليّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قوله (إنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) يقول : عاملين .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قوله (إنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) قال : يقولون في هذه السورة لبلاغا .

ويقول آخرون : في القرآن تنزيل لفرائض الصلوات الخمس : من أداها كان بلاغا لقوم عابدين . قال : عاملين .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (إنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) قال : إن في هذا لمنفعة وعلما ، لقوم عابدين ذاك البلاغ .

وقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وما أرسلناك يا محمد إلى خلقنا إلا رحمة لمن أرسلناك إليه من خلقي .

ثم اختلف أهل التأويل في معنى هذه الآية ، أجميع العالم الذي أرسل إليهم محمد أُريد بها مؤمنهم وكافرهم ؟ أم أريد بها أهل الإيمان خاصة ، دون أهل الكفر ؟ فقال بعضهم : عنى بها جميع العالم المؤمن والكافر .

ذكر من قال ذلك

حدثني إسحاق بن شاهين ، قال : ثنا إسحاق بن يوسف الأزرق ، عن المسعوديّ ، عن رجل يقال له سعيد ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، في قول الله في كتابه (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) قال : من آمن بالله واليوم الآخر ، كُتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله ، عُوفِيَ مما أصاب الأمم من الخَسْف والقذف .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا عيسى بن يونس ، عن المسعوديّ ، عن أبي سعيد ، عن سعيد جُبير ، عن ابن عباس ، في قوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) قال : تمت الرحمة لمن آمن به في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن به عُوفِيَ مما أصاب الأمم قبل .

وقال آخرون : بل أريد بها أهل الإيمان دون أهل الكفر .

ذكر من قال ذلك

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) قال : العالمون : من آمن به وصدّقه . قال : (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) قال : فهو لهؤلاء فتنة ، ولهؤلاء رحمة ، وقد جاء الأمر مجملا رحمة للعالمين ، والعالمون ههنا : من آمن به وصدّقه وأطاعه .

وأولى القولين في ذلك بالصواب : القول الذي رُوي عن ابن عباس ، وهو أن الله أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع العالم ، مؤمنهم وكافرهم . فأما مؤمنهم فإن الله هداه به ، وأدخله بالإيمان به ، وبالعمل بما جاء من عند الله ، الجنة . وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء ، الذي كان ينزل بالأمم المكذّبة رسلها من قبله .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد : ما يوحى إليّ ربي إلا أنّه لا إله لكم يجوز أن يُعبد إلا إله واحد ، لاتصلح العبادة إلا له ، ولا ينبغي ذلك لغيره (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) يقول : فهل أنتم مذعنون له أيها المشركون ، العابدون الأوثان والأصنام بالخضوع لذلك ، ومتبرّئون من عبادة ما دونه من آلهتكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : فإن أدبر هؤلاء المشركون يامحمد عن الإقرار بالإيمان ، بأن لاإله لهم إلا إله واحد ، فأعرضوا عنه ، وأبوا الإجابة إليه ، فقل لهم (قَدْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ) يقول : أعلمهم أنك وهم على علم من أن بعضكم لبعض حرب ، لاصلح بينكم ولا سلم .

وإنما عنى بذلك قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من قُرَيش كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قوله (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ) فإن تولوا : يعني قريشا .

وقوله (وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ) يقول تعالى ذكره لنبيه : قل وما أدرى متى الوقت الذي يحلّ بكم عقاب الله الذي وعدكم ، فينتقم به منكم ، أقريب نزوله بكم ، أم بعيد ؟.

وبنحو الذي قلنا في ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج (وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ) قال : الأجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهؤلاء المشركين ، إن الله يعلم الجهر الذي تجهرون به من القول ، ويعلم ما تخفونه ، فلا تجهرون به ، سواء عنده خفيه وظاهره ، وسرّه وعلانيته ، انه لايخفي عليه منه شيء ، فان أخّر عنكم عقابه على ما تخفون من الشرك به ، أو تجهرون به ، فما أدري

ما السبب الذى من أجله يؤخّر ذلك عنكم ؟ لعلّ تأخيره ذلك عنكم مع وعده إياكم ، لفتنة يريدها بكم ، ولتتمتعوا بحياتكم إلى أجل قد جعله لكم تبلغونه ، ثم ينزل بكم حينئذ نقمته .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانىّ ، عن ابن عباس (وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) يقول : لعلّ ما أُقرِّب لكم من العذاب والساعة ، أن يؤخّر عنكم لمدتكم ، ومتاع إلى حين ، فيصير قولى ذلك لكم فتنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

يقول تعالى ذكره : قل يا محمد : يا ربّ افصل بينى وبين من كذّبنى من مشركى قومى وكفر بك ، وعبد غيرك ، بإحلال عذابك ونقمتك بهم ، وذلك هو الحقّ الذى أمر الله تعالى نبيه أن يسأل ربه الحكم به ، وهو نظير قوله جلّ ثناؤه (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الفاتِحِينَ) .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس (قَالَ رَبِّ احْكُمْ بالحَقِّ) قال : لايحكم بالحقّ إلا الله ، ولكن إنما استعجل بذلك فى الدنيا ، يسأل ربه على قومه .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا شهد قتالا قال : (رَبِّ احْكُمْ بالحَقِّ) .

واختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الأمصار (قُلْ رَبِّ احْكُمْ) بكسر الباء ، ووصل الألف ألف احكم ، على وجه الدعاء والمسألة ، سوى أبى جعفر ، فإنه ضمّ الباء من الربّ ، على وجه نداء المفرد ، وغير الضحاك بن مزاحم ، فإنه روى عنه أنه كان يقرأ ذلك (رَبِّى أَحْكَمُ) على وجه الخبر بأن الله أحكمُ بالحقّ من كلّ حاكم ، فيثبت الياء فى الربّ ، ويهمز الألف من أحكَمُ ، ويرفع أحكَمُ ، على أنه خبر للربّ تبارك وتعالى .

والصواب من القراءة عندنا فى ذلك : وصل الباء من الربّ وكسرها باحكُمْ ، وترك قطع الألف من احكُمْ ، على ما عليه قرّاء الأمصار ، لإجماع الحجة من القرّاء عليه ، وشذوذ ما خالفه . وأما الضحاك فإن فى القراءة التى ذُكرت عنه زيادة حرف على خطّ المصاحف ، ولا ينبغى أن يزاد ذلك فيها ، مع صحة معنى القراءة بترك زيادته . وقد زعم بعضهم أن معنى قوله (رَبِّ احْكُمْ بالحَقِّ) قل : ربّ احكم بحكمك الحقّ ، ثم حذف الحكم الذى الحقّ نعت له ، وأقيم الحقّ مقامه ، ولذلك وجه ، غير أن الذى قلناه أوضح وأشبه بما قاله أهل التأويل ، فلذلك اخترناه .

وقوله (وَرَبُّنا الرَّحْمَنُ المُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ) يقول جلّ ثناؤه : وقل يا محمد : وربنا الذى يرحم عباده،ويعُمهم بنعمته،الذى أستعينه عليكم فيما تقولون وتصفون من قولكم لى،فيما أتيتكم به من عند الله (إنْ هَذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ،أفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وأنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟)،وقولكم (بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ)،وفى كذبكم على الله جلّ ثناؤه وقيلكم (اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) فإنه هين عليه تغيير ذلك، وفصل ما بينى وبينكم ، بتعجيل العقوبة لكم ، على ما تصفون من ذلك .

آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام

(٢٢) سورة الحج مدنية وآياتها ثمان وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : يا أيها الناس احذروا عقاب ربكم بطاعته ، فأطيعوه ولا تعصُوه، فإن عقابه لمن عاقبه يوم القيامة شديد ، ثم وصف جلّ ثناؤه هول أشراط ذلك اليوم وبدوّه ، فقال : (إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) .

واختلف أهل العلم فى وقت كون الزلزلة التى وصفها جلّ ثناؤه بالشدّة ، فقال بعضهم : هى كائنة فى الدنيا قبل يوم القيامة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، فى قوله (إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) قال : قبل الساعة .

حدثنى سليمان بن عبد الجبار ، قال : ثنا محمد بن الصلت ، قال : ثنا أبو كدينة ، عن عطاء ، عن عامر (يا أيُّها النَّاسُ اتقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) قال : هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جُرَيج فى قوله (إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ)

فقال : زلزلتها : أشراطها . . . الآيات (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عطاء ، عن عامر (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) قال : هذا في الدنيا من آيات الساعة .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحو ما قال هؤلاء خبر ، في إسناده نظر[1] . وذلك ما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي ، عن إسماعيل بن رافع المدني ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن رجل من الأنصار . عن محمد بن كعب القرظي ، عن رجل من الأنصار ، عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما فرغ الله من خلق السموات والأرض ، خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخص ببصره إلى العرش ، ينتظر متى يؤمر . قال أبو هريرة : يا رسول الله ، وما الصور ؟ قال : قرن ، قال : وكيف هو ؟ قال : قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين . يأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله . ويأمره الله فيديمها ويطولها ، فلا يفتر ، وهي التي يقول الله (ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) ، فيسير الله الجبال ، فتكون سرابا ، وترج الأرض بأهلها رجا ، وهي التي يقول الله (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة) ، فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر ، تضربها الأمواج ، تكفأ بأهلها ، أو كالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح ، فتميد الناس على ظهرها ، فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار ، فتلقاها الملائكة ، فتضرب وجوهها ، فترجع ، ويولى الناس مدبرين ، ينادي بعضهم بعضا ، وهو الذي يقول الله (يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد) ، فبينما هم على ذلك ، إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر ، فرأوا أمرا عظيما ، وأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به ، ثم نظروا إلى السماء ، فإذا هي كالمهل ، ثم خسف شمسها وخسف قمرها ، وانتثرت نجومها ، ثم كشطت عنهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك . فقال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : (ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) قال : أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، وهو الذي يقول (يا أيها الناس

(١) لعل المراد بقوله : في إسناده نظرا ، أن فيه رجلين مجهولين من الأنصار .

اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ) . . . إلى قوله (وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ) .

وهذا القول الذى ذكرناه عن علقمة والشعبىّ ومن ذكرنا ذلك عنه ، قولٌ لولا مجىء الصحاح من الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلافه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بمعانى وحى الله وتنزيله .

والصواب من القول فى ذلك : ما صحّ به الخبر عنه .

ذكر الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ذكرنا

حدثنى أحمدُ بن المقدام ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت أبى يحدّث عن قتادة ، عن صاحب له حدّثه ، عن عمران بن حُصين ، قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازيه ، وقد فاوت السَّير بأصحابه ، إذ نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية (يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ) قال : فحثُّوا المطىّ حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال « هَلْ تَدْرُونَ أىَّ يَوْمٍ ذَلِكَ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذلكَ يَوْمَ يُنادَى آدَمُ : يُنادِيهِ رَبُّهُ : ابْعَثْ بَعْثَ النارِ ، مِنْ كُلِّ ألْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ إلى النَّارِ ، قال : فأبلس القوم ، فما وضح منهم ضاحك ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ألا اعْمَلُوا وأبْشِرُوا ، فإنَّ مَعَكُمْ خَلِيقَتَيْنِ ما كانَتا فِى قَوْمٍ إلاَّ كَثَّرَتاهُ ، فَمَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِى آدَمَ ، وَمَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِى إبْلِيسَ وَيأْجُوجَ وَمأْجُوجَ ، قال : أبْشِرُوا ، ما أنْتُمْ فِى النَّاسِ إلاَّ كالشَّامَةِ فِى جَنْبِ البَعِيرِ ، أو كالرَّقْمة فى جَناحِ الدَّابَّةِ .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : ثنا هشام بن أبى عبد الله ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا معاذ بن هشام ، قال : ثنا أبى ؛ وحدثنا ابن أبى عدىّ ، عن هشام جميعا ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بمثله .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا محمد بن بشر ، عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن العلاء بن زياد عن عمران ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن ، قال : « بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قفل من غزوة العُسْرة ، ومعه أصحابه ، بعد ما شارف المدينه ، قرأ (يا أيُّها النَّاسُ اتقُوا رَبكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَرَوْنَها) . . . الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتَدْرُونَ أىَّ يوم ذَاكُمْ ؟ قيل : الله ورسوله أعلم ، فذكر نحوه ، إلا أنه زاد : وإنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَسُولانِ إلاَّ كانَ بَيْنَهُما فَتْرَةٌ مِنَ الجاهِلِيَّةِ ، فَهُمْ أهْلُ النَّارِ ، وإنَّكُمْ بينَ ظَهْرانَىْ خَلِيقَتَيْنِ لا يُعادُّهما أحدٌ مِنْ أهْلِ الأرْضِ إلاَّ كَثَرُوهُمْ ، وَهُمْ يَأْجُوجُ وَمأْجُوجُ ، وَهُمْ أهْلُ النارِ ، وَتَكْمُلُ العِدَّةُ مِنَ المُنافِقِينَ » .

حدثني يحيى بن إبراهيم المسعوديّ . قال : ثنا أبي ، عن أبيه . عن جدّه . عن الأعمش ، عن أبي صالح عن أبي سعيد، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « يُقالُ لآدَمَ : أخْرِجْ بَعْثَ النّارِ ، قالَ : فَيَقُولُ : وَما بَعْثُ النّارِ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ ألْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، فَعِنْدَ ذلكَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ، وَتَضَعُ الحامِلُ حَمْلَها ، وَتَرَى النّاسَ سُكارَى وَما هُمْ بِسُكارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ . قالَ : قُلْنا : فأينَ الناجي يا رسول الله ؟ قال : أبْشِرُوا : فإنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ وَألْفًا مِنْ يأجُوجَ وَمأجُوجَ ، ثُمَّ قالَ : إنّي لأطْمَعُ أنْ تَكُونُوا رُبُعَ أهْلِ الجَنَّةِ ، فكَبَّرْنا وَحَمِدْنا اللهَ ، ثم قال : إنّي لأطْمَعُ أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أهْلِ الجنةِ ، فكَبَّرْنا وَحَمِدْنا اللهَ ، ثم قال : إنّي لأطْمَعُ أنْ تَكُونُوا نِصْفَ أهْلِ الجَنةِ ، إنَّمَا مَثَلُكُمْ فِي النّاسِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ البَيْضاءِ فِي الثَّوْرِ الأسْوَدِ ، أوْ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ السَّوْداءِ فِي الثَّوْرِ الأبْيَضِ » .

حدثنا أبو السائب ، قال : ثنا أبو معاوية . عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد الخُدْريّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ اللهُ لآدَمَ يَوْمَ القِيامَةِ » ثم ذكر نحوه .

حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى الرمليّ ، قال : ثنا يحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد . قال : « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحشر ، قال : يقولُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ : يا آدَمُ ، فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ . والخَيْرُ بِيَدَيْكَ . فَيَقُولُ : ابْعَثْ بَعْثًا إلى النّارِ » . ثم ذكر نحوه .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، عن أنس قال : « نزلت (يا أيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) . . . حتى إلى (عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ) . . . الآية على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في مسير ، فرجّع بها صوته ، حتى ثاب إليه أصحابه ، فقال : أتَدْرُونَ أيَّ يَوْمٍ هَذَا ؟ هَذَا يَوْمَ يَقُولُ اللهُ لآدَمَ : يا آدَمُ قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ النّارِ ، مِنْ كُلِّ ألْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، فكبُر ذلك على المسلمين ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : سَدِّدُوا وَقارِبُوا وَأبْشِرُوا ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ : ما أنْتُمْ فِي النّاسِ إلاَّ كالشّامَةِ في جَنْبِ البَعِيرِ ، أو كالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدّابَّةِ ، وَإنَّ مَعَكُمْ لَخَلِيقَتَيْنِ ما كانَتا فِي شَيْءٍ قَطُّ إلاَّ كَثَّرَتاهُ : يأجُوجَ وَمأجُوجَ ، وَمَنْ هَلَكَ مِنْ كَفَرَةِ الجِنِّ والإنْسِ » .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، قال : دخلت على ابن مسعود بيت المال ، فقال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : « أتَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا رُبُعَ أهْلِ الجَنةِ ؟ قلنا نعم ، قال : أتَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أهْلِ الجَنةِ ؟ قلنا : نعم ، قال : فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إنّي لأرْجُو أنْ تَكُونُوا شَطْرَ أهْلِ الجَنَّةِ ، وَسأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذلكَ ، إنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ، وَإنَّ قِلَّةَ المُسْلِمِينَ فِي الكُفّارِ يَوْمَ القِيامَةِ كالشَّعْرَةِ السَّوْداءِ في الثَّوْرِ الأبْيَضِ ، أو كالشَّعْرَةِ البَيْضاءِ فِي الثَّوْرِ الأسْوَدِ » .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) قال : هذا يوم القيامة ، والزلزلة : مصدر من قول القائل : زلزلتُ بفلان الأرض ، أزلزلها زلزلة وزِلزالا ، بكسر الزاى من الزِّلزال ، كما قال الله (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا) وكذلك المصدر من كل سليم من الأفعال إذا جاءت على فِعلال ، فبكسر أوّله مثل وسوس وسوسة ووِسواسا ، فإذا كان اسما كان بفتح أوّله الزَّلزال والوَسواس ، وهو ما وسوس إلى الإنسان ، كما قال الشاعر :

يَعْرِفُ الجاهِلُ المُضَلَّلُ أَنَّ الدَّ هْرَ فِيهِ النَّكْرَاءُ والزَّلْزَالُ[١]

وقول تعالى (يَوْمَ تَرَوْنَهَا) يقول جلّ ثناؤه : يوم ترون أيها الناس زلزلة الساعة تذهل من عظمها ، كل مرضعة مولود عما أرضعت ، ويعنى بقوله (تَذْهَلُ) تنسى وتترك من شدّة كربها ، يقال : ذَهَلْتُ عن كذا أذْهَلَ عنه ذُهُولا وذَهِلْتُ أيضا ، وهى قليلة ، والفصيح : الفتح فى الهاء ، فأما فى المستقبل فالهاء مفتوحة فى اللغتين ، لم يسمع غير ذلك ؛ ومنه قول الشاعر :

صَحَا قَلْبُهُ يا عَزَّ أَوْ كادَ يَذْهَلُ[٢]

فأما إذا أريد أن الهول أنساه وسلاه ، قلت : أذهله هذا الأمر عن كذا يُذهله إذهالا . وفى إثبات الهاء فى قوله (كُلُّ مُرْضِعَةٍ) اختلاف بين أهل العربية [٣] . وكان بعض نحويّى الكوفيين يقول : إذا أثبتت الهاء فى المرضعة فانما يراد أُمّ الصبىّ المرضع ، وإذا أسقطت ، فإنه يراد المرأة التى معها صبىّ ترضعه ، لأنه أريد الفعل بها ، قالوا : ولو أريد بها الصفة فيما يرى لقال مُرْضِع . قال : وكذلك كل مُفْعِل أو فاعل يكون للأنثى ، ولا يكون للذكر ، فهو بغير هاء ، نحو : مُقْرِب ، ومُوقِر ، ومُشْدِن ، وحامل ، وحائض .

❊ قال أبو جعفر : وهذا القول عندى أولى بالصواب فى ذلك ، لأن العرب من شأنها إسقاط هاء التأنيث من كل فاعل ومفعل ، إذا وصفوا المؤنث به ، ولو لم يكن للمذكر فيه حظّ . فاذا أرادوا الخبر عنها أنها

---

(١) البيت شاهد على أن المصدر الرباعى المضعف إذا جاء على « فعلال » فهو بكسر الفاء ، فإذا فتحت الفاء فهو اسم للمصدر ، وليس بمصدر ، كما فى البيت . قال فى (اللسان : زلل) : والزلزلة والزلزال (بالفتح) : تحريك الشىء ، وقد زلزله زلزلة وزلزالا (بكسر الزاى فى الثانى) وقد قالوا : إن الفعلال (بالفتح) والزلزال (بالكسر) مطرد فى جميع مصادر المضاعف . والاسم الزلزال (بالفتح) . وليس فى الكلام فعلال ، بفتح الفاء إلا فى المضعف نحو الصلصال والزلزال . وقال أبو إسحاق والزلزال بالكسر : المصدر ؛ والزلزال ، بالفتح : الاسم ، وكذلك الوسواس : المصدر ، والوسواس الاسم . اهـ .

(٢) هذا مطلع قصيدة لكثير بن عبد الرحمن الخزاعى المشهور (بكثير عزة) فى مدح عبد الملك بن مروان ، ومصراعه الثانى :
* وأضحى يريد الصرم أو يتبدل * (ديوانه طبع الجزائر ٢ : ٢٨) قال شارحه : قوله « صحا قلبه » : قال فى الاقتضاب : قال ابن قتيبة : أصحت السماء وأصحت العاذلة وصحا من السكر . أما السماء فلا يقال فيها إلا أصحت بالألف وأما السكر فلا يقال فيه إلا صحا بغير ألف وأما الإفاقة من الحب فلم أسمع فيه إلا صحا بغير ألف ، كالسكر . وهو شاهد على الفعل تذهل فى ماضيه لغتان فتح الهاء وكسرها ، والأولى أفصح اللغتين . قال فى (اللسان : ذهل) : وفى التنزيل العزيز : « يوم تذهل كل مرضعة » أى تسلو عن ولدها . ابن سيده : ذهل الشىء وذهل عنه وذهله وذهل الكسر يذهل فيهما ذهلا وذهولا : تركه على عمد أو غفل عنه أو نسيه لشغل . وقيل : الذهل : السلو وطيب النفس عن الإلف . وقد أذهله الأمر ، وذهله عنه اهـ .

(٣) يتأمل فى هذا المقام ويراجع اللسان فإنه أبسط .

ستفعله ، ولم تفعله ، أثبتوا هاء التأنيث ليفرقوا بين الصفة والفعل ، منه قول الأعشى فيما هو واقع ، ولم يكن وقع قبل :

أيا جارَتا بِينِى فإنَّكِ طالِقَــهْ ... كَذَاكِ أُمُورُ النّاسِ غادٍ وَطارِقَهْ[1]

وأما فيما هو صفة ، نحو قول امرئ القيس :

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ ... فأَلْهَيْتُها عَنْ ذِى تَمائِمَ مُحْــوِلِ[2]

وربما أثبتوا الهاء فى الحالتين ، وربما أسقطوهما فيهما غير أن الفصيح من كلامهم ماوصفت :

فتأويل الكلام إذن : يوم ترون أيها الناس زلزلة الساعة ، تنسى وتترك كلُّ والدة مولود ترضع ولدها عما أرضعت .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ) قال : تترك ولدها للكرب الذى نزل بها .

حدثنا القاسم ،قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى بكر ، عن الحسن (تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ) قال : ذهلت عن أولادها بغير فطام ، (وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَها) قال ألقت الحوامل ما فى بطونها لغير تمام ، (وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَها) : يقول : وتسقط كل حامل من شدّة كرب ذلك حملها .

وقوله (وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى) قرأت قرّاء الأمصار (وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى) على وجه الخطاب للواحد ، كأنه قال : وترى يامحمد الناس حينئذ سُكارى ، وما هم بسُكارى. وقد رُوى عن أبى زُرْعة بن

(١) البيت لأعشى بنى قيس بن ثعلبة ، من قصيدة له قالها لامرأته الهزانية (ديوانه طبع القاهرة بشرح الدكتور محمد حسين ص ٢٦٣) والرواية فيه : يا جارتى . قال شارحه الجارة هنا : زوجته . بينى : أى فارقى . غاد وطارقه : ذكر (غاد) على إرادة الجميع ، وأنث (طارقة) على إرادة الجماعة . والغادى : الذى يأتى غدوة فى الصباح . والطارق الذى يطرق ، أى يأتى ليلا . وأنشده صاحب (اللسان : طلق) قال ابن الأعرابى : طلقت (بضم اللام) من الطلاق : أجود ، وطلقت بفتح اللام - جائز . وكلهم يقول : امرأة طالق ، بغير هاء . وأما قول الأعشى « أيا جارتا بينى فإنك طالقه » فإن الليث قال : أراد : طالقة غدا . قال غيره قال طالقة على الفعل ، لأنها يقال لها : قد طلقت ، فبنى النعت على الفعل ، وطلاق المرأة : بينونتها عن زوجها . وامرأة طالق من نسوة طلق ، وطالقة من نسوة طوالق . وأنشد قول الأعشى : « أجارتنا بينى فإنك طالقه » . . . البيت .

(٢) البيت من معلقة امرئ القيس بن حجر الكندى (مختار الشعر الجاهلى ، بشرح مصطفى السقا طبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ص ٢٥) قال شارحه : طرقت : أتيت . والتمائم : عوذ تعلق على الطفل . ومحول : أى تم له حول ، يقال : أحول الصبى فهو محول ، [illegible] مغيل ، وهو الذى ترضعه أمه وهى حبلى ، يقال : أغالت المرأة ولدها ، فهى مغيل (بكسر الغين) ، وأغيلته فهى مغيل ، (بسكون الغين ، وكسر الياء) : سقته الغيل ، وهو لبن الحبلى ، والولد : مغال ومغيل . والشاهد فى البيت أن « مرضع » بدون هاء . هو من الأوصاف الخاصة بالنساء دون الرجال ، وهو لذلك مستغن عن الهاء التى تدخل فى الصفات للتفرقة بين المذكر والمؤنث فأما قوله تعالى (يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت) بالهاء فى مرضعة ، فإنما يراد به المرأة التى معها صبى ترضعه ، فهى متلبسة بالفعل ، فالفعل مراد هنا ، والصفة حينئذ تجرى على الفعل فى التذكير والتأنيث . يقال أرضعت أو ترضع الأم ولدها ، فهى مرضعة له . فأما الأنثى التى [illegible] شأنها أن تكون مرضعا ولم تتلبس بالفعل ، فإنما يقال لها مرضع بلا هاء تأنيث ، لأن هذا وصف خاص بالإناث فلا حاجة فيه إلى الهاء الفارقة .

عمرو بن جرير (وَتُرَى النَّاسَ) بضم التاء ونصب الناس ، من قول القائل : أُرِيتُ تُرى ، التى تطاب الاسم والفعل[1] ، كظنّ وأخواتها .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا ، ما عليه قرّاء الأمصار ، لإجماع الحجة من القرّاء عليه .

واختلف القرّاء فى قراءة قوله (سُكارَى) فقرأ ذلك عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة : (سُكارَى وَما هُمْ بِسُكارَى) وقرأته عامة قرّاء أهل الكوفة (وَتَرَى النَّاسَ سَكْرَى وَما هُمْ بِسَكْرَى) .

والصواب من القول فى ذلك عندنا ، أنهما قراءتان مستفيضتان فى قَرَأَة الأمصار ، متقاربتا المعنى ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب ، ومعنى الكلام : وترى الناس يا محمد من عظيم ما نزل بهم من الكرب وشدّته سُكارى من الفزع ، وما هم بسُكارى من شرب الخمر .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى بكر ، عن الحسن (وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى) من الخوف (وَما هُمْ بِسُكارَى) من الشراب .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله (وَما هُمْ بِسُكارَى) قال : ما هُم بسكارى من الشراب (وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى وَما هُمْ بِسُكارَى) قال : ماشربوا خمرا (وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ) يقول تعالى ذكره : ولكنهم صاروا سكارى من خوف عذاب الله عند معاينتهم ما عاينوا من كرب ذلك وعظيم هوله ، مع علمهم بشدّة عذاب الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

ذكر أن هذه الآية نزلت فى النضر بن الحارث .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) قال : النضْر بن الحارث[2] . ويعنى بقوله (مَنْ يُجادِلُ فى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) من يخاصم فى الله ، فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من قد بَلِى وصار ترابا ، بغير علم يعلمه ، بل بجهل منه بما يقول ، (وَيَتَّبِعُ) فى قيله ذلك وجداله فى الله بغير علم (كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ) .

(١) لعل الصواب : الاسم والخبر . لأن ظن وأرى وأعلم تدخل على الجملة الاسمية من المبتدأ والخبر .

(٢) كان النضر بن الحارث بن كلدة قد أخذ الطب والفلسفة مع أبيه فى الحيرة .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

❁ يقول تعالى ذكره: قضى على الشيطان ، فمعنى (كُتِبَ) ههنا قُضِي ، والهاء التي في قوله عليه من ذكر الشيطان .

كما حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر عن قتادة (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ) قال : كُتب على الشيطان ، أنه من اتبع الشيطان من خلق الله .

كما حدثني محمد بن عمرو ، قال: ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قول الله (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ) قال : الشيطان اتبعه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال: ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، أنه من تولاه : قال : اتبعه . وقوله (فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ) يقول : فإن الشيطان يضله ، يعني : يضلّ من تولاه . والهاء التي في يضله عائدة على « من » التي في قوله (مَنْ تَوَلَّاهُ) وتأويل الكلام قُضي على الشيطان أنه يضلّ أتباعه ولا يهديهم إلى الحقّ .وقوله (وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) يقول: ويَسُوقُ مَن اتَّبَعَهُ إلى عذاب جهنم الموقدة ، وسياقه إياه إليه بدعائه إياه إلى طاعته ومعصية الرحمن ، فذلك هدايته من تبعه إلى عذاب جهنم .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾

❁ وهذا احتجاج من الله على الذى أخبر عنه من الناس أنه يجادل في الله بغير علم ، اتباعا منه للشيطان المريد ، وتنبيه له على موضع خطأ قيله ، وإنكاره ما أنكر من قدرة ربه . قال : يا أيها الناس إن كنتم في شكّ من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلاكُم استعظاما منكم لذلك ، فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم صلى الله عليه وسلم من تراب ، ثم إنشائناكم من نطفة آدم ، ثم تصريفناكم أحوالا حالا بعد حال ، من نطفة إلى علقة ، ثم من علقة إلى مُضغة ، لكم معتبرا ومتعظا تعتبرون به ، فتعلمون أن من قدر على ذلك فغير متعذّر عليه إعادتكم بعد فنائكم ، كما كنتم أحياء قبل الفناء .

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله مخلّقة وغير مخلقة ، فقال بعضهم : هي من صفة النطفة ، قال : ومعنى ذلك : فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة مخلقة وغير مخلقة ، قالوا : فأما المخلّقة : فما كان خلقا سويّا . وأما غير مخلقة ، فما دفعته الأرحام من النُّطَف ، وألقته قبل أن يكون خلقا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أبو معاوية ، عن داود بن أبي هند ، عن عامر ، عن علقمة ، عن عبدالله قال : إذا وقعت النطفة فى الرحم ، بعث الله ملكا فقال : يا ربّ مخلقة ، أو غير مخلقة ؟ فإن قال : غير مخلّقة ، مجّها الأرحام دما ، وإن قال : مخلقة ، قال : يا ربّ فما صفة هذه النطفة ، أذكر أم أنثى ما رزقها ما أجلها ، أشقيّ أو سعيد ؟ قال : فيقال له : انطلق إلى أمّ الكتاب ، فاستنسخ منه صفة هذه النطفة . قال : فينطلق الملك فينسخها فلا تزال معه حتّى يأتى على آخر صفتها .

وقال آخرون : معنى ذلك : تامة وغير تامة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا سليمان ، قال : ثنا أبو هلال ، عن قتادة فى قول الله (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) قال : تامة وغير تامة .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن قتادة (مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَةٍ) فذكر مثله .

وقال آخرون : معنى ذلك المضغة مصوّرة إنسانا وغير مصوّرة ، فإذا صوّرت فهى مخلّقة وإذا لم تصوّر فهى غير مخلّقة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبي بزّة ، عن مجاهد فى قوله (مُخَلَّقَةٍ) قال : السِّقط مخلّقة (وَغيرِ مُخَلَّقَةٍ) .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (مُخَلَّقَةٍ وَغيرِ مُخَلَّقَةٍ) قال : السقط مخلوق وغير مخلوق .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، بنحوه .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن عامر أنه قال فى النطفة والمضغة إذا نكست فى الخلق الرابع ، كانت نسمة مخلقة ، وإذا قذفتها قبل ذلك فهى غير مخلّقة .

قال : ثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن حماد بن أبي سلمة ، عن داود بن أبي هند ، عن أبي العالية (مُخَلَّقَةٍ وَغيرِ مُخَلَّقَةٍ) قال : السقط .

❊ وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : المخلّقة : المصورة خلقا تاما ، وغير مخلّقة : السِّقط قبل تمام خلقه ، لأن المخلّقة وغير المخلّقة من نعت المضغة والنطفة بعد مصيرها مضغة ، لم يبق لها حتّى تصير خلقا سويا إلا التصوير ، وذلك هو المراد بقوله (مُخَلَّقَةٍ وَغيرِ مُخَلَّقَةٍ) خلقا سويا ، وغير مخلّقة بأن تلقيه الأم مضغة ولا تصوّر ، ولا ينفخ فيها الروح .

وقوله (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) يقول تعالى ذكره : جعلنا المضغة منها المخلقة التامة ، ومنها السقط غير التامّ لنبين لكم قدرتنا على ما نشاء ، ونعرّفكم ابتداءنا خلقكم .

وقوله (وَنُقِرُّ فِي الأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) يقول تعالى ذكره : من كنا كتبنا له بقاء وحياة إلى أمد وغاية ، فانا نقرّه فى رحم أمه إلى وقته الذى جعلنا له أن يمكث فى رحمها فلا تسقطه ، ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله ، فاذا بلغ وقت خروجه من رحمها أذنا له بالخروج منها ، فيخرج .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله(وَنُقِرُّ فِي الأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) قال : التمام .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيْج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى يونس . قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد ، فى قوله (وَنُقِرُّ فِي الأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) قال : الأجل المسمى : إقامته فى الرحم حتى يخرج .

وقوله (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً) يقول تعالى ذكره: ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم إذا بلغتم الأجل الذى قدرته لخروجكم منها طفلا صغارا ، ووحد الطفل ، وهو صفة للجميع ، لأنه مصدر مثل عدل وزور. وقوله (ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) يقول : ثم لتبلغوا كمال عقولكم ونهاية قواكم بعمركم .

وقد ذكرت اختلاف المختلفين فى الأشدّ ، والصواب من القول فيه عندنا بشواهده فيما مضى بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذكره : ومنكم أيها الناس من يُتَوَفى قبل أن يبلغ أشدّه فيموت ، ومنكم من يُنسَأ فى أجله فيعمر حتى يهرم ، فيردّ من بعد انتهاء شبابه ، وبلوغه غاية أشدّه إلى أرذل عمره ، وذلك الهرم حتى يعود كهيئته فى حال صباه ، لا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئا .

ومعنى الكلام : ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر بعد بلوغه أشدّه (لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ) كان يعلمه (شَيْئاً) . وقوله (وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً) يقول تعالى ذكره : وترى الأرض يابسة

دارسة الآثار من النبات والزرع ، وأصل الهمود : الدروس والدثور ، ويقال منه : همدت الأرض تهمد همودا ؛ ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس :

قالَتْ قُتَيْلَةُ : ما لِجِسْمِكَ شاحِبا وأرَى ثِيابَكَ بالِياتٍ هُمَّدا (١)

والهُمَّد: جمع هامد ، كما الركع جمع راكع .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، فى قوله (وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً) قال : لانبات فيها .

وقوله (فإذَا أنْزَلْنا عَلَيْها المَاءَ اهْتَزَّتْ) يقول تعالى ذكره : فإذا نحن أنزلنا على هذه الأرض الهامدة التى لانبات فيها ، المطر من السماء اهتزت : يقول : تحركتْ بالنبات (وَرَبَتْ) يقول : وأضعفت النبات بمجىء الغيث .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) قال : عُرِف الغيث فى ربوها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال: أخبرنا معمر ، عن قتادة (اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) قال : حسنت ، وعرف الغيث فى ربوها .

وكان بعضهم يقول : معنى ذلك : فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ، ويوجه المعنى إلى الزرع ، وإن كان الكلام مخرجه على الخبر عن الأرض ، وقرأت قراء الأمصار (وَرَبَتْ) بمعنى : الربو : الذى هو النماء والزيادة . وكان أبو جعفر القارئ يقرأ ذلك (وَرَبَأَتْ) بالهمز .

حُدثت عن الفراء ، عن أبى عبد الله التميمى عنه ، وذلك غلط ، لأنه لاوجه للرب ههنا ، وإنما يقال : ربأ بالهمز بمعنى : حرس من الربيئة ، ولا معنى للحراسة فى هذا الموضع ، والصحيح من القراءة ماعليه قراء الأمصار .

وقوله (وأنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) يقول جلّ ثناؤه : وأنبتت هذه الأرض الهامدة بذلك الغيث ، من كل نوع بهيج ، يعنى بالبهيج : البهج ، وهو الحسن .

(١) البيت لأعشى بنى قيس بن ثعلبة (ديوانه طبع القاهرة بشرح الدكتور محمد حسين ص ٢٢٧) . وهو من قصيدة قالها لكسرى حين أراد منهم رهائن ، لما أغار الحارث بن وعلة على بعض السواد . والرواية فيه « سايئا » فى موضع « شاحبا » . قال فى تفسيره : سايئه : يسوء من رآه . وهمد الثوب تقطع من طول الطى ، ينظر إليه الناظر فيحسبه صحيحا ، فإذا مسه تناثر من البلى ، ومثله فى (اللسان همد) : (وترى الأرض هامدة) : أى جافة ذات تراب . وأرض هامدة : مقشعرة ، لانبات فيها إلا اليابس المتحطم ، وقد أهمدها القحط . اه .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) قال : حسن .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

❁ يعنى تعالى ذكره بقوله : ذلك هذا الذى ذكرت لكم أيها الناس من بدئنا خلقكم فى بطون أمهاتكم ، ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده ، طفلا ، وكهلا ، وشيخا هرما ، وتنبيهناكم على فعلنا بالأرض الهامدة بما ننزل عليها من الغيث لتؤمنوا وتصدّقوا بأن ذلك الذى فعل ذلك ، الله الذى هو الحقّ لاشك فيه ، وأن من سواه مما تعبدون من الأوثان والأصنام باطل لأنها لاتقدر على فعل شىء من ذلك، وتعلموا أن القدرة التى جعل بها هذه الأشياء العجيبة ، لايتعذّر عليها أن يحيى بها الموتى بعد فنائها ودروسها فى التراب ، وأن فاعل ذلك على كلّ ما أراد وشاء من شىء قادر ، لايمتنع عليه شىء أراده ، ولتوقنوا بذلك أن الساعة التى وعدتكم أن أبعث فيها الموتى من قبورهم جائية لامحالة (لَا رَيْبَ فِيهَا) يقول: لاشك فى مجيئها وحدوثها (وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى ٱلْقُبُورِ) حينئذ مَن فيها من الأموات أحياء إلى موقف الحساب ، فلا تشكوا فى ذلك ، ولا تمترُوا فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾

❁ يقول تعالى ذكره : ومن الناس من يخاصم فى توحيد الله وإفراده بالألوهة بغير علم منه بما يخاصم به (وَلَا هُدًى) يقول : وبغير بيان معه لما يقول ولابرْهان (وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) يقول : وبغير كتاب من الله أتاه لصحة ما يقول (منير) يقول ينير عن حجته . وإنما يقول ما يقول من الجهل ظنا منه وحسبانا ، وذكر أنه عُنِى بهذه الآية والتى بعدها النضر بن الحارث من بنى عبد الدار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

⁂ يقول تعالى ذكره : يجادل هذا الذى يجادل فى الله بغير علم (ثَانِيَ عِطْفِهِ) .

واختلف أهل التأويل فى المعنى الذى من أجله وصف بأنه يثنى عطفه ، وما المراد من وصفه إياه بذلك ، فقال بعضهم : وصفه بذلك لتكبره وتبختره ، وذكر عن العرب أنها تقول : جاءنى فلان ثانى عطفه : إذا جاء متبخترا من الكبر .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله (ثَانِيَ عِطْفِهِ) يقول : مستكبرا فى نفسه .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : لاوٍ رقبته .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (ثَانِيَ عِطْفِهِ) قال : رقبته .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (ثَانِيَ عِطْفِهِ) قال : لاوٍ عنقه .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، مثله .

وقال آخرون : معنى ذلك أنه يعرض عما يدعى إليه فلا يسمع له .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (ثَانِيَ عِطْفِهِ) يقول : يعرض عن ذكرى .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) قال : لاويا رأسه ، معرضا موليا ، لا يريد أن يسمع ما قيل له ، وقرأ (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ - وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (ثَانِيَ عِطْفِهِ) قال : يعرض عن الحقّ .

قال أبو جعفر : وهذه الأقوال الثلاثة متقاربات المعنى ، وذلك أن من كان ذا استكبار ، فمن شأنه الإعراض عما هو مستكبر عنه ولىّ عنقه عنه والإعراض .

⁂ والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله وصف هذا المخاصم فى الله بغير علم أنه من كبره إذا دُعى إلى الله ، أعرض عن داعيه ، ولوى عنقه عنه ، ولم يسمع ما يقال له استكبارا .

وقوله (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) يقول تعالى ذكره : يجادل هذا المشرك فى الله بغير علم معرضا

عن الحقّ استكبارا ، ليصدّ المؤمنين بالله عن دينهم الذى هداهم له ، ويستزلهم عنه (لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ) يقول جلّ ثناؤه : لهذا المجادل فى الله بغير علم ، فى الدنيا خزى وهو القتل والذلّ والمهانة بأيدى المؤمنين ، فقتله الله بأيديهم يوم بدر .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قوله (فِي الدُّنْيا خِزْيٌ) قال : قُتل يوم بدر .

وقوله (وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القِيامَةِ عَذابَ الحَرِيقِ) يقول تعالى ذكره: ونحرقه يوم القيامة بالنار .

وقوله (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ) يقول جلّ ثناؤه : ويقال له إذا أذيق عذاب النار يوم القيامة : هذا العذاب الذى نذيقكه اليوم بما قدمت يداك فى الدنيا من الذنوب والآثام ، واكتسبته فيها من الإجرام (وأنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) يقول : وفعلنا ذلك ، لأن الله ليس بظلام للعبيد ، فيعاقب بعض عبيده على جُرْم ،وهو يغفر [1] مثله من آخر غيره ، أو يحمل ذنب مذنب على غير مذنب ، فيعاقبه به ، ويعفو عن صاحب الذنب ، ولكنه لايعاقب أحدا إلا على جرمه ، ولا يعذب أحدا على ذنب يغفر مثله لآخر إلا بسبب استحق به منه مغفرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾

يعنى جلّ ذكره بقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ) أعرابا كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهاجرين من باديتهم ، فإن نالوا رخاء من عيش بعد الهجرة والدخول فى الإسلام أقاموا على الإسلام ، وإلا ارتدّوا على أعقابهم ، فقال الله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ) على شكّ (فإنْ أصابهُ خيرٌ اطمأنَّ بهِ) وهوالسعة من العيش، وما يشبهه من أسباب الدنيا اطمأنّ به . يقول : استقرّ بالإسلام وثبت عليه (وَإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ) وهو الضيق بالعيش وما يشبهه من أسباب الدنيا (انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ) يقول : ارتدّ فانقلب على وجهه الذى كان عليه من الكفر بالله .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ) . . . إلى قوله (انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ) قال : الفتنة البلاء ، كان أحدهم إذا قدم المدينة وهى أرض وبيئة ، فإن صحّ بها جسمه ، ونُتِجت فرسه مُهرا حسنا ، وولدت امرأته غلاما رضى به ، واطمأنّ إليه وقال : ما أصبت منذ كنت على دينى هذا إلا خيرا ، وإن

(١) فى الأصل يغفره . . . وفى العبارة اولتباك ، لوضعها فى آخر كلامه .

أصابه وجع المدينة ، وولدت امرأته جارية ، وتأخرت عنه الصدقة ، أتاه الشيطان فقال : والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرًّا ، وذلك الفتنة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، قال : ثنا عنبسة ، عن أبى بكر ، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن القاسم بن أبى بزّة ، عن مجاهد فى قول الله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ) قال : على شكّ .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (عَلَى حَرْفٍ) قال : على شكّ (فإنْ أصابهُ خيرٌ) رَخاء وعافية (اطمأنّ بهِ) : استقرّ (وَإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ) عذاب ومصيبة (انْقَلَبَ) ارتدّ (عَلَى وَجْهِهِ) كافرا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، بنحوه . قال ابن جُرَيج : كان ناس من قبائل العرب وممن حولهم من أهل القرى يقولون : نأتى محمدا صلى الله عليه وسلم ، فإن صادفنا خيرا من معيشة الرزق ثبتنا معه ، وإلا لحقنا بأهلنا .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ) قال : شك (فإنْ أصابَهُ خَيْرٌ) يقول : أكثر ماله ، وكثرت ماشيته اطمأنّ وقال : لم يصبنى فى دينى هذا منذ دخلته إلا خير (وَإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ) يقول : وإن ذهب ماله ، وذهبت ماشيته (انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ) .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، نحوه .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ) الآية . كان ناس من قبائل العرب ، وممن حول المدينة من القرى كانوا يقولون : نأتى محمدا صلى الله عليه وسلم فننظر فى شأنه ، فإن صادفنا خيرا ثبتنا معه ، وإلا لحقنا بمنازلنا وأهلينا ، وكانوا يأتونه فيقولون : نحن على دينك ، فإن أصابوا معيشة ، ونَتَجُوا خيلهم ، وولدت نساؤهم الغلمان اطمأنوا وقالوا : هذا دين صدق ، وإن تأخر عنهم الرزق ، وأزلقت خيولهم ، وولدت نساؤهم البنات ، قالوا : هذا دين سَوْء ، فانقلبوا على وجوههم .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فإنْ أصابَهُ خَيْرٌ اطْمأنَّ بِهِ ، وَإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدنْيا والآخِرَةَ) قال : هذا المنافق ، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه ، وتغيرت انقلب ، ولا يقيم على العبادة إلا لما صَلَح من دنياه . وإذا أصابته شدّة أو فتنة ، أو اختبار أو ضيق ، ترك دينه ورجع إلى الكفر .

وقوله (خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ) يقول : غَبِن هذا الذى وصف جلّ ثناؤه صفته دنياه ، لأنه لم

يظفر بحاجته منها بما كان من عبادته الله على الشك ، ووضع فى تجارته فلم يربح ، والآخرة : يقول : وخسر الآخرة ، فإنه معذّب فيها بنارالله الموقدة . وقوله (ذلكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ) يقول : وخسارته الدنيا والآخرة هى الخسران : يعنى الهلاك المبين : يقول: يبين لمن فكّر فيه وتدبره أنه قد خسر الدنيا والآخرة .

واختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته قرّاء الأمصار جميعا ، غير حميد الأعرج (خَسِرَ الدنْيا والآخِرَةَ) على وجه المضىّ . وقرأه حميد الأعرج (خاسِرًا) نصبا على الحال على مثال فاعل .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

﴿ يقول تعالى ذكره : وإن أصابت هذا الذى يعبد الله على حرف فتنة ، ارتدّ عن دين الله ، يدعو من دون الله آلهة لاتضرّه إن لم يعبدها فى الدنيا ، ولا تنفعه فى الآخرة إن عبدها (ذلكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ) يقول : ارتداده ذلك داعيا من دون الله هذه الآلهة هو الأخذ على غير استقامة ، والذهاب عن دين الله ذهابا بعيدا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد ، فى قوله (يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ ما لايَضُرُّهُ وَما لايَنْفَعُهُ) يكفر بعد إيمانه (ذلكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ) .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾

﴿ يقول تعالى ذكره : يدعو هذا المنقلب على وجهه من أن أصابته فتنة آلهة لضرّها فى الآخرة له ، أقرب وأسرع إليه من نفعها . وذكر أن ابن مسعود كان يقرؤه : يدعو مَنْ ضَرّه أقرب من نفعه .

واختلف أهل العربية فى موضع « مَنْ » ، فكان بعض نحوِيِّى البصرة يقول : موضعه نصب بيدعو ، ويقول : معناه : يدعو لآلهة ضرّها أقرب من نفعها ، ويقول : هو شاذّ لأنه لم يوجد فى الكلام يدعو لزيدا . وكان بعض نحوِيِّى الكوفة يقول: اللام من صلة « ما » بعد « مَنْ » ، كأن معنى الكلام عنده : يدعو من لَضَرّه أقرب من نفعه. وحُكى عن العرب سماعا منها عندى لَمَا غيرُه خير منه ، بمعنى : عندى ما لغيره خير منه . وأعطيتك لما غيرُه خير منه ، بمعنى : ما لغيره خير منه . وقال : جائز فى كلّ ما لم يتبين فيه الإعراب الاعتراض باللام دون الاسم .

وقال آخرون منهم : جائز أن يكون معنى ذلك : هو الضلال البعيد يدعو ، فيكون يدعو صلة الضلال البعيد ، وتضمر فى يدعو الهاء ثم تستأنف الكلام باللام ، فتقول : لمن ضرّه أقرب من نفعه : لبئس المولى ، كقولك فى الكلام فى مذهب الجزاء لَمَا فَعَلْتَ لَهُوَ خيرٌ لك ، فعلى هذا القول « من » فى موضع رفع بالهاء

فى قوله ضَرُّه،لأن مَنْ إذا كانت جزاء فإنما يعربها مابعدها ، واللام الثانية فى لبئس المولى جواب اللام الأولى ، وهذا القول الآخر على مذهب العربية أصحّ ، والأوّل إلى مذهب أهل التأويل أقرب .

وقوله (لَبِئْسَ المَوْلَى) يقول: لبئس ابن العمّ هذا الذى يعبد الله على حرف (وَلَبِئْسَ العَشِيرُ) يقول : ولبئس الخليط المعاشر والصاحب : هو كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَلَبِئْسَ العَشِيرُ) قال : العشير : هو المعاشر الصاحب ، وقد قيل: عنى بالمولى فى هذا الموضع : الولىّ الناصر .

وكان مجاهد يقول : عنى بقوله (لَبِئْسَ المَوْلَى وَلَبِئْسَ العَشِيرُ) الوثن .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (وَلَبِئْسَ العَشِيرُ) قال : الوثن .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره : إن الله يدخل الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله فى الدنيا ، وانتهوا عما نهاهم عنه ، فيها جنات : يعنى بساتين (تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ) يقول : تجرى الأنهار من تحت أشجارها (إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ) فيعطى ماشاء من كرامته أهل طاعته ،وما شاء من الهوان أهل معصيته .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بالهاء التى فى قوله (أنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ) .

فقال بعضهم: عُنِى بها نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، فتأويله على قول بعض قائلى ذلك: من كان من الناس يحسب أن لن ينصر الله محمدا فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بحبل ، وهو السبب إلى السماء : يعنى سماء البيت ، وهو سقفه ، ثم ليقطع السبب بعد الاختناق به ، فلينظر هل يذهبن اختناقه ذلك ، وقطعه السبب بعد الاختناق ما يغيظ : يقول : هل يذهبن ذلك ما يجد فى صدره من الغيظ .

ذكر من قال ذلك

حدثنا نصر بن علىّ ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى خالد بن قيس ، عن قتادة : من كان يظن أن لن

ينصر الله نبيه ولا دينه ولا كتابه (فليمدُدْ بسببٍ) يقول : بحبل إلى سماء البيت فليختنق به (فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغيظُ) .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (مَنْ كانَ يَظُنُّ أنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ) قال : من كان يظنّ أن لن ينصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ) يقول : بحبل إلى سماء البيت (ثُمَّ لْيَقْطَعْ) يقول : ثم ليختنق ثم لينظر هل يذهبنّ كيده ما يغيظ .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال أخبرنا معمر ، عن قتاده ، بنحوه .

وقال آخرون ممن قال : الهاء في ينصره من ذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم السماء التي ذكرت في هذا الموضع ، هي السماء المعروفة .

قالوا : معنى الكلام ما حدثني به يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (مَنْ كانَ يَظُنُّ أنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ) فقرأ حتى بلغ (هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغيظُ) قال : من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه ، ومنه : فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه ، فإن أصله في السماء ، فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الوحي الذي يأتيه من الله ، فإنه لا يكايده حتى يقطع أصله عنه ، فكايد ذلك حتى قطع أصله عنه (فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغيظُ) ما دخلهم من ذلك ، وغاظهم الله به من نصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم وما ينزل عليه . وقال آخرون ممن قال « الهاء » التي في قوله (يَنْصُرَهُ) من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم معنى النصر هاهنا الرزق ، فعلى قول هؤلاء تأويل الكلام : من كان يظنّ أن لن يرزق الله محمدا في الدنيا ، ولن يعطيه . وذكروا سماعا من العرب : من ينصرني نصره الله ، بمعنى : من يعطني أعطاه الله . وحكوا أيضا سماعا منهم : نصر المطر أرض كذا : إذا جادها وأحياها ، واستشهد لذلك ببيت الفقعسيّ :

وإنَّكَ لا تُعْطِي امْرأً فَوْقَ حَظِّهِ ... وَلا تَمْلِكُ الشِّقَّ الَّذِي الغَيْثُ ناصِرُهْ[1]

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن عطية ، قال : ثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن التميمي ، قال : قلت لابن عباس : أرأيت قوله (مَنْ كانَ يَظُنُّ أنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ

---

(١) البيت للفقعسي ، كما قال المؤلف . والشاهد فيه قوله « الغيث ناصره » . قال في (اللسان : نصر) قال أبو حنيفة الدينوري النصر والناصرة : ما جاء من مكان بعيد إلى الوادي ، فنصر السيول . ونصر البلاد ينصرها أتاها . عن ابن الأعرابي ، ونصرت أرض بني فلان أي أتيتها ، ونصر الغيث الأرض نصرا : أغاثها وسقاها وأنبتها . قال :

من كان أخطأه الربيع فإنما ... نصر الحجاز بغيث عبد الواحد

ونصر الغيث البلد : إذا أعانه على الخصب والنبات . وقال أبو عبيد : نصرت البلاد : إذا مطرت ، فهي منصورة ، أي ممطورة . ونصر القوم : إذا أمطروا . وفي الحديث : « إن هذه السحابة تنصر أرض بني كعب » أي تمطرهم .

بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) قال : من كان يظنّ أن لن ينصر الله محمدا ، فليربط حبلا فى سقف ، ثم ليختنق به حتى يموت .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام عن عنبسة ، عن أبى إسحاق الهمدانى ، عن التميمىّ ، قال : سألت ابن عباس ، عن قوله (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ) قال : أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ) والسبب : الحَبْل ، والسماء : سقف البيت ، فليعلق حبلا فى سماء البيت ، ثم ليختنق (فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ) هذا الذى صنع ما يجد من الغيظ .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عمرو بن مطرف ، عن أبى إسحاق ، عن رجل من بنى تميم ، عن ابن عباس ، مثله .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن التميمىّ ، عن ابن عباس (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ) قال : سماء البيت .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا أبو داود ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى إسحاق ، قال : سمعت التميمىّ ، يقول : سألت ابن عباس ، فذكر مثله .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) ... إلى قوله (مَا يَغِيظُ) قال : السماء التى أمر الله أن يمد إليها بسبب سقف البيت أمر أن يمد إليه بحبل فيختنق به ، قال : فلينظر هل يذهبنّ كيده ما يغيظ إذا اختنق إن خشى أن لا ينصره الله !

وقال آخرون : الهاء فى ينصره من ذكر « مَنْ » . وقالوا : معنى الكلام : من كان يظنّ أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى سماء البيت ، ثم ليختنق ، فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ ، أنه لا يرزق !

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، [1] عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ) قال : يرزقه الله (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ) قال : بحبل (إِلَى السَّمَاءِ) سماء ما فوقك (ثُمَّ لْيَقْطَعْ) ليختنق ، هل يذهبن كيده ذلك خنقه أن لا يرزق .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، فى قوله (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ) يرزقه الله (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ) قال : بحبل إلى السماء .

قال ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانىّ ، عن ابن عباس ، قال : (إلى السماء) إلى سماء البيت . قال ابن جُرَيج : وقال مجاهد : (ثُمَّ لْيَقْطَعْ) قال : ليختنق ، وذلك كيده ما يغيظ ، قال : ذلك خنقه أن لا يرزقه الله .

---

(١) فى السند اختصار لعله من الناسخ .

حُدثت عن الحسين، قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ) يعني : بحبل (إلى السَّماءِ) يعني : سماء البيت .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : أخبرنا أبو رجاء ، قال : سُئل عكرمة عن قوله : (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّماءِ) قال : سماء البيت (ثُمَّ لْيَقْطَعْ) قال : يختنق .

☼ وأولى ذلك بالصواب عندي في تأويل ذلك قول من قال : الهاء من ذكر نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ودينه ، وذلك أن الله تعالى ذكره ، ذكر قوما يعبدونه على حرف ، وأنهم يطمئنون بالدين إن أصابوا خيرا في عبادتهم إياه ، وأنهم يرتدّون عن دينهم لشدّة تصيبهم فيها ، ثم أتبع ذلك هذه الآية ، فمعلوم أنه إنما أتبعه إياها توبيخا لهم على ارتدادهم عن الدين ، أو على شكهم فيه نفاقهم ، استبطاء منهم السعة في العيش ، أو السبوغ في الرزق . وإذا كان الواجب أن يكون ذلك عقيب الخبر عن نفاقهم ، فمعنى الكلام إذن ، إذ كان ذلك كذلك : من كان يحسب أن لن يرزق الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته في الدنيا ، فيوسع عليهم من فضله فيها ، ويرزقهم في الآخرة من سنيّ عطاياه وكرامته ، استبطاء منه فعل الله ذلك به وبهم ، فليمدد بحبل إلى سماء فوقه : إما سقف بيت ، أو غيره مما يعلق به السبب من فوقه ، ثم يختنق إذا اغتاظ من بعض ما قضى الله ، فاستعجل انكشاف ذلك عنه ، فلينظر هل يذهبنّ كيده اختناقه ، كذلك ما يغيظ ، فإن لم يذهب ذلك غيظه ، حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهبه ، فكذلك استعجاله نصر الله محمدا ودينه لن يُؤخِّر ما قضى الله له من ذلك عن ميقاته ، ولا يعجِّل قبل حينه . وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان ، تباطئوا عن الإسلام ، وقالوا : نخاف أن لا ينصر محمد صلى الله عليه وسلم ، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ولا يُرَوُّوننا ، فقال الله تبارك وتعالى لهم : من استعجل من الله نصر محمد ، فليمدد بسبب إلى السماء فليختنق فلينظر استعجاله بذلك في نفسه ، هل هو مُذْهِبٌ غيظه ؟ فكذلك استعجاله من الله نصر محمد غير مقدّم نصره قبل حينه .

واختلف أهل العربية في « ما » التي في قوله (ما يَغِيظُ) فقال بعض نحويّي البصرة هي بمعنى الذي ، وقال : معنى الكلام : هل يذهبنّ كيده الذي يغيظه ، قال : وحذفت الهاء لأنها صلة الذي ، لأنه إذا صارا جميعا اسما واحدا كان الحذف أخفّ . وقال غيره : بل هو مصدر لا حاجة به إلى الهاء ، هل يذهبنّ كيده غيظه .

وقوله (وَكَذلكَ أنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ) يقول تعالى ذكره : وكما بيَّنت لكم حُجَجي على من جحد قدرتي على إحياء من مات من الخلق بعد فنائه ، فأوضحتها أيها الناس ، كذلك أنزلنا إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذا القرآن آيات بيِّنات ، يعني دلالات واضحات ، يهدين من أراد الله هدايته إلى الحقّ (وأنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ) يقول جلّ ثناؤه : ولأن الله يوفق للصواب ولسبيل الحقّ من أراد ، أنزل هذا القرآن آيات بيِّنات ، فأن في موضع نصب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : إن الفصل بين هؤلاء المنافقين الذين يعبدون الله على حرف ، والذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثان والأصنام ، والذين هادوا ، وهم اليهود والصابئين والنصارى والمجوس الذين عظموا النيران وخدموها ، وبين الذين آمنوا بالله ورسله إلى الله ، وسيفصل بينهم يوم القيامة بعدل من القضاء وفصله بينهم إدخاله النار الأحزاب كلهم والجنة المؤمنين به وبرسله ، فذلك هو الفصل من الله بينهم .

وكان قَتادة يقول فى ذلك ما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قَتادة ، فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) قال : الصابئون : قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون القبلة ، ويقرءون الزبور . والمجوس : يعبدون الشمس والقمر والنيران . والذين أشركوا : يعبدون الأوثان . والأديان ستة : خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن . وأدخلت « إن » فى خبر « إن » الأولى لما ذكرت من المعنى ، وأن الكلام بمعنى الجزاء ، كأنه قيل : من كان على دين من هذه الأديان ، ففصل ما بينه وبين من خالفه على الله والعرب تدخل أحيانا فى خبر « إن » إنَّ إذا كان خبر الاسم الأوّل فى اسم مضاف إلى ذكره ، فتقول : إن عبد الله إن الخير عنده لكثير ، كما قال الشاعر :

إِنَّ الخَلِيفَةَ إِنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ ... سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الخَوَاتِيمُ (١)

وكان الفرّاء يقول : من قال هذا لم يقل : إنك إنك قائم ، ولا إن إياك إنه قائم ، لأن الاسمين قد اختلفا ، فحسن رفض الأوّل ، وجعل الثانى كأنه هو المبتدأ ، فحسن للاختلاف ، وقبح للاتفاق .

وقوله (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) يقول : إن الله على كل شىء من أعمال هؤلاء الأصناف الذين ذكرهم الله جلّ ثناؤه ، وغير ذلك من الأشياء كلها شهيد لا يخفى عنه شىء من ذلك .

---

(١) البيت لجرير (ديوانه طبعة الصاوى ص ٥٢٧) وهو من قصيدة يمدح بها بعض بنى مروان وفى روايته : « يكفى » فى موضع « إن » الأولى . وترجى ، فى موضع ترجى . قال شارح شواهد الكشاف : خاتم الشىء : عاقبته . وتزجى أى تساق خواتيم الإمارة ، والخاتم بفتح التاء وكسرها ، يقال أزجيت الإبل أى سقتها . والبيت شاهد عند قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين .... إن الله يفصل بينهم) أدخلت إن على كل واحد من جزأى الجملة ، لزيادة التأكيد . وحسن دخول إن الثانية على الجملة الواقعة خبرا ، طول الفصل بينهما بالمعاطيف . والمؤلف ساق البيت شاهدا على أنه نظير ما فى الآية من دخول إن الثانية على جملة الخبر إذا كان فيه ضمير . ويجوز فى البيت وجه آخر ، وهو أن تكون جملة إن الله سربله سربال ملك ، جملة معترضة بين اسم إن وخبرها ، ولا يجوز ذلك فى الآية ، قاله أبو حيان ، ونقله عنه شارح شواهد الكشاف . اهـ . والسربال : القميص والدرع . والمراد هنا الأول .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تر يامحمد بقلبك، فتعلم أن الله يسجد له من فى السموات من الملائكة، ومن فى الأرض من الخلق من الجنّ وغيرهم، والشمس والقمر والنجوم فى السماء، والجبال، والشجر، والدوابّ فى الأرض، وسجود ذلك ظلاله حين تطلع عليه الشمس، وحين تزول، إذا تحوّل ظلّ كل شىء فهو سجوده.

كما حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد، قوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ) قال: ظلال هذا كله.

وأما سجود الشمس والقمر والنجوم، فإنه كما حدثنا به ابن بشار، قال: ثنا ابن أبي عدىّ ومحمد بن جعفر، قالا: ثنا عوف، قال: سمعت أبا العالية الرياحى يقول: ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجدا حين يغيب، ثم لاينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين، وزاد محمد حتى يرجع إلى مطلعه.

وقوله (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) يقول: ويسجد كثير من بنى آدم، وهم المؤمنون بالله.

كما حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) قال: المؤمنون. وقوله (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ) يقول تعالى ذكره: وكثير من بنى آدم حقّ عليه عذاب الله، فوجب عليه بكفره به، وهو مع ذلك يسجد لله ظله.

كما حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ) وهو يسجد مع ظله، فعلى هذا التأويل الذى ذكرناه عن مجاهد، وقع قوله (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ) بالعطف على قوله (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) ويكون داخلا فى عداد من وصفه الله بالسجود له، ويكون قوله (حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ) من صلة كثير، ولو كان الكثير الثانى ممن لم يدخل فى عداد من وصف بالسجود كان مرفوعا بالعائد من ذكره فى قوله (حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ) وكان معنى الكلام حينئذ: وكثير أبَى السجود، لأن قوله (حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ) يدلّ على معصية الله وإبائه السجود، فاستحقّ بذلك العذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

يقول تعالى ذكره: ومن يهنه الله من خلقه فيُشقه (فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) بالسعادة يسعده بها، لأن

الأمور كلها بيد الله ، يوفّق من يشاء لطاعته ، ويخذل من يشاء ، ويُشقى من أراد ، ويسعد من أحبّ .

وقوله (إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ) يقول تعالى ذكره : إن الله يفعل فى خلقه ما يشاء من إهانة من أراد إهانته ، وإكرام من أراد كرامته ، لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره ، (لايُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) . وقد ذُكر عن بعضهم أنه قرأه (فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرَمٍ) بمعنى : فما له من إكرام ، وذلك قراءة لاأستجيز القراءة بها لإجماع الحجة من القرّاء على خلافه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بهذين الخصمين اللذين ذكرهما الله ، فقال بعضهم : أحد الفريقين : أهل الإيمان ، والفريق الآخر : عبدة الأوثان من مشركى قريش الذين تبارزوا يوم بدر .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا أبوهاشم ، عن أبى مجاز ، عن قيس بن عبادة قال : سمعت أبا ذرّ يُقْسم قسَما أنهذه الآية (هَذَانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ) نزلت فى الذين بارزوا يوم بدر حمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة ، قال : وقال علىّ : إنى لأوّل ، أو من أوّل من يجثو للخصومة يوم القيامة بين يدى الله تبارك وتعالى .

حدثنا علىّ بن سهل ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى هاشم ، عن أبى مجاز ، عن قيس ابن عباد ، قال : سمعت أبا ذرّ يقسم بالله قسما : لنزلت هذه الآية فى ستة من قريش حمزة بن عبد المطلب وعلىّ بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث رضى الله عنهم ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد ابن عتبة (هَذَانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ) . . . إلى آخر الآية (إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) . . إلى آخر الآية .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى هاشم ، عن أبى مجاز ، عن قيس ابن عباد ، قال : سمعت أبا ذرّ يقسم ، ثم ذكر نحوه .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن محبب ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور بن المعتمر ، عن هلال بن يساف ، قال : نزلت هذه الآية فىالذين تبارزوا يوم بدر (هَذَانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة بن الفضل ، قال : ثنى محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن عطاء ابن يسار ، قال : نزلت هؤلاء الآيات (هَذَانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ) فى الذين تبارزوا يوم

بدر : حمزة ، وعلى ، وعبيدة بن الحارث ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة . إلى قوله (وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) .

قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن أبي هاشم ، عن أبي مِجْلَز ، عن قيس بن عباد ، قال : والله لأُنزلت هذه الآية (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) في الذين خرج بعضهم إلى بعض يوم بدر : حمزة ، وعليّ ، وعُبيدة رحمة الله عليهم ؛ وشيبة ، وعتبة ، والوليد بن عتبة .

وقال آخرون : ممن قال : أحد الفريقين فريق الإيمان ، بل الفريق الآخر أهل الكتاب .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) قال : هم أهل الكتاب ، قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله ، وأقدم منكم كتابا ، ونبينا قبل نبيكم . وقال المؤمنون : نحن أحقّ بالله ، آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وآمنا بنبيكم ، وبما أنزل الله من كتاب ، فأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ، ثم تركتموه وكفرتم به حسدا ، وكان ذلك خصومتهم في ربهم .

وقال آخرون منهم : بل الفريق الآخر الكفار كلهم ، من أيّ ملة كانوا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، قال : ثنا أبو تُميلة ، عن أبي حمزة ، عن جابر عن مجاهد وعطاء بن أبي رباح ، وأبي قزعة ، عن الحسين ، قال : هم الكافرون والمؤمنون اختصموا في ربهم .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : مثل الكافر والمؤمن . قال ابن جريج : خصومتهم التي اختصموا في ربهم ، خصومتهم في الدنيا من أهل كل دين ، يرون أنهم أولى بالله من غيرهم .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أبو بكر بن عياش ، قال : كان عاصم والكلبي يقولان جميعا في (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) قال : أهل الشرك والإسلام حين اختصموا أيهم أفضل ، قال : جعل الشرك ملة .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قوله (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) قال : مثل المؤمن والكافر اختصامهما في البعث .

وقال آخرون : الخصمان اللذان ذكرهما الله في هذه الآية : الجنة والنار .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو تميلة ، عن أبي حمزة ، عن جابر ، عن عكرمة

(هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) قال : هما الجنة والنار اختصمتا ، فقالت النار : خلقني الله لعقوبته وقالت الجنة : خلقني الله لرحمته ، فقد قصّ الله عليك من خبرهما ما تسمع .

❁ وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب ، وأشبهها بتأويل الآية : قول من قال : عني بالخصمين : جميع الكفار من أنّ أصناف الكفر كانوا وجميع المؤمنين ، وإنما قلت ذلك أولى بالصواب ، لأنه تعالى ذكره ذكر قبل ذلك صنفين من خلقه : أحدهما أهل طاعة له بالسجود له ، والآخر : أهل معصية له ، قد حقّ عليه العذاب ، فقال (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، والشَّمْسُ والقَمَرُ) ثم قال : (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) ، ثم أتبع ذلك صفة الصنفين كليهما وما هو فاعل بهما ، فقال (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) وقال الله (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) فكان بيِّنا بذلك أن ما بين ذلك خبر عنهما .

❁ فإن قال قائل : فما أنت قائل فيما رُوي عن أبي ذرّ في قوله (إِنَّ ذَلِكَ) نزل في الذين بارزوا يوم بدر ؟ قيل : ذلك إن شاء الله كما روى عنه ، ولكن الآية قد تنزل بسبب من الأسباب ، ثم تكون عامة في كل ما كان نظير ذلك السبب ، وهذه من تلك ، وذلك أن الذين تبارزوا إنما كان أحد الفريقين أهل شرك وكفر بالله ، والآخر أهل إيمان بالله وطاعة له ، فكل كافر في حكم فريق الشرك منهما في أنه لأهل الإيمان خصم ، وكذلك كل مؤمن في حكم فريق الإيمان منهما في أنه لأهل الشرك خصم .

فتأويل الكلام : هذان خصمان اختصموا في دين ربهم ، واختصامهم في ذلك معاداة كل فريق منهما الفريق الآخر ، ومحاربته إياه على دينه .

وقوله (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) يقول تعالى ذكره : فأما الكافر بالله منهما فإنه يقطع له قميص من نحاس من نار .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) قال : الكافر قطعت له ثياب من نار ، والمؤمن يدخله الله جنات تجري من تحتها الأنهار .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب ، عن جعفر ، عن سعيد ، في قوله (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) قال : ثياب من نحاس ، وليس شيء من الآنية أحمى وأشد حرًّا منه .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : الكفار قطعت لهم ثياب من نار ، والمؤمن يدخل جنات تجري من تحتها الأنهار . وقوله (يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) يقول : يصبّ على رءوسهم ماء مُغْلَى .

كما حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقانيّ ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن سعيد بن

زيد ، عن أبي السَّمح ، عن ابن جُحيرة ، عن أبي هريرة ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنَّ الحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ ، فَيَنْفُذُ الجُمْجُمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إلى جَوْفِهِ ، فَيَسْلُتَ ما في جَوْفِهِ حتى يَبْلُغَ قَدَمَيْهِ ، وَهِيَ الصَّهْرُ ، ثُمَّ يُعادُ كَمَا كانَ » .

حدثني محمد بن المثنى ، قال : ثنا يعمر بن بشر ، قال : ثنا ابن المبارك ، قال : أخبرنا سعيد بن زيد ، عن أبي السمح ، عن ابن جحيرة ، عن أبي هريرة ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بمثله ، إلا أنه قال : « فَيَنْفُذُ الجُمْجُمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إلى جَوْفِهِ ، فَيَسْلُتَ[1] مَا فِي جَوْفِهِ » .

وكان بعضهم يزعم أن قوله (وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) من المؤخَّر الذي معناه التقديم ، ويقول : وجه الكلام : فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، ولهم مقامع من حديد يصبّ من فوق رءوسهم الحميم ويقول : إنما وجب أن يكون ذلك كذلك ، لأن الملك يضربه بالمقمع من الحديد حتى يثقب رأسه ، ثم يصبّ فيه الحميم الذي انتهى حرّه ، فيقطع بطنه . والخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكرنا ، يدلّ على خلاف ما قال هذا القائل ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن الحميم إذا صبّ على رءوسهم نفذ الجمجمة حتى يخلص إلى أجوافهم ، وبذلك جاء تأويل أهل التأويل ، ولو كانت المقامع قد تثقب رءوسهم قبل صبّ الحميم عليها ، لم يكن لقوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الحَمِيمَ يَنْفُذُ الجُمْجُمَةَ » معنى : ولكن الأمر في ذلك بخلاف ما قال هذا القائل .

وقوله (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ) يقول : يذاب بالحميم الذي يصبّ من فوق رءوسهم ما في بطونهم من الشحوم ، وتشوى جلودهم منه فتتساقط ، والصهر : هو الإذابة ، يقال منه : صهرت الألية بالنار : إذا أذبتها أصهرها صهرا ، ومنه قول الشاعر :

تَرْوِي لَقًى أُلْقِيَ فِي صَفْصَفٍ تَصْهَرُهُ الشَّمْسُ وَلا يَنْصَهِرْ[2]

ومنه قول الراجز : « شَكَّ السَّفَافِيدِ الشِّوَاءَ المُصْطَهَرْ[3] »

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قوله (يُصْهَرُ بِهِ) قال : يُذاب إذابة .

---

(١) يسلت في جوفه من باب نصر : أي يقطعه ويستأصله .

(٢) البيت لابن أحمر يصف فرخ قطاة (اللسان : صهر) قال : وصهرته الشمس تصهره صهرا ، وصهرته : اشتد وقعها عليه وحرها حتى ألم دماغه ، وانصهر هو ، قال ابن أحمر يصف فرخ قطاة ... البيت ؛ أي تذيبه الشمس ، فيصبر على ذلك . وتروى تسوق إليه الماء ، أي تصير له كالراوية ؛ يقال : رويت أهلي وعليهم ريا ؛ أتيتهم بالماء . والصهر : إذابة الشحم ، صهر الشحم يصهره صهرا : أذابه . وفي التنزيل : (يصهر به ما في بطونهم والجلود) أي يذاب . واصطهره : أذابه وأكله . اه . واللقى : كل شيء مطروح متروك كاللقطة . والصفصف : أرض ملساء مستوية ، كما في اللسان . اه .

(٣) البيت للعجاج بن رؤبة الراجز المشهور (اللسان : صهر) قال الأزهري : الصهر إذابة الشحم ، والصهارة : ما ذاب منه ، وكذلك الاصطهار في إذابة ، أو أكل صهارته . وقال العجاج : (شك السفافيد ... البيت) . والبيت شاهد على المؤلف على أن الصهر معناه الإذابة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله . قال ابن جُرَيج (يُصْهَرُ بِهِ) : قال : ما قطع لهم من العذاب .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (يُصْهَرُ بِهِ ما في بُطُونِهِمْ) قال : يُذاب به ما فى بطونهم .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر، عن قتادة ، مثله .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ) . . . إلى قوله (يُصْهَرُ بِهِ ما في بُطُونِهِمْ والْجُلُودُ) يقول : يسقون ما إذا دخل بطونهم أذابها ، والجلود مع البطون .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب ، عن جعفر وهارون بن عنترة ، عن سعيد بن جبير ، قال : هارون : إذا عام أهل النار ، وقال جعفر : إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم ، فيأكاون منها ، فاختلست جلود وجوههم ، فلو أن مارّا مرّ بهم يعرفهم ، يعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصبّ عليهم العطش ، فيستغيثوا ، فيُغاثوا بماء كالمُهل ، وهو الذى قد انتهى حرّه ، فإذا أدنوه من أفواههم انشوى من حرّه لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود و (يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ) يعنى أمعاءهم ، وتساقط جلودهم ، ثم يضربون بمقامع من حديد ، فيسقط كل عضو على حاله ، يدعون بالويل والثبور . وقوله (وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) تضرب رءوسهم بها الخزنة إذا أرادوا الخروج من النار حتى ترجعهم إليها .وقوله (كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها) يقول: كلما أراد هؤلاء الكفار الذين وصف الله صفتهم الخروج من النار ، مما نالهم من الغمّ والكرب، ردّوا إليها .

كما حدثنا مجاهد بن موسى ، قال: ثنا جعفر بن عون ، قال : أخبرنا الأعمش ، عن أبى ظبيان ، قال : النار سوداء مظلمة ، لا يضيء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ (كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها) وقد ذكر أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش جهنم فتلقى من فيها إلى أعلى أبوابها ، فيريدون الخروج ، فتعيدهم الخزان فيها بالمقامع ، ويقولون لهم: إذا ضربوهم بالمقامع (ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ) . وعنى بقوله (ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ) ويقال لهم : ذوقوا عذاب النار ، وقيل عذاب الحريق والمعنى : المحرق ، كما قيل : العذاب الأليم ، بمعنى : المؤلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

﴿ يقول تعالى ذكره: وأما الذين آمنوا بالله ورسوله فأطاعوهما بما أمرهم الله به من صالح الأعمال، فإن الله يُدخلهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار، فيحليهم فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا.

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (وَلُؤْلُؤًا) فقرأته عامة قرّاء أهل المدينة وبعض أهل الكوفة نصبا مع التى فى الملائكة، بمعنى: يحلون فيها أساور من ذهب ولؤلؤا، عطفا باللؤلؤ على موضع الأساور، لأن الأساور وإن كانت مخفوضة من أجل دخول من فيها، فإنها بمعنى النصب، قالوا: وهى تعدّ فى خط المصحف بالألف، فذلك دليل على صحة القراءة بالنصب فيه. وقرأت ذلك عامة قرّاء العراق والمصريين (وَلُؤْلُؤٍ) خفضا عطفا على إعراب الأساور الظاهر.

واختلف الذين قرءوا ذلك كذلك فى وجه إثبات الألف فيه، فكان أبوعمرو بن العلاء فيما ذكر لى عنه يقول: أثبتت فيه كما أثبتت فى قالوا، وكالوا. وكان الكسائى يقول: أثبتوها فيه للهمزة، لأن الهمزة حرف من الحروف.

والقول فى ذلك عندى أنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء، متفقتا المعنى، صحيحتا المخرج فى العربية، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

وقوله (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) يقول: ولبوسهم التى تلى أبشارهم فيها ثياب حرير. وقوله (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) يقول تعالى ذكره: وهداهم ربهم فى الدنيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

كما حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فى قوله (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) قال: هدوا إلى الكلام الطيب: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، قال الله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ).

حدثنا علىّ، قال: ثنا عبد الله، قال: ثنى معاوية، عن علىّ، عن ابن عباس (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) قال: ألهموا. وقوله (وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) يقول جلّ ثناؤه: وهداهم ربهم فى الدنيا إلى طريق الربّ الحميد، وطريقه: دينه دين الإسلام الذى شرعه لخلقه، وأمرهم أن يسلكوه؛ والحميد: فعيل، صرّف من مفعول إليه، ومعناه: أنه محمود عند أوليائه من خلقه، ثم صرّف من محمود إلى حميد.

القول فى تأويل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ يقول تعالى ذكره: إن الذين جحدوا توحيد الله، وكذّبوا رسله، وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم، ويصدّون عن سبيل الله: يقول: ويمنعون الناس عن دين الله أن يدخلوا فيه، وعن المسجد الحرام

الذى جعله الله للناس الذين آمنوا به كافة لم يخصص منها بعضا دون بعض (سَوَآءً العاكِفُ فيهِ والبادِ) يقول : معتدل فى الواجب عليه من تعظيم حرمة المسجد الحرام ، وقضاء نسكه به ، والنزول فيه ، حيث شاء العاكف فيه ، وهو المقيم به ؛ والباد : وهو المنتاب إليه من غيره .

واختلف أهل التأويل ، فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معناه : سواء العاكف فيه ، وهو المقيم فيه ؛ والباد فى أنه ليس أحدهما بأحقّ بالمنزل فيه من الآخر .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عمرو ، عن يزيد بن أبى زياد ، عن ابن سابط ، قال : كان الحجاج إذا قدموا مكة ، لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم ، وكان الرجل إذا وجد سعة نزل ، ففشا فيهم السرق ، وكل إنسان يسرق من ناحيته ، فاصطنع رجل بابا ، فأرسل إليه عمر : أتخذت بابا من حجاج بيت الله ؟ فقال : لا ، إنما جعلته ليحرز متاعهم ، وهو قوله (سَوَآءً العاكِفُ فيهِ والبْادِ) قال : الباد فيه كالمقيم ، ليس أحد أحقّ بمنزله من أحد إلا أن يكون أحد سبق إلى منزل .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى حصين ، قال : قلت لسعيد ابن جُبير : أعتكف بمكة ، قال : أنت عاكف ، وقرأ (سَوَآءً العاكِفُ فيهِ والبْادِ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام عن عنبسة ، عمن ذكره ، عن أبى صالح (سَوَآءً العاكِفُ فيهِ والبْادِ) العاكف : أهله ، والباد : المنتاب فى المنزل سواء .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (سَوَآءً العاكِفُ فيهِ والبْادِ) يقول : ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (سَوَآءً العاكِفُ فيهِ والبْادِ) قال : العاكف فيه : المقيم بمكة ؛ والباد : الذى يأتيه هم فيه سواء فى البيوت .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (سَوَاءً العاكِفُ فيهِ وَالبادِ) سواء فيه أهله وغير أهله .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال ثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد ، فى قوله (سَوَآءً العاكفُ فيهِ والبْادِ) قال : أهل مكة وغيرهم فى المنازل سواء .

وقال آخرون فى ذلك نحو الذى قلنا فيه .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (سَوَآءً العاكِفُ فيهِ) قال : الساكن ، والباد : الجانب سواء حقّ الله عليهما فيه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد فى قوله (سَوَاءٌ العاكِفُ فِيهِ) قال : الساكن (والباد) : الجانب .

قال : ثنا الحسين، قال : ثنا أبو تميلة ، عن أبى حمزة ، عن جابر ، عن مجاهد وعطاء (سَوَاءٌ العاكِفُ فِيهِ) قالا من أهله ، والباد : الذى يأتونه من غير أهله هما فى حرمته سواء .

وإنما اخترنا القول الذى اخترنا فى ذلك ، لأن الله تعالى ذكره ، ذكر فى أوّل الآية صدّ من كفر به من أراد من المؤمنين قضاء نسكه فى الحرم عن المسجد الحرام، فقال (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ) ثم ذكر جلّ ثناؤه صفة المسجد الحرام ، فقال (الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ) فأخبر جلّ ثناؤه أنه جعله للناس كلهم ، فالكافرون به يمنعون من أراده من المؤمنين به عنه ، ثم قال (سَوَاءٌ العاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ) فكان معلوما أن خبره عن استواء العاكف فيه والباد ، إنما هو فى المعنى الذى ابتدأ الله الخبر عن الكفار أنهم صدّوا عنه المؤمنين به ، وذلك لاشكّ طوافهم ، وقضاء مناسكهم به ، والمقام لاالخبر عن ملكهم إياه وغير ملكهم . وقيل (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) فعطف بيصدون وهو مستقبل على كفروا ، وهو ماض ، لأن الصدّ بمعنى الصفة لهم والدوام. وإذا كان ذلك معنى الكلام : لم يكن إلا بلفظ الاسم أو الاستقبال ، ولا يكون بلفظ الماضى . وإذا كان ذلك كذلك ، فمعنى الكلام : إن الذين كفروا من صفتهم الصدّ عن سبيل الله ، وذلك نظير قول الله (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ) . وأما قوله (سَوَاءٌ العاكِفُ فِيهِ) فإن قرّاء الأمصار على رفع سواء بالعاكف ، والعاكف به ، وإعمال جعلناه فى الهاء المتصلة به ، واللام التى فى قوله للناس ، ثم استأنف الكلام بسواء ، وكذلك تفعل العرب بسواء إذا جاءت بعد حرف قد تمّ الكلام به ، فتقول مررت برجل سواء عنده الخير والشرّ ، وقد يجوز فى ذلك الخفض ، وإنما يختار الرفع فى ذلك لأن سواء فى مذهب واحد عندهم ، فكأنهم قالوا : مررت برجل واحدٍ عنده الخير والشرّ . وأما من خفضه فإنه يوجهه إلى معتدلٍ عنده الخير والشرّ ، ومن قال ذلك فى سواء فاستأنف به ، ورفع لم يقله فى معتدل ، لأن معتدل فعل مصرّح ، وسواء مصدر فاخراجهم إياه إلى الفعل كاخراجهم حسب فى قولهم : مررت برجل حسبك من رجل إلى الفعل . وقد ذُكر عن بعض القرّاء أنه قرأه سواءً نصبا على إعمال جعلناه فيه ، وذلك وإن كان له وجه فى العربية ، فقراءة لاأستجيز القراءة بها لإجماع الحجة من القرّاء على خلافه .

وقوله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) يقول تعالى ذكره : ومن يرد فيه إلحادا بظلم نذقه من عذاب أليم ، وهو أن يميل فى البيت الحرام بظلم ، وأدخلت الباء فى قوله بإلحاد ، والمعنى فيه ماقلت ، كما أدخلت فى قوله تنبت بالدهن ، والمعنى : تنبت الدهن ، كما قال الشاعر :

بِوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ الشَّثَّ صَدْرُهُ ... وأَسْفَلُهُ بالمَرْخِ والشَّبَهَانِ[1]

---

(١) البيت للأحول اليشكرى ، واسمه يعلى قاله فى (اللسان : شبه) نقله عن أبى عبيدة . وقد مر هذا الشاهد على مثل ما استشهد به المؤلف هنا ، عند قوله تعالى : وهزى إليك بجذع النخلة ، (١٦ : ٧٢) ورويناه الكلام فى رواياته وتخريجه ، فراجعه ثمة .

والمعنى : وأسفله ينبت المرخ والشبهان ؛ وكما قال أعشى بنى ثعلبة :

ضَمِنَتْ بِرِزْقِ عِيالِنا أرْماحُنا بينَ المَرَاجِلِ والصَّرِيحِ الأجْرَدِ (١)

بمعنى : ضمنت رزق عيالنا أرماحنا فى قول بعض نحويى البصريين . وأما بعض نحويى الكوفيين فإنه كان يقول : أدخلت الباء فيه ، لأن تأويله : ومن يرد بأن يلحد فيه بظلم . وكان يقول : دخول الباء فى أن أسهل منه فى إلحاد ، وما أشبهه ، لأن أن تضمر الخوافض معها كثيرا ، وتكون كالشرط فاحتملت دخول الخافض وخروجه ، لأن الإعراب لايتبين فيها ، وقال فى المصادر يتبين الرفع والخفض فيها ، قال : وأنشدنى أبو الجراح :

فَلَمَّا رَجَتْ بالشُّرْبِ هَزَّ لَها العَصَا شَحِيحٌ لهُ عِنْدَ الأَدَاءِ نَهِيمُ (٢)

وقال امرؤ القيس :

ألا هَلْ أتاها والحَوَادِثُ جَمَّةٌ بأنَّ امرأَ القَيْسِ بنَ تَمْلِكَ بَيْقَرَا (٣)

---

(١) هذا البيت ينسب لأعشى بنى قيس بن ثعلبة ، ولم أجد فى ديوانه قصيدة دالية مكسورة من بحر الكامل ، ووجدت البيت فى دالية منصوبة باختلاف فى رواية وهذا هو البيت مع البيتين قبله :

جَعَلَ الإلهُ طَعامَنا فى مالِنا رِزْقًا تَضَمَّنَهُ لَنا لَنْ يَنْفَدَا

مِثْلَ الهِضَابِ جَزَارَةً لِسُيُوفِنا فَإذَا تُرَاعُ فَإنَّها لَنْ تُطْرَدَا

ضَمِنَتْ لَنا أعْجازُهُنَّ قُدُورَنا وَضُرُوعُهُنَّ لَنا الصَّرِيحَ الأجْرَدَا

ومعنى الأبيات : جعل الله طعامنا فى الإبل ، نرحلها حيث نشاء رزقا لاينفد . وهى ضخمة كالهضاب نعقرها بسيوفنا للضيفان ، لايطردها مروع أو مغير ، وقد ضمنت أعجازها لنا قدورنا أن تفرغ ، لسمنها وكثرة لحمها ، وضمنت ضروعها لنا اللبن خالصا صافيا . (انظر الديوان طبع القاهرة ص ٢٣٠ بشرح الدكتور محمد حسين) . وفى اللسان رواية أخرى للبيت ، مع نسبته للأعشى (فى : جرد) قال : ألبن وجرد لارغوة له قال الأعشى :

ضَمِنَتْ لَنا أعْجازَهُ أرْماحُنا مِلْءَ المَرَاجِلِ والصَّرِيحَ الأجْرَدَا

وعلى هاتين الروايتين لاشاهد فى البيت ؛ لأن المؤلف إنما ساقه شاهدا على زيادة الباء فى قوله « برزق » ولا باء زائدة فى هاتين الروايتين . وقد جعل الباء فى قوله (برزق) نظير الباء التى فى الآية « ومن يرد فيه بالحاد بظلم » أى على تقدير ومن يرد فيه إلحادا بظلم .

(٢) هذا البيت من شواهد الفراء تلميذ الكسائى وهما زعيما نحاة أهل الكوفة وهو مما أنشده إياه أبوالجراح أحد الأعراب الذين كان يأخذ عنهم اللغة (انظره فى معانى القرآن للفراء ، الورقة ١٠ من مصورة الجامعة) . والنهيم كما فى (اللسان : نهم) : صوت كأنه زحير . وقيل صوت فوق الزئير . والنهيم صوت وتوعد وزجر . والضمير فى لها : لعله راجع إلى الإبل التى أرادت الشرب ، حتى إذا كادت تبلغ الماء ، هزلها العصا ، وردها عنه ، رجل له صوت شديد منكر . والشاهد فى البيت أن الباء الزائدة فى قوله (بالشرب) داخلة على مصدر صريح ، وأن الفراء يرى أن دخولها على المصدر المؤول بأن أو بما والفعل ، أحسن من دخولها على المصدر الصريح . قال الفراء : قوله « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم » دخلت الباء فى الإلحاد ، لأن تأويله : ومن يرد بأن يلحد فيه بظلم ، ودخول الباء فى « أن » أسهل منه فى الإلحاد ، وما أشبهه ، لأن « أن » تضمر الخفوض معها كثيرا (يريد حروف الخفض) فاحتملت دخول الخافض وخروجه ، لأن الإعراب لايتبين فيها ، وقل فى المصادر (أى الصريحة) لتبين الخفض والرفع فيها ؛ أنشدنى أبوالجراح : « فلما رجت بالشرب هز لها العصا » . . . البيت .

(٣) البيت لامرىء القيس بن حجر (العقد الثمين لألورد ص ١٣٠) وليس فى رواية الأعلم الشنتمرى لديوان امرىء القيس . والبيت شاهد كالذى قبله على أن الباء فى قوله (بأن) زائدة فى المصدر المؤول المرفوع وهى أحسن منها فى المصدر الصريح لخفاء الإعراب معها . وهو من شواهد الفراء فى معانى القرآن ، ساقه مع الشاهد الذى قبله (انظر معانى القرآن للفراء ، الورقة ٢١٠) قال : أدخل الباء على (أن) وهى فى موضع رفع كما أدخلها على الإلحاد بظلم ، وهو فى موضع نصب .

قال : فأدخل الباء على أن وهى فى موضع رفع كما أدخلها على إلحاد ، وهو فى موضع نصب ، قال : وقد أدخلوا الباء على ما إذا أرادوا بها المصدر ، كما قال الشاعر :

أَلَمْ يَأْتِيكَ والأَنْباءُ تَنْمِي بِمَا لاقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيادِ[1]

وقال : وهوفى « ما » أقلّ منه فى « أن » ، لأن أن أقلّ شبها بالأسماء من « ما » . قال : وسمعت أعرابيا من ربيعة ، وسألته عن شىء ، فقال : أرجو بذاك : يريد أرجو ذاك .

واختلف أهل التأويل فى معنى الظلم الذى من أراد الإلحاد به فى المسجد الحرام ، أذاقه الله من العذاب الأليم ، فقال بعضهم : ذلك هو الشرك بالله وعبادة غيره به : أى بالبيت .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ) يقول : بشرك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بزّة ، عن مجاهد ، فى قوله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ) هو أن يعبد فيه غير الله .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، قال (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ) قال : هو الشرك ، من أشرك فى بيت الله عذّبه الله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر عن قتادة ، مثله .

وقال آخرون : هو استحلال الحرام فيه أو ركوبه .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ) يعنى أن تستحلّ من الحرام ما حرّم الله عليك من لسان أو قتل ، فتظلم من لا يظلمك ، وتقتل من لا يقتلك ، فإذا فعل ذلك فقد وجب له عذاب أليم .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ) قال : يعمل فيه عملا سيئا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد مثله .

حدثنا أبو كريب ونصر بن عبد الرحمن الأودىّ قالا : ثنا المحاربىّ ، عن سفيان عن السدّىّ ، عن مرّة عن

---

(١) البيت لقيس بن زهير العبسى كما فى (النوادر لأبى زيد الأنصارى ص ٢٠٣) ولم تحذف الياء فى قوله (يأتيك) للجازم ، للضرورة . والبيت من شواهد الفراء فى (معانى القرآن ص ٢١٠) على أنهم قد يدخلون الحرف الزائد على المصدر المؤول بما وما بعدها . قال : وقد أدخلوها على (ما) إذا أرادوا المصدر (يعنى الباء) وقال قيس بن زهير : « ألم يأتيك ... » البيت ، وهو فيها أقل منه فى (أن) ، لأن (أن) أقل شبها بالأسماء من (ما) . وسمعت أعرابيا من ربيعة وسألته عن شىء ، فقال : أرجو بذاك ، يريد : أرجو ذاك .

عن عبد الله ، قال : ما من رجل يهمّ بسيئة فتكتب عليه ، ولو أن رجلا بعد أن بين همّ أن يقتل رجلا بهذا البيت ، لأذاقه الله من العذاب الأليم .

حدثنا مجاهد بن موسى ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا شعبة ، عن السدىّ ، عن مرّة ، عن عبد الله ، قال مجاهد ، قال يزيد ، قال لنا شعبة ، رفعه ، وأنا لاأرفعه لك فى قول الله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) قال : لو أن رجلا همّ فيه بسيئة وهو بعدن أبين ، لأذاقه الله عذابا أليما .

حدثنا الفضل بن الصباح ، قال : ثنا محمد بن فضيل ، عن أبيه ، عن الضحاك بن مزاحم ، فى قوله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) قال : إن الرجل ليهمّ بالخطيئة بمكة وهو فى بلد آخر ولم يعملها ، فتكتب عليه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قول الله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) قال : الإلحاد : الظلم فى الحرم .

وقال آخرون : بل معنى ذلك الظلم : استحلال الحرم متعمدا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس : (بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) قال : الذى يريد استحلاله متعمدا ، ويقال الشرك .

وقال آخرون : بل ذلك احتكار الطعام بمكة .

ذكر من قال ذلك

حدثنى هارون بن إدريس الأصمّ ، قال : ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن أشعث ، عن حبيب ابن أبى ثابت فى قوله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) قال : هم المحتكرون الطعام بمكة .

وقال آخرون : بل ذلك كل ما كان منهيا عنه من الفعل ، حتى قول القائل : لا والله ، وبلى والله .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبد الله ابن عمرو ، قال : كان له فسطاطان : أحدهما فى الحلّ ، والآخر فى الحرم ، فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الحلّ ، فسئل عن ذلك ، فقال : كنا نحدّث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل : كلا والله ، وبلى والله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب ، عن أبى ربعى ، عن الأعمش ، قال : كان عبد الله بن عمر ويقول لا والله ، وبلى والله من الإلحاد فيه .

❁ قال أبو جعفر : وأولى الأقوال التى ذكرناها فى تأويل ذلك بالصواب القول الذى ذكرناه عن ابن مسعود وابن عباس من أنه معنىّ بالظلم فى هذا الموضع ، كلّ معصية لله ، وذلك أن الله عمّ بقوله (وَمَنْ

يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) ولم يخصص به ظلم دون ظلم فى خبر ولا عقل ، فهو على عمومه . فإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل الكلام : ومن يرد فى المسجد الحرام بأن يميل بظلم ، فيعصى الله فيه ، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له . وقد ذُكر عن بعض القرّاء أنه كان يقرأ ذلك (وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ) بفتح الياء ، بمعنى : ومن يَرِدُه بإلحاد من وَرَدْتُ المكان أَرِدُه.وذلك قراءة لا تجوز القراءة عندى بها لخلافها ما عليه الحجة من القرّاء مجمعة مع بعدها من فصيح كلام العرب ،وذلك أنّ يَرِدْ فعل واقع ، يقال منه: هو يَرِد مكان كذا أو بلدة كذا غدا . ولا يقال : يَرِد فى مكان كذا . وقد زعم بعض أهل المعرفة بكلام العرب ، أن طيِّئاً تقول : رغبت فيك ، تريد : رغبت بك ، وذكر أن بعضهم أنشده بيتا :

وأَرْغَبُ فِيها عَنْ لَقِيطٍ وَرَهْطِهِ ... وَلَكِنَّنِي عَنْ سِنْبِسٍ لَسْتُ أَرْغَبُ[1]

بمعنى : وأرغب بها ، فإن كان ذلك صحيحا كما ذكرنا ، فإنه يجوز فى الكلام ، فأما القراءة به فغير جائزة لما وصفت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾

﴿﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم،مُعْلِمَه عظيم ما ركب من قومه قريش خاصة دون غيرهم من سائر خلقه بعبادتهم فى حرمه ، والبيت الذى أمر إبراهيم خليله صلى الله عليه وسلم ببنائه وتطهيره من الآفات والرِّيَب والشرك : واذكر يا محمد كيف ابتدأنا هذا البيت الذى يعبد قومك فيه غيرى ، إذ بوأنا لخليلنا إبراهيم ، يعنى بقوله : بوأنا : وطأنا له مكان البيت .

كما حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور عن معمر ، عن قتادة ، قوله (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) قال: وضع الله البيت مع آدم صلى الله عليه وسلم حين أهبط آدم إلى الأرض وكان مهبطه بأرض الهند ، وكان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض فكانت الملائكة تهابه فنقص إلى ستين ذراعا ، وإن آدم لمَّا فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم،شكا ذلك إلى الله ، فقال الله : يا آدم إنى قد أهبطت لك بيتا يُطاف به كما يطاف حول عرشى ، ويُصلَّى عنده كما يصلى حول عرشى ،فانطلق إليه ، فخرج إليه ، ومدَّ له فى خطوه ، فكان بين كل خطوتين مفازة ، فلم تزل تلك المفاوز على ذلك حتى أتى آدم البيت ، فطاف به ومن بعده من الأنبياء .

(١) البيت سبق الاستشهاد به على مثل ما استشهد به المؤلف هنا ، فى (١٣ : ١٨٩) وهو من شواهد الفراء فى معانى القرآن ، الورقة ١٩١ ، والورقة ٢١٠ من مصورة الجامعة (على أن من العرب من يجعل) (فى) فى موضع الباء ، فيقول أدخلك الله بالجنة ، يريد : فى الجنة . قال الفراء (ص ٢١٠) : ولا يجوز فى لغة الطائيين ؛ لأنهم يقولون : رغبت فيك ، يريدون : رغبت بك . أنشدنى بعضهم ... وأرغب فيها عن لقيط ... البيت . يعنى بنته . اهـ .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدىّ ، قال : لما عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين ، انطلق إبراهيم حتى أتى مكة ، فقام هو وإسماعيل ، وأخذ المعاول ، لايدريان أين البيت ، فبعث الله ريحا يقال لها ريح الخَجُوج ، لها جناحان ورأس فى صورة حية ، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول ، واتبعاها بالمعاول يحفران ، حتى وضعا الأساس ، فذلك حين يقول (وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ البَيْتِ) ويعنى بالبيت : الكعبة (أَنْ لاتُشْرِكْ بِي شَيْئًا) فى عبادتك إياى (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ) الذى بنيته من عبادة الأوثان .

كما حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى عن سفيان عن ليث ، عن مجاهد ، فى قوله (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ) قال : من الشرك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، قال : من الآفات والرِّيَب .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قَتادة (طَهِّرا بَيْتِيَ) قال : من الشرك وعبادة الأوثان .

وقوله (لِلطَّائِفِينَ) يعنى للطائفين به ، والقائمين بمعنى المصلين الذين هم قيام فى صلاتهم .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو تُمَيلة ، عن أبى حمزة ، عن جابر ، عن عطاء ، فى قوله (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والقائِمِينَ) قال : القائمون فى الصلاة .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قَتادة ، والقائمين : قال : القائمون المصلون .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قَتادة ، مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (والقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) قال : القائم والراكع والساجد هو المصلى والطائف هو الذى يطوف به . وقوله (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) يقول : والركع السجود فى صلاتهم حول البيت .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

❊ يقول تعالى ذكره : عهدنا إليه أيضا أن أذِّن فى الناس بالحجّ : يعنى بقوله (وأذِّنْ) أعلم وناد فى

الناس أن حجوا أيها الناس بيت الله الحرام (يَأْتُوكَ رِجالاً) يقول : فإن الناس يأتون البيت الذى تأمرهم بحجه مشاة على أرجلهم (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) يقول : وركبانا على كلّ ضامر ، وهى الإبل المهازيل (يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) يقول : تأتى هذه الضوامر من كلّ فجّ عميق : يقول : من كلّ طريق ومكان ومسلك بعيد . وقيل : يأتين ، فجمع لأنه أريد بكل ضامر : النوق . ومعنى الكلّ : الجمع ، فلذلك قيل : يأتين . وقد زعم الفراء أنه قليل فى كلام العرب : مررت على كلّ رجل قائمين . قال : وهو صواب . وقول الله (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ) ينبئ عن صحة جوازه . وذُكر أن إبراهيم صلوات الله عليه لما أمره الله بالتأذين بالحجّ ، قام على مقامه فنادى : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحجّ فحجوا بيته العتيق .

وقد اختُلف فى صفة تأذين إبراهيم بذلك .

فقال بعضهم : نادى بذلك كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن قابوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له (أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) قال : ربّ وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذّن ، وعلىّ البلاغ فنادى إبراهيم : أيها الناس كُتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فحجوا ـ قال : فسمعه ما بين السماء والأرض ، أفلا ترى الناس يجيئون من أقصى الأرض يلبون .

حدثنا الحسن بن عرفة ، قال : ثنا محمد بن فضيل بن غزوان الضبى ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد ابن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : لما بنى إبراهيم البيت أوحى الله إليه ، أن أذّن فى الناس بالحجّ ، قال : فقال إبراهيم : ألا إن ربكم قد اتخذ بيتا ، وأمركم أن تحجوه ، فاستجاب له ما سمعه من شىء من حجر وشجر وأكمة أو تراب أو شىء : لبَّيك اللهمّ لبَّيك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا ابن واقد ، عن أبى الزبير ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قوله (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) قال : قام إبراهيم خليل الله على الحجر ، فنادى : يا أيها الناس كُتب عليكم الحجّ ، فأسمع من فى أصلابِ الرجال وأرحام النساء ، فأجابه من آمن ممن سبق فى علم الله أن يحجّ إلى يوم القيامة : لبَّيك اللهمّ لبَّيك .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد ابن جُبير (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً) قال : وقرت فى قلب كلّ ذكر وأنثى .

حدثنى ابن حميد ، قال : ثنا حكام عن عمرو ، عن عطاء ، عن سعيد بن جُبير ، قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ، أوحى الله إليه ، أن أذّن فى الناس بالحجّ ، قال : فخرج فنادى فى الناس : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه ، فلم يسمعه يومئذ من إنس ، ولا جنّ ، ولا شجر ، ولا أكمة ، ولا تراب ، ولا جبل ، ولا ماء ، ولا شىء إلا قال : لبَّيك اللهم لبَّيك .

قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : قام إبراهيم على المقام حين أمر أن يؤذّن فى الناس بالحجّ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، فى قوله (وأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ) قال : قام إبراهيم على مقامه ، فقال : يا أيها الناس أجيبوا ربكم ، فقالوا : لبَّيك اللهمّ لبيك ، فمن حجّ اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم يومئذ .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن داود ، عن عكرمة بن خالد المخزومى ، قال : لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت ، قام على المقام ، فنادى نداء سمعه أهل الأرض : إن ربكم قد بنى لكم بيتا فحجوه . قال داود : فأرجو من حجّ اليوم من إجابة إبراهيم عليه السلام [1] .

حدثنى محمد بن سنان القزاز ، قال : ثنا حجاج ، قال : ثنا حماد ، عن أبى عاصم الغَنَوِىّ ، عن أبى الطفيل ، قال : قال ابن عباس : هل تدرى كيف كانت التلبية ؟ قلت : وكيف كانت التلبية ، قال : إن إبراهيم لما أمر أن يؤذّن فى الناس بالحجّ ، خفضت له الجبال رءوسها ، ورُفِعَت القُرى ، فأذّن فى الناس .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد ، قوله (وأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ) قال إبراهيم : كيف أقول يا ربّ ؟ قال : قل : يا أيها الناس استجيبوا لربكم ، قال : وقَرَّت فى قلب كلّ مؤمن .

وقال آخرون فى ذلك ، ما حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن سلمة ، عن مجاهد ، قال : قيل لإبراهيم : أذّن فى الناس بالحجّ ، قال : يا ربّ كيف أقول ؟ قال : قل لبَّيك اللهمّ لبيك . قال : فكانت أوّل التلبية .

وكان ابن عباس يقول : عُنِى بالناس فى هذا الموضع : أهل القبلة .

ذكر الرواية بذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ) يعنى بالناس : أهل القبلة ، ألم تسمع أنه قال : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا) . . . إلى قوله (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) يقول : ومن دخله من الناس الذين أمر أن يؤذن فيهم ، وكتب عليهم الحجّ ، فإنه آمن ، فعظِّموا حرمات الله تعالى ، فإنها من تقوى القلوب .

وأما قوله (يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) فإن أهل التأويل قالوا فيه نحو قولنا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس (يَأْتُوكَ رِجَالًا) قال : مشاة .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو معاوية عن الحجاج بن أرطاة ، قال : قال ابن عباس : ما آسَى على شىء فاتنى ، إلا أن لا أكون حججت ماشيا ، سمعت الله يقول (يَأْتُوكَ رِجَالًا) .

(١) كذا وردت هذه العبارة الأخيرة فى الأصل ، ولعل أصلها : فأرجو أن كل من حج اليوم ، فحجه من إجابة إبراهيم .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : حجّ إبراهيم وإسماعيل ماشيين .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، عن ابن عباس (يَأْتُوكَ رِجالاً) قال : على أرجلهم .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) قال : الإبل .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) قال : الإبل .

حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي ، قال : ثنا المحاربي ، عن عمر بن ذرّ ، قال : قال مجاهد : كانوا لا يركبون ، فأنزل الله (يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) قال : فأمرهم بالزاد ، ورخص لهم في الركوب والمتجر .

وقوله (مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) . حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) يعني : من مكان بعيد .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس (مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) قال : بعيد .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (فَجٍّ عَمِيقٍ) قال : مكان بعيد .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة مثله .

وقوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) اختلف أهل التأويل في معنى المنافع التي ذكرها الله في هذا الموضع فقال بعضهم : هي التجارة ومنافع الدنيا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، قال : ثنا عمرو عن عاصم ، عن أبي رزين ، عن ابن عباس (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) قال : هي الأسواق .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو تُمَيلة ، عن أبي حمزة ، عن جابر بن الحكم ، عن مجاهد عن ابن عباس ، قال : تجارة .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن عاصم بن بهدلة ، عن أبي رزين ، في قوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) قال : أسواقهم .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن والده ، عن سعيد بن جُبير (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) قال : التجارة .

حدثنا عبد الحميد بن بيان ، قال : أخبرنا إسحاق عن سفيان ، عن والده ، عن سعيد بن جبير ، مثله .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن واقد ، عن سعيد ، مثله .

حدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا سنان ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي رزين (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) قال : الأسواق.

وقال آخرون : هي الأجر في الآخرة ، والتجارة في الدنيا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، وسوار بن عبد الله ، قالا : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) قال : التجارة ، ومايرضى الله من أمر الدنيا والآخرة .

حدثنا عبد الحميد بن بيان ، قال : ثنا إسحاق ، عن سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا عبد الحميد بن بيان ، قال : ثنا سفيان ، قال : أخبرنا إسحاق ، عن أبي بشر ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) قال : الأجر في الآخرة ، والتجارة في الدنيا .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : بل هي العفو والمغفرة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن جابر ، عن أبي جعفر (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) قال : العفو .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني أبو تُمَيْلة ، عن أبي حمزة ، عن جابر ، قال : قال محمد ابن عليّ : مغفرة .

⁂ وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : عنى بذلك : ليشهدوا منافع لهم من العمل الذى يرضى الله والتجارة ، وذلك أن الله عمّ لهم منافع جميع مايَشْهَد له الموسم ، ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة ، ولم يخصص من ذلك شيئا من منافعهم بخبر ولا عقل ، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت .

وقوله (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) يقول تعالى ذكره : وكي يذكروا اسم الله على ما رزقهم من الهدايا والبُدْن التي أهدوها من الإبل والبقر والغنم ، في أيام معلومات ، وهنّ أيام التشريق في قول بعض أهل التأويل . وفي قول بعضهم أيام العَشْر . وفي قول بعضهم : يوم النحر وأيام التشريق .

وقد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في ذلك بالروايات . وبيّنا الأولى بالصواب منها في سورة البقرة ، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع ، غير أني أذكر بعض ذلك أيضا في هذا الموضع .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، في قوله (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ) يعني أيام التشريق .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك في قوله (أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ) يعني أيام التشريق ، (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) يعني البدن .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ) قال : أيام العشر ، والمعدودات : أيام التشريق .

وقوله (فَكُلُوا مِنْهَا) يقول : كلوا من بهائم الأنعام التي ذكرتم اسم الله عليها أيها الناس هنالك . وهذا الأمر من الله جلّ ثناؤه أمرُ إباحة ،لا أمر إيجاب ،وذلك أنه لاخلاف بين جميع الحُجة ،أن ذابح هديه أو بدنته هنالك ، إن لم يأكل من هديه أو بدنته ، أنه لم يضيع له فرضا كان واجبا عليه ، فكان معلوما بذلك أنه غير واجب .

ذكر الرواية عن بعض من قال ذلك من أهل العلم

حدثنا سوّار بن عبد الله ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء ، قوله (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) قال : كان لايرى الأكل منها واجبا .

حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حصين ، عن مجاهد ، أنه قال : هي رُخصة : إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل ، وهي كقوله (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ) يعني قوله (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) .

قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم ، في قوله (فَكُلُوا مِنْهَا) قال : هي رخصة : فإن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل .

قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حجاج ، عن عطاء في قوله (فَكُلُوا مِنْهَا) قال : هي رخصة : فإن شاء أكلها ، وإن شاء لم يأكل .

حدثني عليّ بن سهل ، قال : ثنا زيد ، قال : ثنا سفيان ، عن حصين ، عن مجاهد ، في قوله (فَكُلُوا مِنْهَا) قال : إنما هي رخصة .

وقوله (وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) يقول : وأطعموا مما تذبحون أو تنحرون هنالك من بهيمة الأنعام ، من هديكم وبُدْنكم البائس ، وهو الذي به ضرّ الجوع والزّمانة والحاجة . والفقير : الذي لاشيء له .

وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) يعني : الزمين الفقير .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن رجل ، عن مجاهد (البائِسَ الفَقِيرَ) : الذى يمد إليك يديه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (البَائِسَ الفَقِيرَ) قال : هو القانع .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : أخبرنى عمر بن عطاء ، عن عكرمة ، قال : البائسَ : المضطر الذى عليه البؤس ، والفقير : المتعفّف .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (البائِسَ) الذى يبسط يديه . وقوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) يقول : تعالى ذكره : ثم ليقضوا ما عليهم من مناسك حجهم : من حلق شعر ، وأخذ شارب ، ورمى جمرة ، وطواف بالبيت .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن أبى الشوارب ، قال : ثنى يزيد ، قال : أخبرنا الأشعث بن سوار ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أنه قال (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) قال : ما هم عليه فى الحجّ .

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنى الأشعث ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : التفَث : المناسك كلها .

قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عبد الملك ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، أنه قال ، فى قوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) قال : التفَث : حلق الرأس ، وأخذ من الشاربين ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وقصّ الأظفار ، والأخذ من العارضين ، ورمى الجمار ، والموقف بعرفة والمزدلفة .

حدثنا حميد ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا خالد ، عن عكرمة ، قال : التفَث : الشعر والظُّفر .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن خالد ، عن عكرمة ، مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى أبو صخر ، عن محمد بن كعب القُرَظىّ ، أنه كان يقول فى هذه الآية (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) : رمى الجمار ، وذبح الذبيحة ، وأخذ من الشاربين واللحية والأظفار ، والطواف بالبيت وبالصفا والمروة .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) قال : هو حلق الرأس ، وذكر أشياء من الحجّ ، قال شعبة : لا أحفظها .

قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ،

قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) قال : حلق الرأس ، وحلق العانة ، وقص الأظفار ، وقص الشارب ، ورمى الجمار ، وقص اللحية .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله . إلا أنه لم يقل فى حديثه : وقص اللحية :

حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأودى ، قال : ثنا المحاربى ، قال : سمعت رجلا يسأل ابن جريج ، عن قوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) قال : الأخذ من اللحية ، ومن الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، ورمى الجمار .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا منصور ، عن الحسن ، وأخبرنا جويبر ، عن الضحاك أنهما قالا : حلق الرأس .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) يعنى : حلق الرأس :

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : التفث : حلق الرأس ، وتقليم الظفر .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) يقول : نسكهم .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) قال : التفث : حرمهم .

حدثنى على ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن على ، عن ابن عباس ، قوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) قال : يعنى بالتفث : وضع إحرامهم من حلق الرأس ولبس الثياب ، وقص الأظفار ونحو ذلك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عطاء بن السائب ، قال : التفث : حلق الشعر ، وقص الأظفار والأخذ من الشارب ، وحلق العانة ، وأمر الحج كله .

وقوله (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) يقول : وليوفوا الله بما نذروا من هَدْى وبدنة وغير ذلك .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

حدثنى على ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن على ، عن ابن عباس ، قوله (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) نحر ما نذروا من البدن .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ـ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) نذر الحج والهَدْى ، وما نذر الإنسان من شيء يكون فى الحج .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) قال : نذر الحجّ والهدى ، وما نذر الإنسان على نفسه من شىء يكون فى الحجّ .

وقوله (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) يقول : وليطوّفوا ببيت الله الحرام .

واختلف أهل التأويل فى معنى قوله (الْعَتِيقِ) فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : قيل ذلك لبيت الله الحرام ، لأن الله أعتقه من الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه وهدمه .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الزهرى أن ابن الزبير ، قال : إنما سمى البيت العتيق ، لأن الله أعتقه من الجبابرة .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن ابن الزبير ، مثله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : إنما سمى العتيق ، لأنه أعتق من الجبابرة .

قال : ثنا سفيان ، قال : ثنا أبو هلال ، عن قتادة (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) قال : أُعتق من الجبابرة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) قال : أعتقه الله من الجبابرة ، يعنى الكعبة .

وقال آخرون : قيل له عتيق ، لأنه لم يملكه أحد من الناس .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن عبيد ، عن مجاهد ، قال : إنما سمى البيت العتيق لأنه ليس لأحد فيه شىء .

وقال آخرون : سمى بذلك لقدمه :

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) قال : العتيق : القديم ، لأنه قديم ، كما يقال : السيف العتيق ، لأنه أوّل بيت وُضع للناس بناه آدم ، وهو أوّل من بناه ، ثم بوّأ الله موضعه لإبراهيم بعد الغرق ، فبناه إبراهيم وإسماعيل .

قال أبو جعفر : ولكل هذه الأقوال التى ذكرناها عن ذكرناها عنه فى قوله (الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) وجه صحيح ، غير أن الذى قاله ابن زيد أغلب معانيه عليه فى الظاهر ، غير أن الذى رُوى عن ابن الزبير أولى بالصحة ، إن كان ماحدثنى به محمد بن سهل البخارى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : أخبرنى الليث ، عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر ، عن الزهرىّ ، عن محمد بن عروة ، عن عبد الله بن الزبير ، قال ؛ قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ لأَنَّ اللهَ أَعْتَقَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَلَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ قَطُّ صَحِيحاً » .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال الزهرىّ : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ لأَنَّ اللهَ أَعْتَقَهُ » ثم ذكر مثله .

وعنى بالطواف الذى أمر جلّ ثناؤه حاجّ بيته العتيق به فى هذه الآية طواف الإفاضة الذى يُطاف به بعد التعريف ، إما يوم النحر ، وإما بعده ؛ لاخلاف بين أهل التأويل فى ذلك .

ذكر الرواية عن بعض من قال ذلك

حدثنا عمرو بن سعيد القرشى ، قال : ثنا الأنصارى ، عن أشعث ، عن الحسن (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) قال : طواف الزيارة .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا خالد ، قال : ثنا الأشعث ، أن الحسن قال فى قوله (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) قال : للطواف الواجب .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) يعنى : زيارة البيت .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، عن حجاج وعبد الملك ، عن عطاء ، فى قوله (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) قال : طواف يوم النحر .

حدثنى أبو عبد الرحمن البرقى ، قال : ثنا عمرو بن أبى سلمة ، قال : سألت زُهَيرا عن قول الله : (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) قال : طواف الوَدَاع .

واختلف القرّاء فى قراءة هذه الحروف ، فقرأ ذلك عامة قراء الكوفة (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ، وَلْيَطَّوَّفُوا) بتسكين اللام فى كل ذلك طلب التخفيف ، كما فعلوا فى هو إذا كانت قبلها واو ، فقالوا (وَهْوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) فسكّنوا الهاء ، وكذلك يفعلون فى لام الأمر إذا كان قبلها حرف من حروف النسق كالواو والفاء وثم ، وكذلك قرأت عامة قرّاء أهل البصرة ، غير أن أبا عمرو بن العلاء كان بكسر اللام من قوله (ثُمَّ لِيَقْضُوا) خاصة من أجل أن الوقوف على ثم دون ليقضوا حسن ، وغير جائز الوقوف على الواو والفاء ، وهذا الذى اعتلّ به أبو عمرو لقراءته علة حسنة من جهة القياس ، غير أن أكثر القرّاء على تسكينها .

والصواب من القول فى ذلك عندى ، أن التسكين فى لام « ليقضوا » والكسر قراءتان مشهورتان ، ولغتان سائرتان ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب ، غير أن الكسر فيها خاصة أقيس ، لما ذكرنا لأبى عمرو من العلة ، لأن من قرأ (وَهْوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) فهو بتسكين الهاء مع الواو والفاء ، ويحركها فى قوله (ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) فكذلك الواجب عليه أن يفعل فى قوله (ثُمَّ

لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) فيحرّك اللام إلى الكسر مع « ثم » ، وإن سكّنها فى قوله (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) وقد ذكر عن أبي عبد الرحمن السُّلَميّ والحسن البصرى تحريكها مع « ثم » والواو، وهى لغة مشهورة ، غير أن أكثر القرّاء مع الواو والفاء على تسكينها ، وهى أشهر اللغتين فى العرب وأفصحها ، فالقراءة بها أعجب إلىّ من كسرها .

القول في تأويل قوله تعالى

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ

يعنى تعالى ذكره بقوله (ذلكَ) : هذا الذى أمر به من قضاء التفث ، والوفاء بالنذور ، والطواف بالبيت العتيق هو الفرض الواجب عليكم يا أيها الناس فى حجكم (وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ) يقول : ومن يجتنب ما أمره الله باجتنابه فى حال إحرامه تعظيما منه لحدود الله أن يواقعها وحُرَمه أن يستحلها ، فهو خير له عند ربه فى الآخرة .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال: قال مجاهد ، فى قوله (ذلكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ) قال : الحُرْمة : مكة والحجّ والعُمرة ، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ) قال : الحرمات : المَشْعَر الحرام ، والبيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، هؤلاء الحرمات .

وقوله (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعامُ) يقول جلّ ثناؤه : وأحلّ الله لكم أيها الناس الأنعام، أن تأكلوها إذا ذكّيتموها ، فلم يحرّم عليكم منها بحيرة ، ولا سائبة ، ولا وَصيلة ، ولا حاما ، ولا ماجعلتموه منها لآلهتكم (إلاَّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ) يقول : إلا ما يتلى عليكم فى كتاب الله ، وذلك : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهلّ لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردّية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ، وما ذُبح على النُّصب ، فإن ذلك كله رجس .

كما حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قَتادة (إلاَّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ) قال : إلا الميتة ، وما لم يذكر اسم الله عليه .

حدثنا الحسن ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر، عن قَتادة ، مثله .

وقوله (فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ) يقول: فاتقوا عبادة الأوثان، وطاعة الشيطان فى عبادتها فإنها رجس .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ) يقول تعالى ذكره : فاجتنبوا طاعة الشيطان فى عبادة الأوثان .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج فى قوله (الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ) قال : عبادة الأوثان .

وقوله (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) يقول تعالى ذكره : واتقوا قول الكذب والفرية على الله بقولكم فى الآلهة (ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى) وقولكم للملائكة : هى بنات الله ، ونحو ذلك من القول ، فإن ذلك كذب وزور ، وشرك بالله .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله : قول الزور ، قال : الكذب .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد مثله .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلهِ غيرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) يعنى : الافتراء على الله والتكذيب .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عاصم ، عن وائل بن ربيعة ، عن عبد الله ، قال : تعدل شهادة الزور بالشرك ، وقرأ (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أبو بكر ، عن عاصم ، عن وائل بن ربيعة ، قال : عُدِلت شهادة الزور الشرك ، ثم قرأ هذه الآية (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) .

حدثنى أبو السائب ، قال : ثنا أبو أسامة ، قال : ثنا سفيان العصفرى ، عن أبيه ، عن خُرَيم بن فاتك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عُدِلَتْ شَهادَةُ الزُّورِ بالشِّرْكِ باللهِ ، ثم قرأ (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا مروان بن معاوية ، عن سفيان العُصفرىّ ، عن فاتك بن فضالة ، عن أيمن بن خريم ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قام خطيبا فقال : « أيُّها النَّاسُ عُدِلَتْ شَهادَةُ الزُّورِ بالشِّرْكِ باللهِ ، مرتين ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ، وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) » ويجوز أن يكون مرادا به : اجتنبوا أن ترجسوا أنتم أيها الناس من الأوثان بعبادتكم إياها .

* فإن قال قائل : وهل من الأوثان ما ليس برجس ، حتى قيل : فاجتنبوا الرجس منها ؟ قيل : كلها رجس ، وليس المعنى ما ذهبت إليه فى ذلك . وإنما معنى الكلام : فاجتنبوا الرجس الذى يكون من الأوثان أى عبادتها ، فالذى أمر جلّ ثناؤه بقوله (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ) منها اتقاء عبادتها ، وتلك العبادة هى الرجس على ماقاله ابن عباس ، ومن ذكرنا قوله قبل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

* يقول تعالى ذكره : اجتنبوا أيها الناس عبادة الأوثان ، وقول الشرك ، مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له ، وإفراد الطاعة والعبادة له خالصا دون الأوثان والأصنام ، غير مشركين به شيئا من دونه ، فإنه من يُشرك بالله شيئا من دونه ، فمثله فى بعده من الهدى وإصابة الحقّ وهلاكه وذهابه عن ربه ، مثل من خرّ من السماء ، فتخطفه الطير ، فهلك ، أو هوت به الريح فى مكان سحيق ، يعنى من بعيد قولهم : أبعده الله وأسحقه ، وفيه لغتان : أسحقته الريح ، وسحقته . ومنه قيل للنخلة الطويلة : نخلة سحوق ؛ ومنه قول الشاعر :

كَانَتْ لَنَا جَارَةٌ فَأَزْعَجَهَا　　قَاذُورَةٌ تَسْحَقُ النَّوَى قُدُمَا[1]

ويُروى : تسحق : يقول : فهكذا مثل المشرك بالله فى بُعده من ربه ، ومن إصابة الحقّ ، كبُعد هذا الواقع من السماء إلى الأرض ، أو كهلاك من اختطفته الطير منهم فى الهواء .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ) قال : هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله فى بُعده من الهُدى وهلاكه (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) قال : بعيد .

---

(١) البيت مما أنشده الأزهرى فى تهذيبه ، ونقله عنه صاحب (اللسان : سحق) قال : السحق فى العدو فوق المشى ودون الحضر ، وأنشد الأزهرى : «كانت لنا جارة . . . البيت» . والقاذورة من الإبل : التى تبرك ناحية منها وتستبعد وتنافرها عند الحلب . وتسحق : تجد فى سيرها . والنوى : التحول من مكان إلى مكان ، أو الوجه الذى ينويه المسافر من قرب أو من بعد . وقدما : لا تعرج ولا تنثنى . يريد أن جارته نأت عنه بناقة تجد فى سيرها ، ولا تعرج على شىء . والبيت شاهد على أن السحق معناه السير الجاد فوق المشى ودون العدو .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

وقيل (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ)، وقد قيل قبله (فكأنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ) وخرّ فعل ماض، وتخطفه مستقبل ، فعطف بالمستقبل على الماضى ، كما فعل ذلك، فى قوله (إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ويَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) وقد بيَّنت ذلك هناك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذكره : هذا الذى ذكرت لكم أيها الناس ، وأمرتكم به ، من اجتناب الرجس من الأوثان ، واجتناب قول الزور ، حنفاء لله ، وتعظيم شعائر الله ، وهو استحسان البُدن واستسمانها ، وأداء مناسك الحجّ ، على ما أمر الله جلّ ثناؤه ، من تقوى قلوبكم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا إسماعيل بن إبراهيم ، قال : ثنا محمد بن زياد ، عن محمد بن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن مِقْسَم ، عن ابن عباس ، فى قوله (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فإنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ) قال : استعظامها ، واستحسانها ، واستسمانها .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم ، بن أبى بَزَّة عن مجاهد ، فى قوله (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ) قال : الاستسمان والاستعظام .

وبه عن عنبسة ، عن ليث ، عن مجاهد ، مثله ، إلا أنه قال : والاستحسان .

حدثنا عبد الحميد بن بيان الواسطىّ ، قال : أخبرنا إسحاق ، عن أبى بشر ، وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ) قال : استعظام البدن ، واستسمانها ، واستحسانها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا داود بن أبى هند ، عن محمد بن أبى موسى ، قال : الوقوف بعرفة من شعائر الله ، وبجَمْع [1] من شعائر الله ، ورمى الجمار من شعائر الله ، والبُدْن من شعائر الله ، ومن يعظمها فإنها من شعائر الله فى قوله (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ) فمن يعظمها فإنها من تقوى القلوب .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ) قال : الشعائر : الجمار ، والصفا والمروة من شعائر الله ، والمَشْعَر الحرام والمزدلفة ، قال : والشعائر تدخل فى الحرم ، هى شعائر ، وهى حرم .

(١) جمع : هى المزدلفة .

﴿ وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن يقال : إن الله تعالى ذكره ، أخبر أن تعظيم شعائره ، وهى ماجعله أعلاما لخلقه فيما تعبدهم به من مناسك حجهم ، من الأماكن التى أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها ، والأعمال التى ألزمهم عملها فى حجهم : من تقوى قلوبهم ، لم يخصص من ذلك شيئا ، فتعظيم كلّ ذلك من تقوى القلوب ، كما قال جلّ ثناؤه : وحقّ على عباده المؤمنين به تعظيم جميع ذلك ، وقال (إِنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ) وأنّث ولم يقل : فإنه ، لأنه أريد بذلك ، فان تلك التعظيمة مع اجتناب الرجس من الأوثان من تقوى القلوب ، كما قال جلّ ثناؤه (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) وعنى بقوله (فإِنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ) فإنها من وجل القلوب من خشية الله ، وحقيقة معرفتها بعظمته وإخلاص توحيده .

القول فى تأويل قوله تعالى .

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

اختلف أهل التأويل فى معنى المنافع التى ذكر الله فى هذه الآية ، وأخبر عباده أنها إلى أجل مسمى ، على نحو اختلافهم فى معنى الشعائر التى ذكرها جلّ ثناؤه فى قوله (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فإِنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ) فقال : الذين قالوا عنى بالشعائر : البدن ، معنى ذلك : لكم أيها الناس فى البدن منافع . ثم اختلف أيضا الذين قالوا هذه المقالة فى الحال التى لهم فيها منافع ، وفى الأجل الذى قال عزّ ذكره (إلى أجَلٍ مُسَمًّى) فقال بعضهم : الحال التى أخبر الله جلّ ثناؤه أن لهم فيها منافع ، هى الحال التى لم يوجبها صاحبها ، ولم يسمها بدنة ، ولم يقلّدها ، قالوا : ومنافعها فى هذه الحال : شرب ألبانها ، وركوب ظهورها ، وما يرزقهم الله من نتاجها وأولادها . قالوا : والأجل المسمى الذى أخبر جلّ ثناؤه أن ذلك لعباده المؤمنين منها إليه ، هو إلى إيجابهم إياها ، فإذا أوجبوها بطل ذلك ، ولم يكن لهم من ذلك شىء .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يحيى بن عيسى ، عن ابن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن مقسم ، عن ابن عباس فى (لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى) قال : ما لم يسمّ بدنا .

حدثنا عبد الحميد بن بيان ، قال : أخبرنا إسحاق بن يوسف ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى) قال : الركوب واللبن والولد ، فإذا سميت بدنة أو هديا ذهب كله .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، فى هذه الآية (لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى) قال : لكم فى ظهورها وألبانها وأوبارها ، حتى تصير بُدْنا .

قال : ثنا ابن عدىّ ، قال : ثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، بمثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن ابن أبى نجيح ، وليث عن مجاهد (لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى) قال : فى أشعارها وأوبارها وألبانها ، قبل أن تسميها بدنة .

قال : ثنا هارون بن المغيرة ، عن عنبسة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) قال : في البدن لحومها وألبانها وأشعارها وأوبارها وأصوافها قبل أن تسمى هديا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله ، وزاد فيه : وهي الأجل المسمى :

حدثني يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حجاج ، عن عطاء أنه قال في قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) قال : منافع في ألبانها وظهورها وأوبارها ، إلى أجل مسمى : إلى أن تقلد .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، مثل ذلك .

حدثني يعقوب ، قال : قال ابن علية : سمعت ابن أبي نجيح يقول في قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) قال : إلى أن تُوجبها بَدَنة .

قال : ثنا ابن علية ، عن ابن أبي نجيح ، عن قتادة (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) يقول : في ظهورها وألبانها ، فاذا قلدت فمحلها إلى البيت العتيق .

وقال آخرون ممن قال : الشعائر : البدن في قوله (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) والهاء في قوله (لَكُمْ فِيهَا) من ذكر الشعائر ، ومعنى قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) لكم في الشعائر التي تعظمونها لله منافع بعد اتخاذكموها لله بدنا أو هدايا ، بأن تركبوا ظهورها إذا احتجتم إلى ذلك ، وتشربوا ألبانها إن اضطررتم إليها . قالوا : والأجل المسمى الذي قال جلّ ثناؤه (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) إلى أن تنحر .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن ابن أبي نجيح ، عن عطاء (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) قال : هو ركوب البدن ، وشرب لبنها إن احتاج .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء بن أبي رباح في قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) قال : إلى أن تنحر ، قال له أن يحملها عليها المعيي والمنقطع به من الضرورة ، كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأمر بالبدنة إذا احتاج إليها سيدها أن يحمل عليها ويركب غير منهوكه . قلت لعطاء : ما ؟ قال : الرجل الراجل ، والمنقطع به ، والمتبع وإن نتجت ، أن يحمل عليها ولدها ، ولا يشرب من لبنها إلا فضلا عن ولدها ، فإن كان في لبنها فضل فليشرب من أهداها ومن لم يهدها . وأما الذين قالوا : معنى الشعائر في قوله (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ) : شعائر الحج ، وهي الأماكن التي يُنسك عندها لله ، فإنهم اختلفوا أيضا في معنى المنافع التي قال الله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ)

فقال بعضهم : معنى ذلك : لكم فى هذه الشعائر التى تعظمونها منافع بتجارتكم عندها ، وبيعكم وشرائكم بحضرتها ، وتسوّقكم . والأجل المسمى : الخروج من الشعائر إلى غيرها ، ومن المواضع التى ينسك عندها إلى ماسواها فى قول بعضهم .

حدثنى الحسن بن علىّ الصُّدائى ، قال : ثنا أبوأسامة عن سليمان الضبى ، عن عاصم بن أبى النَّجود ، عن أبى رزين ، عن ابن عباس ، فى قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) قال : أسواقهم ، فإنه لم يذكر منافع إلا للدنيا .

حدثنى محمد بن المثنى ، قال : ثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا داود بن أبى هند ، عن محمد بن أبى موسى ، قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) قال : والأجل المسمى : الخروج منه إلى غيره .

وقال آخرون منهم : المنافع التى ذكرها الله فى هذا الموضع : العمل لله بما أمر من مناسك الحجّ . قالوا : والأجل المسمَّى : هو انقضاء أيام الحجّ التى يُنْسَكُ لله فيهنّ .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) فقرأ قول الله (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) لكم فى تلك الشعائر منافع إلى أجل مسمى ، إذا ذهبت تلك الأيام لم تر أحدا يأتى عرفة يقف فيها ، يبتغى الأجر ، ولا المزدلفة ، ولا رمى الجمار ، وقد ضربوا من البلدان لهذه الأيام التى فيها المنافع ، وإنما منافعها إلى تلك الأيام ، وهى الأجل المسمى ، ثم محلها حين تنقضى تلك الأيام إلى البيت العتيق .

قال أبو جعفر : وقد دللنا قبل على أن قول الله تعالى ذكره (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ) معنىّ به : كلّ ما كان من عمل أو مكان جعله الله علما لمناسك حجّ خلقه ، إذ لم يخصص من ذلك جلّ ثناؤه شيئا فى خبر ولا عقل . وإذ كان ذلك كذلك فمعلوم أن معنى قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) فى هذه الشعائر منافع إلى أجل مسمى ، فما كان من هذه الشعائر بدنا وهديا ، فمنافعها لكم من حين تملكون ، إلى أن أوجبتموها هدايا وبدنا وما كان منها أماكن ينسك لله عندها ، فمنافعها ، التجارة لله عندها ، والعمل بما أمر به إلى الشخوص عنها ، وما كان منها أوقاتا بأن يُطاع الله فيها بعمل أعمال الحجّ وبطلب المعاش فيها بالتجارة ، إلى أن يطاف بالبيت فى بعض ، أو يوافى الحرم فى بعض ، ويخرج عن الحرم فى بعض .

وقد اختلف الذين ذكرنا اختلافهم فى تأويل قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) فى تأويل قوله (ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) فقال الذين قالوا : عنى بالشعائر فى هذا الموضع : البُدْن معنى ذلك ثم محل البدن إلى أن تبلغ مكة ، وهى التى بها البيت العتيق .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : أخبرنا هشيم ، قال : أخبرنا حجاج ، عن عطاء (ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) إلى مكة .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (ثُمَّ مَحِلُّهَا إلى البَيْتِ العَتِيقِ) يعني محل البدن حين تسمى إلى البيت العتيق .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال (ثُمَّ مَحِلُّهَا) حين تسمى هديا إلى البيت العتيق ، قال : الكعبة أعتقها من الجبابرة ، فوجه هؤلاء تأويل ذلك إلى ثم منحر البدن والهدايا التي أوجبتموها إلى أرض الحرم ، وقالوا : عنى بالبيت العتيق أرض الحرم كلها ؛ وقالوا : وذلك نظير قوله (فَلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ) والمراد : الحرم كله .

وقال آخرون : معنى ذلك : ثم محلكم أيها الناس من مناسك حجكم إلى البيت العتيق أن تطوفوا به يوم النحر ، بعد قضائكم ما أوجبه الله عليكم في حجكم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا داود بن أبي هند ، عن محمد بن أبي موسى (ثُمَّ مَحِلُّهَا إلى البَيْتِ العَتِيقِ) قال : محلّ هذه الشعائر كلها : الطواف بالبيت .

وقال آخرون : معنى ذلك : ثم محلّ منافع أيام الحجّ إلى البيت العتيق بانقضائها .

ذكر من قال ذلك

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (ثُمَّ مَحِلُّهَا إلى البَيْتِ العَتِيقِ) حين تنقضي تلك الأيام ، أيام الحجّ إلى البيت العتيق .

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب : قول من قال : معنى ذلك : ثم محلّ الشعائر التي لكم فيها منافع إلى أجل مسمى إلى البيت العتيق ، فما كان من ذلك هديا أو بدنا ، فبموافاته الحرم في الحرم ، وما كان من نُسُك ، فالطواف بالبيت .

وقد بيّنا الصواب في ذلك من القول عندنا في معنى الشعائر .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)

يقول تعالى ذكره (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) ولكلّ جماعة سلفت فيكم من أهل الإيمان بالله أيها الناس ، جعلنا ذبحا يهريقون دمه (لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأنْعامِ) بذلك ، لأن من البهائم ما ليس من الأنعام ، كالخيل والبغال والحمير . وقيل : إنما قيل للبهائم ، بهائم لأنها لا تتكلم .

وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله (جَعَلْنا مَنْسَكا) قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا) قال : إهراق الدماء (لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

وقوله (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) يقول تعالى ذكره : فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور ، فإلهكم إله واحد ، لاشريك له ، فإياه فاعبدوا ، وله أخلصوا الألوهة . وقوله (فَلَهُ أَسْلِمُوا) يقول : فلإلهكم فاخضعوا بالطاعة ، وله فذلوا بالإقرار بالعبودية . وقوله (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) يقول تعالى ذكره : وبشر يا محمد الخاضعين لله بالطاعة ، المذعنين له بالعبودية ، المنيبين إليه بالتوبة . وقد بيّنا معنى الإخبات بشواهده فيما مضى من كتابنا هذا .

وقد اختلف أهل التأويل فى المراد به فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : أريد به : وبشّر المطمئنين إلى الله .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) قال : المطمئنين .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) المطمئنين إلى الله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى . وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) قال : المطمئنين .

حدثنا الحسن ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) قال : المتواضعين .

وقال آخرون فى ذلك بما حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا محمد بن مسلم ، عن عثمان ابن عبد الله بن أوس ، عن عمرو بن أوس ، قال : المخبتون : الذين لايظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا .

حدثنى محمد بن عثمان الواسطى ، قال : ثنا حفص بن عمر ، قال : ثنا محمد بن مسلم الطائفى ، قال : ثنى عثمان بن عبد الله بن أوس ، عن عمرو بن أوس مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

فهذا من نعت المخبتين ؛ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وبشّر يا محمد المخبتين الذين تخشع قلوبهم لذكر الله ، وتخضع من خشيته وَجَـلا من عقابه ، وخوفا من سخطه .

كما حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) قال : لاتقسو قلوبهم (والصَّابِرِينَ عَلَى ما أَصَابَهُمْ) من شدّة فى أمر الله ، ونالهم من مكروه فى جنبه (والمُقِيمِي الصَّلاةِ) المفروضة (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) من الأموال (يُنْفِقُونَ) فى الواجب عليهم إنفاقها فيه فى زكاة ، ونفقة عيال ، ومن وجبت عليه نفقته ، وفى سبيل الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ذكره : والبُدن : وهى جمع بَدَنة ، وقد يقال لواحدها : بَدَن . وإذا قيل بَدَن احتمل أن يكون جمعا وواحدا ، يدلّ على أنه قد يقال ذلك للواحد قول الراجز :

عَلَيَّ حِينَ تَمْلِكُ الأُمُورَا ... صَوْمَ شُهُورٍ وَجَبَتْ نُذُورَا[1]

وَحَلْقَ رَأْسِي وَافِياً مَضْفُورَا ... وَبَدَنًا مُدَرَّعًا مَوْفُورَا

والبدن : هو الضخم من كلّ شىء ، ولذلك قيل لامرئ القيس بن النعمان صاحب الخورنق والسَّدير : البَدَن : لضخمه واسترخاء لحمه ، فإنه يقال : قد بَدَّن تبدينا . فمعنى الكلام : والإبل العظام الأجسام

---

(١) هذه أربعة أبيات من مشطور الرجز ، رواها المؤلف عن الفراء فى معانى القرآن فى هذا الموضع من التفسير ، وأنشدها قبل ذلك ثلاثة منها فى (٧ : ١٢٠) عند تفسير قوله تعالى « فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان » فى سورة المائدة ، مع اختلاف فى بعض الألفاظ عن روايته لها هنا ، وهى :

عَلَيَّ حِـينَ تَمْلِكُ الأُمُورَا ... صَوْمَ شُهُورٍ وَجَبَتْ نُذُورَا

وَبَادِنا مُقَلَّدًا مَنْحُورَا

ولفظة (بادنا) على هذه الرواية ، قد تكون صحيحة ، يريد جملا سمينا جسيما . كما فى (اللسان : بدن) ، يقال : رجل بادن ، والأنثى بادن ، وبادنة ، والجمع : بدن (بضم فسكون) ، وبدن (بالضم وتشديد الدال المفتوحة) . وقد تكون (بادنا) محرفة عن (بدنا) [illegible] ، ويدل على ترجيح [illegible] له بقوله « والبدن » (بضم فسكون) جمع بدنة (بالتحريك) ، وقد يقال لواحدها : بدن ([illegible]) [illegible] عليه قول الراجز « وبدنا مدرعا موفورا » . اهـ .

[illegible] (بضم فسكون) : وجمع بدن ، (بالتحريك) وواحدته : بدنة ، [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) . ويقال هو جمع بدنة ، مثل ثمرة وثمر (الأخيرة بضم فسكون) ، ويقرأ بضم الدال ، [illegible] ([illegible]) [illegible] ، كما يجوز فى الوقف والأصناص ... ولا تقع على الثلاثة [illegible] عنى إذا ملكت الأمور (يقول المخاطب أن أصوم شهورا ، وأن أحلق [illegible]) .

الضخام ، جعلناها لكم أيها الناس من شعائر الله : يقول : من أعلام أمر الله الذى أمركم به فى مناسك حجكم إذا قلدتموها وجللتموها وأشعرتموها علم بذلك ، وشعر أنكم فعلتم ذلك من الإبل والبقر .

كما حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال عطاء (والبُدْنَ جَعَلْنَاها لَكُمْ مِن شَعَائِرِ الله) قال : البقرة والبعير .

وقوله (لَكُمْ فِيها خَيْرٌ) يقول : لكم فى البدن خير ، وذلك الخير هو الأجر فى الآخرة بنحرها والصدقة بها ، وفى الدنيا : الركوب إذا احتاج إلى ركوبها .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ـ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (لَكُمْ فيها خَيْرٌ) قال : أجر ، ومنافع فى البدن .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن بشار ، قال ، ثنا عبد الرحمن ، قال ، ثنا سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم (لَكُمْ فِيها خَيْرٌ) قال : اللبن والركوب إذا احتاج :

حدثنا عبد الحميد بن بيان ، قال : أخبرنا إسحاق ، عن شريك ، عن منصور ، عن إبراهيم (لَكُمْ فِيها خَيْرٌ) قال : إذا اضطررت إلى بدنتك ركبتها ، وشربت لبنها .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن إبراهيم (لَكُمْ فيها خَيْرٌ) من احتاج إلى ظهر البدنة ركب ، ومن احتاج إلى لبنها شرب :

وقوله (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوَافَّ) يقول تعالى ذكره : فاذكروا اسم الله على البدن عند نحركم إياها صوافّ .

واختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الأمصار (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوَافَّ) بمعنى مصطفة ، واحدها : صافة ، وقد صفت بين أيديها . ورُوى عن الحسن ومجاهد ، وزيد بن أسلم ، وجماعة أُخر معهم ، أنهم قرءوا ذلك (صَوَافِيَ) بالياء منصوبة ، بمعنى : خالصة لله لاشريك له فيها صافية له . وقرأ بعضهم ذلك (صَوَافٍ) بإسقاط الياء وتنوين الحرف ، على مثال : عوار ، وعواد. ورُوى عن ابن مسعود أنه قرأه (صَوَافِنَ) بمعنى : معقلة .

والصواب من القراءة فى ذلك عندى ، قراءة من قرأه بتشديد الفاء ونصبها ، لإجماع الحجة من القرّاء عليه بالمعنى الذى ذكرناه لمن قرأه كذلك .

ذكر من تأوّله بتأويل من قرأه بتشديد الفاء ونصبها

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح ، عن الأعمش ، عن أبى ظبيان ، عن ابن عباس ، فى قوله

(فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوَافَّ) قال : الله أكبر الله أكبر ، اللهمّ منك ولك . صوافّ : قياما على ثلاث أرجل ، فقيل لابن عباس : مانصنع بجلودها ، قال : تصدّقوا بها ، واستمتعوا بها .

حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال : ثنا أيوب بن سويد ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس ، في قوله (صَوَافَّ) قال : قائمة ، قال : يقول : الله أكبر ، لاإله إلا الله اللهمّ منك ولك .

حدثني محمد بن المثنى ، قال : ثنا ابن أبي عديّ ، عن شعبة ، عن سليمان ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوَافَّ) قال: قياما على ثلاث قوائم معقولة باسم الله ، الله أكبر ، اللهمّ منك ولك .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حصين ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، في قوله : (صَوَافَّ) قال : معقولة إحدى يديها ، قال : قائمة على ثلاث قوائم .

حدثني عليّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، في قوله (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوَافَّ) يقول : قياما .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوَافَّ) والصوافّ : أن تعقل قائمة واحدة ، وتصفها على ثلاث فتنحرها كذلك .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا يعلى بن عطاء ، قال : أخبرني بجير بن سالم ، قال : رأيت ابن عمر وهو ينحر بدنته ، قال : فقال(صَوَافَّ) كما قال الله ، قال : فنحرها وهي قائمة معقولة إحدى يديها .

حدثنا أبوكريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : أخبرنا ليث ، عن مجاهد ، قال : الصَّوافّ : إذا عقلت رجلها وقامت على ثلاث .

قال : ثنا ليث ، عن مجاهد ، في قوله (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوَافَّ) قال : صوافّ بين أوظفتها .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (صَوَافَّ) قال : قيام صواف على ثلاث قوائم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد(فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوَافَّ) قال : بين وظائفها قياما .

حدثنا ابن البرقي ، قال : ثنا ابن أبي مريم ، قال : أخبرنا يحيى بن أيوب ، عن خالد بن يزيد ، عن ابن أبي هلال ، عن نافع ، عن عبد الله أنه كان ينحر البُدن وهي قائمة مستقبلة البيت تصفّ أيديها بالقيود ، قال : هي التي ذكر الله (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوَافَّ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثني جرير ، عن منصور ، عن رجل ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس ،

قال : قلت له قول الله (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ) قال : إذا أردت أن تنحر البدنة فانحرها ، وقل الله أكبر ، لاإله إلا الله ، اللهم منك ولك ، ثم سمّ ، ثم انحرها ، قلت : فأقول ذلك للأضحية ، قال : وللأضحية .

ذكر من تأوّله بتأويل من قرأه (صَوَافِيَ) بالياء

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر ، عن أبيه ، عن الحسن أنه قال (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافِيَ) قال : مخلصين .

قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، قال : قال الحسن (صَوَافِيَ) : خالصة .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : قال الحسن (صَوَافِيَ) : خالصة لله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن قيس بن مسلم ، عن شقيق الضبيّ (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافِيَ) قال : خالصة .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا أيمن بن نابل ، قال : سألت طاوسا عن قوله (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافِيَ) قال : خالصا .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافِيَ) قال : خالصة ليس فيها شريك كما كان المشركون يفعلون ، يجعلون لله ولآلهتهم صوافى صافية لله تعالى .

ذكر من تأوّله بتأويل من قرأه (صَوَافِنَ)

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة فى حرف ابن مسعود (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافِنَ) : أى معقلة قياما .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى حرف ابن مسعود (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافِنَ) قال : أى معقلة قياما .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ، قال : من قرأها (صَوَافِنَ) قال : معقولة . قال : ومن قرأها (صَوَافَّ) قال : تصفّ بين يديها .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ) يعنى صوافن ، والبدنة إذا نحرت عقلت يد واحدة ، فكانت على ثلاث ، وكذلك تنحر .

❁ قال أبو جعفر : وقد تقدم بيان أولى هذه الأقوال بتأويل قوله (صَوَافَّ) وهى المصطفة بين أيديها ، المعقولة إحدى قوائمها .

وقوله (فإذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها) يقول : فإذا سقطت فوقعت جنوبها إلى الأرض بعد النحر ،

(فَكُلُوا مِنْهَا) وهو من قولهم : قد وجبت الشمس : إذا غابت فسقطت للتغيب ، ومنه قول أوس ابن حجر :

أَلَمْ تُكْسَفِ الشَّمْسُ والبَدْرُ والـكواكِبُ لِلْجَبَلِ الوَاجِبِ[1]

يعنى بالواجب : الواقع .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنى عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها) سقطت إلى الأرض .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، فى قوله (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها) قال : إذا فرغت ونُحِرت .

حدثنى محمد بن عمارة ، قال : ثنا عبيدالله بن موسى ، قال : أخبرنا إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد (فَإِذَا وَجَبَتْ) نحرت .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها) قال : إذا نحرت .

حدثنى يونسُ ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها) قال : فإذا ماتت .

وقوله (فَكُلُوا مِنْهَا)وهذا مخرجه مخرج الأمر ، ومعناه : الإباحة ، والإطلاق ؛ يقول الله : فإذا نحرت فسقطت ميتة بعد النحر ، فقد حلّ لكم أكلها ، وليس بأمر إيجاب .

وكان إبراهيم النخعى يقول فى ذلك ما حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، قال : المشركون كانوا لا يأكلون من ذبائحهم ، فرخص للمسلمين ، فأكلوا منها ، فمن شاء أكل ، ومن شاء لم يأكل .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن حصين ، عن مجاهد ، قال : إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل ، فهى بمنزلة (فَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا) .

---

(١) البيت لأوس بن حجر كما قال المؤلف . والجبل هنا : يريد به رجلا عظيما ، والواجب الذى مات . قال فى (اللسان : وجب) : وجب الرجل ، وجوبا : مات ، قال قيس بن الخطيم يصف حربا وقعت بين الأوس والخزرج فى يوم بعاث وأن مقدم بنى عوف وأميرهم لج فى المحاربة ، ونهى بنى عوف عن السلم حتى كان أول قتيل :

أطاعت بنو عوف أميرا نهاهم عن السلم حتى كان أول واجب

وبيت أوس بن حجر شاهد على أن قوله تعالى : « فإذا وجبت جنوبها » معناه : فإذا سقطت فوقعت جنوبها إلى الأرض بعد النحر ، فكلوا منها . اهـ .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (فَكُلُوا مِنْهَا وأَطْعِمُوا القَانِعَ والمُعْتَرَّ) يقول : يأكل منها ويطعم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا يونس ، عن الحسن ، وأخبرناه مغيرة ، عن إبراهيم ، وأخبرنا حجاج ، عن عطاء ، وأخبرنا حصين ، عن مجاهد ، فى قوله (فَكُلُوا مِنْهَا) قال : إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل ، قال مجاهد : هى رخصة ، هى كقوله (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ) ومثل قوله (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا) ، وقوله (وأَطْعِمُوا القَانِعَ والمُعْتَرَّ) يقول : فأطعموا منها القانع .

واختلف أهل التأويل فى المعنىّ بالقانع والمعترّ ، فقال بعضهم : القانع الذى يقنع بما أعطى أو بما عنده ولا يسأل ، والمعترّ : الذى يتعرّض لك أن تطعمه من اللحم ولا يسأل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، فى قوله (وأَطْعِمُوا القَانِعَ والمُعْتَرَّ) قال : القانع : المستغنى بما أعطيته ، وهو فى بيته . والمعترّ : الذى يتعرّض لك ، ويلمّ بك أن تطعمه من اللحم ولايسأل ، وهؤلاء الذين أمر أن يطعموا من البُدن .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : القانع : جارك الذى يقنع بما أعطيته . والمعترّ : الذى يتعرّض لك ولا يسألك .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى أبوصخر ، عن القرظى أنه كان يقول فى هذه الآية (وأَطْعِمُوا القَانِعَ والمُعْتَرَّ) القانع : الذى يقنع بالشىء اليسير يرضى به . والمعترّ : الذى يمرّ بجانبك لايسأل شيئا ، فذلك المعترّ .

وقال آخرون : القانع : الذى يقنع بما عنده ، ولا يسأل ؛ والمعترّ : الذى يعتريك فيسألك .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبوصالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (القَانِعَ والمُعْتَرَّ) يقول : القانع المتعفف ؛ والمعترّ : يقول : السائل .

حدثنا ابن أبى الشوارب ، قال : ثنا عبد الواحد ، قال : ثنا خصيف ، قال : سمعت مجاهدا يقول : القانع : أهل مكة ؛ والمعترّ : الذى يعتريك فيسألك .

حدثنى أبوالسائب ، قال : ثنا عطاء ، عن خصيف ، عن مجاهد مثله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا مسلم بن إبراهيم ، قال : ثنى كعب بن فروخ ، قال : سمعت قتادة يحدث ، عن عكرمة ، فى قوله (القَانِعَ والمُعْتَرَّ) قال : القانع : الذى يقعد فى بيته ، والمعترّ : الذى يسأل .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : القانع : المتعفف الجالس فى بيته ؛ والمعترّ : الذى يعتريك فيسألك .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : القانع : والمعترّ ، قال : القانع : الطامع بما قبلك ولا يسألك ؛ والمعترّ : الذى يعتريك ويسألك .

حدثني نصر بن عبدالرحمن ، قال : ثنا المحاربي ، عن سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد وإبراهيم قالا : القانع : الجالس فى بيته ؛ والمعترّ : الذى يسألك .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبدالأعلى ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة فى القانع والمعترّ ، قال : القانع : الذى يقنع بما فى يديه ؛ والمعترّ : الذى يعتريك ، ولكليهما عليك حقّ يا ابن آدم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ) قال : القانع الذى يجلس فى بيته . والمعترّ : الذى يعتريك .

وقال آخرون : القانع : هو السائل ، والمعترّ : هو الذى يعتريك ولا يسأل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا يونس ، عن الحسن ، قال : القانع : الذى يقنع إليك ويسألك ، والمعترّ : الذى يتعرّض لك ولا يسألك .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن منصور بن زاذان ، عن الحسن ، فى هذه الآية (وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ) قال : القانع : الذى يقنع ، والمعترّ : الذى يعتريك . قال : وقال الكلبي : القانع : الذى يسألك ، والمعترّ : الذى يعتريك ، يتعرّض ولا يسألك .

حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودى ، قال : ثنا المحاربي ، عن سفيان ، عن يونس ، عن الحسن ، فى قوله (وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ) قال : القانع : الذى يسألك ، والمعترّ : الذى يتعرّض لك .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، عن أبيه ، قال : قال سعيد بن جُبير : القانع : السائل .

حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسى ، قال : ثنى غالب ، قال : ثنى شريك ، عن فرات القزاز ، عن سعيد بن جُبير ، فى قوله (القَانِعَ) قال : هو السائل ، ثم قال : أما سمعت قول الشماخ .

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِى مَفَاقِرَهُ أَعَفُّ مِنَ القُنُوعِ [1]

قال : من السؤال .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : أخبرنا يونس ، عن الحسن ، أنه قال فى قوله (وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ) قال : القانع : الذى يقنع إليك يسألك ، والمعترّ : الذى يريك نفسه ويتعرّض لك ولا يسألك .

(١) البيت للشماخ بن ضرار (لسان العرب : قنع) قال : وفى التنزيل : « وأطعموا القانع والمعتر » ، فالقانع الذى يسأل ، والمعتر : الذى يتعرض ولا يسأل . قال الشماخ : « لمال المرء ... » البيت ، يعنى من مسألة الناس . وقال ابن السكيت : ومن العرب من يجيز القنوع : بمعنى القناعة ، وكلام العرب الجيد : هو الأول . ويروى : « من الكنوع » ، والكنوع : التقبض والتصاغر . وقيل القانع : السائل ، وقيل : المتعفف ، وكل يصلح ، والرجل : قانع وقنيع . وقال الفراء : هو الذى يسألك فما أعطيته قبله . وقيل : القنوع : الطمع . والفعل : قنع بالفتح يقنع قنوعا : ذل للسؤال . وقيل : سأل . ومفاقره : وجوه فقره ، وقيل : جمع فقر على غير قياس ، كالمشابه والملامح . ويجوز أن تكون جمع مفقر مصدر أفقره ، أو جمع مفقر (اسم فاعل) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشام ، قال : أخبرنا منصور ويونس ، عن الحسن ، قال : القانع : السائل ، والمعترّ : الذى يتعرّض ولا يسأل .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى عبد الله بن عياش ، قال : قال زيد بن أسلم : القانع : الذى يسأل الناس .

وقال آخرون : القانع : الجار ، والمعترّ : الذى يعترّيك من الناس .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : سمعت ليثا ، عن مجاهد ، قال : القانع : جارك وإن كان غنيا ، والمعترّ : الذى يعترّيك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن ابن أبى نجيح ، قال : قال مجاهد ، فى قوله (وأَطْعِمُوا القانِعَ والمُعْتَرَّ) قال : القانع : جارك الغنىّ ، والمعترّ : من اعترّاك من الناس .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم ، فى قوله (وأَطْعِمُوا القانِعَ والمُعْتَرَّ) أنه قال : أحدهما السائل ، والآخر : الجار .

وقال آخرون : القانع : الطوّاف . والمعترّ : الصديق الزائر .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال : ثنى أبى وشعيب بن الليث ، عن الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن ابن أبى هلال ، قال : قال زيد بن أسلم ، فى قول الله تعالى (القانِعَ والمُعْتَرَّ) فالقانع : المسكين الذى يطوف ، والمعترّ : الصديق والضعيف الذى يزور .

وقال آخرون : القانع : الطامع ، والمعترّ : الذى يعترّ بالبدن .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (القانِعَ) قال : الطامع والمعترّ : من يعترّ بالبدن ، من غنىّ أو فقير .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : أخبرنى عمر بن عطاء ، عن عكرمة ، قال : القانع : الطامع .

وقال آخرون : القانع : هو المسكين ، والمعترّ : الذى يتعرّض للحم .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وأَطْعِمُوا القانِعَ والمُعْتَرَّ) قال : القانع : المسكين ، والمعترّ : الذى يعترّ القوم للحمهم وليس بمسكين ، ولا تكون له ذبيحة ، يجىء إلى القوم من أجل لحمهم ، والبائس الفقير : هو القانع .

وقال آخرون بما حدثنا به ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن فرات ، عن سعيد بن جُبير . قال : القانع : الذى يقنع ، والمعترّ : الذى يعتريك .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن يونس ، عن الحسن بمثله .

قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ومجاهد (القَانِعَ والمُعْتَرَّ) القانع : الجالس فى بيته ، والمعترّ : الذى يتعرّض لك .

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : عنى بالقانع : السائل ؛ لأنه لو كان المعنىّ بالقانع فى هذا الموضع . المكتفى بما عنده ، والمستغنى به لقيل : وأطعموا القانع والسائل ، ولم يقل : وأطعموا القانع والمعترّ . وفى إتباع ذلك قوله : والمعترّ ، الدليل الواضح على أن القانع معنىّ به السائل من قولهم : قنع فلان إلى فلان ، بمعنى سأله وخضع إليه ، فهو يقنع قنوعا ؛ ومنه قول لبيد :

وأَعْطانِى المَوْلَى عَلَى حِينَ فَقْرِهِ إذَا قَالَ أَبْصِرْ خَلَّتِى وَقُنُوعِى !

وأما القانع الذى هو بمعنى المكتفى ، فإنه من قنِعت بكسر النون أقنع قناعة وقنعا وقنعانا . وأما المعترّ : فإنه الذى يأتيك معترّا بك لتعطيه وتطعمه .

وقوله (كَذَلِكَ سَخَّرْنَاها لَكُمْ) يقول هكذا سخرنا البدن لكم أيها الناس (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) يقول : لتشكرونى على تسخيرها لكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول تعالى ذكره : لم يصل إلى الله لحوم بدنكم ولا دماؤها ، ولكن يناله اتقاؤكم إياه إن اتقيتموه فيها فأردتم بها وجهه ، وعملتم فيها بما ندبكم إليه ، وأمركم به فى أمرها ، وعظمتم بها حرماته .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى ، عن سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، فى قول الله (لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها ، وَلَكِنْ يَنالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) قال : ما أريد به وجه الله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها ، وَلَكِنْ يَنالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) قال : إن اتقيت الله فى هذه البُدن ، وعملت فيها لله ،

(١) البيت لبيد كما قال المؤلف ، ولم أجده فى ديوانه طبعة ليدن سنة ١٨٩١ ، والخلة بالفتح : الحاجة والفقر . ورجل مخل ؛ خلة به الحاجة ، أى محتاجة . والقنوع : السؤال ، وقد مر معناه وبيانه فى الشاهد الذى قبله .

وطلبت ما قال الله تعظيما لشعائر الله ، ولحرمات الله ، فإنه قال (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ) قال (وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ) قال : وجعلته طيبا ، فذلك الذى يتقبل الله . فأما اللحوم والدماء ، فمن أين تنال الله ؟ وقوله (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ) يقول : هكذا سخر لكم البدن (لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) يقول : كى تعظموا الله على ما هداكم ، يعنى على توفيقه إياكم لدينه ، وللنسك فى حجكم .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) قال : على ذبحها فى تلك الأيام (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) يقول : وبشر يا محمد الذين أطاعوا الله فأحسنوا فى طاعتهم إياه فى الدنيا بالجنة فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

* إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذكره : إن الله يدفع غائلة المشركين عن الذين آمنوا بالله وبرسوله ، إن الله لا يحب كل خوان يخون الله ، فيخالف أمره ونهيه ويعصيه ، ويطيع الشيطان (كَفُورٍ) يقول : جحود لنعمه عنده ، لا يعرف لمنعمها حقه ، فيشكره عليها . وقيل : إنه عنى بذلك : دفع الله كفار قريش عمن كان بين أظهرهم من المؤمنين قبل هجرتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذكره : أذن الله للمؤمنين الذين يقاتلون المشركين فى سبيله بأن المشركين ظلموهم بقتالهم .

واختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء المدينة (أُذِنَ) بضم الألف (يُقَاتَلُونَ) بفتح التاء بترك تسمية الفاعل ، فى أُذِنَ ويُقَاتَلُونَ جميعا . وقرأ ذلك بعض الكوفيين وعامة قراء البصرة (أُذِنَ) بترك تسمية الفاعل و (يُقَاتِلُونَ) بكسر التاء ، بمعنى يقاتل المأذون لهم فى القتال المشركين . وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين وبعض المكيين (أَذِنَ) بفتح الألف ، بمعنى : أذن الله ، و (يُقَاتِلُونَ) بكسر التاء ، بمعنى : إن الذين أذن الله لهم بالقتال ، يقاتلون المشركين . وهذه القراءات الثلاث متقاربات المعنى ، لأن الذين قرءوا أُذِنَ على وجه ما لم يسم فاعله يرجع معناه فى التأويل إلى معنى قراءة من قرأه على وجه ما سمى فاعله - وإن من قرأ يُقَاتِلُونَ ، ويُقَاتَلُونَ بالكسر أو الفتح ، فقريب معنى أحدهما من معنى الآخر - وذلك أن من قاتل إنسانا ، فالذى قاتله له مقاتل ، وكل واحد منهما مقاتل . فإذ كان ذلك كذلك فبأية هذه القراءات قرأ القارئ فمصيب الصواب .

غير أن أحب ذلك إلى ، أن أقرأ به أَذِنَ بفتح الألف ، بمعنى : أذن الله ، لقرب ذلك من قوله (إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) أذن الله فى الذين لا يحبهم للذين يقاتلونهم بقتالهم ، فيرد أَذِنَ

على قوله (إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ) ، وكذلك أحبّ القراءات إلىّ فى يُقَاتِلُونَ كسر التاء ، بمعنى : الذين يقاتلون من قد أخبر الله عنهم أنه لا يحبهم ، فيكون الكلام متصلا معنى بعضه ببعض .

وقد اختلف فى الذين عُنوا بالإذن لهم بهذه الآية فى القتال ، فقال بعضهم : عنى به : نبىّ الله وأصحابه .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) يعنى : محمدا وأصحابه إذ أخرجوا من مكة إلى المدينة : يقول الله (فإنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) وقد فعل .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن مسلم البطين ، عن سعيد ابن جُبير ، قال : لما خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم من مكة ، قال رجل : أخرجوا نبيهم ، فنزلت : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) . . . الآية (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ) النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

حدثنا يحيى بن داود الواسطى ، قال : ثنا إسحاق بن يوسف ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : لما خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ليهلكنّ ـ قال ابن عباس : فأنزل الله (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) قال أبو بكر : فعرفت أنه سيكون قتال ، وهى أوّل آية نزلت . قال ابن داود : قال ابن إسحاق : كانوا يقرءون (أُذِنَ) ونحن نقرأ (أَذِنَ) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا إسحاق ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : لما خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر نحوه ، إلا أنه قال : فقال أبو بكر : قد علمت أنه يكون قتال ، وإلى هذا الموضع انتهى حديثه ، ولم يزد عليه .

حدثنى محمد بن خلف العسقلانى ، قال : ثنا محمد بن يوسف ، قال : ثنا قيس بن الربيع ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، قال أبو بكر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ليهلكنّ جميعا : فلما نزلت (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) . . . إلى قوله (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ) عرف أبو بكر أنه سيكون قتال .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) قال : أذن لهم فى قتالهم بعد ما عفا عنهم عشر سنين ، وقرأ (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ) وقال : هؤلاء المؤمنون .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول . فى قوله (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ) [1] .

وقال آخرون : بل عنى بهذه الآية ، قوم بأعيانهم ، كانوا خرجوا من دار الحرب يريدون الهجرة . فمنعوا من ذلك .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن . قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) قال : أناس مؤمنون خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة ، فكانوا يمنعون ، فأذن الله للمؤمنين بقتال الكفار ، فقاتلوهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، فى قوله (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) قال : ناس من المؤمنين خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة . وكانوا يمنعون ، فأدركهم الكفار ، فأذن للمؤمنين بقتال الكفار فقاتلوهم . قال ابن جُرَيج يقول : أوّل قتال أذن الله به للمؤمنين .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة فى حرف ابن مسعود (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ) قال قتادة : وهى أوّل آية نزلت فى القتال ، فأذن لهم أن يقاتلوا .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، فى قوله (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) قال : هى أوّل آية أنزلت فى القتال ، فأذن لهم أن يقاتلوا . وقد كان بعضهم يزعم أن الله إنما قال : أذن للذين يقاتلون بالقتال من أجل أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتل الكفار إذا آذوهم ، واشتدّوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة سرّا ؛ فأنزل الله فى ذلك (إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) فلمّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، أطلق لهم قتلهم وقتالهم ، فقال (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) وهذا قول ذكر عن الضحاك بن مزاحم من وجه غير ثبت .

وقوله (وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) يقول جلّ ثناؤه : وإن الله على نصر المؤمنين الذين يقاتلون فى سبيل الله لقادر ، وقد نصرهم فأعزّهم ورفعهم ، وأهلك عدوّهم ، وأذلهم بأيديهم .

القول في تأويل قوله تعالى:

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ

(١) لعله اختصره إن لم يكن سقط منه شىء من الناسخ ، والأصل : هم والنبى وأصحابه ، أو نحو ذلك .

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى ذكره : أذن للذين يقاتلون (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ) فالذين الثانية ردّ على الذين الأولى . وعنى بالمخرجين من دورهم : المؤمنين الذين أخرجهم كفار قريش من مكة ، وكان إخراجهم إياهم من دورهم وتعذيبهم بعضهم على الإيمان بالله ورسوله ، وسبهم بعضهم بألسنتهم ووعيدهم إياهم ، حتى اضطرّوهم إلى الخروج عنهم ، وكان فعلهم ذلك بهم بغير حقّ ، لأنهم كانوا على باطل . والمؤمنون على الحقّ . فلذلك قال جلّ ثناؤه (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ) وقوله (إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) يقول تعالى ذكره : لم يخرجوا من ديارهم إلا بقولهم : ربنا الله وحده لاشريك له . فأن فى موضع خفض ردًّا على الباء فى قوله (بِغَيْرِ حَقٍّ) ؛ وقد يجوز أن تكون فى موضع نصب على وجه الاستثناء .

وقوله (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك ، فقال بعضهم :معنى ذلك : ولولا دفع الله المشركين بالمسلمين .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج : قوله (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) دفع المشركين بالمسلمين .

وقال آخرون : معنى ذلك : ولولا القتال والجهاد فى سبيل الله .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) قال : لولا القتال والجهاد .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولولا دفع الله بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن بعدهم من التابعين .

ذكر من قال ذلك

حدثنا إبراهيم بن سعيد ، قال : ثنا يعقوب بن إبراهيم ، عن سيف بن عمرو ، عن أبى روق ، عن ثابت بن عوسجة الحضرمىّ ، قال : ثنى سبعة وعشرون من أصحاب علىّ وعبد الله منهم لاحق بن الأقمر والعيزار بن حريث ، وعطية القرظىّ ، أن عليا رضى الله عنه قال : إنما أنزلت هذه الآية فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) لولا دفاع الله بأصحاب محمد عن التابعين (لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ) .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : لولا أن الله يدفع بمن أوجب قبول شهادته فى الحقوق ، تكون لبعض

الناس على بعض ، عمن لايجوز قبول شهادته وغيره ، فأحيا بذلك مال هذا ، ويوقى بسبب هذا إراقة دم هذا ، وتركوا المظالم من أجله ، لتظالم الناس ، فهدمت صوامع .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) يقول : دفع بعضهم بعضا فى الشهادة ، وفى الحقّ ، وفيما يكون من قبل هذا ، يقول : لولاهم لأهلكت هذه الصوامع وما ذكر معها .

⁂ وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره ، أخبر أنه لولا دفاعه الناس بعضهم ببعض ، لهُدم ما ذكر ، من دفعه تعالى ذكره بعضهم ببعض ،وكفِّه المشركين بالمسلمين عن ذلك ؛ ومنه كفه ببعضهم التظالم ، كالسلطان الذى كفّ به رعيته عن التظالم بينهم ؛ ومنه كفُّه لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحقّ من له قبله حق ،ونحو ذلك ، وكلّ ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض ،لولا ذلك لتظالموا ، فهدم القاهرون صوامع المقهورين وبيَعهم ، وما سمّى جلّ ثناؤه ، ولم يضع الله تعالى دلالة فى عقل ، على أنه عنى من ذلك بعضا دون بعض ، ولا جاء بأن ذلك كذلك خبر يجب التسليم له ، فذلك على الظاهر والعموم على ما قد بيَّنته قبل ، لعموم ظاهر ذلك جميع ما ذكرنا .

وقوله (لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ) اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بالصوامع ، فقال بعضهم : عنى بها صوامع الرهبان .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن رُفيع فى هذه الآية (لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ) قال : صوامع الرهبان .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ) قال : صوامع الرهبان .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ) قال : صوامع الرهبان .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ) قال : صوامع الرهبان .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول : فى قوله (لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ) وهى صوامع الصغار يبنونها [١] .

وقال آخرون : بل هى صوامع ، الصابئين .

(١) لعله وهى الصوامع الصغار : أى المعابد الصغار الخ .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عبدالأعلى، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (صَوَامِعُ) قال : هى للصابئين .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (لَهُدِّمَتْ) فقرأ ذلك عامة قرّاء المدينة (لَهُدِمَتْ) خفيفة . وقرأته عامة قرّاء أهل الكوفة والبصرة (لَهُدِّمَتْ) بالتشديد بمعنى تكرير الهدم فيها مرّة بعد مرّة ، والتشديد فى ذلك أعجب القراءتين إلىّ . لأن ذلك من أفعال أهل الكفر بذلك .

وأما قوله (وَبِيَعٌ) فإنه يعنى بها : بيع النصارى .

وقد اختلف أهل التأويل فى ذلك ، فقال بعضهم : مثل الذى قلنا فى ذلك .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن رُفيع (وَبِيَعٌ) قال : بيع النصارى .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (وَبِيَعٌ) للنصارى .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول : البيَع : بيع النصارى .

وقال آخرون : عنى بالبيع فى هذا الموضع : كنائس اليهود .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال (وَبِيَعٌ) قال : وكنائس .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُريج ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَبِيَعٌ) قال : البيع : الكنائس .

قوله (وَصَلَوَاتٌ) اختلف أهل التأويل فى معناه ، فقال بعضهم : عنى بالصلوات : الكنائس .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، فى قوله (وَصَلَوَاتٌ) قال : يعنى بالصلوات الكنائس .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَصَلَوَاتٌ) : كنائس اليهود ، ويسمون الكنيسة صلوتا .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (وَصَلَوَاتٌ) كنائس اليهود .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قَتادة ، مثله .

وقال آخرون : عنى بالصلوات مساجد الصابئين .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، قال : سألت أبا العالية عن الصلوات ، قال : هى مساجد الصابئين .

قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن رُفيع ، نحوه .

وقال آخرون : هى مساجد للمسلمين ولأهل الكتاب بالطرق .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (وَصَلَوَاتٌ) قال : مساجد لأهل الكتاب ، ولأهل الإسلام بالطرق .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، نحوه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَصَلَوَاتٌ) قال : الصلوات صلوات أهل الإسلام ، تنقطع إذا دخل العدوّ عليهم ، انقطعت العبادة ، والمساجد تهدم ، كما صنع بختنصر .

وقوله (وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا) اختلف فى المساجد التى أريدت بهذا القول ، فقال بعضهم : أريد بذلك مساجد المسلمين .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن رفيع ، قوله (وَمَسَاجِدُ) قال : مساجد المسلمين .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، قال : ثنا معمر ، عن قَتادة (وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا) قال : المساجد : مساجد المسلمين يذكر فيها اسم الله كثيرا .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قَتادة ، نحوه .

وقال آخرون : عنى بقوله : (وَمَسَاجِدُ) : الصوامع والبيع والصلوات .

ذكر من قال ذلك

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول ، فى قوله (وَمَسَاجِدُ) يقول فى كلّ هذا يذكر اسم الله كثيرا ، ولم يخصّ المساجد .

وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول : الصلوات لاتهدم ، ولكن حمله على فعل آخر ، كأنه

قال : وتركت صلوات . وقال بعضهم : إنما يعنى : مواضع الصلوات . وقال بعضهم : إنما هى صلوات ، وهى كنائس اليهود ، تُدعى بالعبرانية : صلوتا .

وأولى هذه الأقوال فى ذلك بالصواب: قول من قال : معنى ذلك : لهدمت صوامع الرهبان ، وبِيَع النصارى ، وصلوات اليهود ، وهى كنائسهم ، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا .

وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل ذلك، لأن ذلك هو المعروف فى كلام العرب ، المستفيض فيهم،وما خالفه من القول ، وإن كان له وجه فغير مستعمل فيما وجهه إليه مَنْ وجهه إليه .

وقوله (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) يقول تعالى ذكره : وليعينَنَّ الله من يقاتل فى سبيله ، لتكون كلمته العليا على عدوّه ؛ فنصر الله عبده : معونته إياه ، ونصر العبد ربه : جهاده فى سبيله ، لتكون كلمته العليا .

وقوله (إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) يقول تعالى ذكره : إن الله لقوىّ على نصر من جاهد فى سبيله من أهل ولايته وطاعته ، عزيز فى مُلكه ، يقول : منيع فى سلطانه ، لايقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾

يقول تعالى ذكره : أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، الذين إن مكّنّاهم فى الأرض ، أقاموا الصلاة ؛ والذين هاهنا ردّ على الذين يقاتلون . ويعنى بقوله (إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ) إن وطنا لهم فى البلاد ، فقهروا المشركين ، وغلبوهم عليها ، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : إن نصرناهم على أعدائهم ، وقهروا مشركى مكة ، أطاعوا الله ، فأقاموا الصلاة بحدودها ، وآتوا الزكاة : يقول : وأعطوا زكاة أموالهم مَنْ جعلها الله له (وأمَرُوا بالمَعْرُوفِ) يقول: ودعوا الناس إلى توحيد الله،والعمل بطاعته، ومايعرفه أهل الإيمان بالله (وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ) يقول : ونهوا عن الشرك بالله ، والعمل بمعاصيه ، الذى ينكره أهل الحقّ والإيمان بالله (وَلِلهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ) يقول : ولله آخر أمور الخلق ، يعنى : أنّ إليه مصيرها فى الثواب عليها ، والعقاب فى الدار الآخرة .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسين الأشيب ، قال : ثنا أبو جعفر عيسى بن ماهان ، الذى يقال له الرازىّ ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، فى قوله (الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أقامُوا الصَّلاةَ ، وآتَوُا الزَّكاةَ ، وأمَرُوا بالمَعْرُوفِ ، ونَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ) قال : كان أمرهم بالمعروف

أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده ، لاشريك له ، ونهيهم عن المنكر ، أنهم نهوا عن عبادة الأوثان ، وعبادة الشيطان ؛ قال : فمن دعا إلى الله من الناس كلهم ، فقد أمر بالمعروف ، ومن نهى عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان ، فقد نهى عن المنكر .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

﴿ يقول تعالى ذكره مسليا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عما يناله من أذى المشركين بالله ، وحاضا له على الصبر على ما يلحقه منهم من السبّ والتكذيب ، وإن يكذّبك يامحمد هؤلاء المشركون بالله على ما أتيتهم به من الحقّ والبرهان ، وما تعدهم من العذاب على كفرهم بالله ، فذلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذّبة رسل الله ، المشركة بالله ، ومنهاجهم من قبلهم ، فلا يصدّنك ذلك ، فان العذاب المهين من ورائهم ، ونصرى إياك ، وأتباعك عليهم ، آتيهم من وراء ذلك ، كما أتى عذابى على أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم ، بعد الإمهال إلى بلوغ الآجال ، فقد كذبت قبلهم : يعنى مشركى قريش ، قوم نوح ، وقوم عاد وثمود . وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وهم قوم شعيب : يقول : كذب كلّ هؤلاء رسلهم . وكذب موسى ، فقيل : وكذب موسى ، ولم يقل : وقوم موسى ، لأن قوم موسى بنو إسرائيل ، وكانت قد استجابت له ولم تكذّبه ، وإنما كذّبه فرعون وقومه من القبط . وقد قيل : إنما قيل ذلك كذلك لأنه ولد فيهم ، كما ولد فى أهل مكة .

وقوله (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) يقول : فأمهلت لأهل الكفر بالله من هذه الأمم ، فلم أعاجلهم بالنقمة والعذاب (ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ) يقول : ثم أحللت بهم العقاب بعد الإملاء . فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) يقول : فانظر يامحمد كيف كان تغييرى ما كان بهم من نعمة ، وتنكرى لهم عما كنت عليه من الإحسان إليهم ، ألم أبدلهم بالكثرة قلة ، وبالحياة موتا وهلاكا ، وبالعمارة خرابا ؟ يقول : فكذلك فعلى بمكذّبيك من قريش . وإن أمليت لهم إلى آجالهم ، فإنى منجزك وعدى فيهم ، كما أنجزت غيرك من رسلى وعدى فى أممهم ، فأهلكناهم ، وأنجيتهم من بين أظهرهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

﴿ يقول تعالى ذكره : وكم يامحمد من قرية أهلكت أهلها . وهم ظالمون : يقول : وهم يعبدون غير من ينبغى أن يعبد ، ويعصون من لاينبغى لهم أن يعصوه . وقوله (فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) يقول : فباد أهلها وخلت ، وخوت من سكانها ، فخربت وتداعت ، وتساقطت على عروشها ، يعنى على بنائها وسقوفها .

كما حدثنا أبو هشام الرفاعيّ ، قال : ثنا أبو خالد ، عن جويبر ، عن الضحاك (فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) قال : خواؤها : خرابها ، وعروشها : سقوفها .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (خَاوِيَةٌ) قال : خربة ليس فيها أحد .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة . مثله .

وقوله (وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ) يقول تعالى : فكأين من قرية أهلكناها ، ومن بئر عطلناها ، بإفناء أهلها ، وهلاك وارديها ، فاندفنت وتعطلت ، فلا واردة لها ، ولا شاربة منها (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) رفيع بالصخور والجصّ ، قد خلا من سكانه ، بما أذقنا أهله من عذابنا بسوء فعالهم ، فبادوا ، وبقي قصورهم المشيدة خالية منهم . والبئر والقصر مخفوضان بالعطف على القرية . وكان بعض نحويّي الكوفة يقول : هما معطوفان على العروش بالعطف عليها خفضا ، وإن لم يحسن فيهما ، على أن العروش أعالي البيوت ، والبئر في الأرض ، وكذلك القصر ، لأن القرية لم تخو على القصر ، ولكنه أتبع بعضه بعضا ، كما قال (وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ) فمعنى الكلام على ماقال هذا الذي ذكرنا قوله في ذلك : فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها ، ولها بئر معطلة ، وقصر مشيد ؛ ولكن لما لم يكن مع البئر رافع ولا عامل فيها ، أتبعها في الإعراب العروش ، والمعنى : ماوصفت .

وبنحو الذي قلنا في معنى قوله (وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ) قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن عطاء الخراسانيّ ، عن ابن عباس (وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ) قال : التي قد تُركت ، وقال غيره : لا أهل لها .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ) قال : عطلها أهلها ، تركوها .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ) قال : لا أهل لها .

واختلف أهل التأويل في معنى قوله (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) فقال بعضهم : معناه : وقصر مجصص .

ذكر من قال ذلك

حدثني مطر بن محمد الضبي ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مهديّ ، قال : ثنا سفيان ، عن هلال بن خبّاب عن عكرمة ، في قوله (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) قال : مجصّص .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يحيى بن يمان ، عن سفيان ، عن هلال بن خباب ، عن عكرمة ، مثله ؛

حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسي ، قال : ثني غالب بن فائد ، قال : ثنا سفيان ، عن هلال بن خباب عن عكرمة ، مثله .

حدثني الحسين بن محمد العنقزى ، قال : ثني أبي ، عن أسباط ، عن السدىّ ، عن عكرمة ، فى قوله (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) قال : مجصص .

حدثني مطر بن محمد ، قال : ثنا كثير بن هشام ، قال : ثنا جعفر بن برقان ، قال : كنت أمشي مع عكرمة ، فرأى حائط آجرّ مُصَهْرَج ، فوضع يده عليه ، وقال : هذا المشيد الذى قال الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا عباد بن العوامّ ، عن هلال بن خباب ، عن عكرمة (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) قال : المجصص . قال عكرمة : والجصّ بالمدينة يسمى الشِّيد .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) قال : بالقَصَّة أو الفضة .

حدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن قال : ثنا ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) قال : بالقصّة يعني بالجصّ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن جُرَيج ، عن عطاء ، فى قوله (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) قال : مجصص .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن الثورىّ ، عن هلال بن خباب ، عن سعيد بن جُبير ، فى قوله (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) قال : مجصص ، هكذا هو فى كتابي ، عن سعيد بن جُبير .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : وقصر رفيع طويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قَتادة (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) قال : كان أهله شيَّدوه وحصَّنوه ، فهلكوا وتركوه .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قَتادة ، مثله .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عُبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول ، فى قوله (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) يقول : طويل .

❊ وأولى القولين فى ذلك بالصواب : قول من قال : عنى بالمشيد : المجصَّص ، وذلك أن الشِّيد فى كلام العرب هو الجصّ بعينه ؛ ومنه قول الراجز :

كحَبَّةِ المَاءِ بينَ الطىّ والشِّيدِ [١]

(١) هذا عجز بيت من البسيط ، وليس من الرجز . وقال فى اللسان : وحبب الماء بالكسر ، وحببه وحبابه بالفتح : طرائقه والطى : الحجارة تبنى بها جدار البئر . والشيد ، بكسر الشين : كل ما طلى به الحائط من جص أو بلاط ، وبالفتح : المصدر ، تقول : شاده يشيده شيدا : جصصه ، وبناء مشيد : معمول بالشيد .

فالمشيد : إنما هو مفعول من الشِّيد ؛ ومنه قول امرئ القيس :

وتَيْماءَ لَمْ يَتْرُكْ بِها جِذْعَ نَخْلَةٍ وَلا أُطُماً إلاَّ مَشِيداً بِجَنْدَلِ[١]

يعنى بذلك : إلا بالبناء بالشيد والجندل . وقد يجوز أن يكون معنيا بالمشيد : المرفوع بناؤه بالشيد ، فيكون الذين قالوا : عنى بالمشيد : الطويل نحوا بذلك إلى هذا التأويل ؛ ومنه قول عديّ بن زيد :

شادَهُ مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْساً فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وُكُورُ[٢]

وقد تأوّله بعض أهل العلم بلغات العرب بمعنى المزين بالشيد من شدته أشيده : إذا زيَّنته به ، وذلك شبيه بمعنى من قال : بجصص .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

❁ يقول تعالى ذكره : أفلم يسيروا هؤلاء المكذّبون بآيات الله ، والجاحدون قدرته فى البلاد ، فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذّبى رسل الله الذين خلوْا من قبلهم ، كعاد وثمود ، وقوم لوط وشعيب ، وأوطانهم ومساكنهم ، فيتفكَّروا فيها ، ويعتبروا بها ، ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها ؛ سنة الله فيمن كفر وعبد غيره ، وكذّب رسله ، فينيبوا من عتوّهم وكفرهم ، ويكون لهم إذا تدبروا ذلك ، واعتبروا به ، وأنابوا إلى الحقّ (قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها) حجج الله على خلقه وقدرته على ما بيَّنا ، أو آذان يسمعون بها : يقول : أو آذان تصغى لسماع الحقّ فتعى ذلك ، وتميز بينه وبين الباطل . وقوله (فإنَّها لا تَعْمَى الأبْصارُ) يقول : فإنها لاتعمى أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويروها ، بل يبصرون ذلك بأبصارهم ، ولكن تعمى قلوبهم

(١) البيت لامرئ القيس يصف السيل فى معلقته المشهورة (مختار الشعر الجاهلى ، بشرح مصطفى السقا ، طبعة الحلبى ص ٣٣) قال شارحه : تيماء : مدينة . والأطم : البيت المسطح ، ويروى « ولا أجما » ، وهو بمعنى الأطم . يقول : لم يدع السيل بيتا مبنيا بخشب ، وحجارة إلا هدمه إلا ما شيد بجندل فإنه سلم لقوته .

وفى (اللسان : شيد) : وبناء مشيد : معمول بالشيد . وكل ما أحكم من البناء فقد شيد ، وتشييد البناء إحكامه ورفعه ، والمشيد : [illegible] وأنشد [illegible] شاده مرمرا [illegible] البيت » . قال أبو عبيد : البناء المشيد (بالتشديد) : المطول . والمفهوم من نصوص [illegible] بيت امرئ القيس ومن بيت عدى بن زيد الآتى بعد هذا ، أن البناء المشيد بالتخفيف : هو المطول الذاهب فى السماء ، أو هو المحكم [illegible] فيكون المشيد إذن معنيان : الأول هو المطلى بالجص ونحوه لتزيينه . والثانى هو المبنى بالجص ونحوه مع الصخور أو [illegible]

(٢) البيت لعدى بن زيد العبادى ، وقد أنشده فى (اللسان : شيد) ولم ينسبه ، وقال المشيد : المبنى بالشيد . اه . يريد أنه أحكم [illegible] بالشيد مع المرمر ، وهو نوع من الرخام صلب . والكلس قال فى (اللسان : كلس) : مثل الساروج يبنى به . وقيل [illegible] قال عدى بن زيد العبادى (وذكر أربعة أبيات منها بيت الشاهد ، [illegible]) [illegible] والشاهد فى بيت عدى هذا كما يرى فى بيت امرئ القيس [illegible] يفهم منه الإحكام والتقوية ورفع البناء ، ولا يفهم منه [illegible] بالشيد . [illegible] أن صاحب ذلك القصر المعروف بالحضر [illegible] وأن الطير قد اتخذت وكورها فى أعاليه .

التى فى صدورهم عن أنصار الحقّ ومعرفته . والهاء فى قوله (فإنّها لاتَعْمَى) هاء عماد، كقول القائل : إنه عبد الله قائم . وقد ذُكر أن ذلك فى قراءة عبد الله (فإنّه لاتَعْمَى الأبْصَارُ) وقيل (وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ التى فى الصُّدُورِ) والقلوب لاتكون إلا فى الصدور ، توكيدا للكلام ، كما قيل (يَقُولُونَ بأفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : ويستعجلونك يامحمد مشركو قومك ، بما تعِدهم من عذاب الله على شركهم به ، وتكذيبهم إياك فيما أتيتهم به من عند الله فى الدنيا ، ولن يخلف الله وعده الذى وعدك فيهم ، من إحلال عذابه ونقمته بهم فى عاجل الدنيا ، ففعل ذلك ، ووفى لهم بما وعدهم ، فقتلهم يوم بدر .

واختلف أهل التأويل فى اليوم الذى قال جلّ ثناوه (وَإنَّ يَوْما عِنْدَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) أىّ يوم هو ؟ فقال بعضهم : هو من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس (وَإنَّ يَوْما عِنْدَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) قال : من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، فى قوله (وَإنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ) . . . الآية ، قال : هى مثل قوله فى (الم تَنْزِيلُ) سواء ، هو هو الآية .

وقال آخرون : بل هو من أيام الآخرة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : مقدار الحساب يوم القيامة ألف سنة .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن عُلَيّة ، قال : ثنا سعيد الجريرىّ ، عن أبى نَضْرة عن سُمَير بن نهار ، قال : قال أبو هريرة : « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم ، قلت : وما نصف يوم ؟ قال : أو ما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قال (وَإنَّ يَوْما عِنْدَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) » .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنى عبد الرحمن ، قال : ثنا أبوعوانة ، عن أبى بشر ، عن مجاهد (وَإنَّ يَوْما عِنْدَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ) قال : من أيام الآخرة .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن سماك ، عن عكرمة ، أنه قال فى هذه الآية (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) قال : هذه أيام الآخرة . وفى قوله (ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)قال : يوم القيامة ، وقرأ (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا) .

وقد اختلف فى وجه صرف الكلام من الخبر عن استعجال الذين استعجلوا العذاب إلى الخبر عن طول اليوم عند الله ، فقال بعضهم : إن القوم استعجلوا العذاب فى الدنيا ، فأنزل الله (وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ) فى أن ينزل ما وعدهم من العذاب فى الدنيا ، وإن يوما عند ربك من عذابهم فىالدنيا والآخرة ، كألف سنة مما تعدّون فى الدنيا .

وقال آخرون : قيل ذلك كذلك إعلاما من الله مستعجليه العذاب ، أنه لايعجل ، ولكنه يُمهل إلى أجل أجّله ، وأن البطىء عندهم قريب عنده ، فقال لهم : مقدار اليوم عندى ألف سنة مما تعدّونه أنتم أيها القوم من أيامكم ، وهو عندكم بطىء ، وهو عندى قريب .

وقال آخرون : معنى ذلك : وإن يوما من الثقل وما يخاف كألف سنة .

والقول الثانى عندى أشبه بالحقّ فى ذلك ، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن استعجال المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعذاب ، ثم أخبر عن مبلغ قدر اليوم عنده ، ثم أتبع ذلك قوله (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ) فأخبر عن إملائه أهل القرية الظالمة ، وتركه معاجلتهم بالعذاب ، فبين بذلك أنه عنى بقوله (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) نفى العجلة عن نفسه ، ووصفها بالأناة والانتظار . وإذ كان ذلك كذلك ، كان تأويل الكلام : وإن يوما من الأيام التى عند الله يوم القيامة ، يوم واحد كألف سنة من عددكم ، وليس ذلك عنده ببعيد ، وهو عندكم بعيد ، فلذلك لايعجل بعقوبة من أراد عقوبته ، حتى يبلغ غاية مدّته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذكره (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا) يقول : أمهلتهم ، وأخّرت عذابهم ، وهم بالله مشركون ، ولأمره مخالفون ، وذلك كان ظلمهم الذى وصفهم الله به جلّ ثناؤه ، فلم أعجّل بعذابهم ، (ثُمَّ أَخَذْتُهَا) يقول : ثم أخذتها بالعذاب ، فعذّبتها فى الدنيا بإحلال عقوبتنا بهم . (وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) يقول : وإلىّ مصيرهم أيضا بعد هلاكهم ، فيلقون من العذاب حينئذ ما لاانقطاع له ، يقول تعالى ذكره : فكذلك حال مستعجليك بالعذاب من مشركى قومك ، وإن أمليت لهم إلى آجالهم التى أجلتها لهم ، فإنى آخذهم بالعذاب ، فقاتلهم بالسيف ، ثم إلىّ مصيرهم بعد ذلك ، فموجعهم إذن عقوبة على ماقدّموا من آثامهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لمشركى قومك الذين يجادلونك فى الله بغير علم ، اتباعا منهم لكل شيطان مريد : (يا أيها النَّاسُ إنَّما أنا لَكُمْ نَذيرٌ مُبِينٌ) أنذركم عقاب الله أن ينزل بكم فى الدنيا ، وعذابه فى الآخرة أن تَصْلَوْه . مبين : يقول : أبين لكم إنذارى ذلك وأظهره ، لتنيبوا من شرككم ، وتحذروا ما أنذركم من ذلك ، لا أملك لكم غير ذلك ، فأما تعجيل العقاب وتأخيره ، الذى تستعجلوننى به فإلى الله ، ليس ذلك إلىّ ، ولا أقدر عليه ؛ ثم وصف نذارته وبشارته ، ولم يجر للبشارة ذكر ، ولما ذُكِرت النذارة على عمل ، علم أن البشارة على خلافه ، فقال : والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات منكم أيها الناس ومن غيركم . (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) يقول : لهم من الله ستر ذنوبهم التى سلفت منهم فى الدنيا عليهم فى الآخرة . (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) يقول : ورزق حسن فى الجنة .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جُرَيج ، قوله (فالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) قال : الجنة .

وقوله (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنا مُعاجِزِينَ) يقول : والذين عملوا فى حججنا فصدّوا عن اتباع رسولنا ، والإقرار بكتابنا الذى أنزلناه . وقال فى آياتنا ، فأدخلت فيه فى ، كما يقال : سعى فلان فى أمر فلان .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (مُعاجِزِينَ) فقال بعضهم : معناه : مُشاقِّين .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أحمد بن يوسف ، قال : ثنا القاسم ، قال : ثنا حجاج ، عن عثمان بن عطاء ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، أنه قرأها (مُعاجِزِينَ) فى كلّ القرآن ، يعنى بألف ، وقال : مشاقّين .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : أنهم ظنوا أنهم يعجزون الله فلا يقدر عليهم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (فى آياتِنا مُعاجِزِينَ) قال : كذّبوا بآيات الله ، فظنوا أنهم يُعْجِزون الله ، ولن يعجزوه .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

وهذان الوجهان من التأويل فى ذلك على قراءة من قرأه (فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ) بالألف ، وهى قراءة عامة قرّاء المدينة والكوفة . وأما بعض قرّاء أهل مكة والبصرة ، فإنه قرأه (مُعَجِّزِينَ) بتشديد الجيم ، بغير ألف ، بمعنى أنهم عجّزوا الناس ، وثبّطوهم عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بالقرآن .

ذكر من قال ذلك كذلك من قراءته

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله (مُعَجِّزِينَ) قال: مُبَطِّئين ، يبطِّئون الناس عن اتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

والصواب من القول في ذلك : أن يقال : إنهما قراءتان مشهورتان ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء ، متقاربتا المعنى ، وذلك أن من عجز عن آيات الله ، فقد عاجز الله ، ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله ، والعمل بمعاصيه وخلاف أمره ، وكان من صفة القوم الذين أنزل الله هذه الآيات فيهم ، أنهم كانوا يبطِّئون الناس عن الإيمان بالله ، واتباع رسوله ، ويغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحسبون أنهم يُعْجزونه ويغلبونه ، وقد ضمن الله له نصرة عليهم ، فكان ذلك معاجزتهم الله . فإذ كان ذلك كذلك ، فبأيّ القراءتين قرأ القارئ ، فمصيب الصواب في ذلك .

وأما المعاجزة فإنها المفاعلة من العجز ، ومعناه : مغالبة اثنين أحدهما صاحبه ، أيهما يعجزه ، فيغلبه الآخر ويقهره .

وأما التعجيز : فإنه التضعيف وهو التفعيل من العجز . وقوله (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) يقول : هؤلاء الذين هذه صفتهم هم سكان جهنم يوم القيامة ، وأهلها الذين هم أهلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قيل : إن السبب الذي من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الشيطان كان ألقى على لسانه في بعض ما يتلوه ، مما أنزل الله عليه من القرآن ، ما لم ينزله الله عليه ، فاشتدّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واغتمّ به ، فسلاه الله مما به من ذلك بهذه الآيات .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن أبي معشر ، عن محمد بن كعب القُرَظيّ ومحمد ابن قيس قالا : « جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناد من أندية قريش كثير أهله ، فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ، فينفروا عنه ، فأنزل الله عليه : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى) ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا بلغ (أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى) ألقى عليه الشيطان كلمتين : تلك الغرانقة العلى ، وإن شفاعتهن لترجى ، فتكلم بها ، ثم مضى فقرأ السورة ،

كلها ، فسجد فى آخر السورة ، وسجد القوم جميعا معه ، ورفع الوليد بن المغيرة ترابا إلى جبهته ، فسجد عليه ، وكان شيخا كبيرا لايقدر على السجود ، فرضوا بما تكلم به وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ، وهو الذى يخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، إذ جعلت لها نصيبا ، فنحن معك ؛ قالا : فلما أمسى أتاه جبرائيل عليهما السلام ، فعرض عليه السورة ؛ فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال : ما جئتك بهاتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افْتَرَيْتُ عَلَى اللهِ ، وَقُلْتُ عَلَى اللهِ ما لَمْ يَقُلْ ، فأوحى الله إليه (وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ) . . . إلى قوله (ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيرًا) ، فما زال مغموما مهموما حتى نزلت عليه (وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) قال : فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا : هم أحبّ إلينا ، فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن يزيد بن زياد المدنيّ ، عن محمد بن كعب القُرظيّ قال : « لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تولّيَ قومه عنه ، وشقّ عليه مايرى من مباعدتهم ماجاءهم به من عند الله ، تمنى فى نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه ، وكان يسرّه ، مع حبه وحرصه عليهم ، أن يلين له بعض ما غَلُظ عليه من أمرهم ، حين حدّث بذلك نفسه ، وتمنى وأحبه ، فأنزل الله : (والنَّجْمِ إِذا هَوَى ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوَى) فلما انتهى إلى قول الله (أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ والعُزَّى ، وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى) ألقى الشيطان على لسانه ، لما كان يحدّث به نفسه ، ويتمنى أن يأتى به قومه ، تلك الغرانيق العلَى ، وإن شفاعتهن تُرْتَضى ؛ فلما سمعت قريش ذلك فرحوا وسرّهم ، وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم ، فأصاخوا له ، والمؤمنون مصدّقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم ، ولا يتهمونه على خطأ ولا وَهَم ولا زلل ؛ فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة ، سجد فيها ، فسجد المسلمون بسجود نبيهم ، تصديقا لما جاء به ، واتباعا لأمره ، وسجد من فى المسجد من المشركين ، من قريش وغيرهم ، لما سمعوا من ذكر آلهتهم ، فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد ، إلا الوليد بن المغيرة ، فإنه كان شيخا كبيرا فلم يستطع ، فأخذ بيده حفنة من البطحاء ، فسجد عليها ، ثم تفرّق الناس من المسجد ، وخرجت قريش وقد سرّهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم ، يقولون : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، وقد زعم فيما يتلو أنها الغرانيق العُلَى ، وأن شفاعتهنّ ترتضى ، وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : أسلمت قريش ، فنهضت منهم رجال ، وتخلّف آخرون ، وأتى جبرائيل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يامحمد ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، وقلت ما لم يُقَلْ لك ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك ، وخاف من الله خوفا كبيرا ، فأنزل الله تبارك وتعالى عليه (وكانَ بِهِ رَحِيما) يعزّيه ويخفّض عليه الأمر ، ويخبره أنه لم يكن قبله رسول ولا نبيّ تمنى كما تمنى ، ولا أحبّ كما أحبّ ، إلا

والشيطان قد ألقى فى أمنيته ، كما ألقى على لسانه صلى الله عليه وسلم ، فنسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم آياته ، أى فأنت كبعض الأنبياء والرسل ، فأنزل الله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) . . . الآية ، فأذهب الله عن نبيه الحزن ، وأمنه من الذى كان يخاف ، ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم ، أنها الغرانيق العُلَى ، وأن شفاعتهن ترتضى ، يقول الله حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، إلى قوله (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) ، أى فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده ؛ فلما جاءه من الله مانسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه ، قالت قريش : ندم محمد على ما كان من منزلة آلهتكم عند الله ، فغير ذلك وجاء بغيره ، وكان ذلك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسوله قد وقعا فى فم كل مشرك ، فازدادوا شرًّا إلى ما كانوا عليه .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر ، قال : سمعت داود ، عن أبى العالية ، قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما جلساؤك عبد بنى فلان ومولى بنى فلان ، فلو ذكرت آلهتنا بشىء جالسناك ، فإنه يأتيك أشراف العرب ، فإذا رأوا جلساءك أشراف قومك ، كان أرغب لهم فيك ، قال : فألقى الشيطان فى أمنيته ، فنزلت هذه الآية (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) قال : فأجرى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العُلَى ، وشفاعتهن ترجى ، مثلهن لاينسى ؛ قال : فسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم حين قرأها ، وسجد معه المسلمون والمشركون ؛ فلما علم الذى أُجْرِى على لسانه ، كبر ذلك عليه ، فأنزل الله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) . . . إلى قوله (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا أبو الوليد ، قال : ثنا حماد بن سلمة ، عن داود بن أبى هند ، عن أبى العالية قال : « قالت قريش : يامحمد إنما يجالسك الفقراء والمساكين وضعفاء الناس ، فلو ذكرت آلهتنا بخير لجالسناك فإن الناس يأتونك من الآفاق ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النجم ؛ فلما انتهى على هذه الآية : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) فألقى الشيطان على لسانه : وهى الغرانقة العلى ، وشفاعتهن ترتجى ؛ فلما فرغ منها سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون والمشركون ، إلا أبا أُحيحة سعيد بن العاص ، أخذ كفا من تراب وسجد عليه ، وقال ؛ قد آن لابن أبى كبشة أن يذكر آلهتنا بخير ، حتى بلغ الذين بالحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين ، أن قريشا قد أسلمت ، فاشتدّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ألقى الشيطان على لسانه ، فأنزل الله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) . . . إلى آخر الآية .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، قال : لما نزلت هذه الآية (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المشركون : إنه لم يذكر

آلهتكم قبل اليوم بخير ، فسجد المشركون معه ، فأنزل الله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) . . . إلى قوله (عَذَابَ يَوْمٍ عَقِيمٍ) .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنى عبد الصمد ، قال : ثنا شعبة ، قال : ثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) ، ثم ذكر نحوه .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) إلى قوله (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) وذلك أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يصلى ، إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب ، فجعل يتلوها فسمعه المشركون ، فقالوا : إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير ، فدنوا منه ، فبينما هو يتلوها ، وهو يقول (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) ألقى الشيطان : إن تلك الغرانيق العلى ، منها الشفاعة ترتجى ، فجعل يتلوها ، فنزل جبرائيل عليه السلام ، فنسخها ، ثم قال له : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) . . . إلى قوله (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) . . . الآية ، أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بمكة ، أنزل الله عليه فى آلهة العرب ، فجعل يتلو اللات والعزّى ، ويكثر ترديدها ، فسمع أهل مكة نبيّ الله يذكر آلهتهم ، ففرحوا بذلك ، ودنوا يستمعون ، فألقى الشيطان فى تلاوة النبيّ صلى الله عليه وسلم : تلك الغرانيق العلى ، منها الشفاعة ترتجى ، فقرأها النبيّ صلى الله عليه وسلم كذلك ، فأنزل الله عليه : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ) . . . إلى (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، أنه سئل عن قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) . . . الآية ، قال ابن شهاب : ثنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قرأ عليهم (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) ، فلما بلغ (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) قال : إن شفاعتهن ترتجى ، وسها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيه المشركون الذين فى قلوبهم مرض ، فسلموا عليه ، وفرحوا بذلك ، فقال لهم : : إنما ذلك مِنَ الشَّيْطَانِ ، فأنزل الله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) . . . حتى بلغ (فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) .

فتأويل الكلام : ولم يرسل يامحمد مَنْ قَبْلك من رسول إلى أمة من الأمم ، ولا نبيّ محدَّث ليس بمرسل ، إلا إذا تمنى .

واختلف أهل التأويل فى معنى قوله تمنى فى هذا الموضع ، وقد ذكرت قول جماعة ممن قال ذلك التمنى

من النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ماحدثته نفسه من محبته مقاربة قومه ،في ذكر آلهتهم ببعض ما يحبون ، ومن قال ذلك محبة منه في بعض الأحوال أن لاتذكر بسوء .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : إذا قرأ وتلا أو حدّث .

ذكر من قال ذلك

حدثني عليّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قوله (إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) يقول : إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله (إِذَا تَمَنَّى) قال : إذا قال .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى) يعني بالتمني : التلاوة والقراءة .

وهذا القول أشبه بتأويل الكلام ، بدلالة قوله (فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ) على ذلك ، لأن الآيات التي أخبر الله جلّ ثناؤه أنه يحكمها ، لاشك أنها آيات تنزيله ، فمعلوم أن الذي ألقى فيه الشيطان هو ما أخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله ، ثم أحكمه بنسخه ذلك منه .

فتأويل الكلام إذن : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تلا كتاب الله ، وقرأ ، أو حدّث وتكلم ، ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه ، أو في حديثه الذي حدث وتكلم (فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ) يقول : تعالى فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله .

كما حدثني عليّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس (فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ) فيبطل الله ما ألقى الشيطان .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ) نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأحكم الله آياته .

وقوله (ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ) يقول : ثم يخلص الله آيات كتابه من الباطل الذي ألقى الشيطان على لسان نبيه (وَاللهُ عَلِيمٌ) بما يحدث في خلقه من حدث ، لا يخفى عليه منه شيء (حَكِيمٌ) في تدبيره إياهم ، وصرفه لهم فيما شاء وأحبّ .

القول في تأويل قوله تعالى :

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

﷽ يقول تعالى ذكره : فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، كى يجعل ما يلقى الشيطان فى أمنية نبيه من الباطل ، كقول النبىّ صلى الله عليه وسلم : تلك الغرانيق العُلَى ، وإن شفاعتهن لتُرتجى فتنة ، يقول اختبارا يختبر به الذين فى قلوبهم مرض من النفاق ، وذلك الشكّ فى صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقيقة ما يخبرهم به .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قَتادة ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، كان يتمنى أن لا يعيب الله آلهة المشركين ، فألقى الشيطان فى أمنيته ، فقال : إن الآلهة التى تدعى أن شفاعتها لترتجى وإنها للغرانيق العُلَى ، فنسخ الله ذلك ، وأحكم الله آياته ، أفرأيتم اللات والعزّى ، حتى بلغ (مِنْ سُلْطانٍ) قال قتادة : لما ألقى الشيطان ما ألقى ، قال المشركون : قد ذكر الله آلهتهم بخير ، ففرحوا بذلك ، فذكر قوله (لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قَتادة ، بنحوه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، فى قوله (لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) يقول : وللذين قست[1] قلوبهم عن الإيمان بالله ، فلا تلين ولا ترعوى ، وهم المشركون بالله .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) قال : المشركون .

وقوله (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ) يقول تعالى ذكره : وإن مشركى قومك يا محمد لفى خلاف الله فى أمره ، بعيد من الحقّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ٥٤

﷽ يقول تعالى ذكره : وكى يعلم أهل العلم بالله أن الذي أنزله الله من آياته التى أحكمها لرسوله ، ونسخ ما ألقى الشيطان فيه ، أنه الحقّ من عند ربك يا محمد ، فيؤمنوا به : يقول : فيصدّقوا به ، فتُخْبِتَ له

(١) قوله : « وللذين قست » : عطف على مفهوم من السياق ، أى للذين فى قلوبهم مرض ، وللذين قست قلوبهم .

قلوبهم : يقول : فتخضع للقرآن قلوبهم ، وتذعن بالتصديق به ، والإقرار بما فيه ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وإن الله لمرشد الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحقّ القاصد، والحقّ الواضح ، بنسخ ما ألقى الشيطان فى أمنية رسوله ، فلا يضرّهم كيد الشيطان ، وإلقاؤه الباطل على لسان نبيهم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال : يعنى القرآن .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾

يقول تعالى ذكره : ولا يزال الذين كفروا بالله فى شكّ .

ثم اختلف أهل التأويل فى الهاء التى فى قوله « منه » من ذكر ماهى ؟ فقال بعضهم : هى من ذكر قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : تلك الغرانيق العُلَى ، وإن شفاعتهن لترتجى .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ من قوله : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن ترتجى .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ قال : مما جاء به إبليس لايخرج من قلوبهم زادهم ضلالة .

وقال آخرون : بل هى من ذكر سجود النبيّ صلى الله عليه وسلم فى النجم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الصمد ، قال : ثنا شعبة ، قال : ثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ قال : فى مرية من سجودك .

وقال آخرون : بل هى من ذكر القرآن .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ قال : من القرآن .

وأولى هذه الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال : هى كناية من ذكر القرآن الذى أحكم الله آياته وذلك أن ذلك من ذكر قوله ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أقرب منه من

ذكر قوله (فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ) والهاء من قوله « أنه » من ذكر القرآن ، فإلحاق الهاء فى قوله (فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ) بالهاء من قوله(أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) أولى من إلحاقها بما التى فى قوله (ما يُلْقِي الشَّيْطانُ) مع بُعد ما بينهما .

وقوله (حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ) يقول : لايزال هؤلاء الكفار فى شك من أمر هذا القرآن إلى أن تأتيهم الساعة (بَغْتَةً) وهى ساعة حشر الناس لموقف الحساب بغتة ، يقول: فجأة (أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) .

واختلف أهل التأويل فى هذا اليوم أىّ يوم هو ؟ فقال بعضهم : هو يوم القيامة .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : ثنا شيخ من أهل خراسان من الأزد يكنى أبا ساسان ، قال : سألت الضحاك ، عن قوله (عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) قال : عذاب يوم لا ليلة بعده .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو تُميلة ، عن أبى حمزة ، عن جابر ، عن عكرمة ، أن يوم القيامة لاليلة له .

وقال آخرون : بل عنى به يوم بدر ، وقالوا : إنما قيل له يوم عقيم ، أنهم لم ينظروا إلى الليل ، فكان لهم عقيما :

ذكر من قال ذلك

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال (عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)يوم بدر .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) قال ابن جُرَيج : يوم ليس فيه ليلة ،لم يناظروا إلى الليل ، قال مجاهد : عذاب يوم عظيم .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو تُميلة ، عن أبى حمزة ، عن جابر ، قال : قال مجاهد : يوم بدر .

حدثنى أبوالسائب ، قال : ثنا أبو إدريس ، قال : أخبرنا الأعمش ، عن رجل ، عن سعيد بن جُبير ، فى قوله (عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) قال : يوم بدر .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، قوله (عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) قال : هو يوم بدر ، ذكره عن أُبىّ بن كعب .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) قال : هو يوم بدر ، عن أُبىّ بن كعب .

❊ وهذا القول الثانى أولى بتأويل الآية ، لأنه لاوجه لأن يقال : لايزالون فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو تأتيهم الساعة ؛ وذلك أن الساعة هى يوم القيامة ، فإن كان اليوم العقيم أيضا هو يوم القيامة ، فإنما معناه ما قلنا من تكرير ذكر الساعة مرّتين ، باختلاف الألفاظ ، وذلك ما لامعنى له . فإذ كان ذلك كذلك ، فأولى التأويلين به أصحهما معنى ، وأشبههما بالمعروف فى الخطاب . وهو ما ذكرناه فى معناه .

فتأويل الكلام إذن : ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه، حتى تأتيهم الساعة بغتة ، فيصيروا إلى العذاب الدائم ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم لهم ، فلا ينظروا فيه إلى الليل ، ولا يؤخروا فيه إلى المساء ، لكنهم يقتلون قبل المساء .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : السلطان والمُلك إذا جاءت الساعة لله وحده لاشريك له ولا ينازعه يومئذ منازع وقد كان فى الدنيا ملوك يُدعون بهذا الاسم ولا أحد يومئذ يدعى ملكا سواه (يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) يقول: يفصل بين خلقه المشركين به والمؤمنين ، فالذين آمنوا بهذا القرآن ، وبمن أنزله ، ومن جاء به ، وعملوا بما فيه من حلاله وحرامه ، وحدوده وفرائضه فى جنات النعيم يومئذ . والذين كفروا بالله ورسوله ، وكذّبوا بآيات كتابه وتنزيله ، وقالوا : ليس ذلك من عند الله ، إنما هو إفك افتراه محمد ، وأعانه عليه قوم آخرون ، (فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) يقول : فالذين هذه صفتهم لهم عند الله يوم القيامة عذاب مهين ، يعنى عذاب مذلّ فى جهنم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : والذين فارقوا أوطانهم وعشائرهم ، فتركوا ذلك فى رضا الله وطاعته وجهاد أعدائه ثم قتلوا أو ماتوا وهم كذلك ، ليرزقنهم الله يوم القيامة فى جنانه رزقا حسنا . يعنى بالحسن : الكريم وإنما يعنى بالرزق الحسن : الثواب الجزيل (وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) يقول : وإن الله لهو خير من بسط فضله على أهل طاعته وأكرمهم : وذكر أن هذه الآية نزلت فى قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى حكم من مات فى سبيل الله ، فقال بعضهم : سواء المقتول منهم والميت :

وقال آخرون : المقتول أفضل ، فأنزل الله هذه الآية على نبيه صلى الله عليه وسلم ، يعلمهم استواء أمر الميت فى سبيله ، والمقتول فيها فى الثواب عنده .

• قد حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى عبد الرحمن بن شريح ، عن سلامان بن عامر، قال : كان فضالة برودس أميرا على الأرباع ، فخرج بجنازتى رجلين ، أحدهما قتيل ، والآخر متوفى ، فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته ، فقال : أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل ، وتفضلونه

على أخيه المتوفى ، فوالذى نفسى بيده ، ما أبالى من أىّ حفرتيهما بُعثت ، اقرءوا قول الله تعالى (وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا) . . . إلى قوله (وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذكره : ليدخلنّ الله المقتول فى سبيله من المهاجرين والميت منهم (مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ) وذلك المُدخل هو الجنة (وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ) بمن يهاجر فى سبيله ممن يخرج من داره طلب الغنيمة ، أو عرض من عروض الدنيا (حَلِيمٌ) عن عصاة خلقه ، بتركه معاجلتهم بالعقوبة والعذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

* ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

يعنى تعالى ذكره بقوله (ذلكَ) لهذا لهؤلاء الذين هاجروا فى سبيل الله ، ثم قُتلوا أو ماتوا ، ولهم مع ذلك أيضا ، أن الله يعدهم النصر على المشركين الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (ذلكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ) قال : هم المشركون بغَوْا على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فوعده الله أن ينصره ، وقال فى القصاص أيضا . وكان بعضهم يزعم أن هذه الآية نزلت فى قوم من المشركين لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرّم ، وكان المسلمون يكرهون القتال يومئذ فى الأشهر الحرم ، فسأل المسلمون المشركين أن يكفُّوا عن قتالهم من أجل حرمة الشهر ، فأبى المشركون ذلك ، وقاتلوهم فبغَوْا عليهم ، وثبت المسلمون لهم ، فنُصروا عليهم ، فأنزل الله هذه الآية (ذلكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ) بأن بدئ بالقتال ، وهو له كاره (لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ) ، وقوله (إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) يقول تعالى ذكره : إن الله لذو عفو وصفح لمن انتصر ممن ظلمه من بعد ما ظلمه الظالم بحقّ ، غفور لما فعل ببادئه بالظلم ، مثل الذى فعل به غير معاقبه عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾

يعنى تعالى ذكره بقوله : (ذلكَ) هذا النصر الذى أنصره على من بغى عليه على الباغى ، لأنى القادر على ما أشاء ، فمن قُدرته أن الله يولج الليل فى النهار ، يقول : يدخل ما ينتقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، فما نقص من هذا زاد فى هذا (وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ) ويدخل ما انتقص من ساعات النهار فى ساعات الليل ، فما نقص من طول هذا ، زاد فى طول هذا ، وبالقُدرة التى تفعل ذلك ينصر محمدا

صلى الله عليه وسلم وأصحابه على الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم (وأنَّ اللهَ سميعٌ بَصيرٌ) يقول : وفعل ذلك أيضا بأنه ذو سمع لما يقولون من قول : لايخفى عليه منه شيء ، بصير بما يعملون ، لايغيب عنه منه شيء . كل ذلك منه بمرأى ومسمع ، وهو الحافظ لكل ذلك ، حتى يجازى جميعهم على ما قالوا وعملوا من قول وعمل جزاءه .

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

❊ يعنى تعالى ذكره بقوله (ذَلكَ) هذا الفعل الذى فعلت من إيلاجى الليل فى النهار ، وإيلاجى النهار فى الليل ، لأنى أنا الحقّ الذى لامثل لى ولا شريك ولا ندّ . وأن الذى يدعوه هؤلاء المشركون إلها من دونه ، هو الباطل الذى لايقدر على صنعة شيء ، بل هو المصنوع . يقول لهم تعالى ذكره : أفتتركون أيها الجهال عبادة من منه النفع وبيده الضر ، وهو القادر على كل شيء ، وكلّ شيء دونه ، وتعبدون الباطل الذى لاتنفعكم عبادته . وقوله (وأنَّ اللهَ هُوَ العَلِىُّ الكَبِيرُ) يعنى بقوله : (العَلِىِّ) ذوالعلوّ على كل شيء ، هو فوق كلّ شيء . وكل شيء دونه (الكَبِيرُ) يعنى العظيم ، الذى كل شيء دونه ؛ ولا شيء أعظم منه .

وكان ابن جُرَيج يقول فى قوله (وأنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الباطِلُ) ما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جُرَيج ، فى قوله (وأنَّ مايَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الباطِلُ) قال : الشيطان .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (وأنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) فقرأته عامة قرّاء العراق والحجاز (تَدْعُونَ) بالتاء على وجه الخطاب ؛ وقرأته عامة قرّاء العراق غير عاصم بالياء على وجه الخبر ؛ والياء أعجب القراءتين إلىّ ، لأن ابتداء الخبر على وجه الخطاب .

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾

❊ يقول تعالى ذكره (أَلَمْ تَرَ) يا محمد (أنَّ اللهَ أنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً) يعنى مطرا (فَتُصْبِحُ الأرْضُ مُخْضَرَّةً) بما ينبت فيها من النبات (إنَّ اللهَ لَطِيفٌ) باستخراج النبات من الأرض بذلك الماء وغير ذلك من ابتداع ماشاء أن يبتدعه (خَبِيرٌ) بما يحدث عن ذلك النبت من الحب ، وبه قال (فَتُصْبِحُ الأرْضُ) فرفع ، وقد تقدمه قوله (أَلَمْ تَرَ) وإنما قيل ذلك كذلك ، لأن معنى الكلام الخبر ، كأنه قيل : اعلم يا محمد أن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض ، ونظير ذلك قول الشاعر :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ القَدِيمَ فَيَنْطِقُ ... وهَلْ تُخْبِرَنْكَ اليَوْمَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ[1]

لأن معناه : قد سألته فنطق .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : له مُلك ما فى السموات وما فى الأرض من شىء هم عبيده ومماليكه وخلقه ، لاشريك له فى ذلك ، ولا فى شىء منه ، وإن الله هو الغنىّ عن كل ما فى السموات وما فى الأرض من خلقه وهم المحتاجون إليه ، الحميد عند عباده فى إفضاله عليهم وأياديه عندهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : ألم تر أن الله سخر لكم أيها الناس ما فى الأرض من الدّوابّ والبهائم ، فذلك كله لكم ، تصرفونه فيما أردتم من حوائجكم (والفُلْكَ تَجْرِى فى البَحْرِ بأمْرِهِ) يقول : وسخر لكم السفن تجرى فى البحر بأمره ، يعنى بقُدرته ، وتذليله إياها لكم كذلك .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (والفُلْكَ تَجْرِى) فقرأته عامة قرّاء الأمصار (والفُلْكَ) نصبا بمعنى سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك عطفا على « ما » ، وعلى تكرير « أن » وأن الفلك تجرى . ورُوى عن الأعرج أنه قرأ ذلك رفعا على الابتداء ، والنصب هو القراءة عندنا فى ذلك لإجماع الحجة من القرّاء عليه (ويُمْسِكُ السَّماءَ أنْ تَقَعَ عَلَى الأرْضِ) يقول : ويمسك السماء بقُدرته ، كى لاتقع على الأرض إلا بإذنه . ومعنى قوله (أنْ تَقَعَ) : أن لاتقع (إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) بمعنى : إنه بهم لذو رأفة ورحمة ، فمن رأفته بهم ورحمته لهم أمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وسخر لكم ما وصف فى هذه الآية تفضلا منه عليكم بذلك :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا ﴾

(١) البيت مطلع قصيدة لجميل بن معمر العذرى (خزانة الأدب الكبرى للبغدادى ٣ : ٦٠٢) وهو شاهد عند النحاة ، على أن ما بعد الفاء قد يبقى على رفعه قليلا ، وهو مستأنف . قال : وأنشد سيبويه هذا البيت وقال : لم يجعل الأول سبب الآخر ، ولكنه جعله ينطق على كل حال ، كأنه قال : وهو مما ينطق . وقال أبو جعفر النحاس : عن أبى إسحاق ، قال : إنه تقرير ، معناه إنك سألته ، فيقبح النصب . قلت : أى لأن الاستفهام قبله ليس محضا ، وإنما هو للتقرير ، فيشبه الخبر ، وهو نحو ما قال المؤلف : معناه : قد سألته فنطق . ورواية البيت فى الخزانة : « القواء » فى موضع القديم ، وهو الذى خلا ممن يسكنه . ورفع الفعل ينطق نظير الفعل تصبح فى قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة » .

هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

* يقول تعالى ذكره : والله الذى أنعم عليكم هذه النعم ، هو الذى جعل لكم أجساما أحياء بحياة أحدثها فيكم ، ولم تكونوا شيئا ، ثم هو يميتكم من بعد حياتكم ، فيفنيكم عند مجىء آجالكم ، ثم يحييكم بعد مماتكم عند بعثكم لقيام الساعة (إنَّ الإنْسانَ لَكَفُورٌ) يقول : إن ابن آدم لجحود لنعم الله التى أنعم بها عليه من حُسن خلقه إياه ، وتسخيره له ما سخر مما فى الأرض والبرّ والبحر ، وتركه إهلاكه بإمساكه السماء أن تقع على الأرض بعبادته غيره من الآلهة والأنداد ، وتركه إفراده بالعبادة ، وإخلاص التوحيد له .

وقوله (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكا) يقول : لكل جماعة قوم هى خلت من قبلك ، جعلنا مألفا يألفونه ، ومكانا يعتادونه ، لعبادتى فيه ، وقضاء فرائضى ، وعملا يلزمونه ، وأصل المنسك فى كلام العرب الموضع المعتاد الذى يعتاده الرجل ويألفه ، لخير أو شرّ ؛ يقال : إن لفلان منسكا يعتاده : يراد مكانا يغشاه ويألفه لخير أو شرّ . وإنما سميت مناسك الحجّ بذلك ، لتردّد الناس إلى الأماكن التى تعمل فيها أعمال الحجّ والعُمرة ، وفيه لغتان (مَنْسِك) بكسر السين وفتح الميم ، وذلك من لغة أهل الحجاز ، و (مَنْسَك) بفتح الميم والسين جميعا ، وذلك من لغة أسد ، وقد قرئ باللغتين جميعا .

وقد اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بقوله (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكا) : أىّ المناسك عنى به ؟ فقال بعضهم : عنى به : عيدهم الذى يعتادونه .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكا هُمْ ناسِكُوهُ) يقول : عيدا .

وقال آخرون : عنى به : ذبح يذبحونه ، ودم يهريقونه .

ذكر من قال ذلك

حدثنى أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، قال : ثنا ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، فى قوله (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكا هُمْ ناسِكُوهُ) قال : إراقة الدم بمكة .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (هُمْ ناسِكُوهُ) قال : إهراق دماء الهدى .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (مَنْسَكا) قال : ذبحا وحجا .

قال : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : عنى بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى ، لأن المناسك التى كان المشركون جادلوا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت إراقة الدم فى هذه الأيام ، على أنهم قد كانوا جادلوه فى إراقة الدماء التى هى دماء ذبائح الأنعام بما قد أخبر الله عنهم فى سورة الأنعام ، غير أن ذلك لم

تكن مناسك . فأما التى هى مناسك ، فإنما هى هدايا أو ضحايا . ولذلك قلنا : عنى بالمنسك فى هذا الموضع الذبح الذى هو بالصفة التى وصفنا .

وقوله (فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ) يقول تعالى ذكره : فلا ينازعنك هؤلاء المشركون بالله يامحمد فى ذبحك ومنسكك بقولهم : أتأكلون ما قتلتم ، ولاتأكلون الميتة التى قتلها الله ؟ فانك أولى بالحق منهم ، لأنك محق وهم مبطلون .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ) قال : الذبح .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ) فلا تتحام لحمك .

وقوله (وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ) يقول تعالى ذكره : وادع يا محمد منازعيك من المشركين بالله فى نسكك وذبحك ، إلى اتباع أمر ربك فى ذلك بأن لايأكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك ، وبعد التصديق بما جئتهم به من عند الله ، وتجنبوا الذبح للآلهة والأوثان ، وتبرءوا منها ، إنك لعلى طريق مستقيم غير زائل عن محجة الحق والصواب فى نسكك الذى جعله لك ولأمتك ربك ، وهم الضلال على قصد السبيل ، لمخالفتهم أمر الله فى ذبائحهم ومطاعمهم وعبادتهم الآلهة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وإن جادلك يامحمد هؤلاء المشركون بالله فى نسكك ، فقل : الله أعلم بما تعملون ونعمل .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَإِنْ جَادَلُوكَ) قال : قول أهل الشرك : أما ما ذبح الله بيمينه (فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) لنا أعمالنا ولكم أعمالكم .

وقوله (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) يقول تعالى ذكره : والله يقضى بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه من أمر دينكم تختلفون ، فتعلمون حينئذ أيها المشركون المحق من المبطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يقول تعالى ذكره : ألم تعلم يا محمد أن الله يعلم كلّ ما فى السموات السبع ، والأرضين السبع ، لايخفى عليه من ذلك شيء ، وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة ، على علم منه بجميع ما عملوه فى الدنيا ، فمجازى المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، إن ذلك فى كتاب : يقول تعالى ذكره : إن علمه بذلك فى كتاب ، وهو أمّ الكتاب الذى كتب فيه ربنا جلّ ثناؤه ، قبل أن يخلق خلقه ، ما هو كائن إلى يوم القيامة (إنَّ ذلكَ علَى اللهِ يَسيرٌ) .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا ميسر بن إسماعيل الحلبيّ ، عن الأوزاعيّ ، عن عبدة ابن أبي لُبابة ، قال : علم الله ما هو خالق ، و ماالخلق عاملون ، ثم كتبه ثم قال لنبيه (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ والأرْضِ إنَّ ذَلِكَ فِي كِتابٍ : إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى ميسر ، عن أرطاة بن المنذر ، قال : سمعت ضَمْرة بن حبيب يقول : « إن الله كان على عرشه على الماء ، وخلق السموات والأرض بالحقّ ، وخلق القلم ، فكتب به ما هو كائن من خلقه ، ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجّده ألف عام ، قبل أن يبدأ شيئا من الخلق » .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى معتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن سيار ، عن ابن عباس ، أنه سأل كعب الأحبار ، عن أمّ الكتاب فقال : علم الله ماهو خالق وما خلقه عاملون ، فقال لعلمه كن كتابا .

وكان ابن جُرَيج يقول ، فى قوله (إنَّ ذَلِكَ فِي كِتابٍ) ما حدثنا به القاسم ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (إنَّ ذَلِكَ فِي كِتابٍ) قال قوله (اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) .

وإنما اخترنا القول الذى قلنا فى ذلك ، لأن قوله (إنَّ ذلكَ) إلى قوله (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ والأرْضِ) أقرب منه إلى قوله (اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) ، فكان إلحاق ذلك بما هو أقرب إليه ، أولى منه بما بعد .

وقوله (إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) اختلف فى ذلك ، فقال بعضهم : معناه : إن الحكم بين المختلفين فى الدنيا يوم القيامة على الله يسير .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ)

قال : حكمه يوم القيامة ثم قال بين ذلك (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتابٍ) .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : أن كتاب القلم الذى أمره الله أن يكتب فى اللوح المحفوظ ما هو كائن على الله يسير يعنى هين . وهذا القول الثانى أولى بتأويل ذلك . وذلك أن قوله (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) ... إلى قوله (إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتابٍ) أقرب وهو له مجاور ، ومن قوله (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ) متباعد مع دخول قوله (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالأَرْضِ) بينهما . فإلحاقه بما هو أقرب أولى ما وجد للكلام ، وهو كذلك مخرج فى التأويل صحيح .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (٧١)

يقول تعالى ذكره : ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه ، ما لم ينزل به جلّ ثناؤه لهم حجة من السماء فى كتاب من كتبه التى أنزلها إلى رسله ، بأنها آلهة تصلح عبادتها فيعبدوها ، بأن الله أذن لهم فى عبادتها . وما ليس لهم به علم أنها آلهة (وما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) يقول : وما للكافرين بالله الذين يعبدون هذه الأوثان من ناصر ينصرهم يوم القيامة ، فينقذهم من عذاب الله ، ويدفع عنهم عقابه إذا أراد عقابهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٧٢)

يقول تعالى ذكره : وإذا تُتلى على مشركى قريش العابدين من دون الله ما لم ينزل به سلطانا (آياتُنا) يعنى : آيات القرآن (بَيِّناتٍ) يقول : واضحات حججها وأدلتها فيما أنزلت فيه (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ) يقول : تتبين فى وجوههم ما ينكره أهل الإيمان بالله من تغيرها ، لسماعهم بالقرآن .

وقوله (يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا) يقول : يكادون يبطشون بالذين يتلون عليهم آيات كتاب الله من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لشدّة تكرّههم أن يسمعوا القرآن ، ويتلى عليهم .

وبنحو ما قلنا فى تأويل قوله (يَسْطُونَ) قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثني عليّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قوله (يَكَادُونَ يَسْطُونَ) يقول : يبطشون .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (يَكَادُونَ يَسْطُونَ) يقول : يقعون بمن ذكرهم .

حدثنا محمد بن عمارة ، قال : ثنا عبد الله بن موسى ، قال : أخبرنا إسرائيل ، عن أبي يحيى ، عن مجاهد (يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) قال : يكادون يقعون بهم .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله (يَكَادُونَ يَسْطُونَ) قال : يبطشون كفار قريش .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله :

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) يقول : يكادون يأخذونهم بأيديهم أخذا .

وقوله (قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ) يقول : أفأنبئكم أيها المشركون بأكره إليكم من هؤلاء الذين تتكرّهون قراءتهم القرآن عليكم ، هي (النَّارُ) وعدها الله الذين كفروا ، وقد ذُكر عن بعضهم أنه كان يقول : إن المشركين قالوا : والله إن محمدا وأصحابه لشرّ خلق الله ، فقال الله لهم : قل أفأنبئكم أيها القائلون هذا القول بشر ، من محمد صلى الله عليه وسلم ، أنتم أيها المشركون الذين وعدهم الله النار ، ورفعت النار على الابتداء ، ولأنها معرفة لاتصلح أن ينعت بها الشرّ وهو نكرة ، كما يقال : مررت برجلين : أخوك وأبوك ، ولو كانت مخفوضة كان جائزا ، ، وكذلك لو كان نصبا للعائد من ذكرها في وعدها ، وأنت تنوى بها الاتصال بما قبلها ، يقول تعالى ذكره : فهؤلاء هم أشرار الخلق لا محمد وأصحابه .

وقوله (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) يقول : وبئس المكان الذى يصير إليه هؤلاء المشركون بالله يوم القيامة .

القول في تأويل قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذكره : يا أيها الناس جعل لله مثل وذكر ، ومعنى ضرب في هذا الموضع : جعل من قولهم ضرب السلطان على الناس البعث ، بمعنى : جعل عليهم ، وضرب الجزية على النصارى ، بمعنى : جعل ذلك

عليهم ؛ والمَثَل : الشَّبَه ، يقول جلّ ثناؤه : جعل لى شبه أيها الناس، يعنى بالشَّبَه والمَثَل : الآلهة ، يقول : جعل لى المشركون والأصنام شبها ، فعبدوها معى ، وأشركوها فى عبادتى ، فاستمعوا له : يقول : فاستمعوا حال مامثلوه ، وجعلوه لى فى عبادتهم إياه شبها ، وصفته (إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبابا) يقول : إن جميع ماتعبدون من دون الله من الآلهة والأصنام ، لو جمعت لم يخلقوا ذبابا فى صغره وقلّته ، لأنها لاتقدر على ذلك ولا تطيقه ، ولو اجتمع لخلقه جميعها . والذباب واحد ، وجمعه فى القلة أذبة ، وفى الكثير ذِبَّان نظير غُراب ، يجمع فى القلة أَغْرِبة ، وفى الكثرة غِرْبان .

وقوله (وَإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئا) يقول : وإن يسلب الآلهة والأوثان الذبابُ شيئا مما عليها من طيب وما أشبهه من شيء لايستنقذوه منه : يقول : لاتقدر الآلهة أن تستنقذ ذلك منه .

واختلف فى معنى قوله (ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ) فقال بعضهم : عنى بالطالب : الآلهة ، وبالمطلوب : الذباب .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جُرَيج ، قال ابن عباس ، فى قوله (ضَعُفَ الطَّالِبُ) قال : آلهتهم (وَالمَطْلُوبُ) : الذباب .

وكان بعضهم يقول : معنى ذلك : (ضَعُفَ الطَّالِبُ) من بنى آدم إلى الصنم حاجته (والمَطْلُوبُ) إليه الصنم أن يعطى سائله من بنى آدم ما سأله يقول : ضعف عن ذلك وعجز .

والصواب من القول فى ذلك عندنا ماذكرته عن ابن عباس من أن معناه : و عجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من الذباب ما سلبها إياه ، وهو الطيب وما أشبهه ؛ والمطلوب : الذباب .

وإنما قلت هذا القول أولى بتأويل ذلك ، لأن ذلك فى سياق الخبر عن الآلهة والذباب ، فأن يكون ذلك خبرا عما هو به متصل أشبه من أن يكون خبرا ، عما هو عنه منقطع ، وإنما أخبر جلّ ثناؤه عن الآلهة بما أخبر به عنها فى هذه الآية من ضعفها ومهانتها، تقريعا منه بذلك عَبَدَتَها من مشركى قريش ، يقول تعالى ذكره : كيف يجعل مثل فى العبادة ، ويشرك فيها معى ما لاقدرة له على خلق ذباب، وإن أخذ له الذباب فسلبه شيئا عليه لم يقدر أن يمتنع منه ، ولا ينتصر ، وأنا الخالق ما فى السموات والأرض ، ومالكٌ جميع ذلك والمحيي من أردت ، والمميت ما أردت ومن أردت ، إن فاعل ذلك ، لاشكّ أنه فى غاية الجهل .

وقوله (ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) يقول : ما عظم هؤلاء الذين جعلوا الآلهة لله شريكا فى العبادة حقّ عظمته حين أشركوا به غيره ، فلم يخلصوا له العبادة ولا عرفوه حقّ معرفته من قولهم : ماعرفت لفلان قدره إذا خاطبوا بذلك من قَصَّر بحقه ، وهم يريدون تعظيمه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ

شَيْئًا) . . . إلى آخر الآية ، قال : هذا مثل ضربه الله لآلهتهم ، وقرأ (ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) حين يعبدون مع الله ما لايتصف من الذباب ولا يمتنع منه .

وقوله(إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ) يقول : إن الله لقوىّ على خلق ما يشاء ، من صغير مايشاء من خلقه وكبيره عزيز : يقول : منيع فى مُلكه لايقدر شيء دونه أن يسلبه من مُلكه شيئا ، وليس كآلهتكم أيها المشركون الذين تدعون من دونه الذين لايقدرون على خلق ذباب ، ولاعلى الامتناع من الذباب ، إذا استلبها شيئا ضعفا ومهانة .

القول في تأويل قوله تعالى :

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾

❁ يقول تعالى ذكره : الله يختار من الملائكة رسلا كجبريل وميكائيل اللذين كانا يرسلهما إلى أنبيائه ، ومن شاء من عباده ومن الناس ، كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده من بنى آدم . ومعنى الكلام : الله يصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس أيضا رسلا : وقد قيل : إنما أنزلت هذه الآية لما قال المشركون : أأنزل عليه الذكر من بيننا ، فقال الله لهم : ذلك إلىّ وبيدى دون خلقى ، أختار من شئت منهم للرسالة .

وقوله (إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) يقول : إن الله سميع لما يقول المشركون فى محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من عند ربه ، بصير بمن يختاره لرسالته من خلقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

❁ يقول تعالى ذكره : الله يعلم ما كان بين أيدى ملائكته ورسله ، من قبل أن يخلقهم وما خلفهم ، يقول : ويعلم ماهو كائن بعد فنائهم (وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) يقول : إلى الله فى الآخرة تصير إليه أمور الدنيا ، وإليه تعود كما كان منه البدء :

القول في تأويل قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾

❁ يقول تعالى ذكره : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله (ارْكَعُوا) لله فى صلاتكم (وَاسْجُدُوا) له فيها (وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ) يقول : وذلوا لربكم ، واخضعوا له بالطاعة (وَافْعَلُوا الخَيْرَ) الذى أمركم ربكم بفعله (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) يقول : لتفلحوا بذلك ، فتدركوا به طلباتكم عند ربكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ ﴾

❁ واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ) فقال بعضهم : معناه : وجاهدوا المشركين فى سبيل الله حقّ جهاده .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى سليمان بن بلال ، عن ثور بن زيد ، عن عبد الله بن عباس ، فى قوله (وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ) كما جاهدتم أوّل مرّة ، فقال عمر من أمر بالجهاد ؟ قال : قبيلتان من قريش مخزوم وعبد شمس ، فقال عمر : صدقت .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : لاتخافوا فى الله لومة لائم ، قالوا : وذلك هو حقّ الجهاد .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس ، فى قوله (وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ) لاتخافوا فى الله لومة لائم .

وقال آخرون : معنى ذلك : اعملوا بالحقّ ، حقّ عمله ، وهذا قول ذكره عن الضحاك بعض من فى روايته نظر .

❁ والصواب من القول فى ذلك : قول من قال : عُنِى به الجهاد فى سبيل الله ، لأن المعروف من الجهاد ذلك ، وهو الأغلب على قول القائل : جاهدت فى الله ، وحقّ الجهاد : هو استفراغ الطاقة فيه .

وقوله (هُوَ اجْتَباكُمْ) يقول : هو اختاركم لدينه ، واصطفاكم لحرب أعدائه ، والجهاد فى سبيله .

وقال ابن زيد فى ذلك ، ما حدثنى به يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (هُوَ اجْتَباكُمْ) قال : هو هداكم .

وقوله (وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) يقول تعالى ذكره : وما جعل عليكم ربكم فى الدين الذى تعبدكم به من ضيق ، لامخرج لكم مما ابتليتم به فيه ، بل وسّع عليكم ، فجعل التوبة من بعض مخرجا ، والكفّارة من بعض ، والقصاص من بعض ، فلا ذنب يذنب المؤمن إلا وله منه فى دين الإسلام مخرج .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى ابن زيد ، عن ابن شهاب ،

قال : سأل عبد الملك بن مروان عليّ بن عبد الله بن عباس : عن هذه الآية (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) فقال عليّ بن عبد الله : الحَرَج : الضيق ، فجعل الله الكفارات مَخْرجا من ذلك ، سمعت ابن عباس يقول ذلك .

قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثني سفيان بن عيينة ، عن عبيد الله بن أبي يزيد ، قال : سمعت ابن عباس يُسأل عن (مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) ، قال : ما هاهنا من هذيل أحد ، فقال رجل : نعم . قال : ما تعدّون الحرجة فيكم ؟ قال : الشئ الضيق ، قال ابن عباس : فهو كذلك .

حدثنا الحسن بن يحيي ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن ابن عيينة ، عن عبيد الله بن أبي يزيد ، قال : سمعت ابن عباس ، وذكر نحوه ، إلا أنه قال : فقال ابن عباس : أهاهنا أحد من هذيل ؟ فقال رجل : أنا ، فقال أيضا ما تعدّون الحرج ، وسائر الحديث مثله .

حدثني عمران بن بكار الكُلاعيّ ، قال : ثنا يحيي بن صالح ، قال : ثنا يحيي بن حمزة ، عن الحكم بن عبد الله ، قال : سمعت القاسم بن محمد يحدّث ، عن عائشة ، قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) قالَ هو الضيق .

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال . ثنا أبو خلدة ، قال : قال لي أبو العالية : أتدرى ما الحرج ؟ قلت : لاأدرى ، قال : الضيق ، وقرأ هذه الآية (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا حماد بن مسعدة ، عن عوف ، عن الحسن ، في قوله (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) قال : من ضيق .

حدثنا عمرو بن بندق ، قال : ثنا مروان بن معاوية ، عن أبي خلدة ، قال : قال لي أبو العالية : هل تدرى ما الحَرَج ؟ قلت لا ، قال : الضيق ، إن الله لم يضيق عليكم ، لم يجعل عليكم فى الدين من حرج .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن ابن عون ، عن القاسم أنه تلا هذه الآية (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) قال : تدرون ما الحرج ؟ قال : الضيق .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن يونس بن أبي إسحاق ، عن أبيه ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، قال : إذا تعاجم شيء من القرآن ، فانظروا فى الشعر ، فإن الشعر عربيّ ، ثم دعا ابن عباس أعرابيا ، فقال : ما الحَرَج ؟ قال : الضيق ، قال : صدقت .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) قال : من ضيق .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

وقال آخرون : معنى ذلك (ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) من ضيق فى أوقات فروضكم إذا التبست عليكم ، ولكنه قد وسع عليكم حتى تتيقنوا محلها .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن عثمان بن بشار ، عن ابن عباس ، فى قوله (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) قال : هذا فى هلال شهر رمضان إذا شكّ فيه الناس ، وفى الحجّ إذا شكوا فى الهلال ، وفى الفطر والأضحى إذا التبس عليهم ، وأشباهه .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ماجعل فى الإسلام من ضيق ، بل وسعه .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) يقول: ما جعل عليكم فى الإسلام من ضيق ، هو واسع ، وهو مثل قوله فى الأنعام (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ، وَمَنْ يُرِدِ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) يقول : من أراد أن يضله يضيق عليه صدره ، حتى يجعل عليه الإسلام ضيقا ، والإسلامُ واسع .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) يقول: من ضيق ، يقول : جعل الدين واسعا ، ولم يجعله ضيِّقا . وقوله (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) نصب ملة بمعنى : وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، بل وسعه ، كملَّةِ أبيكم ، فلما لم يجعل فيها الكاف اتصلت بالفعل الذى قبلها فنصبت ، وقد يحتمل نصبها أن تكون على وجه الأمر بها ، لأن الكلام قبله أمر ، فكأنه قيل: اركعوا واسجدوا ، والزموا ملة أبيكم إبراهيم .

وقوله (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وفِي هَذَا) يقول تعالى ذكره : سماكم يا معشر من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم المسلمين من قبل .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ) يقول: الله سماكم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : أخبرنى عطاء بن ابن أبى رباح ، أنه سمع ابن عباس يقول : الله سماكم المسلمين من قبل .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ؛ وحدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق جميعا ، عن معمر ، عن قتادة (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ) قال : الله سماكم المسلمين من قبل .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ) قال : الله سماكم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول ، فى قوله (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) يقول : الله سماكم المسلمين .

وقال آخرون : بل معناه : إبراهيم سماكم المسلمين ؛ وقالوا : هو كناية من ذكر إبراهيم صلى الله عليه وسلم :

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ) قال : ألا ترى قول إبراهيم (وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) قال : هذا قول إبراهيم (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ) ولم يذكر الله بالإسلام والإيمان غير هذه الأمة ، ذُكرت بالإيمان والإسلام جميعا ، ولم نسمع بأمة ذكرت إلا بالإيمان ، ولا وجه لما قال ابن زيد من ذلك ، لأنه معلوم أن إبراهيم لم يسمّ أمة محمد مسلمين فى القرآن ، لأن القرآن أنزل من بعده بدهر طويل ، وقد قال الله تعالى ذكره (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا) ولكن الذى سمانا مسلمين من قبل نزول القرآن ، وفى القرآن ، الله الذى لم يزل ولا يزال . وأما قوله (مِنْ قَبْلُ) فان معناه : من قبل نزول هذا القرآن فى الكتب التى نزلت قبله ، وفى هذا يقول (وَفِى هَذَا الْكِتَابِ) .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ) وفى هذا القرآن .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جُرَيج ، قال مجاهد (مِنْ قَبْلُ) قال : فى الكتب كلها والذكر (وَفِى هَذَا) يعنى القرآن ، وقوله (لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) يقول تعالى ذكره اجتباكم الله وسماكم أيها المؤمنون بالله وآياته ، من أمة محمد صلى الله عليه وسلم مسلمين ، ليكون محمد رسول الله شهيدا عليكم يوم القيامة ، بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم ، وتكونوا أنتم شهداء حينئذ على الرسل أجمعين ، أنهم قد بلّغوا أممهم ما أُرسلوا به إليهم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) قال : الله سماكم المسلمين من قبل (وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ) بأنه بلغكم (وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) أنّ رسلهم قد بلغتهم وبه عن قتادة ، قال : أعطيت هذه الأمة ما لم يعطه إلا نبىّ ، كان يقال للنبىّ : اذهب فليس عليك حرج ، وقال الله (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ

مِنْ حَرَجٍ)، وكان يقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أنت شهيد على قومك ، وقال الله (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ على النَّاسِ) وكان يقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : سل تعطه ، وقال الله (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ) :

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم يعطها إلا نبيّ ، كان يقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : اذهب فليس عليك حرج ، فقال الله (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) قال : وكان يقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أنت شهيد على قومك ، وقال الله (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) وكان يقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : سَلْ تُعْطَهْ ، وقال الله (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ) :

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

يعنى تعالى ذكره بقوله (فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) يقول : فأدّوا الصلاة المفروضة لله عليكم بحدودها ، وآتوا الزكاة الواجبة عليكم فى أموالكم (وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ) يقول : وثقوا بالله ، وتوكلوا عليه فى أموركم (فَنِعْمَ المَوْلَى) يقول : فنعم الولىّ الله لمن فعل ذلك منكم ، فأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وجاهد فى سبيل الله حقّ جهاده ، واعتصم به . (وَنِعْمَ النَّصِيرُ) يقول : ونعم الناصر هو له على من بغاه بسوء .

تمّ الجزء السابع عشر من تفسير الإمام محمد بن جرير الطبريّ

ويليه : الجزء الثامن عشر

وأوله : سورة المؤمنون

جامع البيان

عن

تأويل آي القرآن

تأليف

أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

المتوفى سنة ٣١٠هـ

[illegible] عشر

تم الجزء السابع عشر من تفسير الإمام محمد بن

ويليه الجزء الثامن عشر

وأوله سورة المؤمنون

جامع البيان

عن

تأويل آي القرآن

تأليف

أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

المتوفى سنة ٣١٠ هـ

الجزء الثامن عشر

دار الفكر

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م



بيروت لبنان

المكاتب : البناية المركزية - هاتف: ٢٤٤٧٣٩ - ص.ب: ٧٠٦١ / ١١
المطابع والمعمل : حارة حريك - شارع عبد النور - هاتف: ٢٧٣٦٥٠ - ٢٧٢٤٨٧
برقياً : فكسي - تلكس ٤١٣٩٢ فكر FIKR 41392 LE

فهارس الجزء الثامن عشر

من

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري

---

١ – فهرس الآيات

سورة النور

سورة الفرقان

٢ – فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة

٣ — فهرس القوافى

٤ ــ فهرس الأحاديث

(٢٣) سورة المؤمنون مكية
وآياتها ثماني عشرة ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾

❁ قال أبو جعفر: يعني جلّ ثناؤه بقوله (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ): قد أدرك الذين صدقوا الله ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، وأقرّوا بما جاءهم به من عند الله، وعملوا بما دعاهم إليه مما سمى في هذه الآيات الخلود في جنّات ربهم، وفازوا بطّلبتهم لديه.

كما حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرّزاق، عن معمر، عن قتادة، في قوله (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) قال: قال كعب: لم يخلق الله بيده إلا ثلاثة: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدْن بيده، ثم قال لها تكلمي، فقالت (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) لما علمت فيها من الكرامة.

حدثنا سهل بن موسى الرازيّ، قال: ثنا يحيى بن الضريس، عن عمرو بن أبي قيس، عن عبد العزيز ابن رفيع، عن مجاهد، قال: لما غرس الله تبارك وتعالى الجنة، نظر إليها فقال (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

قال: ثنا حفص بن عمر، عن أبي خلدة، عن أبي العالية، قال: لما خلق الله الجنة قال (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) فأنزل الله به قرآنا.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جبير، عن عطاء، عن ميسرة، قال: «لم يخلق الله شيئا بيده غير أربعة أشياء: خلق آدم بيده، وكتب الألواح بيده، والتوراة بيده، وغرس عدْنا بيده، ثم قال (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)».

وقوله (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) يقول تعالى ذكره: الذين هم في صلاتهم إذا قاموا فيها خاشعون، وخشوعهم فيها تذللهم لله فيها بطاعته، وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به فيها. وقيل: إنها نزلت من أجل أن القوم كانوا يرفعون أبصارهم فيها إلى السماء قبل نزولها، فنُهوا بهذه الآية عن ذلك.

ذكر الرواية بذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت خالدا ، عن محمد بن سيرين ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلّى نظر إلى السماء ، فأنزلت هذه الآية (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) قال : فجعل بعد ذلك وجهه حيث يسجد .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا هارون بن المغيرة ، عن أبي جعفر ، عن الحجاج الصوّاف ، عن ابن سيرين ، قال : «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم فى الصلاة إلى السماء ، حتى نزلت (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) فقالوا بعد ذلك برءوسهم هكذا » .

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، قال : أخبرنا أيوب ، عن محمد ، قال : « نبئت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت آية ، إن لم تكن (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) فلا أدرى أية آية هى ، قال : فطأطأ » . قال : وقال محمد : وكانوا يقولون : لايجاوز بصره مصلاه ، فإن كان قد استعاد النظر فليغمض .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، عن ابن عون ، عن محمد نحوه .

واختلف أهل التأويل فى الذى عنى به فى هذا الموضع من الخشوع ، فقال بعضهم : عنى به : سكون الأطراف فى الصلاة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) قال : السكون فيها .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الزهرىّ (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) قال : سكون المرء فى صلاته .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىّ ، مثله .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، عن الثورىّ ، عن أبى سفيان الشيبانى ، عن رجل ، عن علىّ ، قال : سئل عن قوله (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) قال : لاتلتفت فى صلاتك .

حدثنا عبد الجبار بن يحيى الرملىّ ، قال : قال ضَمْرة بن ربيعة ، عن أبى شَوْذب ، عن الحسن ، فى قوله (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) قال : كان خشوعهم فى قلوبهم ، فغضوا بذلك البصر ، وخفضوا به الجناح .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم ، فى قوله (خَاشِعُونَ) قال : الخشوع فى القلب ، وقال : ساكنون .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى خالد بن عبد الله ، عن المسعودىّ ، عن أبى سنان ، عن رجل من قومه ، عن علىّ رضى الله عنه ، قال : الخشوع فى القلب ، وأن تُلين للمرء المسلم كَنَفَك ، ولا تلتفت .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء بن أبى رباح ، فى قوله (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) قال : التخشع فى الصلاة . وقال لى غير عطاء : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا قام فى الصلاة نظر عن يمينه ويساره ووُجاهه ، حتى نزلت (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) فما رُؤى بعد ذلك ينظر إلا إلى الأرض .

وقال آخرون : عنى به الخوف فى هذا الموضع .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الحسن (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) قال : خائفون .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر ، فى قوله (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) قال الحسن : خائفون . وقال قتادة : الخشوع فى القلب .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) يقول : خائفون ساكنون .

❊ وقد بيَّنا فيما مضى قبل من كتابنا ، أن الخشوع : التذلل والخضوع بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع . وإذ كان ذلك كذلك ، ولم يكن الله تعالى ذكره دلّ على أن مراده من ذلك معنى دون معنى فى عقل ولا خبر ، كان معلوما أن معنى مراده من ذلك العموم . وإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل الكلام ما وصفت من قبل ، من أنه : والذين هم فى صلاتهم متذللون لله بإدامة ما ألزمهم من فرضه وعبادته ، وإذا تذلل لله فيها العبد رؤيت ذلة خضوعه فى سكون أطرافه ، وشغله بفرضه ، وتركه ما أمر بتركه فيها .

وقوله (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) يقول تعالى ذكره : والذين هم عن الباطل ، وما يكرهه الله من خلقه معرضون .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) يقول : الباطل .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الحسن (عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) قال : عن المعاصى .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن الحسن ، مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) قال النبىّ صلى الله عليه وسلم ومن معه من صحابته ، ممن آمن به واتبعه وصدقه ، كانوا عن اللغو معرضين .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۞

❁ يقول تعالى ذكره : والذين هم لزكاة أموالهم التي فرضها الله عليهم فيها مؤدّون ، وفعلهم الذي وصفوا به هو أداؤهموها . وقوله (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ . إلاَّ عَلَى أزْوَاجِهِمْ) يقول : والذين هم لفروج أنفسهم ؛ وعنى بالفروج في هذا الموضع : فروج الرجال ، وذلك أقبالهم ، حافظون : يحفظونها من أعمالها في شيء من الفروج (إلاَّ عَلَى أزْوَاجِهِمْ) يقول : إلا من أزواجهم اللاتي أحلهنّ الله للرجال بالنكاح (أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ) يعني بذلك : إماءهم . و « ما » التي في قوله (أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ) في محلّ خفض، عطفا على الأزواج (فإنَّهُمْ غيرُ مَلُومِينَ) يقول : فإن من لم يحفظ فرجه عن زوجه وملك يمينه، وحفظه عن غيره من الخلق ، فإنه غير مُوَبَّخ على ذلك ، ولا مذموم ، ولا هو بفعله ذلك راكب ذنبا يلام عليه .

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ . إلاَّ عَلَى أزْوَاجِهِمْ أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ فإنَّهُمْ غيرُ مَلُومِينَ) يقول : رضي الله لهم إتيانهم أزواجهم وما ملكت أيمانهم .

وقوله (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ) يقول : فمن التمس لفرجه مَنْكَحا سوى زوجته وملك يمينه ، (فأُولَئِكَ هُمُ العادُونَ) يقول : فهم العادون حدود الله ، المجاوزون ما أحلّ الله لهم ، إلى ما حرّم عليهم.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : نهاهم الله نهيا شديدا ، فقال (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فأُولَئِكَ هُمُ العادُونَ) فسمى الزاني من العادين .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (فأُولَئِكَ هُمُ العادُونَ) قال : الذين يتعدّون الحلال إلى الحرام .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبي عبد الرحمن ، في قوله (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فأُولَئِكَ هُمُ العادُونَ) قال : من زنى فهو عاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَٰرِثُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى ذكره (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ) التى ائتمنوا عليها وعهدهم ، وهو عقودهم التى عاقدوا الناس (رَاعُونَ) يقول : حافظون لايضيعون ، ولكنهم يوفون بذلك كله .

واختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الأمصار إلا ابن كثير (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ) على الجمع ، وقرأ ذلك ابن كثير (لأَمانَتِهِمْ) على الواحدة .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا : (لِأَمَانَاتِهِمْ) لإجماع الحجة من القرّاء عليها .

وقوله (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) يقول : والذين هم على أوقات صلاتهم يحافظون ، فلا يضيعونها ، ولا يشتغلون عنها حتى تفوتهم ، ولكنهم يراعونها حتى يؤدّوها فيها .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى الضحى ، عن مسروق (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) قال : على وقتها .

حدثنى أبو السائب ، قال : ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) على ميقاتها .

حدثنا ابن عبد الرحمن البرقىّ ، قال : ثنا ابن أبى مريم ، قال : أخبرنا يحيى بن أيوب ، قال : أخبرنا ابن زَحْر ، عن الأعمش ، عن مسلم بن صبيح ، قال (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) قال : أقام الصلاة لوقتها .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : على صلواتهم دائمون .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن إبراهيم (عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) قال : دائمون ، قال : يعنى بها المكتوبة .

وقوله (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) يقول تعالى ذكره : هؤلاء الذين هذه صفتهم فى الدنيا ، هم الوارثون يوم القيامة منازل أهل النار من الجنة .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، رُوى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأوّله أهل التأويل .

ذكر الرواية بذلك

حدثنى أبو السائب ، قال : ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وَلَهُ مَنْزِلانِ : مَنْزِلٌ فِي الجَنَّةِ ، ومَنْزِلٌ فِي النَّارِ ، وَإِنْ ماتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنْزِلَهُ » فذلك قوله (أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : ثنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، في قوله (أولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ) قال : يرثون مساكنهم ، ومساكن إخوانهم ، التي أعدّت لهم لو أطاعوا الله .

حدثني ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الأعمش ، عن أبي هريرة (أولَئِكَ هُمُ الوارِثُونَ) قال : يرثون مساكنهم ، ومساكن إخوانهم الذين أعدّت لهم لو أطاعوا الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : الوارثون الجنة أورثتموها ، والجنة التي نورث من عبادنا ، هن سواء ؛ قال ابن جريج : قال مجاهد : يرث الذي من أهل الجنة أهله وأهل غيره ، ومنزل الذين من أهل النار ، هم يرثون أهل النار ، فلهم منزلان في الجنة وأهلان ، وذلك أنه منزل في الجنة ، ومنزل في النار . فأما المؤمن فَيَبْنِي منزله الذي في الجنة ، ويهدم منزله الذي في النار . وأما الكافر فيهدم منزله الذي في الجنة ، ويبني منزله الذي في النار . قال ابن جُرَيج عن ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد ، أنه قال مثل ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى ذكره (الَّذِينَ يَرِثُونَ) البستان ذا الكَرْم ، وهو (الفِرْدَوْسُ) عند العرب . وكان مجاهد يقول : هو بالرومية .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، في قوله (الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ) قال : الفردوس : بستان بالرومية .

قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قال : عدن : حديقة في الجنة قصرها فيها عدنها خلقها بيده ، تفتح كل فجر فينظر فيها ، ثم يقول (قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ) قال : هي الفردوس أيضا تلك الحديقة ، قال مجاهد : غرسها الله بيده ، فلما بلغت قال (قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ) ثم أمر بها تغلق ؛ فلا ينظر فيها خلق ولا ملك مقرّب ، ثم تفتح كل سحر فينظر فيها فيقول (قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ) ثم تغلق إلى مثلها .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : « قتل حارثة بن سُراقة يوم بدر ، فقالت أمه : يارسول الله ، إن كان ابني من أهل الجنة لم أبك عليه ، وإن كان من أهل النار بالغت في البكاء ، قال : يا أُمَّ حارِثَةَ ، إنَّها جَنَّتانِ فِي جَنَّةٍ ، وَإنَّ ابْنَكِ قَدْ أصابَ الفِرْدَوْسَ الأعْلَى مِنَ الجَنَّةِ » .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى أبو سفيان ، عن معمر ، عن قتادة ، عن كعب ، قال : خلق الله بيده جنة الفردوس ، غرسها بيده ، ثم قال : تكلمى ، قالت (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن حُسام بن مِصَكّ ، عن قتادة أيضا ، مثله ، غير أنه قال : تكلمى ، قالت : طوبى للمتقين .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا محمد بن يزيد ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى داود نفيع ، قال : لما خلقها الله ، قال لها تزينى ، فتزينت ؛ ثم قال لها : تكلمى ، فقالت : طوبى لمن رضيت عنه .

وقوله (هُمْ فِيها خالِدُونَ) يعنى ماكثون فيها ، يقول : هؤلاء الذين يرثون الفردوس خالدون ، يعنى ماكثون فيها أبدا ، لايتحوّلون عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذكره (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) أسللناه منه ، فالسلالة هى المستلة من كلّ تربة ، ولذلك كان آدم خلق من تربة أخذت من أديم الأرض .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل على اختلاف منهم فى المعنىّ بالإنسان فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : عنى به آدم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (مِنْ طِينٍ) قال : استلّ آدم من الطين .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، فى قوله (مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) قال : استلّ آدم من طين ، وخُلقت ذرّيته من ماء مهين .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولقد خلقنا ولد آدم ، وهو الإنسان الذى ذكر فى هذا الموضع ، من سلالة ، وهى النطفة التى استُلّت من ظهر الفحل من طين ، وهو آدم الذى خُلق من طين .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن أبى يحيى ، عن ابن عباس (مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) قال : صفوة الماء .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (مِنْ سُلالَةٍ) من منىّ آدم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

❁ وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال : معناه : ولقد خلقنا ابن آدم من سُلالة آدم ، وهى صفة مائه وآدم هو الطين ، لأنه خُلق منه .

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية ، لدلالة قوله (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ) على أن ذلك كذلك ، لأنه معلوم أنه لم يصر فى قرار مكين ، إلا بعد خلقه فى صلب الفحل ، ومن بعد تحوّله من صلبه صار فى قرار مكين ؛ والعرب تسمى ولد الرجل ونطفته : سليله وسلالته ، لأنهما مسلولان منه ؛ ومن السُّلالة قول بعضهم :

حَمَلَتْ بِهِ عَضْبَ الأَدِيمِ غَضَنْفَرًا سُلالَةَ فَرْجٍ كانَ غيرَ حَصِينِ[1]

وقول الآخر :

وَهَلْ كُنْتُ إلاَّ مُهْرَةً عَرَبِيَّةً سُلالَةَ أفْرَاسٍ تَحَلَّلَها بَغْلُ[2]

فمن قال : سلالة جمعها سلالات ، وربما جمعوها سلائل ، وليس بالكثير ، لأن السلائل جمع للسليل ؛ ومنه قول بعضهم :

إذا أُنْتِجَتْ مِنْها المَهارَى تَشَابَهَتْ عَلَى القَوْدِ إلاَّ بالأُنُوفِ سَلائِلُهْ[3]

وقول الراجز : يَقْذِفْنَ فِى أسْلابِهَا بالسَّلائِلِ[4]

---

(١) البيت لحسان بن ثابت (اللسان : سلل) وفيه : فجاءت فى موضع حملت . وهو شاهد على أن السلالة بمعنى نطفة الإنسان ، وسلالة الشىء : ما استل منه . واستشهد به المؤلف على أن العرب تسمى ولد الرجل ونطفته : سلالة . وفى اللسان : وقال الفراء : السلالة الذى سل من كل تربة . وقال أبو الهيثم : السلالة : ما سل من صلب الرجل وترائب المرأة ، كما يسل الشىء سلا . والسليل : الولد حين يخرج من بطن أمه ، لأنه خلق من السلالة . وعن عكرمة أنه قال فى السلالة : إنه الماء يسل من الظهر سلا . وعضب الأديم : غليظ الجلد ، ولعله يريد وصفه بالشدة والقسوة . ولم أجد هذا التعبير فى معاجم اللغة ، ووجدته فى حاشية جانبية على نسخة مصورة من مجاز القرآن محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة ، رقمها ٢٦٠٥٩ عند تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

(٢) البيت لهند بنت النعمان (اللسان : سلل) . وروايته : « وما هند إلا مهرة » . وهو شاهد على أن السليل الولد ، والأنثى سليلة ، قال أبو عمرو : السليلة بنت الرجل من صلبه . وتجللها : علاها . والمراد بالبغل هنا : الرجل الشبيه بالبغل ، والبغل مذموم عند العرب . وفى اللسان : سلل : قال ابن برى : وذكر بعضهم أنها تصحيف ، وأن صوابه « نغل » بالنون ، وهو الخسيس من الناس والدواب ، لأن البغل لا ينسل . وقال ابن شميل : يقال للإنسان أول ما تضعه أمه : سليل . والسليل والسليلة : المهر والمهرة .

(٣) لم أجد هذا البيت فى معانى القرآن للفراء ، ولا فى مجاز القرآن لأبى عبيدة ، ولا فى شواهد معاجم اللغة . وهو شاهد على أن السلائل جمع سلالة ، وقد شرحنا معناها فى الشاهدين السابقين ، بما أغنى عن تكراره هنا .

(٤) كذا ورد هذا الشطر فى الأصول محرفا . وحسبه المؤلف من الرجز ، ويلوح لى أن هذا جزء من بيت للنابغة الذبيانى مسخه بعض النساخ فى بعض الكتب ، ولم يفطن له المؤلف . وبيت النابغة من البحر الطويل ، وهو من قصيدة له يصف الخيل فى وقعة عمرو بن الحارث الأصغر الغسانى ببنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، قال فيها :

وَقَدْ خِفْتُ حتى مَا تَزِيدُ مَخافَتِى عَلَى وَعِلٍ فِى ذِى المَطَارَةِ عاقِلِ
مَخافَةَ عَمْرٍو أنْ تَكُونَ جِيادُهُ يُقَدْنَ إلَيْنا بيْنَ حافٍ وَنَاعِلِ
إذا اسْتَعْجَلُوها عَنْ سَجِيَّةِ مَشْيِها تَتَلَّعُ فِى أعْنَاقِها بالجَحَافِلِ
وَيقْذِفْنَ بالأَوْلادِ فى كُلِّ مَنْزِلٍ تَشَحَّطُ فى أسْلائها كالوَصَائِلِ

وهذا البيت الأخير هو محل الشاهد فى بحثنا ، وليس فيه شاهد للمؤلف على السلائل جمع السلالة ، لأنها لم تذكر فى البيت ولا فى القصيدة كلها . وأصل تشحط : تتشحط ، أى تضطرب ، يريد أولاد الخيل . والسلى : الجلدة التى يكون فيها الولد من الإنسان أو الحيوان إذا ولد . ...

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾

يعنى تعالى ذكره بقوله (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) ثم جعلنا الإنسان الذى جعلناه من سلالة من طين ، نطفة فى قرار مكين ، وهو حيث استقرّت فيه نطفة الرجل من رحم المرأة ، ووصفه بأنه مكين ، لأنه مكن لذلك ، وهيئ له ليستقرّ فيه إلى بلوغ أمره الذى جعله له قرارا . وقوله (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً) يقول : ثم صيرنا النطفة التى جعلناها فى قرار مكين علقة ، وهى القطعة من الدم ، (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) يقول : فجعلنا ذلك الدم مضغة ، وهى القطعة من اللحم . وقوله (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا) يقول : فجعلنا تلك المضغة اللحم عظاما .

وقد اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الحجاز والعراق سوى عاصم (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا) على الجماع ، وكان عاصم وعبد الله يقرآن ذلك (عَظْمًا) فى الحرفين على التوحيد جميعا .

والقراءة التى نختار فى ذلك الجماع ، لإجماع الحجة من القرّاء عليه .

وقوله (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا) يقول : فألبسنا العظام لحما . وقد ذكر أن ذلك فى قراءة عبد الله (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَظْمًا) وعصبا ، فكسوناه لحما . وقوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) يقول : ثم أنشأنا هذا الإنسان خلقا آخر ، وهذه الهاء التى فى (أَنْشَأْنَاهُ) عائدة على الإنسان فى قوله . (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ) قد يجوز أن تكون من ذكر العظم والنطفة والمضغة ، جعل ذلك كله كالشىء الواحد ، فقيل : ثم أنشأنا ذلك خلقا آخر .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) فقال بعضهم : إنشاؤه إياه خلقا آخر : نفخه الروح فيه ، فيصير حينئذ إنسانا ، وكان قبل ذلك صورة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حجاج ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال : نفخ الروح فيه .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن قال : ثنا هشيم عن الحجاج بن أرطاة عن عطاء ، عن ابن عباس ، بمثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال : الروح .

= والوصائل : الثياب الحمر المخططة . والمراد أن الأسلاب كانت موشحة بالدم ، وانظر البيت فى (اللسان : شحط) وفى المخصص لابن سيده (١ : ١٧) ومختار الشعر الجاهلى بشرح مصطفى السقا (طبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بالقاهرة ص ٢١١) .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عبد الرحمن بن الأصبهانى عن عكرمة ، فى قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال : نفخ الروح فيه .

حدثنا ابن بشار وابن المثنى ، قالا : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سلمة ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبىّ ، (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال : نفخ فيه الروح .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ، بمثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، فى قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال : نفخ فيه الروح ، فهو الخلق الآخر الذى ذكر .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول ، فى قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا) يعنى الروح تنفخ فيه بعد الخلق .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال : الروح الذى جعله فيه .

وقال آخرون : إنشاؤه خلقا آخر ، تصريفه إياه فى الأحوال بعد الولادة : فى الطفولة ، والكهولة ، والاغتذاء ، ونبات الشعر ، والسنّ ، ونحو ذلك من أحوال الأحياء فى الدنيا .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ) يقول : خرج من بطن أمه بعدما خلق ، فكان من بدء خلقه الآخر أن استهلّ ، ثم كان من خلقه أن دُلّ على ثدى أمه ، ثم كان من خلقه أن علم كيف يبسط رجليه ، إلى أن قعد ، إلى أن حبا ، إلى أن قام على رجليه ، إلى أن مشى إلى أن فُطِم ، فعلم كيف يشرب ويأكل من الطعام ، إلى أن بلغ الحلم ، إلى أن بلغ أن يتقلب فى البلاد .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال : يقول بعضهم : هو نبات الشعر ، وبعضهم يقول : هو نفخ الروح .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر عن قتادة ، مثله .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال : يقال الخلق الآخر بعد خروجه من بطن أمه بسنه وشعره .

وقال آخرون : بل عنى بإنشائه خلقا آخر : سوّى شبابه .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال : حين استوى شبابه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال مجاهد : حين استوى به الشباب .

❁ وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : قول من قال : عنى بذلك نفخ الروح فيه ، وذلك أنه بنفخ الروح فيه ، يتحوّل خلقا آخر إنسانا ، وكان قبل ذلك بالأحوال التى وصفه الله أنه كان بها ، من نطفة وعلقة ومضغة وعظم ، وبنفخ الروح فيه ، يتحوّل عن تلك المعانى كلها إلى معنى الإنسانية ، كما تحوّل أبوه آدم بنفخ الروح فى الطينة التى خلق منها إنسانا ، وخلقا آخر غير الطين الذى خلق منه .

وقوله (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ) اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معناه فتبارك الله أحسن الصانعين .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن ليث ، عن مجاهد (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ) قال : يصنعون ويصنع الله ، والله خير الصانعين .

وقال آخرون : إنما قيل (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ) لأن عيسى بن مريم كان يخلق ، فأخبر جلّ ثناؤه عن نفسه أنه يخلق أحسن مما كان يخلق .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جُرَيج ، فى قوله (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ) قال : عيسى بن مريم يخلق .

❁ وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول مجاهد ، لأن العرب تسمى كل صانع خالقا ؛ ومنه قول زهير :

وَلأَنْتَ تَفْرِى ما خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِى[1]

ويروى :

وَلأَنْتَ تَخْلُقُ ما فَرَيْتَ وَبَعْـ ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لايَفْـرِي

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ ﴾

❁ يقول تعالى ذكره : ثم إنكم أيها الناس من بعد إنشائكم خلقا آخر وتصييرناكم إنسانا سويا ميتون وعائدون ترابا كما كنتم ، ثم إنكم بعد موتكم وعودكم رفاتا باليا مبعوثون من التراب خلقا جديدا ، كما بدأناكم أوّل مرّة . وإنما قيل (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلكَ لَمَيِّتُونَ) لأنه خبر عن حال لهم يحدث لم يكن . وكذلك تقول

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى يمدح رجلا (اللسان : خلق) يقول : أنت إذا قدرت أمرا قطعته وأمضيته ، وغيرك يقدر مالا يقطعه ، لأنه ليس بماض العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه . والخلق : التقدير ، يقال : خلق الأديم يخلقه خلقا : قدره لما يريد قبل القطع ، وقاسه ليقطع منه مزادة أوقربة أوخفا . ولذلك تسمى العرب كل صانع كالنجار والخياط ونحوهما خالقا ، لأنه يقيس الخشب ويقدره على ما يريده له . والفرى القطع بعد التقدير ، وقد يكون قبله ، بأن يقطع قطعة من جلد أوثوب قطعا مقاربا ، ثم يصلحها ويسويها بالحساب والتقدير على ما يريده . ولذلك جاءت رواية أخرى فى البيت : ولأنت تخلق ما فريت . . . الخ البيت .

العرب لمن لم يمت : هومائت وميت عن قليل، ولا يقولون لمن قد مات مائت، وكذلك هوطمِع فيما عندك، إذا وصف بالطمع، فإذا أخبر عنه أنه سيفعل ولم يفعل قيل هو طامع فيما عندك غدا، وكذلك ذلك فى كلّ ما كان نظيرا لما ذكرناه .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذكره : ولقد خلقنا فوقكم أيها الناس سبع سموات ، بعضهنّ فوق بعض ، والعرب تسمى كل شيء فوق شيء طريقة . وإنما قيل للسموات السبع سبع طرائق ، لأن بعضهنّ فوق بعض ، فكلّ سماء منهنّ طريقة .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قول الله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) قال : الطرائق : السموات .

وقوله (وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غافِلِينَ) يقول : وما كنا فى خلقنا السموات السبع فوقكم عن خلقنا الذى تحتها غافلين ، بل كنا لهم حافظين من أن تسقط عليهم فتهلكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذكره : وأنزلنا من السماء ما فى الأرض من ماء ، فأسكناه فيها .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فأسْكَنَّاهُ فِي الأرْضِ) ماء هو من السماء .

وقوله (وَإنَّا على ذهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ) يقول جلّ ثناؤه : وإنا على الماء الذى أسكناه فى الأرض لقادرون أن نذهب به ، فتهلكوا أيها الناس عطشا، وتخرب أرضوكم ، فلا تنبت زرعا ولا غرسا ، وتهلك مواشيكم ، يقول : فمن نعمتى عليكم تركى ذلك لكم فى الأرض جاريا .

القول فى تأويل قوله تعالى

فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذكره : فأحدثنا لكم بالماء الذى أنزلناه من السماء ، بساتين من نخيل وأعناب ، لكم فيها يقول : لكم فى الجنات فواكه كثيرة (وَمِنْها تَأْكُلُونَ) يقول : ومن الفواكه تأكلون . وقد يجوز أن تكون الهاء والألف من ذكر الجنات ، ويحتمل أن تكون من ذكر النخيل والأعناب ، وعنى جل ثناؤه

الجنات التى ذكرها فى هذا الموضع ، فوصفها بأنها من نخيل وأعناب ، دون وصفها بسائر ثمار الأرض ، لأن هذين النوعين من الثمار كانا هما أعظم ثمار الحجاز وما قرب منها ، فكانت النخيل لأهل المدينة ، والأعناب لأهل الطائف ، فذكر القوم بما يعرفون من نعمة الله عليهم ، بما أنعم به عليهم من ثمارها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذكره : وأنشأنا لكم أيضا شجرة تخرج من طور سيناء، وشجرة منصوبة عطفا على الجنات ، ويعنى بها : شجرة الزيتون .

وقوله (تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ) يقول : تخرج من جبل يُنْبِت الأشجار .

وقد بيَّنت معنى الطور فيما مضى بشواهده ، واختلاف المختلفين ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

وأما قوله (سَيْنَاءَ) فان القرّاء اختلفت فى قراءته ، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة (سِيناءَ) بكسر السين . وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة (سَيْنَاءَ) بفتح السين ، وهما جميعا مجمعون على مدّها .

والصواب من القول فى ذلك : أنهما قراءتان معروفتان فى قرَأَة الأمصار ، بمعنى واحد ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب .

واختلف أهل التأويل فى تأويله ، فقال بعضهم : معناه : المبارك ، كأن معنى الكلام عنده : وشجرة تخرج من جبل مبارك .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (طُورِ سِيناءَ) قال : المبارك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِيناءَ) قال : هو جبل بالشام مبارك .

وقال آخرون : معناه : حسن .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، فى قوله (طُورِ سِيناءَ) قال : هو جبل حسن .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (مِنْ طُورِ سِيناءَ) الطور : الجبل بالنبطية ، وسيناء : حسنة بالنبطية .

وقال آخرون : هو اسم جبل معروف .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء الخُراسانىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله (مِنْ طُورِ سيناءَ) قال : الجبل الذى نودى منه موسى صلى الله عليه وسلم .

حدثنى يونس قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (طُورِ سيناءَ) قال : هو جبل الطور الذى بالشام ، جبل ببيت المقدس ، قال : ممدود هو بين مصر وبين أَيْلة .

وقال آخرون : معناه : أنه جبل ذو شجر .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عمن قاله .

٭ والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن سيناء اسم أضيف إليه الطور ، يعرف به ، كما قيل جبلا طيئ ، فأضيفا إلى طيئ ، ولو كان القول فى ذلك كما قال من قال : معناه : جبل مبارك ، أو كما قال : من قال معناه حسن ، لكان الطور منونا ، وكان قوله سيناء ، من نعته ، على أن سيناء بمعنى : مبارك وحسن ، غير معروف فى كلام العرب ، فيجعل ذلك من نعت الجبل ، ولكن القول فى ذلك - إن شاء الله - كما قال ابن عباس ، من أنه جبل عرف بذلك ، وأنه الجبل الذى نُودى منه موسى صلى الله عليه وسلم ، وهو مع ذلك مبارك ، لا أن معنى سيناء معنى مبارك .

وقوله (تَنْبُتُ بالدُّهْنِ) اختلفت القرّاء فى قراءة قوله (تَنْبُتُ) فقرأته عامة قرّاء الأمصار (تَنْبُتُ) بفتح التاء ، بمعنى : تنبت هذه الشجرة بثمر الدهن ، وقرأه بعض قرّاء البصرة (تُنْبِتُ) بضم التاء ، بمعنى : تنبت الدهن : تخرجه . وذكر أنها فى قراءة عبد الله (تُخْرِجُ الدُّهْنَ) وقالوا : الباء فى هذا الموضع زائدة ، كما قيل : أخذت ثوبه ، وأخذت بثوبه وكما قال الراجز :

نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَرْبابُ الفَلَجْ ... نَضْرِبُ بالبِيضِ وَنَرْجُو بالفَرَجْ[1]

بمعنى : ونرجو الفرج والقول عندى فى ذلك أنهما لغتان : نبت ، وأنبت ؛ ومن أنبت قول زهير :

رأَيْتَ ذَوِى الحاجاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِم ... قَطِيناً لَهُمْ حتى إذا أَنْبَتَ البَقْلُ[2]

(١) البيت لنابغة بنى جعدة (خزانة الأدب للبغدادى ٤ : ١٩٠) والفلج فى الأصل : النهر الصغير ، والماء الجارى . والمراد به فى البيت : موضع فى أعلى بلاد قيس . ويروى : « يضرب بالسيف » . والبيض : جمع أبيض ، وهو السيف . والبيت شاهد على زيادة الباء فى قوله بالفرج ، أى ونرجو الفرج . وهى زائدة فى المفعول به سماعا . قال ابن عصفور فى الضرائر : زيادة الباء هنا : ضرورة ، وقال ابن السيد فى شرح أدب الكاتب لابن قتيبة : إنما عدى الرجاء بالباء ، لأنه بمعنى الطمع ، والطمع يتعدى بالباء ، كقولك : طمعت بكذا . قال الشاعر :

طَمِعْتُ بِلَيْلَى أَنْ تَجُودَ وإنَّمَا ... تُقَطِّعُ أَعْناقَ الرِّجالِ المَطامِعُ

وبنو جعدة ، يجوز فيه الرفع على أنه خبر نحن ، والنصب على الاختصاص ، والخبر : أرباب . اهـ .

(٢) البيت فى (اللسان : نبت) : قال : ونبت البقل وأنبت بمعنى ، وأنشد لزهير بن أبى سلمى :

إذا السَّنَةُ الشَّهْباءُ بالنَّاسِ أَجْحَفَتْ ... ونالَ كِرامَ النَّاسِ فى الحَجْرَةِ الأَكْلُ

ويروى : نبت ، وهو كقوله (فَأَسْرِ بأَهْلِكَ) وفاسر ، غير أن ذلك وإن كان كذلك ، فإن القراءة التى لاأختار غيرها فى ذلك ، قراءة من قرأ (تَنْبُتُ) بفتح التاء ، لإجماع الحجة من القرّاء عليها . ومعنى ذلك : تنبت هذه الشجرة بثمر الدهن .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (تَنْبُتُ بالدُّهْنِ) قال : بثمره .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

والدهن الذى هو من ثمره الزيت ، كما حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (تَنْبُتُ بالدُّهْنِ) يقول : هو الزيت يؤكل ويُدَّهن به .

وقوله (وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ) يقول : تنبت بالدهن وبصبغ للآكلين ، يُصْطَبَغ بالزيت الذين يأكلونه .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ) قال : هذا الزيتون صبغ للآكلين ، يأتدمون به ويصطبغون به .

قال أبو جعفر : فالصبغ عطف على الدهن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى ذكره : (وَإِنَّ لَكُمْ) أيها الناس (فِى الأَنْعامِ لَعِبْرَةً) تعتبرون بها ، فتعرفون بها أيادىَ الله عندكم ، وقدرته على مايشاء ، وأنه الذى لايمتنع عليه شىء أراده ، ولا يُعْجِزه شىء شاءه . (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِها) من اللبن الخارج من بين الفرث والدم . (وَلَكُمْ) مع ذلك (فيها) يعنى فى الأنعام (مَنافِعُ كَثِيرَةٌ) وذلك كالإبل التى يُحمل عليها ، ويُركب ظهرها ، ويُشرب درّها . (وَمِنْها تَأْكُلُونَ) يعنى من لحومها تأكلون . وقوله (وَعَلَيْها وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ) يقول : وعلى الأنعام وعلى السفن تحملون على هذه فى البرّ ، وعلى هذه فى البحر .

= ثم قال : يعنى بالشهباء البيضاء من الجدب ، لأنها تبيض بالثلج أو عدم النبات . والحجرة السنة الشديدة التى تحجر الناس فى بيوتهم ، فينحروا كرائم إبلهم ليأكلوها . والقطين : الحشم ، وسكان الدار . وأجحفت أضرت بهم ، وأهلكت أموالهم . قال : ونبت وأنبت : مثل قولهم مطرت السماء وأمطرت . وقال فى قوله تعالى : « تنبت بالدهن » قرأ ابن كثير وأبوعمرو الحضرمى : « تنبت » بالضم فى التاء ، وكسر الباء . وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى وابن عامر : بفتح التاء . وقال الفراء : هما لغتان : نبتت الأرض وأنبتت ، قال ابن سيده : أما تنبت (بضم التاء) فذهب كثير من الناس إلى أن معناه : تنبت الدهن ، أى شجر الدهن ، أو حب الدهن ، وأن الباء فيه زائدة ، وكذلك قول عنترة « شربت بماء الدحرضين . . . البيت » ، قالوا : أراد شربت ماء الدحرضين . قال : وهذا عند حذاق أصحابنا على غير وجه الزيادة ، وإنما تأويله والله أعلم — تنبت ما تنبته والدهن فيها ، كما تقول : خرج زيد بثيابه ، أى بثيابه عليه ؛ وركب الأمير بسيفه ، أى وسيفه معه . اه .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾

❊ يقول تعالى ذكره (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحا إلى قَوْمِهِ) داعيهم إلى طاعتنا وتوحيدنا ، والبراءة من كلّ معبود سوانا . (فَقَالَ) لهم نوح : (يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ) يقول : قال لهم : ذلوا ياقوم لله بالطاعة (مالَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ) يقول : ما لكم من معبود يجوز لكم أن تعبدوه غيره (أفَلا تَتَّقُونَ) يقول: أفلا تخشون بعبادتكم غيره عقابه أن يحلّ بكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾

❊ يقول تعالى ذكره : فقالت جماعة أشراف قوم نوح ، الذين جحدوا توحيد الله ، وكذّبوه لقومهم : مانوح أيها القوم إلا بشر مثلكم ، إنما هو إنسان مثلكم ، وكبعضكم (يُرِيدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) يقول : يريد أن يصيرله الفضل عليكم ، فيكون متبوعا وأنتم له تبع (وَلَوْ شاءَ اللهُ لأنْزَلَ مَلائِكَةً): يقول : ولو شاء الله أن لانعبد شيئا سواه لأنزل ملائكة ، يقول : لأرسل بالدعاء إلى مايدعوكم إليه نوح ملائكة ، تؤدّى إليكم رسالته . وقوله (ما سَمِعْنا بِهَذَا) الذى يدعونا إليه نوح ،من أنه لاإله لنا غيرالله فى القرون الماضية ، وهى آباؤهم الأوّلون .

القول في تأويل قوله تعالى :

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

❊ يعنى تعالى ذكره مخبرا عن قيل الملأ الذين كفروا من قوم نوح (إنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ) : مانوح إلا رجل به جنون . وقد يقال أيضا للجنّ جنة ، فيتفق الاسم والمصدر ، وهو من قوله : إن هو : كناية اسم نوح . وقوله (فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ) يقول : فتلبثوا به ، وتنظروا به حتى حين ؛ يقول :

إلى وقت ما ، ولم يَعْشُوا بذلك وقتا معلوما ، إنما هو كقول القائل : دعه إلى يوم مَّا ، أو إلى وقت مَّا .

وقوله (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ) يقول : قال نوح داعيا ربه ، مستنصرا به على قومه ، لما طال أمره وأمرهم ، وتمادَوا فى غيهم : (رَبِّ انْصُرْنِي) عَلَى قَوْمِى (بما كَذَّبُونِ) يعنى بتكذيبهم إياى ، فيما بلّغتهم من رسالتك ، ودعوتهم إليه من توحيدك . وقوله (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنا) يقول : فقلنا له حين استنصرنا على كفرة قومه : اصنع الفُلْك ، وهى السفينة . بأعيننا : يقول : بمرأى منا ومنظر ، ووحينا : يقول : وبتعليمنا إياك صنعها . (فإذَا جاء أمْرُنا) يقول : فإذا جاء قضاؤنا فى قومك ، بعذابهم وهلاكهم (وَفَارَ التَّنُّورُ) .

وقد ذكرنا فيما مضى اختلاف المختلفين فى صفة فور التنور ، والصواب عندنا من القول فيه بشواهده ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

(فاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) يقول : فأدخل فى الفلك واحمل ، والهاء والألف فى قوله (فيها) من ذكر الفلك (مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) يقال سلكته فى كذا وأسلكته فيه ؛ ومن سلكته قول الشاعر :

وكُنْتُ لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ وَقَدْ سَلَكُوكَ فِى يَوْمٍ عَصِيبِ [1]

وبعضهم يقول : أسلكت بالألف ؛ ومنه قول الهُذَلِىّ :

حَتَّى إذَا أَسْلَكُوهُمْ فِى قُتَائِدَةٍ شَلًّا كَمَا تَطْرُدُ الجَمَّالَةُ الشُّرُدَا [2]

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (فاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) يقول لنوح : اجعل فى السفينة من كل زوجين اثنين (وأهْلَكَ) وهم ولده ونساؤهم (إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ) من الله بأنه هالك فيمن يهلك من قومك فلا تحمله معك ، وهو يام الذى غرق . ويعنى بقوله (مِنْهُمْ) مِن أهلك ، والهاء والميم فى قوله منهم من ذكر الأهل . وقوله (وَلا تُخاطِبْنِى) . . . الآية ، يقول : ولا تسألنى فى الذين كفروا بالله أن أنجيهم (إنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) يقول : فإنى قد حتمت عليهم أن أغرق جميعهم .

---

(١) البيت لعدى بن زيد العبادى (انظر شرحنا له فى ص ٨٢ من الجزء الثانى عشر من هذا التفسير ، وقد استشهد به المؤلف هناك عند قوله تعالى : « وقال هذا يوم عصيب » أى شديد . واستشهد به هنا على أنه يقال سلكته فى كذا : بمعنى أدخلته فيه ، .وأسلكته فيه ، والبيت شاهد على الأول . قال فى (اللسان : سلك) : والسلك ، بالفتح : مصدر سلكت الشىء فى الشىء ، فانسلك ، أى أدخلته فيه فدخل . قال عدى بن زيد : « وكنت لزاز . . . البيت » . كما استشهد به المؤلف مرة أخرى فى (١٤ : ٩) من هذه الطبعة عند قوله تعالى : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » ، فراجعه ثمة .

(٢) البيت لعبد مناف بن ربع الهذلى (اللسان : سلك) . قال : وسلك المكان يسلكه سلكا وسلوكا ، وسلكه غيره (بنصب غير) وفيه ، وأسلكه إياه ، وفيه ، وعليه (بمعنى أدخله فيه) قال عبد مناف بن ربع الهذلى : « حتى إذا أسلكوهم . . . . البيت » . وقد سبق استشهاد المؤلف بالبيت فى (ص ٩ من الجزء الرابع عشر من هذه الطبعة) عند قوله تعالى : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين) .
فراجعه ثمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

❁ يعنى تعالى ذكره بقوله (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك) : فإذا اعتدلت فى السفينة أنت ومن معك ، ممن حملته معك من أهلك ، راكبا فيها ، عاليا فوقها (فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) يعنى من المشركين .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

❁ يقول تعالى ذكره لنبيه نوح عليه السلام : وقل إذا سلمك الله وأخرجك من الفلك ، فنزلت عنها (رب أنزلنى منزلا) من الأرض (مباركا ، وأنت خير) من أنزل عباده المنازل .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (منزلا مباركا) قال : لنوح حين نزل من السفينة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

واختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء الأمصار (رب أنزلنى منزلا مباركا) بضم الميم ، وفتح الزاى ، بمعنى : أنزلنى إنزالا مباركا . وقرأه عاصم (منزلا) بفتح الميم ، وكسر الزاى ، بمعنى : أنزلنى مكانا مباركا وموضعا .

وقوله (إن فى ذلك لآيات) يقول تعالى ذكره : إن فيما فعلنا بقوم نوح يا محمد من إهلاكناهم إذ كذبوا رسلنا ، وجحدوا وحدانيتنا ، وعبدوا الآلهة والأصنام ، لعبرا لقومك من مشركى قريش ، وعظات وحججا لنا ، يستدلون بها على سنتنا فى أمثالهم ، فينزجروا عن كفرهم ، ويرتدعوا عن تكذيبك ، حذرا أن يصيبهم مثل الذى أصابهم من العذاب . وقوله (وإن كنا لمبتلين) يقول تعالى ذكره : وكنا مختبريهم بتذكيرنا إياهم بآياتنا ، لننظر ماهم عاملون قبل نزول عقوبتنا بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : ثم أحدثنا من بعد مَهْلِك قوم نوح، قرنا آخرين، فأوجدناهم (فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ) داعيا لهم (أَنِ اعْبُدُوا اللهَ) ياقوم ، وأطيعوه دون الآلهة والأصنام ، فإن العبادة لاتنبغى إلا له (مالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) يقول : مالكم من معبود يصلح أن تعبدوا سواه (أفَلا تَتَّقُونَ) : أفلا تخافون عقاب الله ، بعبادتكم شيئا دونه ، وهو الإله الذى لاإله لكم سواه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ذكره: وقالت الأشراف من قوم الرسول الذى أرسلنا بعد نوح ، وعنى بالرسول فى هذا الموضع : صالحا ، وبقومه : ثمود (الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقاءِ الآخِرَةِ) يقول : الذين جحدوا توحيد الله ؛ وكذّبوا بلقاء الآخرة : يعنى كذّبوا بلقاء الله فى الآخرة . وقوله (وأَتْرَفْناهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا) يقول : ونعّمناهم فى حياتهم الدنيا ، بما وسّعنا عليهم من المعاش، وبسطنا لهم من الرزق ، حتى بَطِروا وعتَوْا على ربهم ، وكفروا ؛ ومنه قول الراجز :

* وَقَدْ أُرَانِي بالدِّيارِ مُتْرَفا[1] *

وقوله (ما هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) يقول : قالوا : بعث الله صالحا إلينا رسولا من بيننا ، وخصه بالرسالة دوننا ، وهو إنسان مثلنا يأكل مما نأكل منه من الطعام ، ويشرب مما نشرب ، وكيف لم يرسل ملكا من عنده يبلغنا رسالته ؟ قال (وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) معناه: مما تشربون منه، فحذف « من » الكلام « منه » ، لأن معنى الكلام : ويشرب من شرابكم، وذلك أن العرب تقول : شربت من شرابك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل الملأ من قوم صالح لقومهم (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ) فاتبعتموه ، وقبلتم ما يقول وصدّقتموه ، (إنَّكُمْ) أيها القوم (إذًا لَخاسِرُونَ) : يقول : قالوا : إنكم إذن لمغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة فى الدنيا ، باتباعكم إياه .

(١) البيت للعجاج (أراجيز العرب للسيد محمد توفيق البكرى ص ١٩) قال فى شرحه له : وقد أرانى : أى قد كنت أرانى . والمترف من الترف ، وهو النعيم والرفه . وفى (اللسان : ترف) : والمترف : المتنعم المتوسع فى ملاذ الدنيا وشهواتها . ورجل مترف، ومترف كمعظم : موسع عليه . وترف الرجل وأترفه : دلله وملكه . وقوله تعالى : « إلا قال مترفوها » : أى أولو الترفه، وأراد رؤساءها وقادة الشر منها .

قوله (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظاماً) . . . الآية ، يقول تعالى ذكره : قالوا لهم : أيعدكم صالح أنكم إذا متم وكنتم تراباً فى قبوركم ، وعظاماً قد ذهبت لحوم أجسادكم ، وبقيت عظامها ، أنكم مخرجون من قبوركم أحياء ، كما كنتم قبل مماتكم؟ وأعيدت « أنكم » مرّتين . والمعنى : أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً ، مخرجون مرّة واحدة ، لما فرق بين « أنكم » الأولى ، وبين خبرها بإذا ، وكذلك تفعل العرب بكل اسم أوقعت عليه الظنّ وأخواته ، ثم اعترضت بالجزاء دون خبره ، فتكرّر اسمه مرّة ، وتحذفه أخرى ، فتقول : أظنّ أنك إن جالستنا أنك محسن ، فإن حذفت أنك الأولى أو الثانية صلح ، وإن أثبتهما صلح ، وإن لم تعترض بينهما بشىء لم يجز ، خطأ أن يقال : أظنّ أنك أنك جالس ، وذكر أن ذلك فى قراءة عبد الله (أَيَعِدُكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابا وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝

﴿ وهذا خبر من الله جلّ ثناؤه عن قول الملأ من ثمود ، أنهم قالوا : هيهاتَ هيهاتَ : أى بعيد ما توعدون أيها القوم ، من أنكم بعد موتكم ومصيركم ترابا وعظاما ، مخرجون أحياء من قبوركم ، يقولون ذلك غير كائن .

وبنحو ماقلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله (هَيْهاتَ هَيْهاتَ) يقول : بعيد بعيد .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله : (هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) قال : يعنى البعث . والعرب تُدخل اللام مع هيهات فى الاسم الذى يصحبها ، وتنزعها منه ، تقول : هيهات لك هيهات ، وهيهاتَ ما تبتغى هيهات ؛ وإذا أسقطت اللام رفعت الاسم بمعنى هيهات ، كأنه قال : بعيد ما ينبغى لك ؛ كما قال جرير :

فَهَيْهاتَ هَيْهاتَ العَقِيقُ وَمَنْ بِهِ وَهَيْهاتَ خِلٌّ بالعَقِيقِ نُوَاصِلُهُ[1]

---

(١) البيت لجرير بن عطية الخطفى (لسان العرب : هيه) . والرواية فيه : « العقيق وأهله » . وفى الديوان (طبعة الصاوى ص ١٧٩)

فأيهاتَ أيهاتَ العَقِيقُ وَمَنْ بِهِ وأيهاتَ وَصْلٌ بالعَقِيقِ نُوَاصِلُهُ

وهى قصيدة يجيب بها الفرزدق . والعقيق : واد لبنى كلاب ، نقله البكرى فى معجم ما استعجم ، عن عمارة بن عقيل . وهيهات وأيهات : كلمة معناها البعد . وقيل : هيهات كلمة تبعيد قال جرير : « فهيهات . . . البيت » . والتاء مفتوحة مثل كيف ، وأصلها هاء ، وناس يكسرونها على كل حال ، قال حميد الأرقط يصف إبلا قطعت بلادا حتى صارت فى القفار :

هَيْهاتَ مِنْ مُصْبَحِهَا هَيْهاتَ حَجْرٌ مِنْ صُنَيْبِعاتِ

وقال الفراء : نصب هيهات بمنزلة نصب ربه وربه ، وأنشد :

مَاوِىَّ يا رُبَّتَما غارَةٍ شَعْوَاءَ كاللَّذْعَةِ بالمِيسَمِ

كأنه قال : العقيق وأهله ، وإنما أدخلت اللام مع هيهات فى الاسم ، لأنهم قالوا : هيهات أداة غير مأخوذة من فعل ، فأدخلوا معها فى الاسم اللام ، كما أدخلوها مع هلمّ لك ، إذ لم تكن مأخوذة من فعل ، فإذا قالوا أقبل ، لم يقولوا لك ، لاحتمال الفعل ضمير الاسم .

واختلف أهل العربية فى كيفية الوقف على هيهات ، فكان الكسائى يختار الوقوف فيها بالهاء ، لأنها منصوبة ؛ وكان الفرّاء يختار الوقوف عليها بالتاء ، ويقول : من العرب من يخفض التاء ، فدلّ على أنها ليست بهاء التأنيث ، فصارت بمنزلة دَرَاكِ ونَظَارِ ؛ وأما نصب التاء فيهما ، فلأنهما أداتان ، فصارتا بمنزلة خمسةَ عَشَرَ ؛ وكان الفراء يقول : إن قيل : إن كل واحدة مستغنية بنفسها ، يجوز الوقوف عليها ، وإن نصبها كنصب قوله : ثُمَّتَ جلست ؛ وبمنزلة قول الشاعر :

ماوِيَّ يَارُبَّتَما غارةٍ شَعْوَاءَ كاللَّذْعَةِ بالمِيسَمِ[١]

قال : فنصب هيهات بمنزلة هذه الهاء التى فى « ربت » ، لأنها دخلت على حرف ، على ربّ ، وعلى ثم ، وكانا أداتين ، فلم تغيرهما عن أداتهما فنصبا .

واختلف القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته قرّاء الأمصار غير أبى جعفر (هَيْهاتَ هَيْهاتَ) بفتح التاء فيهما . وقرأ ذلك أبو جعفر (هيهاتِ هيهاتِ) بكسر التاء فيهما . والفتح فيهما هو القراءة عندنا ، لإجماع الحجة من القرّاء عليه .

وقوله (إنْ هيَ إلاَّ حَيَاتُنا الدُّنْيا) يقول : ما حياة إلا حياتنا الدنيا التى نحن فيها نموت ونحيا ، يقول : تموت الأحياء منا فلا تحيا ، ويحدث آخرون منا ، فيولدون أحياء (وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) : يقول : قالوا : وما نحن بمبعوثين بعد الممات .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنا الدُّنْيا ، نَمُوتُ وَنَحْيا ، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) قال : يقول ليس آخرة ولا بعث ، يكفرون بالبعث ، يقولون : إنما هى حياتنا هذه ، ثم نموت ولا نحيا ، يموت هؤلاء ، ويحيا هؤلاء ، يقولون : إنما الناس كالزرع يحصد هذا ، وينبت هذا : يقولون : يموت هؤلاء ، ويأتى آخرون ، وقرأ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) وقرأ (لا تَأْتِينا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) .

(١) البيت فى (اللسان : هيه ، رب) قال فى الثانى : الفرق بين ربما ورب أن رب لايليه غير الاسم ، وأما ربما فإنه زيدت (ما) مع (رب) ليليها الفعل ، تقول : رب رجل جاءنى ، وربما جاءنى زيد ، وكذلك ربتا ، وأنشد ابن الأعرابى « ماوى . . . الخ » . وقال الكسائى : أظنهم امتنعوا من جزم الباء (أى تسكين باء رب) لكثرة دخول التاء فيها فى قولهم : ربت رجل . يريد أن تاء التأنيث لا يكون ما قبلها إلا مفتوحا ، أو فى نية الفتح ، فلما كانت تاء التأنيث تدخلها كثيرا امتنعوا من إسكان ما قبل هذا التأنيث ، وآثروا النصب (يعنى بالنصب الفتح) اه . وقال فى شعا : أشعى القوم الغارة إشعاء : أشعلوها ، وغارة شعواء . فاشية متفرقة ، وأنشد ابن الأعرابى : « ماوى . . . البيت » . والميسم : المكواة ، أو الشىء الذى يوسم به الدواب ، والجمع : مواسم ومياسم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۞ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۞ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ۞ ﴾

۞ يقول تعالى ذكره : قالوا ما صالح إلا رجل اختلق على الله كذبا فى قوله ما لكم من إله غير الله وفى وعده إياكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مُخرجون . . وقوله (هُوَ) من ذكر الرسول ، وهو صالح (وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) يقول : وما نحن له بمصدّقين فيما يقول : إنه لا إله لنا غير الله ، وفيما يعدنا من البعث بعد الممات . وقوله (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ) يقول : قال صالح لما أيس من إيمان قومه بالله ، ومن تصديقهم إياه بقولهم (وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) ربّ انصرنى على هؤلاء بما كذّبون ، يقول : بتكذيبهم إياى فيما دعوتهم إليه من الحقّ ، فاستغاث صلوات الله عليه بربه من أذاهم إياه ، وتكذيبهم له ، فقال الله له مجيبا فى مسئلته إياه ما سأل : عن قليل ياصالح ليصبحنّ مكذّبوك من قومك على تكذيبهم إياك نادمين ، وذلك حين تنزل بهم نقمتنا فلا ينفعهم الندم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ ﴾

۞ يقول تعالى ذكره : فانتقمنا منهم ، فأرسلنا عليهم الصيحة ، فأخذتهم بالحقّ ، وذلك أن الله عاقبهم باستحقاقهم العقاب منه ، بكفرهم به ، وتكذيبهم رسوله ، (فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً) يقول : فصيرناهم بمنزلة الغثاء ، وهو ما ارتفع على السيل ونحوه ، كما لا ينتفع به فى شىء ، فإنما هذا مثل . والمعنى : فأهلكناهم فجعلناهم كالشىء الذى لا منفعة فيه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ، فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) يقول : جعلوا كالشىء الميت البالى من الشجر .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى . وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (غُثَاءً) كالرميم الهامد ، الذى يحتمل السيل .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً) قال : كالرميم الهامد ، الذى يحتمل السيل .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً) قال : هو الشىء البالى .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فجعلناهم غثاء) قال : هذا مثل ضربه الله .

وقوله (فبعداً للقوم الظالمين) يقول : فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا بربهم ، وعصوا رسله ، وظلموا أنفسهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : أولئك ثمود ، يعنى قوله (فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى ذكره : ثم أحدثنا من بعد هلاك ثمود قوما آخرين . وقوله (ما تسبق من أمة أجلها) : يقول : ما يتقدم هلاك أمة من تلك الأمم التى أنشأناها بعد ثمود ، قبل الأجل الذى أجلنا لهلاكها ، ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذى أجلنا لهلاكها ، والوقت الذى وقتنا لفنائها ، ولكنها تهلك لمجيئه . وهذا وعيد من الله لمشركى قوم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإعلام منه لهم ، أن تأخيره فى آجالهم مع كفرهم به وتكذيبهم رسوله ، ليبلغوا الأجل الذى أجل لهم ، فيحل بهم نقمته ، كسنته فيمن قبلهم من الأمم السالفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى ذكره (ثم أرسلنا) إلى الأمم التى أنشأنا بعد ثمود (رسلنا تترى) يعنى : يتبع بعضها بعضا ، وبعضها فى أثر بعض ، وهى من المواترة ، وهى اسم لجمع مثل شىء ، لايقال : جاءنى فلان تترى ، كما لايقال : جاءنى فلان مواترة ، وهى تنوّن ولا تنوّن ، وفيها الياء ، فمن لم ينوّنها فعلى من وترت ، ومن قال «تتراً» يوهم أن الياء أصلية كما قيل : معزى بالياء ، ومعزاً وبهمى بهماً ونحو ذلك ، فأجريت أحيانا ، وترك إجراؤها أحيانا : فمن جعلها « فعلى » وقف عليها ، أشار إلى الكسر ، ومن جعلها ألف إعراب لم يشر ، لأن ألف الإعراب لاتكسر ، لايقال : رأيت زيدا ، فيشار فيه إلى الكسر .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى على ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنا معاوية ، عن على ، عن ابن عباس ، قوله (ثم أرسلنا رسلنا تترى) يقول : يتبع بعضها بعضا .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى) يقول : بعضها على أثر بعض .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى . وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قول الله (تَتْرَى) قال : اتباع بعضها بعضا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى) قال : يتبع بعضها بعضا .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى) قال : بعضهم على أثر بعض ، يتبع بعضهم بعضا .

واختلفت قرّاء الأمصار في قراءة ذلك ، فقرأ ذلك بعض قرّاء أهل مكة ، وبعض أهل المدينة ، وبعض أهل البصرة (تَتْرًا) بالتنوين . وكان بعض أهل مكة وبعض أهل المدينة وعامة قرّاء الكوفة يقرءونه : (تَتْرَى) بإرسال الياء على مثال « فَعْلَى » ، والقول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان ، ولغتان معروفتان في كلام العرب ، بمعنى واحد ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب ، غير أني مع ذلك أختار القراءة بغير تنوين ، لأنها أفصح اللغتين وأشهرهما .

وقوله (كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ) يقول : كلما جاء أمة من تلك الأمم التي أنشأناها بعد ثمود رسولها الذي نرسله إليهم ، كذّبوه فيما جاءهم به من الحقّ من عندنا. وقوله (فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا) : يقول : فأتبعنا بعض تلك الأمم بعضا بالهلاك ، فأهلكنا بعضهم في إثر بعض . وقوله (وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) للناس ، ومثلا يُتحدّث بهم في الناس ، والأحاديث في هذا الموضع جمع أُحدوثة ، لأن المعنى ما وصفت ، من أنهم جعلوا للناس مثلا يتحدّث بهم ، وقد يجوز أن يكون جمع حديث ، وإنما قيل : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) لأنهم جُعلوا حديثا ، ومثلا يُتمثّل بهم في الشرّ ، ولا يقال في الخير : جعلته حديثا ولا أُحدوثة . وقوله (فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) يقول : فأبعد الله قوما لا يؤمنون بالله ، ولا يصدّقون برسوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۝

يقول تعالى ذكره : ثم أرسلنا بعد الرسل الذين وصف صفتهم قبل هذه الآية ، موسى وأخاه هارون ، إلى فرعون وأشراف قومه من القبط بآياتنا ، يقول : بحججنا (فَاسْتَكْبَرُوا) عن اتباعها ، والإيمان بما جاءهم به من عند الله (وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) يقول : وكانوا قوما عالين على أهل ناحيتهم ، ومن في بلادهم من بني إسرائيل وغيرهم بالظلم ، قاهرين لهم .

وكان ابن زيد يقول فى ذلك ما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، وقوله (وكانُوا قَوْماً عالِينَ) قال : علَوا على رسلهم ، وعصَوا ربهم ، ذلك علوّهم ، وقرأ (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ) . . . الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ۝٤٨ ﴾

يقول تعالى ذكره : فقال فرعون وملؤه (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا) فنتبعهما (وَقَوْمُهُما) من بنى إسرائيل (لَنا عابِدُونَ) يعنون أنهم لهم مطيعون متذللون ، يأتمرون لأمرهم ، ويدينون لهم ، والعرب تسمى كل من دان لملك عابدا له . ومن ذلك قيل لأهل الحيرة : العباد ، لأنهم كانوا أهل طاعة لملوك العجم.

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، قال فرعون (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا) . . . الآية ، نذهب نرفعهم فوقنا ، ونكون تحتهم ، ونحن اليوم فوقهم وهم تحتنا ، كيف نصنع ذلك ؟ وذلك حين أتوهم بالرسالة ، وقرأ (وَتَكُونَ لَكُما الكِبْرِياءُ فِى الأرْضِ) قال : العلوّ فى الأرض .

وقوله (فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ المُهْلَكِينَ) يقول : فكذّب فرعون وملؤه موسى وهارون ، فكانوا ممن أهلكهم الله ، كما أهلك من قبلهم من الأمم بتكذيبها رسلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٤٩ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ۝٥٠ ﴾

يقول تعالى ذكره : ولقد آتينا موسى التوراة ، ليهتدى بها قومه من بنى إسرائيل ، ويعملوا بما فيها ، (وَجَعَلْنا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ) يقول : وجعلنا ابن مريم وأمه حجة لنا على من كان بينهم ، وعلى قدرتنا على إنشاء الأجسام من غير أصل ، كما أنشأنا خلق عيسى من غير أب .

كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معْمر ، عن قتادة ، فى قوله : (وَجَعَلْنا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ) قال : ولدته من غير أب هو له ، ولذلك وُحِّدت الآية ، وقد ذكر مريم وابنها .

وقوله (وآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ) يقول : وضممناهما وصيرناهما إلى ربوة ، يقال : أوى فلان إلى موضع كذا ، فهو يأوى إليه : إذا صار إليه ؛ وعلى مثال « أفعلته » فهو يُؤْويه . وقوله (إلى رَبْوَةٍ) يعنى : إلى مكان مرتفع من الأرض على ماحوله ، ولذلك قيل للرجل يكون فى رفعة من قومه ، وعزّ وشرف وعدد :

هو في ربوة من قومه ، وفيها لغتان : ضمّ الراء وكسرها ، إذا أريد بها الاسم ، وإذا أريد بها الفعلة من المصدر ، قيل رَبَا رَبْوة .

واختلف أهل التأويل في المكان الذي وصفه الله بهذه الصفة ، وآوَى إليه مريم وابنها ، فقال بعضهم : هو الرَّملة من فلسطين .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن المثنى ، قال : ثنا صفوان بن عيسى ، قال : ثنا بشر بن رافع ، قال : ثني ابن عمّ لأبي هريرة ، يقال له أبو عبد الله ، قال : قال لنا أبو هريرة : الزموا هذه الرملة من فلسطين ، فإنها الربوة التي قال الله (وآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) .

حدثني عصام بن رَوّاد بن الجراح ، قال : ثنا أبي ، قال : ثنا عباد أبو عتبة الخوّاص ، قال : ثنا يحيى ابن أبي عمرو السيباني ، عن ابن وَعْلة ، عن كريب ، قال : ما أدري ما حدثنا مُرّة البَهْزيّ ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أن الربوة : هي الرملة .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن بشر بن رافع ، عن أبي عبد الله بن عمّ أبي هريرة ، قال : سمعت أبا هريرة يقول في قول الله (إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) قال : هي الرملة من فلسطين .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا صفوان ، قال : ثنا بشر بن رافع ، قال : ثني أبو عبد الله ابن عمّ أبي هريرة ، قال : قال لنا أبو هريرة : الزموا هذه الرملة التي بفلسطين ، فإنها الربوة التي قال الله : (وآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

وقال آخرون : هي دمشق .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أحمد بن الوليد القرشي ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب أنه قال في هذه الآية (وآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) قال : زعموا أنها دمشق .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، قال : بلغني ، عن ابن المسيب أنه قال دمشق .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، مثله .

حدثني يحيى بن عثمان بن صالح السهمي ، قال : ثنا ابن بكير ، قال : ثنا الليث بن سعد ، قال : ثني عبد الله بن لهيعة ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، في قوله (وآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) قال : إلى ربوة من رُبا مصر قال : وليس الرُّبَا إلا في مصر ، والماء حين يُرسَل تكون الربَا عليها القرى ، لولا الربَا لغرقت تلك القرى .

وقال آخرون : هي بيت المقدس .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : هو بيت المقدس .

قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة قال : كان كعب يقول : بيت المقدس أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلا .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن كعب ، مثله .

⁂ وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك : أنها مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر ، وليس كذلك صفة الرملة ، لأن الرملة لاماء بها مَعِين ، والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومَعِين .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ) قال : الربوة : المستوية .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (إلى رَبْوَةٍ) قال : مستوية .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

وقوله (ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) يقول تعالى ذكره : من صفة الربوة التى آوينا إليها مريم وابنها عيسى ، أنها أرض منبسطة ، وساحة ، وذات ماء ظاهر لغير الباطن ، جار .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَمَعِينٍ) قال : المَعين : الماء الجارى ، وهو النهر الذى قال الله (قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) .

حدثنى محمد بن عمارة الأسدىّ ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد ، فى قوله (ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) قال : المَعين : الماء .

حدثنى محمد بن عمارة الأسدىّ ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مَعِين ، قال : ماء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى سليمان بن عبد الجبار ، قال : ثنا محمد بن الصَّلْت ، قال : ثنا شريك ، عن سالم ، عن سعيد ، فى قوله (ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) قال : المكان المستوى ، والمَعين : الماء الظاهر .

حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَمَعِينٍ) : هو الماء الظاهر .

وقال آخرون : عني بالقرار : الثمار .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) هي ذات ثمار ، وهي بيت المقدس .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

❁ قال أبو جعفر : وهذا القول الذي قاله قتادة في معنى (ذَاتِ قَرَارٍ) وإن لم يكن أراد بقوله : إنها إنما وصفت بأنها ذات قرار، لما فيها من الثمار ، ومن أجل ذلك ، يستقرّ فيها ساكنوها ، فلا وجه له نعرفه . وأما (مَعِينٍ) فإنه مفعول من عِنْتُه فأنا أعينه ، وهو معين ؛ وقد يجوز أن يكون فعيلا من مَعَن يمعن ، فهو معين من الماعون ؛ ومنه قول عَبيد بن الأبرص :

وَاهِيَةٌ أَوْ مَعِينٌ مُمْعِنٌ أَوْ هَضْبَةٌ دُونَهَا لُهُوبُ[1]

القول في تأويل قوله تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

❁ يقول تعالى ذكره : وقلنا لعيسى : يا أيها الرسل كلوا من الحلال الذي طيبه الله لكم ،دون الحرام ، (وَاعْمَلُوا صَالِحًا) تقول في الكلام للرجل الواحد : أيها القوم كفوا عنّا أذاكم ، وكما قال الذين قال لهم الناس ، وهو رجل واحد .

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثني ابن عبد الأعلى بن واصل ، قال : ثني عبيد بن إسحاق الضبيّ العطار ، عن حفص بن عمر الفزاريّ ، عن أبي إسحاق السبيعيّ ، عن عمرو بن شرحبيل (يا أيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ،وَاعْمَلُوا صَالِحًا) قال : كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه .

وقوله (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) يقول : إني بأعمالكم ذو علم ، لايخفى عليّ منها شيء ، وأنا مجازيكم بجميعها ، وموفّيكم أجوركم وثوابكم عليها ، فخذوا في صالحات الأعمال واجتهدوا .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

(١) البيت لعبيد بن الأبرص من قصيدته البائية المطولة (اللسان : معن) واستشهد به المؤلف ، عند قوله تعالى : وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين . وقال في اللسان : قال الفراء : ذات قرار : أرض منبسطة . ومعين : الماء الظاهر الجاري . قال : ولك أن تجعل المعين مفعولا من العيون ، (واختاره المؤلف) ، ولك أن تجعله فعيلا من الماعون ، ويكون أصله المعن . والمعن والمعين : الماء السائل ، وقيل الجاري على وجه الأرض ، وقيل العذب الغزير ؛ وكل ذلك من السهولة ، والمعن : الماء الظاهر . واللهوب : جمع لهب (بكسر اللام) : الفجوة والهواء بين الجبلين . وفي المحكم : مهواة ما بين كل جبلين ، وقيل : هو الصدع في الجبل ، عن اللحياني ، وقيل : هو الشعب الصغير في الجبل . وقيل : هو وجه من الجبل كالحائط ، لا يستطاع ارتقاؤه . اهـ

اختلفت القرّاء فى قراءة قوله (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) ، فقرأ ذلك عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة (وأنّ) بالفتح ، بمعنى : إنى بما تعملون عليم ، وأن هذه أمتكم أمة واحدة ، فعلى هذا التأويل « أن » فى موضع خفض ، عطف بها على « ما » من قوله (بِمَا تَعْمَلُونَ) ، وقد يحتمل أن تكون فى موضع نصب إذا قرئ ذلك كذلك . ويكون معنى الكلام حينئذ : واعلموا أن هذه ، ويكون نصبها بفعل مضمر . وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفيين بالكسر (وَإِنَّ) هذه على الاستئناف ، والكسر فى ذلك عندى على الابتداء : هو الصواب ، لأن الخبر من الله عن قيله لعيسى (يا أيُّها الرُّسُلُ) مبتدأ ، فقوله (وَإِنَّ هَذِهِ) مردود عليه عطفا به عليه ، فكان معنى الكلام : وقلنا لعيسى : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ، وقلنا : وإن هذه أمتكم أمة واحدة . وقيل : إن الأمة الذى فى هذا الموضع : الدِّين والملة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، فى قوله (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) قال : الملة والدين .

وقوله (وأنا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ) يقول : وأنا مولاكم فاتقون ، بطاعتى تأمنوا عقابى ، ونصبت أمة واحدة على الحال . وذُكر عن بعضهم أنه قرأ ذلك رفعا . وكان بعض نحوِيِّى البصرة يقول : رَفْع ذلك إذا رفع على الخبر ، ويجعل أمتكم نصبا على البدل من هذه . وأما نحوِيّو الكوفة فيأبَوْن ذلك إلا فى ضرورة شعر ، وقالوا : لايقال : مررت بهذا غلامكم ، لأن هذا لاتتبعه إلا الألف واللام والأجناس ، لأن هذا إشارة إلى عدد ، فالحاجة فى ذلك إلى تبيين المراد من المشار إليه أىّ الأجناس هو ؟ وقالوا : وإذا قيل : هذه أمتكم أمة واحدة ، والأمة غائبة ، وهذه حاضرة ، قالوا : فغير جائز أن يبين عن الحاضر بالغائب ، قالوا : فلذلك لم يجز : إن هذا زيد قائم ، من أجل أن هذا محتاج إلى الجنس لا إلى المعرفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

اختلفت القرّاء فى قراءة قوله (زُبُرًا) فقرأته عامة قرّاء المدينة والعراق (زُبُرًا) بمعنى جمع الزَّبور . فتأويل الكلام على قراءة هؤلاء : فتفرّق القوم الذين أمرهم الله من أمة الرسول عيسى بالاجتماع على الدين الواحد ، والملة الواحدة ، دينهم الذى أمرهم الله بلزومه (زُبُرًا) كُتُبا ، فدان كل فريق منهم بكتاب غير الكتاب الذى دان به الفريق الآخر ، كاليهود الذين زعموا أنهم دانوا بحكم التوراة ، وكذّبوا بحكم الإنجيل والقرآن ، وكالنصارى الذين دانوا بالإنجيل بزعمهم ، وكذّبوا بحكم الفرقان .

ذكر من تأوّل ذلك كذلك

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (زُبُرًا) قال : كُتُبا .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (بَيْنَهُمْ زُبُرًا) قال : كُتُبَ الله فرّقوها قطعا :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيْج ، عن مجاهد (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا) قال مجاهد : كُتُبهم فرّقوها قطعا .

وقال آخرون من أهل هذه القراءة : إنما معنى الكلام : فتفرّ قوا دينهم بينهم كُتُبا أحدثوها ، يحتجون فيها لمذاهبهم .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) قال : هذا ما اختلفوا فيه من الأديان والكتب ، كلّ معجبون برأيهم ، ليس أهل هواء إلا وهم معجبون برأيهم وهواهم ، وصاحبهم الذى اخترق ذلك لهم . وقرأ ذلك عامة قرّاء الشام (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبَرًا) بضم الزاى ، وفتح الباء ، بمعنى : فتفرّقوا أمرهم بينهم قِطَعا كزُبَر الحديد ، وذلك القِطَع منها . واحدتها زُبْرة ، من قول الله (آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ) فصار بعضهم يهودا ، وبعضهم نصارى .

والقراءة التى نختار فى ذلك : قراءة من قرأه بضم الزاى والباء ، لإجماع أهل التأويل فى تأويل ذلك ، على أنه مراد به الكتب ، فذلك يبين عن صحة ما اخترنا فى ذلك ، لأن الزُّبُر هى الكتب ، يقال منه : زَبَرْت الكتاب : إذا كتبته .

فتأويل الكلام : فتفرّق الذين أمرهم الله بلزوم دينه من الأمم ، دينهم بينهم كتبا ، كما بيَّنّا قبل .

وقوله (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) يقول : كل فريق من تلك الأمم بما اختاروه لأنفسهم من الدين والكتب فرحون ، معجبون به ، لايرون أن الحقّ سواه .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) قطعة ، وهؤلاء هم أهل الكتاب .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيْج ، عن مجاهد (كُلُّ حِزْبٍ) قطعة أهل الكتاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۞

قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فدع يامحمد هؤلاء الذين تقطّعوا أمرهم بينهم زبرا ، فى غمرتهم : فى ضلالتهم وغيهم . حتى حين : يعنى إلى أجل سيأتيهم عند مجيئه عذابى .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ) قال : فى ضلالهم .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ) قال : الغَمْرة : الغَمْر .

وقوله (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ) يقول تعالى ذكره : أيحسب هؤلاء الأحزاب الذين فرقوا دينهم زُبُرا ، أن الذى نعطيهم فى عاجل الدنيا من مال وبنين (نُسَارِعُ لَهُمْ) يقول : نسابق لهم فى خيرات الآخرة ، ونبادرلهم فيها ؟ و« ما » من قوله (أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ) نصب ، لأنها بمعنى الذى (بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) يقول تعالى ذكره تكذيبا لهم : ما ذلك كذلك ، بل لايعلمون أن إمدادى إياهم بما أمدّهم به من ذلك ، إنما هو إملاء واستدراج لهم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ) قال : نعطيهم ، نسارع لهم ، قال : نزيدهم فى الخير ، نُملى لهم ، قال : هذا لقريش .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى محمد بن عمر بن علىّ ، قال : ثنى أشعث بن عبد الله ، قال : ثنا شعبة ، عن خالد الحذّاء ، قال : قلت لعبد الرحمن بن أبى بكرة ، قول الله (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ) قال : يسارع لهم فى الخيرات ، وكأن عبد الرحمن بن أبى بكرة وجه بقراءته ذالك كذلك ، إلى أن تأويله : يسارع لهم إمدادنا إياهم بالمال والبنين فى الخيرات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

يعنى تعالى ذكره (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) إن الذين هم من خشيتهم وخوفهم من عذاب الله مشفقون ، فهم من خشيتهم من ذلك دائبون فى طاعته ، جادّون فى طلب مرضاته .

(وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) يقول : والذين هم بآيات كتابه وحججه مصدّقون ، والذين هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَيُشْرِكُونَ) يقول : والذين يُخلصون لربهم عبادتهم ، فلا يجعلون له فيها لغيره شركا لوثن ، ولا لصنم، ولا يُراءون بها أحدا من خلقه ، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصا ، وإياه يقصدون بالطاعة والعبادة ، دون كل شيء سواه .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

يعني تعالى ذكره بقوله (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا) والذين يعطون أهل سُهْمان الصدقة مافرض الله لهم فى أموالهم (ما آتَوْا) يعنى : ما أعطوهم إياه من صدقة ،ويؤدّون حقوق الله عليهم فى أموالهم إلى أهلها . (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) يقول : خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون ، فلا ينجيهم مافعلوا من ذلكَ من عذاب الله ، فهم خائفون من المرجع إلى الله لذلك ، كما قال الحسن : إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبجر ، عن رجل ، عن ابن عمر (يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قال : الزكاة .

حدثني محمد بن عمارة ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال أخبرنا إسرائيل ، عن أبي يحيى ، عن مجاهد (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قال : المؤمن ينفق ماله وقلبه وجِل :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن أبي الأشهب ، عن الحسن ، قال (يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قال : يعملون ما عملوا من أعمال البرّ ، وهم يخافون ألاينجيهم ذلك من عذاب ربهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قال : المؤمن ينفق ماله ويتصدّق وقلبه وَجِل أنه إلى ربه راجع .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن عُلَيّة ، عن يونس ، عن الحسن أنه كان يقول : إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا، ثم تلا الحسن (إنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) إلى (وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) وقال المنافق : إنما أوتيته على علم عندى .

حدثنا ابن عبد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد ، عن عكرمة (يُؤْتُونَ ما آتَوْا) قال : يُعْطون ما أعطوا (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) يقول : خائفة .

حدثنا خلاد بن أسلم ، قال : ثنا النضر بن شميل ، قال : أخبرنا إسرائيل ، قال : أخبرنا سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير ، فى قوله (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قال : يفعلون مايفعلون وهم يعلمون أنهم صائرون إلى الموت ، وهى من المبشِّرات .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قال : يُعْطُون ما أعطَوا ، ويعملون ما عملوا من خير ، وقلوبهم وجلة خائفة .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا علىّ ، قال : ثنى معاوية ، عن ابن عباس ، قوله (وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) يقول : يعملون خائفين .

قال : حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قال : يعطون ما أعطوا فرَقا من الله ، ووجلا من الله .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (يُؤْتُونَ مَا آتَوْا) ينفقون ما أنفقوا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قال : يعطون ما أعطوا ، وينفقون ما أنفقوا ، ويتصدّقون بما تصدّقوا وقلوبهم وجلة ، اتقاء لسخط الله والنار . وعلى هذه القراءة ، أعنى على (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا) قرأة الأمصار ، وبه رسوم مصاحفهم وبه نقرأ ، لإجماع الحجة من القرّاء عليه ، ووفاقه خطّ مصاحف المسلمين .

وروى عن عائشة رضى الله عنها فى ذلك ، ما حدثناه أحمد بن يوسف ، قال : ثنا القاسم ، قال : ثنا علىّ ابن ثابت ، عن طلحة بن عمر ، عن أبى خلف ، قال : دخلت مع عبيد بن عمير على عائشة ، فسألها عبيد ، كيف نقرأ هذا الحرف (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا) فقالت : (يَأْتُونَ مَا أَتَوْا) ، وكأنها تأوّلت فى ذلك والذين يفعلون مايفعلون من الخيرات وهم وجلون من الله .

وكأنها تأوّلت فى ذلك : والذين يفعلون مايفعلون من الخيرات وهم وجلون من الله ، كالذى حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا الحكم بن بشير ، قال : ثنا عمر بن قيس ، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمدانى ، عن أبى حازم . عن أبى هريرة ، قال : قالت عائشة : « يا رسول الله (وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) هو الذى يذنب الذنب وهو وجل منه ؟ فقال : لا ، وَلَكِنْ مَنْ يَصُومُ وَيُصَلِّى وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ وَجِلٌ » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، عن مالك بن مِغْول ، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب ، أن عائشة قالت : قلت : « يا رسول الله (الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أهم الذين يُذنبون وهم مشفقون (١) وَيَصُومُونَ وَهُمْ مُشْفِقُونَ » ؟

(١) لعل فيه سقطا ، والأصل : قال لا و لكن الذين يصلون وهم مشفقون ، ويصومون الخ ، كما يتضح من حديث عائشة الآتى بعد .

حدثنا أبو كريب . قال : ثنا ابن إدريس ، قال : ثنا ليث ، عن مغيث ، عن رجل من أهل مكة ، عن عائشة ، قالت : قلت : يا رسول الله (الَّذِينَ يَأْتُونَ ما أتَوْا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قال : فذكر مثل هذا .

حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن مالك بن مغول ، عن عبد الرحمن بن سعيد ، عن عائشة أنها قالت : « يا رسول الله (الَّذِينَ يَأْتُونَ ما أتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال : لا يا بِنْتَ أبي بَكْرٍ ، أو يا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ ، وَيَخافُ أنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُ » .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني جرير ، عن ليث بن أبي سليم ، وهشيم عن العوّام بن حوْشب جميعا ، عن عائشة ، أنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يابِنْتَ أبي بَكْرٍ ، أو يا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، هُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ وَيَفْرَقُونَ أنْ لا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ » . وأن من قوله (أنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) : في موضع نصب ، لأن معنى الكلام (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) من أنهم ، فلما حذفت « مِنْ » اتصل الكلام قبلها ، فنصبت . وكان بعضهم يقول : هو في موضع خفض ، وإن لم يكن الخافض ظاهرا .

وقوله (أُولَئِكَ يُسارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ) يقول تعالى ذكره : هؤلاء الذين هذه الصفات صفاتهم ، يبادرون في الأعمال الصالحة ، ويطلبون الزلفة عند الله بطاعته .

كما حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (أُولَئِكَ يُسارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ) قال : والخيرات : المخافة والوجل والإيمان ، والكفّ عن الشرك بالله ، فذلك المسابقة إلى هذه الخيرات . وقوله (وَهُمْ لَهَا سابِقُونَ) كان بعضهم يقول : معناه : سبقت لهم من الله السعادة ، فذلك سبوقهم الخيرات التي يعملونها .

ذكر من قال ذلك

حدثني عليّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَهُمْ لَهَا سابِقُونَ) يقول : سبقت لهم السعادة .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (وَهُمْ لَهَا سابِقُونَ) : فاتك الخيرات .

وكان بعضهم يتأوّل ذلك بمعنى : وهم إليها سابقون . وتأوّله آخرون : وهم من أجلها سابقون .

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب : القول الذي قاله ابن عباس ، من أنه سبقت لهم من الله السعادة ، فلذلك سارعوا في الخيرات ، ولما سبق لهم من ذلك سارعوا فيها .

وإنما قلت ذلك أولى التأويلين بالكلام ، لأن ذلك أظهر معنييه ، وأنه لا حاجة بنا إذا وجهنا تأويل الكلام إلى ذلك ، إلى تحويل معنى اللام التي في قوله (وَهُمْ لَهَا) إلى غير معناها الأغلب عليها .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

يقول تعالى ذكره : ولا نكلف نفسا إلا ما يَسَعها، ويصلح لها من العبادة ، ولذلك كلّفناها ما كلفناها من معرفة وحدانية الله ، وشرعنا لها ماشرعنا من الشرائع (وَلَدَيْنَا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالحَقّ) يقول : وعندنا كتاب أعمال الخلق ، بما عملوا من خير وشرّ (يَنْطِقُ بِالْحَقّ وَهُمْ لايُظْلَمُونَ) يقول: يبين بالصدق عما عملوا من عمل فى الدنيا، لازيادة عليه ولا نقصان ، ونحن موفو جميعهم أجورهم ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء بإساءته (وَهُمْ لايُظْلَمُونَ) يقول: وهم لايظلمون، بأن يزاد على سيئات المسيء منهم مالم يعمله ، فيعاقب على غير جُرْمه ، وينقص المحسن عما عمل من إحسانه ، فينقص عما له من الثواب .

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ

يقول تعالى ذكره: ما الأمر كما يحسب هؤلاء المشركون، من أن إمدادناهم بما نمدّهم به من مال وبنين، بخير نسوقه بذلك إليهم، والرضا منا عنهم ، ولكن قلوبهم فى غمرة عمى عن هذا القرآن . وعنى بالغمرة : ما غمر قلوبهم، فغطاها عن فهم ما أودع الله كتابه من المواعظ والعبر والحجج. وعنى بقوله (مِنْ هَذَا) من القرآن.

وبنحو الذي قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا) قال : فى عمى من هذا القرآن .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، فى قوله (فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا) قال : من القرآن .

وقوله (وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلكَ هُمْ لَهَا عامِلُونَ) يقول تعالى ذكره : ولهؤلاء الكفار أعمال لايرضاها الله من المعاصى . من دون ذلك : يقول : من دون أعمال أهل الإيمان بالله ، وأهل التقوى والخشية له .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بَزة ، عن مجاهد (وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلكَ هُمْ لَهَا عامِلُونَ) قال : الخطايا .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ) قال : الحق .

حدثنا عليّ بن سهل ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ) قال : خطايا من دون ذلك الحقّ .

قال : ثنا حجاج ، عن أبي جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، في قوله (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ) . . . الآية ، قال : أعمال دُون الحق .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : ذكر الله الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ، ثم قال للكفار (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) قال : من دون الأعمال التي منها قوله (مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) والذين ، والذين .

حدثني القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا عيسى بن يونس ، عن العلاء بن عبد الكريم ، عن مجاهد ، قال : أعمال لابدّ لهم من أن يعملوها .

حدثنا عليّ بن سهل ، قال : ثنا زيد بن أبي الزرقاء ، عن حماد بن سلمة ، عن حميد ، قال : سألت الحسن عن قول الله (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) قال : أعمال لم يعملوها سيعملونها .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) قال : لم يكن له بدّ من أن يستوفي بقية عمله ، ويصلى به .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرّزاق ، عن الثوريّ ، عن العلاء بن عبد الكريم ، عن مجاهد ، في قوله (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ ، هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) قال : أعمال لابدّ لهم من أن يعملوها .

حدثنا عمرو ، قال : ثنا مروان بن معاوية ، عن العلاء بن عبد الكريم ، عن مجاهد ، في قول الله تبارك وتعالى (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ) قال : أعمال لابدّ لهم من أن يعملوها .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۞ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۞ ﴾

يقول تعالى ذكره : ولهؤلاء الكفار من قريش أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، إلى أن يؤخذ أهل النعمة والبطر منهم بالعذاب .

كما حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ)

قال : المُتْرَفُون : العظماء (إِذَا هُمْ يَجْئَرُونَ) يقول : فإذا أخذناهم به جأرُوا ، يقول : ضجُّوا واستغاثوا مما حلّ بهم من عذابنا ، ولعلّ الجُؤار : رفع الصوت ، كما يجأر الثور ؛ ومنه قول الأعشى :

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ المَلِيكِ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارَا(١)

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس (إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) يقول : يستغيثون .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى وعبد الرحمن ، قالا : ثنا سفيان ، عن علقمة بن قردد ، عن مجاهد ، فى قوله (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بالعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) قال : بالسيوف يوم بدر .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى جعفر ، عن الربيع بن أنس ، فى قوله (إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) قال : يجزعون .

قال : ثنا حجاج ، عن ابن جُرَيج (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بالعَذَابِ) قال : عذاب يوم بدر (إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) قال : الذين بمكة .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بالعَذَابِ) يعنى أهل بدر ، أخذهم الله بالعذاب يوم بدر .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت ابن زيد يقول فى قوله (إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) قال : يجزعون .

وقوله (لَا تَجْأَرُوا اليَوْمَ) يقول : لاتضجُّوا وتستغيثوا اليوم وقد نزل بكم العذاب الذى لايدفع عن الذين ظلموا أنفسهم ، فإن ضجيجكم غير نافعكم ، ولا دافع عنكم شيئا مما قد نزل بكم من سخط الله ، (إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ) يقول : إنكم من عذابنا الذى قد حلّ بكم لاتستنقذون ، ولا يخلصكم منه شىء .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى جعفر ، عن الربيع بن أنس (لَا تَجْأَرُوا اليَوْمَ) : لاتجزعوا اليوم .

---

(١) البيت للأعشى (ديوانه طبع القاهرة بشرح الدكتور محمد حسين ص ٥٣) وهو من قصيدة يمدح بها الأعشى قيس بن معديكرب . ويراوح بين العملين : يتداول هذا مرة ، وهذا مرة . والجؤار : مصدر جأر إلى الله إذا تضرع ورفع صوته . يقول إن ممدوحه مع ما وصف به من كرم وقوة ووفاء ، تقى يراقب ربه ، ويتضرع إليه ويجأر فى صلواته . واستشهد به المؤلف على أن الجؤار : رفع الصوت كما يجأر الثور .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا الربيع بن أنس (لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ) لاتجزعوا الآن حين نزل بكم العذاب ، إنه لاينفعكم ، فلو كان هذا الجزع قبلُ نفعكم .

القول في تأويل قوله تعالى:

قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

☆ يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من قريش : لاتضجوا اليوم وقد نزل بكم سخط الله وعذابه ، بما كسبت أيديكم ، واستوجبتموه بكفركم بآيات ربكم (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ) يعنى : آيات كتاب الله . يقول : كانت آيات كتابى تقرأ عليكم ، فتكذّبون بها ، وترجعون مولين عنها إذا سمعتموها ، كراهية منكم لسماعها . وكذلك يقال لكلّ من رجع من حيث جاء : نكص فلان على عقبه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ) قال : تستأخرون .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ) يقول : تدبرون .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ، فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ) يعنى أهل مكة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (تَنْكِصُونَ) قال : تستأخرون .

وقوله (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) يقول : مستكبرين بحرم الله ، يقولون : لايظهر علينا فيه أحد ؛ لأنا أهل الحرم .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، فى قوله (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) يقول : مستكبرين بحرم البيت أنه لايظهر علينا فيه أحد .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) قال : بمكة بالبلد .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، نحوه .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا هَوْذة ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) قال : مستكبرين بحرمى .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى ، عن سفيان ، عن حصين ، عن سعيد بن جبير ، فى قوله : (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) بالحرم .

حدثنا ابن عبد الأعلى، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) قال : مستكبرين بالحرم .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن قتّادة ، مثله .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) قال : بالحرم .

وقوله (سامِرًا) يقول : تَسْمُرون بالليل ، ووحد قوله (سامِرًا) وهو بمعنى السُّمَّار ، لأنه وضع موضع الوقت . ومعنى الكلام : وتهجُرون ليلا ، فوضع السامر موضع الليل، فوحد لذلك . وقد كان بعض البصريين يقول : وُحِّد ومعناه الجمع ، كما قيل : طفل فى موضع أطفال . ومما يبين عن صحة ما قلنا فى أنه وضع موضع الوقت ، فوحد لذلك ، قول الشاعر :

مِنْ دُونِهِمْ إنْ جِئْتَهُمْ سَمَرًا عَزْفُ القِيانِ وَمَجْلِسٌ غَمْرُ[1]

فقال : سمرا لأن معناه : إن جئتهم ليلا وهم يسمُرون ، وكذلك قوله (سامِرًا) .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (سامِرًا) يقول : يَسْمُرون حول البيت .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (سامِرًا) قال : مجلسا بالليل .

حدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (سامِرًا) قال : مجالس .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى ، قال : ثنا سفيان ، عن حُصين ، عن سعيد بن جُبير (سامِرًا) قال : تَسْمُرون بالليل .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (سامِرًا) قال : كانوا

(١) البيت لابن أحمر الباهلى : (اللسان : سمر) قال : قال ابن أحمر ، وجعل السمر ليلا : « من دونهم . . . البيت » أراد : إن جئتهم ليلا ، وبهذا المعنى أورده المؤلف . والشطر الثانى من البيت فى رواية اللسان تختلف عنه فى رواية المؤلف ، فى اللسان « حى حلال لملم عكر » . والحى الحلال : يريد الجماعة النازلين على الماء أو نحوه . والملم : كثير مجتمع . وكذلك العكر . والمجلس الغمر : الجماعة الكثيرة ، يجتمعون للحديث والسمر .

يسمرون ليلتهم ويلعبون : يتكلمون بالشعر والكهانة وبما لا يدرون .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (سامِرًا) قال : يعنى سَمَر الليل .

وقال بعضهم فى ذلك ما حدثنا به ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (سامِرًا) يقول : سامرا من أهل الحرم ، آمنا لا يخاف ، كانوا يقولون : نحن أهل الحرم ، لا يخافون .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن قتادة (سامِرًا) يقول : سامرا من أهل مكة آمنا لا يخاف ، قال : كانوا يقولون : نحن أهل الحرم لا نخاف .

وقوله (تَهْجُرُونَ) اختلفت القرّاء فى قراءته ، فقرأته عامة قرّاء الأمصار (تَهْجُرُونَ) بفتح التاء وضم الجيم . ولقراءة من قرأ ذلك كذلك وجهان من المعنى : أحدهما أن يكون على أنه وصفهم بالإعراض عن القرآن أو البيت ، أو رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفضه . والآخر : أن يكون على أنهم يقولون شيئا من القول كما يهجُر الرجل فى منامه ، وذلك إذا هَذَى ، فكأنه وصفهم بأنهم يقولون فى القرآن ، ما لا معنى له من القول ، وذلك أن يقولوا فيه باطلا من القول الذى لا يضرّه ، وقد جاء بكلا القولين التأويل من أهل التأويل .

ذكر من قال : كانوا يُعرِضون عن ذكر الله والحقّ ويهجُرونه

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (تَهْجُرُونَ) قال : يهجُرون ذكر الله والحقّ .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الصمد ، قال : ثنا شعبة ، عن السدىّ ، عن أبى صالح ، فى قوله (سامِرًا تَهْجُرُونَ) قال : السبّ .

ذكر من قال : كانوا يقولون الباطل والسيئ من القول فى القرآن

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى ، قال : ثنا سفيان ، عن حصين ، عن سعيد بن جُبير (تَهْجُرُونَ) قال : يهجُرون فى الباطل .

قال : ثنا يحيى ، عن سفيان ، عن حصين ، عن سعيد بن جبير (سامِرًا تَهْجُرُونَ) قال : يسمرون بالليل يخوضون فى الباطل .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (تَهْجُرُونَ) قال : بالقول السيئ فى القرآن .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (تَهْجُرُونَ) قال : الهَذَيان ٧
الذى يتكلم بما لا يريد ولا يعقل ، كالمريض الذى يتكلم بما لا يدرى ، قال : كان أُبَىّ يقرؤها (سامِرًا تَهْجُرُونَ) .

وقرأ ذلك آخرون (سامِرًا تُهْجِرُونَ) بضم التاء وكسر الجيم ، وممن قرأ ذلك كذلك من قرّاء

الأمصار : نافع بن أبي نعيم ، بمعنى : يُفْحِشون فى المنطق ، ويقولون الخنا ، من قولهم : أهجر الرجل : إذا أفحش فى القول ، وذكر أنهم كانوا يسبُّون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا عليّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس (تُهْجِرُونَ) قال : تقولون هُجْرا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا عبد المؤمن ، عن أبى نَهيك ، عن عكرمة ، أنه قرأ (سامِرًا تُهْجِرُونَ) : أى تسبون .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا هوذة ، قال : ثنا عون ، عن الحسن ، فى قوله (سامِرًا تُهْجِرُونَ) رسولى .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قَتادة ، قال : قال الحسن (تُهْجِرُونَ) رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن قتادة (تُهْجِرُونَ) يقول : يقولون سوءا .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : قال الحسن (تُهْجِرُونَ) كتاب الله ورسوله .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (تُهْجِرُونَ) يقول : يقولون المنكر والخنا من القول ، كذلك هَجْر القول .

وأولى القراءتين بالصواب فى ذلك عندنا : القراءة التى عليها قرّاء الأمصار ، وهى فتح التاء ، وضم الجيم ، لإجماع الحجة من القرّاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذكره : أفلم يتدبر هؤلاء المشركون تنزيل الله وكلامه ، فيعلموا ما فيه من العبر ، ويعرفوا حجج الله التى احتجّ بها عليهم فيه ؟ (أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الأَوَّلِينَ)؟ يقول : أم جاءهم أمر ما لم يأت من قبلهم من أسلافهم ، فاستكبروا ذلك وأعرضوا ، فقد جاءت الرسل من قبلهم ، وأنزلت معهم الكتب ، وقد يحتمل أن تكون « أم » فى هذا الموضع بمعنى : بل ، فيكون تأويل الكلام : أفلم يدّبّروا القول ؟ بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين ، فتركوا لذلك التدبر ، وأعرضوا عنه ، إذ لم يكن فيمن سلف من آبائهم ذلك . وقد ذُكر عن ابن عباس فى نحو هذا القول .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . فى قوله (أفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْلَ أمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الأوَّلِينَ) قال : لعمرى لقد جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين ، ولكن أو لم يأتهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين .

وقوله (أمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ) يقول تعالى ذكره : أم لم يعرف هؤلاء المكذّبون محمدا ، وأنه من أهل الصدق والأمانة ، فهم له منكرون ، يقول : فينكروا قوله ، أو لم يعرفوه بالصدق ، ويحتجوا بأنهم لايعرفونه . يقول جلّ ثناؤه : فكيف يُكَذّبونه وهم يعرفونه فيهم بالصدق والأمانة ! (أمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ) يقول : أيقولون بمحمد جنون . فهو يتكلم بما لامعنى له ولا يُفهم ، ولايَدْرِى مايقول (بَلْ جاءَهُمْ بالحَقِّ) يقول تعالى ذكره : فإن يقولوا ذلك فكَذِبُهم فى قيلهم ذلك واضح بيّن ، وذلك أن المجنون يَهذِى . فيأتى من الكلام بما لامعنى له . ولا يعقل ، ولا يفهم ، والذى جاءهم به محمد هو الحكمة التى لا أحكم منها ، والحقّ الذى لاتخفى صحته على ذى فطرة صحيحة ، فكيف يجوز أن يقال : هو كلام مجنون . وقوله (وأكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ) يقول تعالى ذكره : ما بهؤلاء الكفرة أنهم لم يعرفوا محمدا بالصدق ، ولا أن محمدا عندهم مجنون ، بل قد علموه صادقا محقا فيما يقول ، وفيما يدعوهم إليه ، ولكن أكثرهم للإذعان للحقّ كارهون ، ولأتباع محمد ساخطون . حسدا منهم له ، وبغيا عليه ، واستكبارا فى الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : ولو عمل الربّ تعالى ذكره بما يهوَى هؤلاء المشركون ، وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم ، وترك الحقّ الذى هم له كارهون ، لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ ، وذلك أنهم لايعرفون عواقب الأمور ، والصحيحَ من التدبير والفاسد ؛ فلو كانت الأمور جارية على مشيئتهم وأهوائهم ، مع إيثار أكثرهم الباطل على الحقّ ، لم تقرّ السموات والأرض ومن فيهنّ من خلق الله ، لأن ذلك قام بالحقّ .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الصمد ، قال : ثنا شعبة ، قال : ثنا السدىّ ، عن أبى صالح (ولَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أهْواءَهُمْ) قال : الله .

قال : ثنا أبو معاوية ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى صالح (وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أهْواءَهُمْ) قال : الحقّ : هو الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قوله (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ) قال : الحقّ : الله .

وقوله (بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ) اختلف أهل التأويل فى تأويل الذكر فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : هو بيان الحقّ لهم بما أنزل على رجل منهم من هذا القرآن .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ) يقول : بيّنّا لهم .

وقال آخرون : بل معنى ذلك: بل أتيناهم بشرفهم ، وذلك أن هذا القرآن كان شرفا لهم ، لأنه نزل على رجل منهم ، فأعرضوا عنه ، وكفروا به ، وقالوا ذلك نظير قوله (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) وهذان القولان متقاربا المعنى . وذلك أن الله جلّ ثناؤه ، أنزل هذا القرآن بيانا بيّن فيه ما لخلقه إليه الحاجة من أمر دينهم ، وهو مع ذلك ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم وقومه ، وشرف لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٧٢ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ ﴾

يقول تعالى ذكره : أم تسأل هؤلاء المشركين يامحمد من قومك خراجا ، يعنى أجرا على ما جئتهم به من عند الله من النصيحة والحقّ (فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ) : فأجر ربك على نفاذك لأمره ، وابتغاء مرضاته خير لك من ذلك ، ولم يسألهم صلى الله عليه وسلم على ما أتاهم به من عند الله أجرا ، قال لهم كما قال الله له ، وأمره بقيله لهم (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى) وإنما معنى الكلام : أم تسألهم على ما جئتهم به أجرا ، فنكصوا على أعقابهم إذا تلوته عليهم ، مستكبرين بالحرم ، فخراج ربك خير .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبدالأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الحسن (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ) قال : أجرا .

حدثنا الحسن ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمرعن الحسن ، مثله ، وأصل الخراج والخرج : مصدران لا يُجْمعان .

وقوله (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) يقول : والله خير من أعطى عوضا على عمل ، ورزق رزقا .

وقوله (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) يقول تعالى ذكره : وإنك يامحمد لتدعو هؤلاء المشركين من قومك إلى دين الإسلام ، وهو الطريق القاصد ، والصراط المستقيم ، الذى لااعوجاج فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ذكره : والذين لايصدّقون بالبعث بعد الممات ، وقيام الساعة ، ومجازاة الله عباده فى الدار الآخرة (عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ) يقول : عن محجّة الحق ، وقصد السبيل ، وذلك دين الله الذى ارتضاه لعباده . لعادلون ، يقال منه : قد نكب فلان عن كذا : إذا عدل عنه ، ونكّب عنه : أى عدل عنه .

وبنحو قولنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله (عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ) قال : لعادلون .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ) يقول : عن الحقّ عادلون .

وقوله (وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ) يقول تعالى : ولو رحمنا هؤلاء الذين لايؤمنون بالآخرة ، ورفعنا عنهم مابهم من القحط والجدب ، وضرّ الجوع والهزال . (لَلَجُّوا فِى طُغْيانِهِمْ) يعنى فى عتوّهم ، وجرأتهم على ربهم . (يَعْمَهُونَ) يعنى : يتردّدون .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، فى قوله (وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ) قال : الجوع .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ذكره : ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا ، وأنزلنا بهم بأسنا ، وسخطنا وضيقنا عليهم معايشهم ، وأجدبنا بلادهم ، وقتلنا سراتهم بالسيف . (فَما اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ) يقول : فما خضعوا لربهم ، فينقادوا لأمره ونهيه ، وينيبوا إلى طاعته (وَما يَتَضَرَّعُونَ) يقول : وما يتذللون له .

وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخذ الله قريشا بسنى الجدب ، إذ دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر الخبر بذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا أبو تميلة ، عن الحسن ، عن يزيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : جاء أبو سفيان إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، أنشدُكَ الله والرحم ، فقد أكلنا العِلْهِز ، يعنى الوبر والدم ، فأنزل الله : (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ ، فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) » .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا عبد المؤمن ، عن علباء بن أحمر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن ابن أُثالٍ الحنفيّ « لما أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو أسير ، فخلّى سبيله ، فلحق بمكة ، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة ، حتى أكلت قريش العِلْهِز ، فجاء أبو سفيان إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : أليس تزعم بأنك بُعثت رحمة للعالمين ؟ فقال : بَلَى ، فقال : قد قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع ؛ فأنزل الله (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ) ... الآية » .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا الحكم بن بشير ، قال : أخبرنا عمرو ، قال : قال الحسن : إذا أصاب الناس من قبل الشيطان بلاء ، فإنما هى نقمة ، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحميّة ، ولكن استقبلوها بالاستغفار ، وتضرّعوا إلى الله ، وقرأ هذه الآية (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ ، فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قوله (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ) قال : الجوع والجدب (فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ) فصبروا (وما اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ، وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معناه : حتى إذا فتحنا عليهم باب القتال ، فقتلوا يوم بدر .

ذكر من قال ذلك

حدثنى إسحاق بن شاهين ، قال : ثنا خالد بن عبد الله ، عن داود بن أبى هند ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، فى قوله (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ) قد مضى ، كان يوم بدر .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنى عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ) قال : يوم بدر .

وقال آخرون : معناه : حتى إذا فتحنا عليهم باب المجاعة والضرّ ، وهو الباب ذو العذاب الشديد .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن

قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ) قال : لكفار قريش الجوع ، وما قبلها من القصة لهم أيضا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، بنحوه ، إلا أنه قال : وما قبلها أيضا . وهذا القول الذى قاله مجاهد : أولى بتأويل الآية ، لصحة الخبر الذى ذكرناه قبل عن ابن عباس ، أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى قصة المجاعة التى أصابت قريشا ، بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وأمر ثمامة بن أثال ، وذلك لاشكّ أنه كان بعد وقعة بدر .

وقوله (إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) يقول : إذا هؤلاء المشركون فيما فتحنا عليهم من العذاب حزَنى ، نادمون على ما سلف منهم فى تكذيبهم بآيات الله ، فى حين لاينفعهم الندم والحزن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

❊ يقول تعالى ذكره : والله الذى أحدث لكم أيها المكذّبون بالبعث بعد الممات ، السمع الذى تسمعون به ، والأبصار التى تبصرون بها ، والأفئدة التى تفقهون بها ، فكيف يتعذّر على من أنشأ ذلك ابتداء عادته بعد عدمه وفقده ، وهو الذى يوجد ذلك كله إذا شاء ، ويفنيه إذا أراد قليلا ما تشكرون : يقول : تشكرون أيها المكذّبون خبر الله من عطائكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾

❊ يقول تعالى ذكره : والله الذى خلقكم فى الأرض ، وإليه تُحشرون من بعد مماتكم ، ثم تُبعثون من قبوركم إلى موقف الحساب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

❊ يقول تعالى ذكره : والله الذى يحيى خلقه : يقول : يجعلهم أحياء بعد أن كانوا نُطَفًا أمواتا ، بنفخ الروح فيها بعد التارات التى تأتى عليها ، ويميت : يقول : ويميتهم بعد أن أحياهم (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) يقول : وهو الذى جعل الليل والنهار مختلفين ، كما يقال فى الكلام : لك المنّ والفضل ، بمعنى : إنك تمنّ وتفضل . وقوله (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) يقول : أفلا تعقلون أيها الناس أن الذى فعل هذه الأفعال ابتداء من غير أصل ، لايمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم ، وإنشاء ما شاء إعدامه بعد إنشائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾

❁ يقول تعالى ذكره : ما اعتبر هؤلاء المشركون بآيات الله ، ولا تدبّروا ما احتجّ عليهم من الحجج والدلالة على قدرته، على فعل كلّ مايشاء ، ولكن قالوا مثل ما قال أسلافهم ، من الأمم المكذّبة رسلها قبلهم ، (قالُوا أئِذَا مِتْنا وكُنَّا تُرَابا وَعِظاما) يقول : أئذا متنا ، وعدنا ترابا ، قد بليت أجسامنا ، وبرأت عظامنا من لحومنا (أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) يقول : إنا لمبعوثون من قبورنا أحياء ، كهيئتنا قبل الممات ؟ إن هذا لشيء غير كائن .

القول في تأويل قوله تعالى :

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

❁ يقول تعالى ذكره : قالوا : لقد وعدنا هذا الوعد الذى تعدنا يامحمد ، ووعد آباءنا من قبلنا قوم ذكروا أنهم لله رسل من قبلك ، فلم نره حقيقة أن هذا يقول : ما هذا الذى تعدنا من البعث بعد الممات (إلاَّ أساطِيرُ الأوَّلِينَ) يقول : ماسطَّره الأوَّلون فى كتبهم ، من الأحاديث والأخبار التى لاصحة لها ولا حقيقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

❁ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يامحمد لهؤلاء المكذّبين بالآخرة من قومك : لمن ملك الأرض ومن فيها من الخلق ، إن كنتم تعلمون مَنْ مالكها ، ثم أعلمه أنهم سيقرّون بأنها لله ملكا ، دون سائر الأشياء غيره (قُلْ أفَلا تَذَكَّرُونَ) يقول : فقل لهم إذا أجابوك بذلك كذلك أفلا تذكرون ، فتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداء ، فهو قادر على إحيائهم بعد مماتهم ، وإعادتهم خلقا سويا بعد فنائهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾

❁ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهم يا محمد ، من ربّ السموات السبع ، وربّ العرش المحيط بذلك ؟ سيقولون ذلك كله لله ، وهو ربه ، فقل لهم : أفلا تتقون عقابه على كفركم به ، وتكذيبكم خبره وخبر رسوله ؟

وقد اختلفت القرّاء فى قراءة قوله (سَيَقُولُونَ لِلهِ) فقرأ ذلك عامة قرّاء الحجاز والعراق والشام : (سَيَقُولُونَ لِلهِ) سوى أبي عمرو ، فإنه خالفهم فقرأه (سَيَقُولُونَ اللهُ) فى هذا الموضع ، وفى الآخر الذى بعده ، اتباعا لخط المصحف ، فإن ذلك كذلك فى مصاحف الأمصار ، إلا فى مصحف أهل البصرة ،

فإنه في الموضعين بالألف ، فقرءوا بالألف كلها اتباعا لخط مصحفهم ، فأما الذين قرءوه بالألف فلا مؤنة في قراءتهم ذلك كذلك ؛ لأنهم أجروا الجواب على الابتداء ، وردّوا مرفوعا على مرفوع . وذلك أن معنى الكلام على قراءتهم : قل من ربّ السموات السبع ، وربّ العرش العظيم ، سيقولون ربّ ذلك الله ، فلا مؤنة في قراءة ذلك كذلك . وأما الذين قرءوا ذلك في هذا والذي يليه بغير ألف ، فإنهم قالوا : معنى قوله قل من ربّ السموات : لمن السموات ، لمن ملك ذلك ؟ فجعل الجواب على المعنى ، فقيل : لله ، لأن المسألة عن ملك ذلك لمن هو ؟ قالوا : وذلك نظير قول قائل لرجل : مَن مولاك ؟ فيجيب المجيب عن معنى ما سئل ، فيقول : أنا لفلان ، لأنه مفهوم بذلك من الجواب ، ماهو مفهوم بقوله : مولاي فلان . وكان بعضهم يذكر أن بعض بني عامر أنشده :

وأعْلَمُ أنَّني سأكُونُ رَمْسا   اذَا سارَ النَّوَاجِعُ لايَسِيرُ
فقَالَ السَّائِلُونَ لِمَنْ حَفَرْتُمْ   فقَالَ المُخْبِرُونَ لَهُمْ : وَزِيرُ[1]

فأجاب المخفوض بمرفوع ، لأن معنى الكلام : فقال السائلون : من الميت ؟ فقال المخبرون : الميت وزير . فأجابوا عن المعنى دون اللفظ .

والصواب من القراءة في ذلك أنهما قراءتان قد قرأ بهما علماء من القرّاء ، متقاربتا المعنى ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب ، غير أني مع ذلك أختار قراءة جميع ذلك بغير ألف ، لإجماع خطوط مصاحف الأمصار على ذلك ، سوى خط مصحف أهل البصرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد من بيده خزائن كلّ شيء .

كما حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قول الله (مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) قال : خزائن كلّ شيء .

---

(١) البيتان مما أنشده الفراء عن بعض بني عامر ، في كتابه معاني القرآن (الورقة ٢١٩ من مصورة الجامعة رقم ٢٤٠٥٩) قال الفراء : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله » هذه مسألة فيها ؛ لأنه قد استفهم بلام ، فرجعت في خبر المستفهم . وأما الأخريان ، فإن أهل المدينة وعامة أهل الكوفة يقرءونهما كقراءة أبي كذلك : لله ، لله ، لله ، ثلاثهن . وأهل البصرة يقرءون الأخريين الله ، الله ، وهو في العربية أبين ، لأنه مردود مرفوع ؛ ألا ترى أن قوله « قل من رب السموات » مرفوع ، لا خفض فيه ، فجرى جوابه على مبتدئه ، وكذلك هي في قراءة عبد الله . والعلة في إدخال اللام في الأخريين في قول أبي وأصحابه : أنك لو قلت لرجل : من مولاك ؟ فقال : أنا لفلان ، كفاك من أن يقول : مولاي فلان ، فلما كان المعنيان واحدا ، جرى ذلك في كلامهم ؛ أنشدني بعض بني عامر : « وأعلم أنني سأكون رمسا ... » البيتين . فرفع . أراد : الميت وزير . والنواجع : جمع ناجعة ، وهي الجماعة تترك مياه لها في طلب الكلأ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن مجاهد ، في قول الله (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) قال : خزائن كلّ شيء .

وقوله (وَهُوَ يُجِيرُ) من أراد ممن قصده بسوء (وَلا يُجارُ عَلَيْهِ) يقول : ولا أحد يمتنع ممن أراده هو بسوء ، فيدفع عنه عذابه وعقابه (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) من ذلك صفته ، فإنهم يقولون : إن ملكوت كلّ شيء ، والقدرة على الأشياء كلها لله ، فقل لهم يامحمد (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) يقولون : فمن أىّ وجه تُصْرَفون عن التصديق بآيات الله ، والإقرار بأخباره وأخبار رسوله ، والإيمان بأن الله القادر على كل ما يشاء ، وعلى بعثكم أحياء بعد مماتكم ، مع علمكم بما تقولون من عظيم سلطانه وقدرته .

وكان ابن عباس فيما ذُكر عنه يقول فى معنى قوله (تُسْحَرُونَ) ما حدثنى به علىّ ، قال : ثنا عبد الله قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) يقول : تكذبون .

وقد بيَّنت فيما مضى السِّحْر : أنه تخييل الشيء إلى الناظر ، أنه على خلاف ماهو به من هيئته ، فذلك معنى قوله (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) إنما معناه : فمن أىّ وجه يُخيَّل إليكم الكذب حقا ، والفاسد صحيحا ، فتصرفون عن الإقرار بالحقّ ، الذى يدعوكم إليه رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾

يقول : ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون بالله ، من أن الملائكة بناتُ الله ، وأن الآلهة والأصنام آلهة دون الله (بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ) اليقين ، وهو الدين الذى ابتعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ، وذلك الإسلام ، ولا يُعْبَد شيء سوى الله ، لأنه لا إله غيره (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) يقول : وإن المشركين لكاذبون فيما يضيفون إلى الله ، ويَنْحَلُونه من الولد والشريك . وقوله (مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ) يقول تعالى ذكره : ما لله من ولد ، ولا كان معه فى القديم ، ولا حين ابتدع الأشياء ، مَنْ تصلح عبادته ، ولو كان معه فى القديم ، أو عند خلقه الأشياء ، مَنْ تصلح عبادته (مِنْ إلهٍ ، إذًا لَذَهَبَ) يقول : إذن لاعتزل كلّ إله منهم (بِمَا خَلَقَ) من شيء ، فانفرد به ، ولتغالبوا ، فلعلا بعضهم على بعض ، وغلب القوىّ منهم الضعيف ، لأن القوىّ لا يرضى أن يعلوَه ضعيف ، والضعيف لا يصلح أن يكون إلها ، فسبحان الله ما أبلغها من حجة ، وأوجزها لمن عقل وتدبر ! وقوله (إِذًا لَذَهَبَ) جواب لمحذوف ، وهو : لو كان معه إله إذن لذهب كل إله بما خلق ، اجتزئ بدلالة ماذكر عليه عنه . وقوله (سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) يقول تعالى ذكره تنزيها لله عما يصفه به هؤلاء المشركون ، من أن له ولدا ، وعما قالوه ، من أن له شريكا ، أو أن معه فى القدم إلها يُعبد ، تبارك وتعالى .

وقوله (عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ) يقول تعالى ذكره : هو عالم ما غاب عن خلقه من الأشياء ، فلم يَرَوْه ولم يشاهدوه ، وما رأوه وشاهدوه ، إنما هذا من الله خبر عن هؤلاء الذين قالوا من المشركين : اتخذ الله ولدا ، وعبدوا من دونه آلهة ، إنهم فيما يقولون ويفعلون مُبْطِلون مخطئون ، فإنهم يقولون مايقولون من قول فى ذلك عن غير علم ، بل عن جهل منهم به ، وإن العالم بقديم الأمور وبحديثها ، وشاهدها وغائبها عنهم ، الله الذى لايخفى عليه شىء ، فخبره هو الحق دون خبرهم ، وقال : (عالِمُ الغَيْبِ) فرفع على الابتداء ، بمعنى : هو عالم الغيب ، ولذلك دخلت الفاء فى قوله (فَتَعالَى) كما يقال : مررت بأخيك المحسن ، فأحسنت إليه ، فترفع المحسن إذا جعلت فأحسنت إليه بالفاء ، لأن معنى الكلام إذا كان كذلك : مررت بأخيك هو المحسن ، فأحسنت إليه . ولو جعل الكلام بالواو فقيل : وأحسنت إليه لم يكن وجه الكلام فى المحسن إلا الخفض على النعت للأخ . ولذلك لوجاء فتعالى بالواو ، كان وجه الكلام فى عالم الغيب الخفض على الاتباع لإعراب اسم الله ، وكان يكون معنى الكلام : سبحان الله عالم الغيب والشهادة وتعالى ! فيكون قوله « وتعالى حينئذ معطوفا على سبحان الله . وقد يجوز الخفض مع الفاء ، لأن العرب قد تبدئ الكلام بالفاء ، كابتدائها بالواو ، وبالخفض كان يقرأ (عالِمِ الغَيْبِ) فى هذا الموضع أبو عمرو ، وعلى خلافه فى ذلك قَرَأَةُ الأمصار .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا : الرفع ، لمعنيين : أحدهما : إجماع الحجة من القرّاء عليه ، والثانى : صحته فى العربية .

وقوله (فَتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) يقول تعالى ذكره : فارتفع الله وعلا عن شرك هؤلاء المشركين ، ووصفهم إياه بما يصفون :

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد : ربّ إنْ تُرِيَنِّى فى هؤلاء المشركين ما تعدهم من عذابك ، فلا تهلكنى بما تهلكهم به ، ونجنى من عذابك وسخطك ، فلا تجعلنى فى القوم المشركين ولكن اجعلنى ممن رضيت عنه من أوليائك . وقوله (فَلا تَجْعَلْنى) جواب لقوله : إما تُرِيَنِّى ، اعترض بينهما بالنداء ، ولو لم يكن قبله جزاء لم يجز ذلك فى الكلام ، لا يقال : يا زيد فقم ، ولا ياربِّ فاغفر ، لأن النداء مستأنف ، وكذلك الأمر بعده مستأنف ، لا تدخله الفاء والواو ، إلا أن يكون جوابا لكلام قبله . وقوله (وإنَّا على أنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ) يقول تعالى ذكره : وإنا يا محمد على أن نريك فى هؤلاء المشركين ما نعدهم من تعجيل العذاب لهم ، لقادرون ، فلا يَحْزُنْنكَ تكذيبهم إياك بما نعدهم به ، وإنما نؤخر ذلك ، ليبلغ الكتاب أجله .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه : ادفع يامحمد بالخلّة التى هى أحسن ،وذلك الإغضاء والصفح عن جهلة المشركين ، والصبر على أذاهم ، وذلك أمره إياه قبل أمره بحربهم ، وعنى بالسيئة : أذى المشركين إياه وتكذيبهم له فيما أتاهم به من عند الله ، يقول له تعالى ذكره : اصبر على ماتلقى منهم فى ذات الله .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد، فى قوله (ادْفَعْ بالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ) قال : أعرض عن أذاهم إياك .

حدثنا ابن عبدالأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن عبد الكريم الجَزَرىّ ، عن مجاهد (ادْفَعْ بالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ) قال : هو السلام ، تُسَلِّم عليه إذا لقيته .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن عبد الكريم ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا هَوْذَة ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن ، فى قوله (ادْفَعْ بالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ) قال : والله لايصيبها صاحبها حتى يكظم غيظا ، ويصفح عما يكره .

وقوله (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) يقول تعالى ذكره : نحن أعلم بما يصفون الله به ، وينحلُونه من الأكاذيب والفِرية عليه ، وبما يقولون فيك من السوء ، ونحن مجازوهم على جميع ذلك ، فلا يحزُنْك ماتسمع منهم من قبيح القول .

وقوله (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وقل يامحمد ربّ أستجير بك من خَنْق[1] الشياطين وهمزاتها ، والهَمْز : هو الغَمْز ، ومن ذلك قيل للهمز فى الكلام : هَمْزة ، والهَمَزات جمع همزة .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنى ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) قال : همزات الشياطين : خَنْقهم الناس ، فذلك هَمَزاتهم .

وقوله (وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) يقول : وقل أستجير بك ربّ أن يحضرون فى أمورى .

كالذى حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) فى شىء من أمرى .

(١) فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى : (همز) : « الهمز كالعصر » وهو مناسب لقول المؤلف : خنق الشياطين . لأن الخنق : هو عصر الرقبة وضغطها ، لينقطع النفس .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : حتى إذا جاء أحدَ هؤلاء المشركين الموتُ ، وعاين نزول أمر الله به ، قال لعظيم ما يعاين مما يَقْدَم عليه من عذاب الله تندّما على ما فات ، وتلهّفا على ما فرّط فيه قبل ذلك من طاعة الله ، ومسئلته للإقالة (رَبِّ ارْجِعُونِ) إلى الدنيا ، فردّوني إليها (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا) يقول : كي أعمل صالحا فيما تركت قبل اليوم من العمل ، فضيعته ، وفرّطت فيه .

وبنحو الذى قلنا فيه قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى معشر ، قال : كان محمد بن كعب القرظىّ يقرأ علينا (حتى إِذَا جاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُون) قال محمد : إلى أىّ شىء يريد ؟ إلى أىّ شىء يرغب ؟ أجمع المال ، أو غَرْس الغِراس ، أو بَنْى بُنْيان ، أو شقّ أنهار ؟ ثم يقول (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فيما تَرَكْتُ) يقول الجبار : كلاّ .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (رَبِّ ارْجِعُونِ) قال : هذه فى الحياة الدنيا ، ألا تراه يقول (حتى إِذَا جاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ) قال : حين تنقطع الدنيا ، ويعاين الآخرة ، قبل أن يذوق الموت .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لعائشة : « إِذَا عايَنَ المُؤْمِنُ المَلائِكَةَ قالُوا : نُرْجِعُكَ إِلى الدُّنْيا ؟ فَيَقُولُ : إلى دار الهُمُومِ وَالأحْزَانِ ، فَيَقُولُ بَلْ قَدِّمانِي إِلى اللهِ ، وأمَّا الكافِرُ فَيُقالُ : نُرْجِعُكَ ؟ فيَقُولُ : لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيما تَرَكْتُ » . . . الآية .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (حتَّى إِذَا جاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ) : يعنى أهل الشرك ، وقيل : ربّ ارجعون ، فابتدأ الكلام بخطاب الله تعالى ، ثم قيل : ارجعون ، فصار إلى خطاب الجماعة ، والله تعالى ذكره واحد . وإنما فعل ذلك كذلك ، لأن مسألة القوم الردّ إلى الدنيا ، إنما كانت منهم للملائكة الذين يقبضون روحهم ، كما ذكر ابن جريج أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قاله . وإنما ابتُدِئ الكلام بخطاب الله جلّ ثناؤه ، لأنهم استغاثوا به ، ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع ، والردّ إلى الدنيا .

وكان بعض نحويّى الكوفة يقول : قيل ذلك كذلك ، لأنه مما جرى على وصف الله نفسه من قوله (وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) فى غير مكان من القرآن ، فجرى هذا على ذلك .

وقوله (كَلاَّ) يقول تعالى ذكره : ليس الأمر على ماقال هذا المشرك ، لن يُرْجع إلى الدنيا ، ولن يُعاد إليها (إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) يقول : هذه الكلمة ، وهو قوله (رَبِّ ارْجِعُونِ) كلمة هو قائلها : يقول : هذا المشرك هو قائلها .

كما حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) لابد له أن يقولها (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ) يقول:ومن أمامهم حاجز يحجُز بينهم وبين الرجوع ، يعنى إلى يوم يبعثون من قبورهم ، وذلك يوم القيامة ؛ والبرزخ والحاجز والمُهْلة متقاربات فى المعنى .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) يقول : أجل إلى حين .

حدثنا أبوكريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد ، فى قوله (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ) قال : ما بعد الموت .

حدثنى أبوحميد الحِمْصىّ أحمد بن المغيرة ، قال : ثنا أبو حَيْوة شريح بن يزيد ، قال: ثنا أرطاة ، عن أبى يوسف ، قال: خرجت مع أبى أمامة فى جنازة ، فلما وُضِعت فى لحدها ، قال أبو أمامة : هذا برزخ إلى يوم يُبعثون .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا مطر ، عن مجاهد ، قوله (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) قال : مابين الموت إلى البعث .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) قال : حِجاب بين الميت والرجوع إلى الدنيا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد مثله .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) قال : برزخ بقية الدنيا .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) قال : البرزخ ما بين الموت إلى البعث .

حُدِّثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عُبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول : البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾

اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بقوله (فإذَا نُفِخَ فى الصُّور) من النفختين أيّتهما عُنِيَ بها ، فقال بعضهم : عُنِيَ بها النفخة الأولى .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام بن سلم ، قال : ثنا عمرو بن مطرف ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبير . أن رجلا أتى ابن عباس فقال : سمعت الله يقول (فَلا أنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ) . . . الآية . وقال فى آية أخرى (وأقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ) فقال : أما قوله (فَلا أنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ) فذلك فى النفخة الأولى ، فلا يبقى على الأرض شيء (فَلا أنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ) وأما قوله (وأقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ) فإنهم لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن السدىّ ، فى قوله (فإذَا نُفِخَ فى الصُّورِ فَلا أنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ) قال : فى النفخة الأولى .

حدثنا علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (فَلا أنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ) فذلك حين ينفخ فى الصور ، فلا حىّ يبقى إلا الله (وأقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ) فذلك إذا بُعثوا فى النفخة الثانية .

❁ قال أبو جعفر : فمعنى ذلك على هذا التأويل : فإذا نفخ فى الصور ، فصَعِقَ مَنْ فى السموات ومَنْ فى الأرض إلا مَنْ شاء الله ، فلا أنساب بينهم يومئذ يتواصلون بها ، ولا يتساءلون ، ولا يتزاورون ، فيتساءلون عن أحوالهم وأنسابهم .

وقال آخرون : بل عُنِيَ بذلك النفخة الثانية .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن فضيل ، عن هارون بن أبى وكيع ، قال : سمعت زاذان يقول : أتيت ابن مسعود ، وقد اجتمع الناس إليه فى داره ، فلم أقدِر على مجلس ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن ، من أجل أنى رجل من العجم تحقِرُنى ؟ قال : ادْنُ ، قال : فدنوت ، فلم يكن بينى وبينه جليس ، فقال : يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة ، على رءوس الأولين والآخرين ، قال : وينادى مناد : ألا إن هذا فلان بن فلان ، فمن كان له حقّ قبله فليأت إلى حقه ، قال : فتفرح المرأة يومئذ أن يكون لها حقّ على ابنها ، أو على أبيها ، أو على أخيها ، أو على زوجها (فَلا أنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ) » .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا عيسى بن يونس ، عن هارون بن عنترة ، عن زاذان ،

قال : سمعت ابن مسعود يقول : « يؤخذ العبد أو الأمة يوم القيامة ، فينصب على رءوس الأولين والآخرين ، ثم ينادى مناد ، ثم ذكر نحوه ، وزاد فيه : فيقول الربّ تبارك وتعالى للعبد : أعطِ هؤلاء حقوقهم ، فيقول : أى ربّ ، فنيت الدنيا ، فمن أين أعطيهم ؟ فيقول للملائكة : خذوا من أعماله الصالحة ، وأعطوا لكل إنسان بقدر طلبته ، فإن كان له فضلُ مثقال حبة من خردل ، ضاعفها الله له ، حتى يدخله بها الجنة ، ثم تلا ابن مسعود (إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) وإن كان عبدا شقيا قالت الملائكة : ربنا ، فنيت حسناته ، وبقى طالبون كثير ، فيقول : خذوا من أعمالهم السيئة ، فأضيفوها إلى سيئاته ، وصُكُّوا له صَكًّا إلى النار » .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج « (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) قال : لا يُسأل أحد يومئذ بنسب شيئا ، ولا يتساءلون ، ولا يمتّ إليه برحم » .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى محمد بن كثير ، عن حفص بن المغيرة ، عن قتادة ، قال : « ليس شيء أبغض إلى الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعافُه ، مخافة أن يذوب له عليه شيء ، ثم قرأ (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ») .

قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا الحكَم بن سِنان ، عن سَدُوس صاحب السائرىّ ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، نادَى مُنادٍ مِنْ أَهْلِ العَرْشِ : يا أَهْلَ التَّظَالُمِ تَدَارَكُوا مَظَالِمَكُمْ ، وَادْخُلُوا الجَنَّةَ . »

القول فى تأويل قوله تعالى :

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى ذكره (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) : موازين حسناته وخفت موازين سيئاته (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) يعنى الخالدون فى جنات النعيم (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) يقول : ومن خفّت موازين حسناته ، فرجَحَتْ بها موازين سيئاته (فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) يقول : غَبَنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله (فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) يقول : هم فى نار جهنم .

وقوله (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ) يقول : تَسْفَع وجوهَهم النار .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ) قال : تنفح (وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) والكُلوح : أن تتقلّص الشفتان عن الأسنان ، حتى تبدو الأسنان ، كما قال الأعشى :

وَلَهُ الْمُقَـــدَّمُ لامِثْلَ لَهُ ساعَةَ الشِّدْقُ عَنِ النَّابِ كَلَحْ[١]

فتأويل الكلام : يَسْفَع وجوههم لهب النار ، فتُحرقها ، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان، من إحراق النار وجوههم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنى عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله (وَهُمْ فِيها كالِحُونَ) يقول : عابسون .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى وعبد الرحمن ، قالا : ثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص عن عبد الله ، فى قوله (وَهُمْ فِيها كالِحُونَ) قال: ألم تر إلى الرأس المشيط قد بدت أسنانه ، وقلصت شفتاه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص عن عبد الله ، قرأ هذه الآية (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ) . . . الآية ، قال : ألم تر إلى الرأس المشيط بالنار وقد قلصت شفتاه ، وبدت أسنانه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَهُمْ فِيها كالِحُونَ) قال ألم تر إلى الغنم إذا مست النار وجوهها كيف هى ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى ذكره : يقال لهم (أَلَمْ تَكُنْ آياتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ) يعنى آيات القرآن تتلى عليكم فى الدنيا (فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ) وترك ذكر يقال، لدلالة الكلام عليه . (قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا) اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة ، وبعض أهل الكوفة (غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا) بكسر الشين، وبغير ألف . وقرأته عامة قرّاء أهل الكوفة (شَقَاوَتُنا) بفتح الشين والألف.

والصواب من القول فى ذلك: أنهما قراءتان مشهورتان ، وقرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء بمعنى واحد ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب . وتأويل الكلام : قالوا : ربنا غلبت علينا ما سبق لنا فى سابق علمك وخطّ لنا فى أمّ الكتاب .

(١) البيت للأعشى ميمون بن قيس بن ثعلبة (ديوانه ص ٢٤١ بشرح الدكتور محمد حسين ، طبع القاهرة) . والرواية فيه فى المطرف ، إذا ... فى موضع ، لا مثل له ... والمقدم بضم الميم : مصدر بمعنى الإقدام . وكلح الشدق : كشر عن الأنياب فى عبوس . يمدح إياس بن قبيصة الطائى ، ويذكر من صفاته الإقدام فى الحرب حين تنكص الأبطال النزال ، وتكشر الدوائر عن أنيابها ، كرها للحرب. ... الكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بَزَّة ، عن مجاهد ، قوله (غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا) قال : التى كتبت علينا .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا) التى كتبت علينا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

وقال : قال ابن جريج : « بلغنا أن أهل النار نادوا خَزَنة جهنم : أنُ (ادْعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) فلم يجيبوهم ما شاء الله ؛ فلما أجابوهم بعد حين ، قالوا : (ادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال). قال : ثم نادوا مالكا : يامالك ليقضِ علينا ربك ، فسكت عنهم مالك خازن جهنم أربعين سنة ، ثم أجابهم فقال : (إنَّكُمْ ماكِثُونَ) . ثم نادى الأشقياء ربهم ، فقالوا (رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ، رَبَّنا أخْرِجْنا مِنْها ، فإنْ عُدْنا فانَّا ظالِمُونَ) فسكت عنهم مثل مقدار الدنيا ، ثم أجابهم بعد ذلك تبارك وتعالى (اخْسَئُوا فيها وَلا تُكَلِّمُونِ) » .

قال[1] : ثنى حجاج ، عن أبى بكر بن عبد الله ، قال : « ينادى أهل النار أهل الجنة فلا يجيبونهم ماشاء الله ، ثم يقال : أجيبوهم ، وقد قطع الرَّحِمَ والرحمة ، فيقول أهل الجنة : يا أهل النار ، عليكم غضب الله ، يا أهل النار ، عليكم لعنة الله ، يا أهل النار ، لا لَبَّيْكم ولا سَعْدَيْكم ، ماذا تقولون ؟ فيقولون : ألم نك فى الدنيا آباءكم وأبناءكم وإخوانكم وعشيرتكم ؟ فيقولون : بلى ، فيقولون (أفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ المَاءِ ، أوْ مِما رَزَقَكُمُ اللهُ ، قالُوا إنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الكافِرِينَ) » .

قال[1] : ثنى حجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن كعب القُرَظىّ ؛ قال : وثنى عَبْدة المُرْوزىّ ، عن عبد الله ابن المبارك ، عن عمرو بن أبى ليلى ، قال : سمعت محمد بن كعب ، زاد أحدهما على صاحبه : قال محمد ابن كعب : بلغنى ، أو ذُكر لى ، أن أهل النار استغاثوا بالخَزَنة ، ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ، فردّوا عليهم ما قال الله : فلما أيسوا نادَوا : يامالك ، وهو عليهم ، وله مجلس فى وسطها ، وجسور تمرّ عليها ملائكة العذاب ، فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها ، فقالوا : يا مالك ، ليقض علينا ربك ، سألوا الموت ، فمكث لايجيبهم ثمانين ألفَ سنة من سنى الآخرة ، أو كما قال : ثم انحطّ إليهم ، فقال (إنَّكُمْ ما كِثونَ) فلما سمعوا ذلك قالوا : فاصبروا ، فلعلّ الصبر ينفعنا كما صبر أهل الدنيا على طاعة الله ، قال : فصَبَروا ، فطال صبرهم ، فنادَوا (سَوَاءٌ عَلَيْنا أجَزِعْنا أمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ) : أي مَنْجًى ، فقام إبليس عند ذلك فخطبهم ، فقال (إنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ ، وَوَعَدْتُكُمْ فأخْلَفْتُكُمْ ، وَما كانَ لى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ) ؛ فلما سمعوا مقالتهم ، مَقَتُوا أنفسهم ، قال : فنودوا (لَمَقْتُ

(١) لعل القائل هنا أيضا : هو القاسم ، راوى الحديث بالإسناد السابق على هذا .

اللهِ أكبرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أنفُسَكُمْ ، إذْ تُدْعَوْنَ إلى الإيمانِ فتَكْفُرُونَ . قالُوا ربَّنا أمَتَّنا) ... الآية . قال : فيجيبهم الله فيها (ذَلِكُمْ بأنَّهُ إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فالحُكْمُ للهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ) قال : فيقولون : ما أيسنا بعدُ . قال : ثم دَعَوا مرّة أخرى ، فيقولون ، (رَبَّنا أبْصَرْنا وسَمِعْنا ، فارْجِعْنا نَعْمَلْ صالحا ، إنَّا مُوقِنُونَ) قال : فيقول الربّ تبارك وتعالى (ولَوْ شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاها) يقول الربّ : لو شئت لهديت الناس جميعا ، فلم يختلف منهم أحد (ولكنْ حقَّ القَوْلُ مِنِّي لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ ؛ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) يقول : بما تركتم أن تعملوا ليومكم هذا (إنَّا نَسِيناكُمْ) : أى تركناكم (وَذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) قال : فيقولون : ما أيسنا بعد . قال : فيدعون مرّة أخرى (رَبَّنا أخِّرْنا إلى أجَلٍ قَرِيبٍ ، نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ) قال : فيقال لهم (أوَ لَمْ تَكُونُوا أقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ، وَسَكَنْتُمْ في مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ) . . . الآية ، قال : فيقولون : ما أيسنا بعدُ . ثم قالوا مرّة أخرى (رَبَّنا أخْرِجْنا نَعْمَلْ صَالِحا غيرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) ، قال : فيقول (أوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ) . . . إلى (نَصِيرٍ) . ثم مكث عنهم ما شاء الله ، ثم ناداهم (ألَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ) فلما سمعوا ذلك قالوا : الآن يرحمنا ، فقالوا عند ذلك (رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا) : أى الكتاب الذى كتب علينا (وكُنَّا قَوْما ضَالِّينَ ، رَبَّنا أخْرِجْنا مِنْها) . . . الآية ، فقال عند ذلك (اخْسَئُوا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ) قال : فلا يتكلمون فيها أبدا ، فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء منهم . وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض ، فأطبقت عليهم . قال عبد الله بن المبارك فى حديثه : فحدثنى الأزهر بن أبى الأزهر أنه قال : فذلك قوله (هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ، ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى بكر بن عبد الله ، أنه قال : فوالذى أنزل القرآن على محمد ، والتوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، ما تكلم أهل النار كلمة بعدها إلا الشهيق والزعيق فى الخلد أبدا ، ليس له نفاد .

قال : ثنى حجاج ، عن أبى معشر ، قال : كنا فى جنازة ومعنا أبو جعفر القارئ ، فجلسنا ، فتنحى أبو جعفر ، فبكى ، فقيل له : ما يبكيك يا أبا جعفر ؟ قال : أخبرنى زيد بن أسلم ، أن أهل النار لا يتنفسون .

وقوله (وكُنَّا قَوْما ضَالِّينَ) يقول : كنا قوما ضللنا عن سبيل الرشاد ، وقصد الحقّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۞ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل الذين خفت موازين صالح أعمالهم يوم القيامة فى جهنم : ربنا أخرجنا من النار ، فإن عدنا لما تكره منا من عمل ، فإنا ظالمون .

وقوله (قالَ اخْسَئُوا فِيها) يقول تعالى ذكره : قال الربّ لهم جلّ ثناؤه مجيبا : (اخْسَئُوا فِيها) : أى اقعدوا فى النار ، يقال منه : خَسَأْتُ فلانا أخْسَؤُه خَسْأً وخُسُوءًا ، وخَسِئَ هو يخسأ وما كان خاسئا ، ولقد خسِئَ . (وَلا تُكَلِّمُونِ) فعند ذلك أيس المساكين من الفرج ، ولقد كانوا طامعين فيه .

كما حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيّ ، قال : ثنا سفيان ، عن سَلَمة بن كُهَيل ، قال ثنى أبو الزعراء ، عن عبد الله ، فى قصة ذكرها فى الشفاعة ، قال : فإذا أراد الله ألّا يُخرج منها ، يعنى من النار أحدا ، غير وجوههم وألوانها ، فيجىء الرجل من المؤمنين ، فيشفع فيهم ، فيقول : يا ربّ ، فيقول من عرف أحدا فليخرجه ؛ قال : فيجىء الرجل فينظر ، فلا يعرف أحدا ، فيقول : يا فلان يا فلان ، فيقول : ما أعرفك ، فعند ذلك يقولون (رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها ، فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ) فيقول (اخْسَئُوا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ) فإذا قالوا ذلك ، انطبقت عليهم جهنم ، فلا يخرج منها بشر .

حدثنا تميم بن المنتصر ، قال : أخبرنا إسحاق ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن شَهر ابن حَوْشب ، عن معدى كرب ، عن أبى الدَّرْداء ، قال : يُرْسل ، أو يصبّ على أهل النار الجوع ، فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيغاثون بالضَّريع الذى لا يُسْمِن ولا يُغْنِى من جوع ، فلا يغنى ذلك عنهم شيئا ، فيستغيثون ، فيغاثون بطعام ذى غُصّة ، فإذا أكلوه نَشِب فى حلوقهم ، فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يحدرون الغصة بالماء ، فيستغيثون ، فيرفع إليهم الحميم فى كلاليب الحديد ، فاذا انتهى إلى وجوههم شوى وجوههم ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم ، قال : فينادون مالكا لِيَقْضِ علينا ربك ، قال : فيتركهم ألف سنة ، ثم يجيبهم : إنكم ماكثون ، قال : فينادون خَزَنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ، قالوا : أو لم تَكُ تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ؛ قال : فيقولون ما نجد أحدا خيرا لنا من ربنا ، فينادون ربهم : (رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها ، فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ) ، قال : فيقول الله (اخْسَئُوا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ) قال : فعند ذلك يئسوا من كل خير ، فيدْعُون بالويل والشَّهيق والثُّبور .

حدثنى محمد بن عُمارة الأسدىّ ، قال : ثنا عاصم بن يوسف اليربوعىّ ، قال : ثنا قُطْبة بن عبد العزيز الأسدىّ ، عن الأعمش ، عن شمر بن عطية ، عن شهر بن حوشب ، عن أمّ الدرداء ، عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الجُوعُ » . . . ثم ذكر نحوا منه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب القُمّىّ ، عن هارون بن عنترة ، عن عمرو بن مُرّة ، قال : يرى أهل النار فى كل سبعين عاما ساق مالك خازن النار ، فيقولون (يامالِكُ ، لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ) ! فيجيبهم بكلمة ، ثم لا يرونه سبعين عاما ، فيستغيثون بالخَزَنة ، فيقولون لهم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ! فيجيبونهم : (أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ) . . . الآية ، فيقولون : ادعوا ربكم ، فليس أحد أرحم من ربكم ، فيقولون (رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها ، فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ) . قال : فيجيبهم (اخْسَئُوا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ) فعند ذلك ييأسون من كلّ خير ، ويأخذون فى الشهيق والوَيْل والثُّبور .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (اخْسَئُوا فيها وَلا تُكَلِّمُونِ) : قال : بلغني أنهم ينادُون مالكا فيقولون : ليقض علينا ربك ، فيسكت عنهم قدر أربعين سنة ، ثم يقول (إنَّكُمْ ماكِثُونَ) قال : ثم ينادُون ربهم ، فيسكت عنهم قدر الدنيا مرّتين ، ثم يقول (اخْسَئُوا فيها وَلا تُكَلِّمُونِ) قال : فييأس القوم ، فلا يتكلمون بعدها كلمة ، وكان إنما هو الزفير والشهيق . قال قتادة : صوت الكافر في النار مثل صوت الحمار : أوّله زفير ، وآخره شهيق .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا الحسن ، قال : ثنا عبد الله بن عيسى ، قال : أخبرني زياد الخراسانيّ ، قال : أسنده إلى بعض أهل العلم ، فنسيته في قوله (اخْسَئُوا فيها وَلا تُكَلِّمُونِ) قال : فيسكتون ، قال : فلا يسمع فيها حِسّ إلا كطنين الطَّسْت .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (اخْسَئُوا فيها وَلا تُكَلِّمُونِ) هذا قول الرحمن عزّ وجلّ : حين انقطع كلامهم منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى ذكره (إنَّهُ) وهذه الهاء في قوله « إنه » هي الهاء التي يسميها أهل العربية المجهولة . وقد بينت معناها فيما مضى قبلُ ، ومعنى دخولها في الكلام ، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع (كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي) يقول : كانت جماعة من عبادي ، وهم أهل الإيمان بالله ، يقولون في الدنيا : (رَبَّنا آمَنَّا) بك وبرسلك ، وما جاءوا به من عندك ، (فاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَارْحَمْنا) وأنت خير من رحم أهل البلاء ، فلا تعذّبنا بعذابك .

القول في تأويل قوله تعالى :

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾

يقول تعالى ذكره : فاتخذتم أيها القائلون لربهم (رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) في الدنيا ، القائلين فيها (رَبَّنا آمَنَّا فاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وأنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) سُخْرِيا . والهاء والميم في قوله (فاتَّخَذْتُمُوهُمْ) من ذكر الفريق .

واختلفت القرّاء في قراءة قوله (سُخْرِيًّا) فقرأه بعض قرّاء الحجاز وبعض أهل البصرة والكوفة (فاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا) بكسر السين ، ويتأوّلون في كسرها أن معنى ذلك الهزء ، ويقولون : إنها إذا ضُمَّت ، فمعنى الكلمة : السُّخْرة والاستعباد . فمعنى الكلام على مذهب هؤلاء : فاتخذتم أهل الإيمان بي

فى الدنيا هزُوًا ولعبا، تهزءون بهم، حتى أنسوكم ذكرى . وقرأ ذلك عامة قرّاء المدينة والكوفة (فاتّخذتموهم سُخْرِيًّا) بضم السين ؛ وقالوا : معنى الكلمة فى الضمّ والكسر واحد . وحكى بعضهم عن العرب سماعا لِجِّيّ ولُجِّيّ ، ودِرِيّ ، ودُرِّيّ، منسوب إلى الدرّ، وكذلك كِرسيّ وكُرسيّ ؛ وقالوا ذلك من قيلهم كذلك : نظير قولهم فى جمع العصا : العِصِيّ بكسر العين ، والعُصِيّ بضمها ؛ قالوا : وإنما اخترنا الضمّ فى السُّخرىّ ، لأنه أفصح اللغتين .

والصواب من القول فى ذلك : أنهما قراءتان مشهورتان ، ولغتان معروفتان، بمعنى واحد ، قد قرأ بكلّ واحدة منهما علماء من القرّاء ، فبأيتهما قرأ القارئ ذلك فمصيب، وليس يُعْرف من فرق بين معنى ذلك إذا كسرت السين وإذا ضمت ، لما ذكرت من الرواية عمن سمع من العرب ماحكَيت عنه :

ذكر الرواية به عن بعض من فرّق فى ذلك بين معناه مكسورة سينه ومضمومة :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب، قال : قال ابن زيد (فاتّخذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا) قال : هما مختلفتان : سِخريا ، وسُخريا ، يقول الله (وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سِخْرِيًّا) قال : هذا سِخريّا : يُسَخّرونهم ، والآخرون : الذين يستهزئون بهم هم سُخريًّا ، فتلك سِخريًّا يُسَخرونهم عندك، فسخّرك: رفعك فوقه ؛ والآخرون: استهزءوا بأهل الإسلام هى سُخريًا يَسْخَرون منهم، فهما مختلفتان . وقرأ قول الله (كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قالَ إنْ تَسْخَرُ مِنَّا وا فإنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ) وقال: يسخرون منهم كما سخر قوم نوح بنوح ، اتخذوهم سُخريًّا : اتخذوهم هزُوًا ، لم يزالوا يستهزئون بهم .

وقوله (حتى أنْسَوكُمْ ذِكْرِى) يقول : لم يزل استهزاؤكم بهم، أنساكم ذلك من فعلكم بهم ذكرى ؛ فألهاكم عنه (وكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ) .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (حتى أنْسَوْكُمْ ذِكْرِى) قال : أنسى هؤلاءِ اللهَ استهزاؤهم بهم، وضحكُهم بهم، وقرأ(إنَّ الَّذِينَ أجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ) حتى بلغ (إنَّ هَؤُلاءِ لَضالُّونَ) ، وقوله (إنِّى جَزَيْتُهُمُ اليَوْمَ بِما صَبَروا) يقول تعالى ذكره : إنى أيها المشركون بالله المخلّدون فى النار ، جزَيت الذين اتخذتموهم فى الدنيا سخريا من أهل الإيمان بى، وكنتم منهم تضحكون . اليومَ بما صبروا على ما كانوا يلقَون بينكم من أذى سخريتكم وضحككم منهم فى الدنيا ، إنهم هم الفائزون .

اختلفت القرّاء فى قراءة (إنَّهُمْ) فقرأته عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة (أنَّهُمْ) ، بفتح الألف من « أنهم » بمعنى : جزيتهم هذا ، فأن فى قراءةِ هؤلاء: فى موضع نصب بوقوع قوله جزيتهم عليها ، لأن معنى الكلام عندهم : إنى جزيتهم اليوم الفوز بالجنة ؛ وقد يحتمل النصب من وجه آخر ، وهو أن يكون موجّها معناه إلى: إنى جزيتهم اليوم بما صبروا، لأنهم هم الفائزون بما صبروا فى الدنيا ، على ما لقوا

فى ذات الله . وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة (إنّى) بكسر الألف منها ، بمعنى الابتداء ، وقالوا : ذلك ابتداء من الله مدحهم .

وأولى القراءتين فى ذلك بالصواب : قراءة من قرأ بكسر الألف ، لأن قوله : جزيتهم ، قد عمل فى الهاء والميم ، والجزاء إنما يعمل فى منصوبين ، وإذا عمل فى الهاء والميم، لم يكن له العمل فى « أن » فيصير عاملا فى ثلاثة إلا أن يُنْوَى به التكرير ، فيكون نصب « أنَّ » حينئذ بفعل مضمر ، لا بقوله : جزيتهم ، وإن هى نصبت بإضمار لام ، لم يكن له أيضا كبير معنى ، لأن جزاء الله عباده المؤمنين بالجنة ، إنما هو على ماسلَف من صالح أعمالهم فى الدنيا ، وجزاؤه إياهم ، وذلك فى الآخرة هو الفوز ، فلا معنى لأن يَشْرُط لهم الفوز بالأعمال ، ثم يخبر أنهم إنما فازوا لأنهم هم الفائزون .

فتأويل الكلام إذ كان الصواب من القراءة ماذكرنا : إنى جزيتهم اليوم الجنة بما صبروا فى الدنيا على أذاكم بها ، فى أنهم اليوم هم الفائزون بالنعيم الدائم ، والكرامة الباقية أبدا ، بما عملوا من صالحات الأعمال فى الدنيا ، ولقوا فى طلب رضاى من المكاره فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾

❁ اختلفت القرّاء فى قراءة قوله (كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ) ، وفى قوله (لَبِثْنَا يَوْما أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) فقرأ ذلك عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة على وجه الخبر (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ) ، وكذلك قوله (قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ) . ووجَّه هؤلاء تأويل الكلام إلى أن الله قال لهؤلاء الأشقياء من أهل النار ، وهم فى النار (كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟) وأنهم أجابوا الله فقالوا (لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) ، فنسي الأشقياء ، لعظيم ما هم فيه من البلاء والعذاب ، مدة مكثهم التى كانت فى الدنيا ، وقَصُر عندهم أمد مكثهم الذى كان فيها ، لما حلّ بهم من نقمة الله ، حتى حسبوا أنهم لم يكونوا مكثوا فيها إلا يوما أو بعض يوم . ولعلّ بعضهم كان قد مكث فيها الزمان الطويل ، والسنين الكثيرة .

وقرأ ذلك عامة قرّاء أهل الكوفة ، على وجه الأمر لهم بالقول ، كأنه قال لهم : قولوا كم لبثتم فى الأرض؟ وأخرج الكلام مُخْرج الأمر للواحد ، والمعنىّ به الجماعة ، إذ كان مفهوما معناه ، وإنما اختار هذه القراءة من اختارها من أهل الكوفة ، لأن ذلك فى مصاحفهم ، قُلْ بغير ألف ، وفى غير مصاحفهم بالألف .

وأولى القراءتين فى ذلك بالصواب : قراءة من قرأ ذلك (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ) على وجه الخبر ، لأن وجه الكلام لو كان ذلك أمرا ، أن يكون « قُولوا » على وجه الخطاب للجمع ، لأن الخطاب فيما قبل ذلك وبعده جرى لجماعة أهل النار ، فالذى هو أولى أن يكون كذلك قوله « قولوا » ، لو كان الكلام جاء على وجه الأمر ، وإن كان الآخر جائزا ، أعنى التوحيد ، لما بيّنت من العلة لقارئ ذلك كذلك ، وجاء الكلام بالتوحيد

فى قراءة جميع القرّاء ، كان معلوما أن قراءة ذلك على وجه الخبر عن الواحد أشبه ، إذا كان ذلك هو الفصيح المعروف من كلام العرب ، فإذا كان ذلك كذلك ، فتأويل الكلام : قال الله كم لبثتم فى الدنيا من عدد سنين ؟ قالوا مجيبين له : لبثنا فيها يوما أو بعض يوم ، فاسأل العادّين ، لأنا لاندرى ، قد نسينا ذلك .

واختلف أهل التأويل فى المعنىّ بالعادّين ، فقال بعضهم : هم الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم ، ويُحصُون عليهم ساعاتهم .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (فاسألِ العادِّينَ) قال : الملائكة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : بل هم الحُسّاب .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة (فاسألِ العادِّينَ) قال : فاسأل الحُسّاب .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (فاسألِ العادّينَ) قال : فاسأل أهل الحساب .

* وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن يقال كما قال الله جلّ ثناؤه (فاسألِ العادّينَ) وهم الذين يَعُدّون عدد الشهور والسنين وغير ذلك ، وجائز أن يكونوا الملائكة ، وجائز أن يكونوا بنى آدم وغيرهم ، ولا حجة بأىّ ذلك من أىّ ثبتت صحتها ، فغير جائز توجيه معنى ذلك إلى بعض العادّين دون بعض .

القول في تأويل قوله تعالى :

قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

* اختلفت القرّاء فى قراءة قوله (قالَ إنْ لَبِثْتُمْ إلاّ قَلِيلاً) اختلافهم فى قراءة قوله (قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ) والقول عندنا فى ذلك فى هذا الموضع ، نحو القول الذى بيّناه قبلُ ، فى قوله (كَمْ لَبِثْتُمْ) وتأويل الكلام على قراءتنا : قال الله لهم : ما لبثتم فى الأرض إلا قليلا يسيرا ، لو أنكم كنتم تعلمون قدر لبثكم فيها .

وقوله (أفَحَسِبْتُمْ أنَّمَا خَلَقْناكُمْ عَبَثًا ؟) يقول تعالى ذكره : أفحسبتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم لعبا وباطلا ، وأنكم إلى ربكم بعد مماتكم لاتصيرون أحياء ، فتجزون بما كنتم فى الدنيا تعملون ؟

وقد اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأه بعض قرّاء المدينة والبصرة والكوفة (لاتُرْجَعُونَ) بضمّ التاء : لاتُردّون ، وقالوا : إنما هو من مَرْجِعِ الآخرة ، لا من الرجوع إلى الدنيا ، وقرأ ذلك عامة قرّاء

الكوفة (لاتَرْجِعُونَ) وقالوا : سواء فى ذلك مرجع الآخرة ، والرجوع إلى الدنيا .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن يقال : إنهما قراءتان متقاربتا المعنى ، لأن من ردّه الله إلى الآخرة من الدنيا بعد فنائه ، فقد رجّعه إليها ، وأن من رجع إليها ، فبردّ الله إياه إليها رجع . وهما مع ذلك قراءتان مشهورتان ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء ، فبأيّهما قرأ القارئ فمصيب .

وبنحو الذى قلنا فى معنى قوله (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) قال : باطلا .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : فتعالى الله الملك الحق عما يصفه به هؤلاء المشركون ، من أن له شريكا ، وعما يضيفون إليه من اتخاذ البنات (لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ) يقول : لامعبود تنبغى له العبودة إلا الله الملك الحقّ ، ربّ العرش الكريم ، والربّ : مرفوع بالردّ على الحقّ ، ومعنى الكلام : فتعالى الله الملك الحقّ ، ربّ العرش الكريم ، لاإله إلا هو .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : ومن يدع مع المعبود الذى لاتصلح العبادة إلا له معبودا آخر ، لاحجة له بما يقول ويعمل من ذلك ، ولا بينة .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (لابُرْهَانَ لَهُ بِهِ) قال : بينة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (لابُرْهَانَ لَهُ بِهِ) قال : حُجة .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بزة ، عن مجاهد ، فى قوله (لابُرْهَانَ لَهُ بِهِ) قال : لاحجة .

وقوله (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) يقول : فإنما حساب عمله السيّئ عند ربه ، وهو مُوَفّيه جزاءه إذا

قدم عليه (إِنَّهُ لايُفْلِحُ الكافِرُونَ) يقول : إنه لاينجح أهل الكفر بالله عنده ، ولا يدركون الخلود والبقاء فى النعيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ١١٨

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وقل يامحمد،ربّ استر علىّ ذنوبى بعفوك عنها ، وارحمنى بقبول توبتك ، وتركك عقابى على ما اجترمت (وأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) يقول : وقل أنت ياربّ خير من رحم ذا ذنب ، فقبل توبته ، ولم يعاقبه على ذنبه .

آخر تفسير سورة المؤمنين

---

(٢٤) سُورَةُ النُّورِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ١

قال أبو جعفر : يعنى بقوله تعالى ذكره (سُورَةٌ أَنْزَلْناها) وهذه السورة أنزلناها ، وإنما قلنا معنى ذلك كذلك ، لأن العرب لاتكاد تبتدئ بالنكرات قبل أخبارها إذا لم تكن جوابا ، لأنها توصل كما يوصل «الذى» ، ثم يخبر عنها بخبر سوى الصلة ، فيستقبح الابتداء بها قبل الخبر إذا لم تكن موصولة ، إذ كان يصير خبرها إذا ابتدئ بها كالصلة لها ، ويصير السامع خبرها كالمتوقع خبرها ، بعد إذ كان الخبر عنها بعدها ، كالصلة لها ، وإذا ابتدئ بالخبر عنها قبلها ، لم يدخل الشك على سامع الكلام فى مراد المتكلم . . وقد بيّنّا فيما مضى قبلُ أن السورة وصف لما ارتفع بشواهده ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع .

وأما قوله (وَفَرَضْناها) فإن القرّاء اختلفت فى قراءته ، فقرأه بعض قرّاء الحجاز والبصرة (وَفَرَّضْناها) ويتأوّلونه : وفصّلناها ونزّلنا فيها فرائض مختلفة . وكذلك كان مجاهد يقرؤه ويتأوّله .

حدثنى أحمد بن يوسف ، قال : ثنا القاسم ، قال : ثنا ابن مهدىّ ، عن عبد الوارث بن سعيد ، عن حميد ، عن مجاهد ، أنه كان يقرؤها (وَفَرَّضْناها) يعنى بالتشديد .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (وَفَرَّضْناها) قال : الأمر بالحلال ، والنهى عن الحرام .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله : وقد يحتمل

ذلك إذا قرئ بالتشديد وجها غير الذى ذكرنا عن مجاهد ، وهو أن يوجه إلى أن معناه : وفرضناها عليكم وعلى من بعدكم من الناس إلى قيام الساعة . وقرأ ذلك عامة قرّاء المدينة والكوفة والشأم (وَفَرَضْناها) بتخفيف الراء ، بمعنى : أوجبنا ما فيها من الأحكام عليكم ، وألزمناكموه وبيّنّا ذلك لكم .

والصواب من القول فى ذلك: أنهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء ، فبأيّتهما قرأ القارئ فمصيب . وذلك أن الله قد فصلها ، وأنزل فيها ضروبا من الأحكام ، وأمر فيها ونهى ، وفرض على عباده فيها فرائض . ففيها المعنيان كلاهما : التفريض ، والفرض ، فلذلك قلنا بأية القراءتين قرأ القارئ فمصيب الصواب .

ذكر من تأوّل ذلك بمعنى الفَرْض والبيان من أهل التأويل

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله : (وَفَرَضْناها) يقول : بيناها .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها) قال : فرضناها لهذا الذى يتلوها مما فرض فيها ، وقرأ فيها (آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

وقوله (وأَنْزَلْنا فيها آياتٍ بَيِّناتٍ) يقول تعالى ذكره : وأنزلنا فى هذه السورة علامات ودلالات على الحقّ بينات ، يعنى واضحات لمن تأملها وفكر فيها بعقل ، أنها من عند الله ، فإنها الحقّ المبين ، وإنها تهدى إلى الصراط المستقيم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (وأَنْزَلْنا فيها آياتٍ بَيِّناتٍ) قال : الحلال والحرام والحدود (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) يقول : لتتذكروا بهذه الآيات البينات التى أنزلناها

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٢

يقول تعالى ذكره : من زنى من الرجال ، أو زنت من النساء ، وهو حرّ بكر غير مُحْصَن بزوج ، فاجلدوه ضربا مئة جلدة ، عقوبة لما صنع ، وأتى من معصية الله (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ) يقول تعالى ذكره : لاتأخذكم بالزانى والزانية أيها المؤمنون رأفة ، وهى رقة الرحمة فى دين الله ، يعنى فى طاعة الله فيما أمركم به من إقامة الحدّ عليهما ، على ما ألزمكم به .

واختلف أهل التأويل فى المنهىّ عنه المؤمنون من أخذ الرأفة بهما ، فقال بعضهم : هو ترك إقامة حدّ الله عليهما ، فأما إذا أقيم عليهما الحدّ ، فلم تأخذهم بهما رأفة فى دين الله .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو هشام ، قال : ثنا يحيى بن أبى زائدة ، عن نافع بن عمر ، عن ابن أبى مُلَيكة ، عن عبيد الله

ابن عبد الله بن عمر ، قال : جَلَدَ ابن عمر جارية له أحدثت ، فجلد رجليها ، قال نافع : وحسبت أنه قال : وظهرها ، فقلت (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فِى دِينِ اللهِ) فقال : وأخذتنى بها رأفة ، إن الله لم يأمرنى أن أقتلها .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن عُلَيَّة ، عن ابن جُرَيج ، قال : سمعت عبد الله بن أبى مليكة يقول: ثنى عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، أن عبد الله بن عمر حدّ جارية له ، فقال للجالد : وأشار إلى رجلها ، وإلى أسفلها ، قلت : فأين قول الله (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فِى دِينِ اللهِ) قال : أفأقتلها ؟

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فِى دِينِ اللهِ) قال : أن تقيم الحدّ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، ابن جُرَيج (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فِى دِينِ اللهِ) قال : لاتضيعوا حدود الله .

قال ابن جُرَيج : وقال مجاهد : (لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ) : لاتضيعوا الحدود فى أن تقيموها ، وقالها عطاء بن أبى رباح .

حدثنا أبو هشام ، قال : ثنا عبد الملك وحجاج ، عن عطاء (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فِى دِينِ اللهِ) قال : يقام حدّ الله ولا يعطل ، وليس بالقتل .

حدثنا ابن المثنَّى ، قال : ثنى محمد بن فضيل ، عن داود ، عن سعيد بن جبير ، قال : الجلد .

حدثنى عبيد بن إسماعيل الهَبَّارىّ ، قال : ثنا محمد بن فضيل ، عن المغيرة ، عن إبراهيم ، فى قوله (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فى دِينِ اللهِ) قال : الضرب .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر ، قال : سمعت عمران ، قال : قلت لأبى مجلز (الزَّانِيَةُ وَالزَّانى فاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُما) . . . إلى قوله (وَالْيَوْمِ الآخِرِ) إنا لنرحمهم أن يجلد الرجل حدّاً ، أو تقطع يده ، قال : إنما ذاك أنه ليس للسلطان إذا رفعوا إليه أن يدعهم رحمة لهم حتى يقيم الحدّ .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فى دِينِ اللهِ) قال : لاتقام الحدود .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ) فتدعوهما من حدود الله التى أمر بها ، وافترضها عليهما .

قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنا ابن لَهيعة ، عن خالد بن أبى عمران ، أنه سأل سليمان بن يسار ، عن قول الله (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فى دِينِ اللهِ) أى فى الحدود ، أو فى العقوبة ؟ قال : ذلك فيهما جميعا .

حدثنا عمرو بن عبد الحميد الآمُلىّ ، قال : ثنا يحيى بن زكريا ، عن عبد الملك بن أبى سليمان ، عن عطاء فى قوله (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فى دِينِ اللهِ) قال : أن يقام حدّ الله ، ولا يعطَّل ، وليس بالقتل.

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عطاء ، عن عامر فى قوله (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فى دين الله) قال : الضرب الشديد .

وقال آخرون : بل معنى ذلك (وَلا تَأْخُذْكُمْ بهما رأفَةٌ) فتُخفّفوا الضرب عنهما ، ولكن أوجعوهما ضربا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا يحيى بن أبى بكر ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن قتادة ، عن الحسن وسعيد ابن المسيب (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فى دِينِ اللهِ) قال : الجلد الشديد .

قال : ثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن حماد ، قال : يُحَدّ القاذف والشارب وعليهما ثيابهما . وأما الزانى فتخلع ثيابه ، وتلا هذه الآية (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فى دِينِ اللهِ) فقلت لحماد : أهذا فى الحكم ؟ قال : فى الحكم والجلد .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىّ ، قال : يجتهد فى حدّ الزانى والفرية ، ويخفف فى حدّ الشرب . وقال قتادة : يخفف فى الشراب ، ويجتهد فى الزانى .

وأولى القولين فى ذلك بالصواب : قول من قال : معنى ذلك : ولا تأخذكم بهما رأفة فى إقامة حدّ الله عليهما ، الذى افترض عليكم إقامته عليهما .

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب ، لدلالة قول الله بعده « فى دين الله » ، يعنى فى طاعة الله التى أمركم بها ، ومعلوم أن دين الله الذى أمر به فى الزانيين : إقامة الحدّ عليهما ، على ما أمر من جلد كل واحد منهما مئة جلدة ، مع أن الشدّة فى الضرب لاحدّ لها يوقف عليه ، وكلّ ضرب أوجع فهو شديد ، وليس للذى يوجع فى الشدّة حدّ لازيادة فيه ، فيؤمر به . وغير جائز وصفه جلّ ثناؤه بأنه أمر بما لاسبيل للمأمور به إلى معرفته . وإذا كان ذلك كذلك ، فالذى للمأمورين إلى معرفته السبيل هو عدد الجلد على ما أمر به ، وذلك هو إقامة الحد على ماقلنا . وللعرب فى الرأفة لغتان : الرأفة بتسكين الهمزة ، والرآفة بمدّها ، كالسأمة والسآمة ، والكأبة والكآبة . وكأنّ الرأفة المرّة الواحدة ، والرآفة المصدر ، كما قيل : ضَؤُل ضآلة ، مثل فَعُل فعالة ، وقَبُح قباحة .

وقوله (إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) يقول : إن كنتم تصدّقون بالله وبكم وباليوم الآخر ، وأنكم فيه مبعوثون لحشر القيامة ، وللثواب والعقاب ، فإن من كان بذلك مصدّقا ، فإنه لايخالف الله فى أمره ونهيه ، خوف عقابه على معاصيه . وقوله (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) يقول تعالى ذكره : وليحضر جلد الزانيين البكْرين وحدّهما إذا أقيم عليهما طائفة من المؤمنين . والعرب تسمى الواحد فما زاد : طائفة . وقوله (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) يقول : من أهل الإيمان بالله ورسوله .

وقد اختلف أهل التأويل فى مبلغ عدد الطائفة الذى أمر الله بشهود عذاب الزانيين البكْرين ، فقال بعضهم : أقله واحد .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: الطائفة: رجل.

حدثنا عليّ بن سهل بن موسى بن إسحاق الكنانيّ وابن القوّاس، قالا: ثنا يحيى بن عيسى، عن سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قول الله (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قال: الطائفة رجل، قال عليّ: فما فوق ذلك؛ وقال ابن القوّاس: فأكثر من ذلك.

حدثنا عليّ، قال: ثنا زيد، عن سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: الطائفة: رجل.

حدثنا يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَيّة، قال: قال ابن أبي نجيح (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قال مجاهد: أقله رجل.

حدثني يعقوب، قال: ثنا هشيم، قال: أخبرنا أبو بشر، عن مجاهد، في قوله (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قال: الطائفة: الواحد إلى الألف.

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن أبي بشر، عن مجاهد في هذه الآية (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قال: الطائفة واحد إلى الألف (وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما).

حدثنا ابن المثنى، قال: ثني وهب بن جرير، قال: ثنا شعبة، عن أبي بشر، عن مجاهد، قال: الطائفة: الرجل الواحد إلى الألف، قال (وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما): إنما كانا رجلين.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: سمعت عيسى بن يونس، يقول: ثنا النعمان بن ثابت، عن حماد وإبراهيم قالا: الطائفة: رجل.

حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا الثوريّ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قوله (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قال: الطائفة: رجل واحد فما فوقه.

وقال آخرون: أقله في هذا الموضع رجلان.

ذكر من قال ذلك

حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا ابن عُلَيّة، قال: ثنا ابن أبي نجيح، في قوله (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قال: قال عطاء: أقله رجلان.

حدثني القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جُرَيج، قال: أخبرني عمر بن عطاء عن عكرمة قال: ليحضر رجلان فصاعدا.

وقال آخرون: أقلّ ذلك ثلاثة فصاعدا.

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا عيسى بن يونس ، عن ابن أبي ذئب ، عن الزهري ، قال : الطائفة : الثلاثة فصاعدا .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، في قوله (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قال : نفر من المسلمين .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثني أبو السائب ، قال : ثنا حفص بن غياث ، قال : ثنا أشعث ، عن أبيه ، قال : أتيت أبا بَرْزة الأسلميّ في حاجة ، وقد أخرج جارية إلى باب الدار ، وقد زنت ، فدعا رجلا فقال : اضربها خمسين ، فدعا جماعة ، ثم قرأ (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

حدثنا أبو هشام الرفاعيّ ، قال : ثنا يحيى ، عن أشعث ، عن أبيه ، أن أبا بَرْزة أمر ابنه أن يضرب جارية له ولدت من الزنا ، ضربا غير مبرّح ، قال : فألقى عليها ثوبا وعنده قوم ، وقرأ (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا) الآية .

وقال آخرون : بل أقلّ ذلك أربعة .

ذكر من قال ذلك

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قال : فقال : الطائفة التي يجب بها الحدّ أربعة .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب : قول من قال : أقلّ ما ينبغي حضور ذلك من عدد المسلمين : الواحد فصاعدا ، وذلك أن الله عمّ بقوله (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ) والطائفة : قد تقع عند العرب على الواحد فصاعدا . فإذ كان ذلك كذلك ، ولم يكن الله تعالى ذكره وضع دلالة على أن مراده من ذلك خاصّ من العدد ، كان معلوما أن حضور ما وقع عليه أدنى اسم الطائفة ذلك المحضر مخرج مقيم الحدّ ، مما أمره الله به بقوله (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) ، غير أني وإن كان الأمر على ما وصفت ، أستحبّ أن لا يقصر بعدد من يحضر ذلك الموضع عن أربعة أنفس ، عدد من تقبل شهادته على الزنا ، لأن ذلك إذا كان كذلك ، فلا خلاف بين الجميع أنه قد أدّى المقيم الحدّ ما عليه في ذلك ، وهم فيما دون ذلك مختلفون .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : نزلت هذه الآية في بعض من استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في نكاح نسوة كنّ معروفات بالزنا ، من أهل الشرك ، وكنّ أصحاب رايات ، يكرين أنفسهنّ ، فأنزل الله تحريمهنّ على المؤمنين ، فقال الزاني من المؤمنين لا يتزوّج إلا زانية أو مشركة ، لأنهنّ

كذلك ؛ والزانية من أولئك البغايا لاينكحها إلا زان من المؤمنين أو المشركين، أو مشرك مثلها ، لأنهنّ كنّ مشركات (وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) فحرّم الله نكاحهنّ فى قول أهل هذه المقالة بهذه الآية .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر ، عن أبيه ، قال : ثنى الحضرمىّ ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عمرو : أن رجلا من المسلمين استأذن نبىّ الله فى امرأة يقال لها أمّ مهزول ، كانت تسافح الرجل ، وتشترط له أن تنفق عليه ، وأنه استأذن فيها نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر له أمرها ، قال : فقرأ نبىّ الله صلى الله عليه وسلم (الزَّانِيَةُ لَايَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) أو قال: فأنزلت «الزانية» .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ،قال: ثنى هُشَيم ،عن التيمىّ ،عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو فى قوله (الزَّانى لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) قال: كنّ نساء معلومات ، قال : فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوّج المرأة منهنّ لتنفق عليه، فنهاهم الله عن ذلك .

قال : أخبرنا سليمان التيمى ، عن سعيد بن المسيب ، قال : كنّ نساء موارد بالمدينة .

حدثنا أحمد بن المقدام ، قال : ثنا المعتمر ، قال : سمعت أبى ، قال : ثنا قتادة ، عن سعيد بن المسيب فى هذه الآية (وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) قال : نزلت فى نساء موارد كنّ بالمدينة .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عاصم الكلابىّ ، قال : ثنا معتمر ، عن أبيه ، عن قتادة ، عن سعيد ، بنحوه..

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى، قال : ثنا داود ، عن رجل ، عن عمرو بن شعيب ، قال كان لمرثد صديقة فى الجاهلية يقال لها عناق ، وكان رجلا شديدا ،وكان يقال له دُلْدُل ، وكان يأتى مكة فيحمل ضَعَفَة المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقى صديقته ، فدعته إلى نفسها ، فقال : إن الله قد حرّم الزنا ، فقالت : أنّى تَبْرُز ، فخشى أن تشيع عليه، فرجع إلى المدينة، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كانت لى صديقة فى الجاهلية ، فهل ترى لى نكاحها ؟ قال : فأنزل الله (الزَّانى لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) قال : كنّ نساء معلومات يُدْعَوْن القليقيات [1] .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن إبراهيم بن مهاجر ، قال : سمعت مجاهدا يقول فى هذه الآية (الزَّانى لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) قال : كنّ بغايا فى الجاهلية .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، عن عبد الملك ، عمن أخبره ، عن مجاهد ، نحوا من حديث ابن المثنى ، إلا أنه قال : كانت امرأة منهنّ يقال لها : أمّ مهزول ، يعنى فى قوله (الزَّانى لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) قال : فكنّ نساء معلومات ، قال : فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوّج المرأة منهنّ لتنفق عليه ، فنهاهم الله عن ذلك ، هذا فى حديث التيمىّ .

(١) كذا جاءت هذه الكلمة فى الأصول . ولعل أصلها : القلقيات ، نسبة إلى القلق ، وهو ضرب من القلائد المنظومة باللؤلؤ ، كن يلبسنه يستهوين به الرجال . أو نسبة إلى القلق ، لكثرة اضطرابهن وتحركهن . (أنظر التاج : قلق) .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قول الله (الزَّاني لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً) قال : رجال كانوا يريدون الزنا بنساء زوان بغايا متعالمات كنّ في الجاهلية ، فقيل لهم هذا حرام ، فأرادوا نكاحهن ؛ فحرم الله عليهم نكاحهن .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، بنحوه ، إلا أنه قال : بغايا مُعْلِنات كنّ كذلك في الجاهلية .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه وإسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبيّ وابن أبي ذئب ، عن شعبة ، عن ابن عباس ، قال : كنّ بغايا في الجاهلية ، على أبوابهنّ رايات مثل رايات البيطار ، يعرفن بها .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن قيس بن سعد ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس ، قال : نساء بغايا متعالمات ، حرّم الله نكاحهنّ ، لاينكحهنّ إلا زان من المؤمنين ، أو مشرك من المشركين .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (الزَّاني لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ ، وحُرِّمَ ذلكَ عَلى المُؤْمِنِينَ) قال : كانت بيوت تسمى المواخير في الجاهلية ، وكانوا يؤاجرون فيها فتياتهن ، وكانت بيوتا معلومة للزنا ، لايدخل عليهنّ ولا يأتيهنّ ، إلا زان من أهل القبلة ، أو مشرك من أهل الأوثان ، فحرّم الله ذلك على المؤمنين .

حدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء ، في قوله (الزَّاني لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً والزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ) قال : بغايا متعالمات كنّ في الجاهلية بغيّ آل فلان ، وبغيّ آل فلان ، فأنزل الله (الزَّاني لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً ، والزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذلكَ عَلى المُؤْمِنِينَ) فحكم الله بذلك من أمر الجاهلية على الإسلام ، فقال له سليمان بن موسى ، أبلغك ذلك عن ابن عباس ؟ فقال : نعم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : سمعت عطاء بن أبي رباح يقول في ذلك : كنّ بغايا متعالمات ، بغيّ آل فلان ، وبغيّ آل فلان ، وكنّ زواني مشركات ، فقال (الزَّاني لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ ، وحُرِّمَ ذلكَ عَلى المُؤْمِنِينَ) قال : أحكم الله من أمر الجاهلية بهذا ، قيل له : أبلغك هذا عن ابن عباس ؟ قال : نعم .

قال ابن جريج : وقال عكرمة : إنه كان يسمّى تسعا بعد صواحب الرايات ، وكنّ أكثر من ذلك ، ولكن هؤلاء أصحاب الرايات : أمّ مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومىّ ، وأمّ عُليّط جارية صفوان بن أمية ، وحنّة القبطية ، جارية العاصى بن وائل ، ومَرية جارية مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار ، وحلالة ، جارية سهيل بن عمرو ، وأمّ سويد ، جارية عمرو بن عثمان المخزومى ، وسريفة ، جارية زمعة بن الأسود ، وفرسة ، جارية هشام بن ربيعة بن حبيب بن حذيفة بن جبل بن مالك بن عامر بن لؤىّ ، وقريبا ، جارية هلال ابن أنس بن جابر بن نمر بن غالب بن فهر .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، وقال الزهرى وقتادة ، قالوا : كان فى الجاهلية بغايا معلوم ذلك منهنّ ، فأراد ناس من المسلمين نكاحهنّ ، فأنزل الله (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ) . . . الآية .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، وقاله الزهرىّ وقتادة ، قالوا : كانوا فى الجاهلية بغايا ، ثم ذكر نحوه .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن ابن أبي نجيح ، عن القاسم بن أبي بزّة : كان الرجل ينكح الزانية فى الجاهلية التى قد علم ذلك منها ، يتخذها مأكلة ، فأراد ناس من المسلمين نكاحهنّ على تلك الجهة ، فنُهوا عن ذلك .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن أبي نجيح ، قال : قال القاسم بن أبي بزّة ، فذكر نحوه .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا سليمان التيمىّ ، عن سعيد بن المسيب ، قال : كنّ نساء موارد بالمدينة .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان ، عن سعيد بن جُبير أن نساء فى الجاهلية كنّ يُؤاجرن أنفسهنّ ، وكان الرجل إنما ينكح إحداهنّ ، يريد أن يصيب منها عرَضا ، فنُهوا عن ذلك ، ونزل (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ) ومنهنّ امرأة يقال لها أمّ مهزول .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح ، عن إسماعيل ، عن الشعبىّ ، فى قوله (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ) قال : كنّ نساء يُكْرين أنفسهن فى الجاهلية .

وقال آخرون : معنى ذلك : الزانى لايزنى إلا بزانية أو مشركة ، والزانية لايزنى بها إلا زان أو مشرك . قالوا : ومعنى النكاح فى هذا الموضع : الجماع .

ذكر من قال ذلك

حدثنا هناد ، قال : ثنا أبو الأحوص ، عن حُصَين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، في قول الله (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً) قال : لايزنى إلا بزانية أو مشركة .

حدثنا ابن المثنى قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن يَعْلَى بن مسلم ، عن سعيد بن جُبير أنه قال في هذه الآية (وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زانٍ أوْ مُشْرِكٌ) قال : لايزنى الزانى إلا بزانية مثله أو مشركة .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن شُبْرُمة ، عن سعيد بن جُبير وعكرمة في قوله (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً) قالا : هو الوطء .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد ، عن معمر ، قال : قال سعيد بن جُبير ومجاهد (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً) قالا : هو الوطء .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي عن سلمة بن نبيط ، عن الضحاك بن مزاحم وشعبة ، عن يعلى بن مسلم ، عن سعيد بن جُبير ، قوله (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً . وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زانٍ أوْ مُشْرِكٌ) قالا : لايزنى الزانى حين يزنى إلا بزانية مثله أو مشركة ، ولا تزنى مشركة إلا بمثلها .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قول الله (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ) قال : هؤلاء بغايا كنَّ في الجاهلية ، والنكاح في كتاب الله الإصابة ، لايصيبها إلا زان أو مشرك ، لايحرم الزنا ، ولا تصيب هي إلا مثلها .

قال : وكان ابن عباس يقول : بغايا كنَّ في الجاهلية .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن قيس بن سعد ، عن سعيد بن جُبير ، قال : إذا زنى بها فهو زان .

حدثنا عليّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنا معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قوله (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً) قال : الزانى من أهل القبلة لايزنى إلا بزانية مثله أو مشركة ، قال : والزانية من أهل القبلة لاتزنى إلا بزان مثلها من أهل القبلة ، أو مشرك من غير أهل القبلة ، ثم قال (وَحُرِّمَ ذلكَ عَلَى المُؤْمِنِينَ) .

وقال آخرون : كان هذا حكم الله في كلّ زان وزانية ، حتى نسخه بقوله (وأَنْكِحُوا الأيامَى مِنْكُمْ) ، فأحلّ نكاح كلّ مسلمة ، وإنكاح كلّ مسلم .

ذكر من قال ذلك

حدثني يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، في قوله (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ ، وحُرِّمَ ذلكَ عَلَى

المُؤْمِنِينَ) قال: يرَوْنَ الآية التي بعدها نسختها (وأنكِحُوا الأيامَى مِنكُمْ) قال : فهن من أيامى المسلمين .

حدثنا القاسم ، قال ثنا الحسين قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : أخبرنى يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب (الزَّانى لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً ، والزَّانِيَةُ لايَنْكِحُها إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ) قال : نسختها التى بعدها (وأنكِحُوا الأيامَى مِنْكُمْ) وقال : إنهنّ من أيامى المسلمين .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، قال : وذكر عن يحيى ، عن ابن المسيب ، قال : نسختها (وأنكِحُوا الأيامَى مِنْكُمْ) .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : نسختها قوله (وأنكِحُوا الأيامَى) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا أنس بن عياض ، عن يحيى ، قال : ذكر عند سعيد بن المسيب (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً) قال : فسمعته يقول : إنها قد نسختها التى بعدها ، ثم قرأها سعيد ، قال يقول الله (الزَّانِي لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً) ثم يقول الله (وأنكِحُوا الأيامَى مِنْكُمْ) فهنّ من أيامى المسلمين .

❁ قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك عندي بالصواب : قول من قال : عنى بالنكاح فى هذا الموضع : الوطء ، وأن الآية نزلت فى البغايا المشركات ذوات الرايات ، وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كلّ مشرك ، وأن الزانى من المسلمين حرام عليه كلّ مشركة من عَبَدة الأوثان . فمعلوم إذا كان ذلك كذلك ، أنه لم يُعْنَ بالآية أن الزانى من المؤمنين لايعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات ، ولا ينكح إلا بزانية أو مشركة . وإذ كان ذلك كذلك ، فبين أن معنى الآية : الزانى لايزنى إلا بزانية لاتستحلّ الزنا ، أو بمشركة تستحله .

وقوله (وَحُرِّمَ ذلكَ عَلَى المُؤْمِنِينَ) يقول : وحرّم الزنا على المؤمنين بالله ورسوله ، وذلك هو النكاح الذى قال جلّ ثناؤه (الزَّانى لايَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً) .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤)

❁ يقول تعالى ذكره : والذين يَشْتُمون العفائف من حرائر المسلمين ، فيرمونهنّ بالزنا ، ثم لم يأتوا على ما رمَوْهن به من ذلك بأربعة شهداء عُدول ، يشهدون عليهنّ أنهنّ رأوهنّ يفعلن ذلك ، فاجلدوا الذين رمَوْهنّ بذلك ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الذين خالفوا أمر الله ، وخرجوا من طاعته ، ففسقوا عنها .

وذُكر أن هذه الآية إنما نزلت فى الذين رموا عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم بما رموها به من الإفك .

ذكر من قال ذلك

حدثنى أبو السائب وإبراهيم بن سعيد ، قالا : ثنا ابن فضيل ، عن خَصيف ، قال : قلت لسعيد بن جُبير : الزنا أشدّ ، أو قذف المحصنة ؟ قال : لا ، بل الزنا ، قلت : إن الله يقول (والّذِين يَرْمُونَ المُحْصَنات) قال : إنما هذا فى حديث عائشة خاصة .

حُدثتَ عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (الّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) . . . الآية فى نساء المسلمين .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ) قال : الكاذبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝

اختلف أهل التأويل فى الذى استثنى منه قوله (إلاَّ الّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وأصْلَحُوا) فقال بعضهم : استثنى من قوله (وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أبَدًا . وأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ) وقالوا : إذا تاب القاذف قُبلت شهادته ، وزال عنه اسم الفسق . حُدّ فيه أو لم يحدّ .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أحمد بن حماد الدّولابىّ ، قال : ثنى سفيان ، عن الزهرى ، عن سعيد إن شاء الله ، أن عمر قال لأبى بكرة : إن تبت قبلت شهادتك ، أو ردّيْت شهادتك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، أن عمر بن الخطاب ضرب أبا بكرة وشبلَ بن معبد ونافع بن الحارث بن كَلَدة حدّهم ، وقال لهم : من أكذب نفسه أجزت شهادته فيما استقبل ، ومن لم يفعل لم أجز شهادته . فأكذب شبلٌ نفسَه ونافع ، وأبَى أبو بكرة أن يفعل . قال الزهرىّ : هو والله سنة فاحفظوه .

حدثنا ابن أبى الشوارب ، قال : ثنا يزيد بن زُرَيع ، قال : ثنا داود ، عن الشعبىّ ، قال : إذا تاب ، يعنى القاذف ، ولم يعلم منه إلا خير ، جازت شهادته .

حدثنا عمران بن موسى ، قال : ثنا عبد الوارث ، قال : ثنا داود ، عن الشعبى ، قال : على الإمام أن يستتيب القاذف بعد الجلد ، فإن تاب وأونس منه خير ، جازت شهادته ، وإن لم يتب فهو خليع ، لا تجوز شهادته .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا عبد الوارث ، قال : ثنا داود ، عن عامر ، أنه قال فى القاذف إذا تاب وعلم منه خير ، إن شهادته جائزة ، وإن لم يتب فهو خليع لا تجوز شهادته ، وتوبته إكذابه نفسه .

قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن داود ، عن الشعبىّ ، نحوه .

حدثنا أبو كريب وأبو السائب، قالا : ثنا ابن إدريس، قال : أخبرنا داود بن أبي هند ، عن الشعبيّ ، قال فى القاذف إذا تاب وأكذب نفسه ، قُبلت شهادته ، وإلا كان خليعا لاشهادة له ، لأن الله يقول : (لَوْلا جاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) . . . إلى آخر الآية .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا داود بن أبي هند ، عن الشعبيّ : أنه كان يقول فى شهادة القاذف : إذا رجع عن قوله حين يُضرب ، أو أكذب نفسه ، قُبلت شهادته .

قال : ثنا هشيم ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي أنه كان يقول : يقبل الله توبته ، وتردّون شهادته ؟ وكان يقبل شهادته إذا تاب .

قال : أخبرنا إسماعيل عن الشعبيّ : أنه كان يقول فى القاذف : إذا شهد قبل أن يُضرب الحدّ ، قُبلت شهادته.

قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عبيدة ، عن إبراهيم وإسماعيل بن سالم ، عن الشعبي ، أنهما قالا فى القاذف : إذا شهد قبل أن يُجلد فشهادته جائزة .

حدثنى يعقوب ، قال : قال أبو بشر ، يعنى ابن عُلَيَّة ، سمعت ابن أبى نجيح يقول : القاذف إذا تاب تجوز شهادته ، وقال : كنا نقوله ، فقيل له من ؟ قال : قال عطاء وطاوس ومجاهد .

حدثنا ابن بشار ، وابن المثنى ، قالا : ثنا محمد بن خالد بن عَثْمة ، قال : ثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن عمر بن طلحة ، عن عبد الله ، قال : إذا تاب القاذف جلد ، وجازت شهادته ، قال أبوموسى : هكذا قال ابن أبى عَثْمة .

حدثنا ابن بشار وابن المثنى ، قالا : ثنا ابن أبى عَثْمة ، قال : ثنا سعيد بن بشير ، عن قَتادة ، عن سليمان ابن يسار والشعبي قالا : إذا تاب القاذف عند الجلد جازت شهادته .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا سعيد ، عن قَتادة : أن عمر بن عبد الله بن أبى طلحة جلد رجلا فى قذف ، فقال : أَكْذِبْ نفسك ، حتى تجوز شهادتك .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى الهيثم ، قال : سمعت إبراهيم والشعبيّ يتذاكران شهادة القاذف ، فقال الشعبيّ لإبراهيم : لِمَ لاتقبل شهادته ؟ فقال : لأنى لاأدرى تاب أم لا .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا عبد الله بن المبارك ، عن مجالد ، عن الشعبيّ ، عن مسروق ، قال : تُقبل شهادته إذا تاب .

قال : ثنا عبد الله بن المبارك ، عن يعقوب بن القعقاع ، عن محمد بن زيد ، عن سعيد بن جبير ، مثله .

قال : ثنا عبد الله بن المبارك ، عن ابن جُرَيج ، عن عمران بن موسى ، قال : شهدت عمر بن عبد العزيز أجاز شهادة القاذف ومعه رجل .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن الحكم ، قال : قال الشعبيّ : إذا تاب جازت شهادته ، قال ابن المثنى ، قال : عندى ، يعنى فى القذف .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : أخبرنا مسعر ، عن عمران بن عمير ، أن عبد الله بن عتبة كان يجيز شهادة القاذف إذا تاب .

حدثني يعقوب ، قال : ثني هشيم ، عن جويبر ، عن الضحاك ، قال : إذا تاب وأصلح قُبلت شهادته يعني القاذف .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، عن ابن المسيب ، قال : تقبل شهادة القاذف إذا تاب .

حدثنا الحسن ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن ابن المسيب ، مثله .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد ، عن معمر ، قال : قال الزُّهريّ : إذا حدّ القاذف ، فإنه ينبغي للإمام أن يستتيبه ، فان تاب قُبلت شهادته ، وإلا لم تقبل ، قال : كذلك فعل عمر بن الخطاب بالذين شهدوا على المغيرة بن شعبة ، فتابوا إلا أبا بكرة ، فكان لاتقبل شهادته .

وقال آخرون : الاستثناء في ذلك من قوله (وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ) .

وأما قوله (وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَدًا) فقد وصل بالأبد ولا يجوز قبولها أبدا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن أبي الشوارب ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا أشعث بن سوّار ، قال : ثني الشعبيّ ، قال : كان شريح يجيز شهادة صاحب كلّ عمل إذا تاب إلا القاذف ، فإن توبته فيما بينه وبين ربه ، ولا نجيز شهادته .

حدثنا حميد بن مسعدة ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا أشعث بن سوار ، قال : ثنا الشعبيّ ، عن شُريح بنحوه ، غير أنه قال : صاحب كلّ حدّ إذا كان عدلا يوم شهد .

حدثني أبو السائب ، قال : ثنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن شريح ، قال : كان لايجيز شهادة القاذف ، ويقول : توبته فيما بينه وبين ربه .

حدثنا أبو كريب وأبو السائب ، قالا : ثنا ابن إدريس ، عن مُطَرِّف ، عن أبي عثمان ، عن شريح في القاذف : يقبل الله توبته ، ولا أقبل شهادته .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : أخبرنا أشعث ، عن الشعبيّ ، قال : أتاه خصمان ، فجاء أحدهما بشاهد أقطع ، فقال الخصم : ألا ترى مابه ؟ قال : قد أراه ، قال : فسأل القوم ، فأثنوا عليه خيرا ، فقال شريح : نجيز شهادة كل صاحب حدّ ، إذا كان يوم شهد عدلا ، إلا القاذف ، فإن توبته فيما بينه وبين ربه .

حدثنا أبو السائب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : أخبرنا أشعث ، عن الشعبيّ ، قال : جاء خصمان إلى شُريح ، فجاء أحدهما ببينة ، فجاء بشاهد أقطع ، فقال الخصم : ألا ترى إلى مابه ؟ فقال شريح : قد رأيناه ، وقد سألنا القوم فأثنوا خيرا ، ثم ذكر سائر الحديث ، نحو حديث أبي كريب .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا الشيبانىّ ، عن الشعبىّ ، عن شريح أنه كان يقول : لاتُقبل له شهادة أبدا ، توبته فيما بينه وبين ربه ، يعنى القاذف .

قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا الأشعث ، عن الشعبىّ ،بأن ربابا قطع رجلا فى قطع الطريق ، قال : فقطع يده ورجله ، قال : ثم تاب وأصلح ، فشهد عند شريح ، فأجاز شهادته ، قال : فقال المشهود عليه : أتجيز شهادته علىّ وهو أقطع ؟ قال : فقال شريح : كل صاحب حدّ إذا أقيم عليه ثم تاب وأصلح. فشهادته جائزة إلا القاذف .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا أبوالوليد ، قال : ثنا شعبة ، قال المغيرة : أخبرنى ، قال : سمعت إبراهيم يحدّث عن شريح ، قال : قضاء من الله لاتقبل شهادته أبدا ، توبته فيما بينه وبين ربه ، قال أبو موسى : يعنى القاذف .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم ، قال : قال شريح : لايقبل الله شهادته أبدا .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا أبوالوليد ، قال : ثنا حماد ، عن قَتادة ، عن سعيد بن المسيب ، قال : لاتجوز شهادة القاذف ، توبته فيما بينه وبين الله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا سعيد ، عن قَتادة ، عن الحسن ، أنه قال : القاذف توبته فيما بينه وبين الله ، وشهادته لاتُقبل .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا أبوالوليد ، قال : ثنا حماد ، عن قَتادة ، عن سعيد بن المسيب ، قال : لاتجوز شهادة القاذف ، توبته فيما بينه وبين الله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا سعيد ، عن قَتادة ، عن الحسن ، أنه قال : القاذف توبته فيما بينه وبين الله ، وشهادته لاتُقبل .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن الحكم ، عن إبراهيم أنه قال فى الرجل يُجلَد الحدّ ، قال : لاتجوز شهادته أبدا .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم أنه كان لايقبل له شهادة أبدا ، وتوبته فيما بينه وبين الله ، يعنى القاذف .

حدثنا أبوكريب ، قال : ثنا معتمر بن سليمان ، عن حجاج ، عن عمرو بن سعيد ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « لاتَجُوزُ شَهادَةُ مَحْدُودٍ فِى الإسْلامِ » .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الحسن (وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَدًا) قال : كان يقول : لاتقبل شهادة القاذف أبدا ، إنما توبته فيما بينه وبين الله . وكان شريح يقول : لاتُقبل شهادته .

حدثني عليّ ، قال : ثنا عبد الله ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَدًا) ، ثم قال (فَمَنْ تابَ وأَصْلَحَ) فشهادته فى كتاب الله تقبل .

✲ والصواب من القول فى ذلك عندنا : أن الاستثناء من المعنيين جميعا ، أعنى من قوله (وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَدًا) ، ومن قوله (وأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ) ، وذلك أنه لاخلاف بين الجميع أن ذلك كذلك ، إذا لم يحدّ فى القذف حتى تاب ، إما بأن يرفع إلى السلطان بعفو المقذوفة عنه ، وإما بأن ماتت قبل المطالبة بحدّها ولم يكن لها طالب يطلب بحدّها . فإذ كان ذلك كذلك ، وحدثت منه توبة ، صحت له بها العدالة .

فإذ كان من الجميع إجماعا ، ولم يكن الله تعالى ذكره شرط فى كتابه أن لاتقبل شهادته أبدا بعد الحدّ فى رميه ، بل نهى عن قبول شهادته فى الحال التى أوجب عليه فيها الحدّ ، وسماه فيها فاسقا ، كان معلوما بذلك أنّ إقامة الحدّ عليه فى رميه ، لاتحدث فى شهادته مع التوبة من ذنبه ، ما لم يكن حادثا فيها قبل إقامته عليه ، بل توبته بعد إقامة الحدّ عليه من ذنبه ، أحرى أن تكون شهادته معها أجوز منها قبل إقامته عليه ؛ لأن الحدّ يزيد المحدود عليه تطهيرا من جُرمه الذى استحقّ عليه الحدّ .

فإن قال قائل : فهل يجوز أن يكون الاستثناء من قوله (فاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً) فتكون التوبة مُسقطة عنه الحدّ ، كما كانت لشهادته عندك قبل الحدّ وبعده مجيزة ، ولاسم الفسق عنه مزيلة ؟ قيل : ذلك غير جائز عندنا . وذلك أن الحدّ حقّ عندنا للمقذوفة ، كالقصاص الذى يجب لها من جناية يجنيها عليها ، مما فيه القصاص ، ولا خلاف بين الجميع أن توبته من ذلك لاتضع عنه الواجب لها من القصاص منه ، فكذلك توبته من القذف لاتضع عنه الواجب لها من الحدّ ، لأن ذلك حقّ لها ، إن شاءت عفته ؛ وإن شاءت طالبت به ، فتوبة العبد من ذنبه ، إنما تضع عن العبد الأسماء الذميمة ، والصفات القبيحة . فأما حقوق الآدميين التى أوجبها الله لبعضهم على بعض فى كلّ الأحوال ، فلا تزول بها ولا تبطل .

واختلف أهل العلم فى صفة توبة القاذف ، التى تقبل معها شهادته ، فقال بعضهم : هو إكذابه نفسه فيه . وقد ذكرنا بعض قائلى ذلك فيما مضى قبل ، ونحن نذكر بعض ماحضرنا ذكره ، مما لم نذكره قبل .

حدثنى أبو السائب ، قال : ثنا حفص ، عن ليث ، عن طاوس ، قال : توبة القاذف أن يكذّب نفسه .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حصين ، قال : رأيت رجلا ضرب حدّا فى قذف بالمدينة ، فلما فرغ من ضربه تناول ثوبه ، ثم قال : أستغفر الله وأتوب إليه من قذف المحصنات ، قال : فلقيت أبا الزناد ، فذكرت ذلك له ، قال : فقال : إن الأمر عندنا هاهنا أنه إذا قال ذلك حين يفرغ من ضربه ، ولم نعلم منه إلا خيرا قُبلت شهادته .

حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَدًا ، وأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ إلاَّ الَّذِينَ تابُوا) . . . الآية ، قال : من اعترف وأقرّ على نفسه علانية أنه قال البهتان ، وتاب إلى الله توبة نصوحا . والنصوح : أن لايعودوا وإقراره واعترافه عند الحدّ حين يؤخذ بالجلد ، فقد تاب والله غفور رحيم .

وقال آخرون : توبته من ذلك : صلاح حاله ، وندمه على مافرط منه من ذلك ، والاستغفار منه ، وتركه العود فى مثل ذلك من الجُرم . وذلك قول جماعة من التابعين وغيرهم ، وقد ذكرنا بعض قائليه فيما مضى ، وهو قول مالك بن أنس .

وهذا القول أولى القولين فى ذلك بالصواب ؛ لأن الله تعالى ذكره جعل توبة كل ذى ذنب من أهل الإيمان تركه العود منه ، والندم على ماسلف منه ، واستغفار ربه منه ، فيما كان من ذنب بين العبد وبينه ، دون ما كان من حقوق عباده ومظالمهم بينهم ، والقاذف إذا أُقيم عليه فيه الحدّ ، أو عُفى عنه ، فلم يبق عليه إلا توبته من جرمه بينه وبين ربه ، فسبيل توبته منه سبيل توبته من سائر أجرامه . فإذ كان الصحيح فى ذلك من القول ما وصفنا ، فتأويل الكلام : وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من جُرمهم الذى اجترموه ، بقذفهم المحصنات من بعد اجترامهموه . (فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يقول : ساتر على ذنوبهم بعفوه لهم عنها ، رحيم بهم بعد التوبة أن يعذّبهم عليها ، فاقبلوا شهادتهم ، ولا تسموهم فسقة ، بل سموهم بأسمائهم التى هى لهم فى حال توبتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝

يقول تعالى ذكره (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ) من الرجال (أَزْوَاجَهُمْ) بالفاحشة ، فيقذفونهنّ بالزنا ، (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ) يشهدون لهم بصحة ما رموهنّ به من الفاحشة (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) .

واختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة (أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ) نصبا ، ولنصبهم ذلك وجهان : أحدهما : أن تكون الشهادة فى قوله (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ) مرفوعة بمضمر قبلها ، وتكون الأربع منصوبا بمعنى الشهادة ، فيكون تأويل الكلام حينئذ : فعلى أحدهم أن يشهد أربعَ شهادات بالله . والوجه الثانى : أن تكون الشهادة مرفوعة بقوله (إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) والأربع منصوبة بوقوع الشهادة عليها ، كما يقال : شهادتى ألف مرّة : إنك لرجل سَوْء . وذلك أن العرب ترفع الأيمان بأجوبتها ، فتقول : حَلِفٌ صادق لأقومنّ ، وشهادة عمرو ليقعدنّ . وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفيين : (أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ) ، برفع الأربع ، ويجعلونها للشهادة مرافعة ، وكأنهم وجهوا تأويل الكلام ، فالذى يلزم من الشهادة ، أربعُ شهادات بالله إنه لمن الصادقين .

وأولى القراءتين فى ذلك عندى بالصواب : قراءة من قرأ : (فشهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) بنصب أربع ، بوقوع الشهادة عليها ، والشهادة مرفوعة حينئذ على ما وصفت من الوجهين .

قبل . وأحبَّ وجهيهما إليّ : أن تكون به مرفوعة بالجواب ، وذلك قوله (إنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) وذلك أن معنى الكلام : والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، تقوم مقام الشهداء الأربعة ، فى دفع الحدّ عنه . فترك ذكر تقوم مقام الشهداء الأربعة ، اكتفاء بمعرفة السامعين بما ذُكِر من الكلام ، فصار مُرافِع الشهادة ماوصفت . ويعنى بقوله (فَشَهادَةُ أحَدِهِمْ أرْبَعُ شَهادَاتٍ بِاللهِ) : فحلف أحدهم أربع أيمان بالله ، من قول القائل : أشهد بالله إنه لمن الصادقين ، فيما رَمَى زوجته به من الفاحشة . (والخامِسَةُ) يقول : والشهادة الخامسة . (أن لعنة الله عليه) يقول : إن لعنة الله له واجبة ، وعليه حالّة ، إن كان فيما رماها به من الفاحشة من الكاذبين .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت به جماعة من أهل التأويل

ذكر الرواية بذلك ، وذكر السبب الذى فيه أُنزلت هذه الآية

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن عُلَيّة ، قال : ثنا أيوب ، عن عكرمة ، قال : « لما نزلت (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأرْبَعَةِ شُهَداءَ ، فاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً) قال سعد بن عبادة : الله إن أنا رأيت لَكَاعِ متفخذَها رجل ، فقلت بما رأيت ، إن فى ظهرى لثمانين ، إلى ما أجمع أربعة قد ذهب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا مَعْشَرَ الأنْصارِ ، ألا تَسْمَعُونَ إلى ما يَقُولُ سَيِّدُكُمْ ؟ قالوا : يا رسول الله لاتَلُمْهُ ، وذكروا من غَيرته ، فما تزوّج امرأة قطّ إلا بكرا ، ولا طلق امرأة قطّ فرجع فيها أحد منا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنَّ اللهَ يَأْبَى إلاَّ ذَاكَ ، فقال : صدق الله ورسوله » . قال : فلم يلبثوا أن جاء ابن عمّ له ، فرمى امرأته ، فشقّ ذلك على المسلمين ، فقال : لا والله ، لا يُجْعَل فى ظهرى ثمانين أبدا ، لقد نظرت حتى أيقنت ، ولقد استسمعت حتى استشفيت . قال : فأنزل الله القرآن باللِّعان ، فقيل له : احلف ، فحلف ، قال : قفوه عند الخامسة ، فإنها موجبة . فقال : لايُدْخله الله النار بهذا أبدا ، كما درأ عنه جلد ثمانين ، لقد نظرت حتى أيقنت ، ولقد استسمعت حتى استشفيت ، فحلف ، ثم قيل : احلفى ، فحلفت ، ثم قال : قفوها عند الخامسة ، فإنها مُوجِبة ، فقيل لها : إنها مُوجِبة ، فتلكأت ساعة ، ثم قالت : لاأُخزى قومى ، فحلفت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنْ جاءَتْ بِهِ كَذَا وكَذَا ، فَهُوَ لِزَوْجِها ، وَإنْ جاءَتْ بِهِ كَذَا وكَذَا ، فَهُوَ لِلَّذِى قِيلَ فِيهِ ماقِيلَ . قال : فجاءت به غلاما كأنه جمل أورق ، فكان بعد أميرا بمصر ، لايُعرف نسبه ، أو لايُدْرَى من أبوه » .

حدثنا خلاد بن أسلم ، قال : أخبرنا النضر بن شميل ، قال : أخبرنا عباد ، قال : سمعت عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : « لما نزلت هذه الآية (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأرْبَعَةِ شُهَداءَ ، فاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً ، وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أبَدًا ، وأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ) قال سعد بن عبادة : لهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ لو أتيت لَكَاعِ قد تفخذها رجل ، لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه ، حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله ما كنت لآتى بأربعة شهداء ، حتى يفرغ من حاجته ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ ، أما تَسْمَعُونَ إلى ما يَقُولُ سَيِّدُكُمْ ، قالوا : لاتلُمه فإنه رجل غَيُور ، ما تزوّج فينا قطّ إلا عذراء ، ولا طلق امرأة له ، فاجترأ رجل منا أن يتزوّجها ؛ قال سعد : يارسول الله ، بأبى وأمى ، والله إنى لأعرف أنها من الله ، وأنها حق ، ولكن عجبت لو وجدت لَكَاعِ قد تفخذها رجل،لم يكن لى أن أهيجه ولا أحرّكه ، حتى آتىَ بأربعة شهداء،والله لاآتى بأربعة شهداء ،حتى يفرُغ من حاجته . فوالله ما لبثوا إلا يسيرا حتى جاء هلالُ بن أمية من حديقة له ، فرأى بعينيه ، وسمع بأذنيه ، فأمسك حتى أصبح ، فلما أصبح غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس مع أصحابه ، فقال : يا رسول الله،إنى جئت أهلى عِشاء ، فوجدت رجلا مع أهلى ، رأيت بعينى ، وسمعت بأذنى ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتاه به،وثقل عليه جدا،حتى عُرف ذلك فى وجهه، فقال هلال : والله يارسول الله إنى لأرى الكراهة فى وجهك مما أتيتك به ، والله يعلم أنى صادق ، وماقلت إلا حقا ، فإنى لأرجو أن يجعل الله فرجا . قال : واجتمعت الأنصار،فقالوا:ابتلينا بما قال سعد ، أيُجْلَد هلال بن أميَّة ، وتبطلَ شهادته فى المسلمين ؟ فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بضربه ، فإنه لكذلك،يريد أن يأمر بضربه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس مع أصحابه ، إذ نزل عليه الوحى ، فأمسك أصحابه عن كلامه ، حين عرفوا أن الوحى قد نزل ، حتى فرغ ، فأنزل الله (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أزْوَاجَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إلاَّ أنْفُسُهُمْ) . . . إلى (أنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْها إنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبْشِرْ ياهِلالُ ، فإنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ فَرَجا ، فقال : قدكنت أرجو ذلك من الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرْسِلُوا إلَيْها ، فجاءت ، فلما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لها ، فكذّبت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ اللهَ يَعْلَمُ أنَّ أحَدَكُما كاذِبٌ ، فَهَلْ مِنْكُما تائِبٌ ؟ فقال هلال : يا رسول الله،بأبى وأمى لقد صَدَقْتُ، وما قلتُ إلا حقا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاعِنُوا بَيْنَهُما ، قيل لهلال : ياهلال اشهد ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فقيل له عند الخامسة : ياهلال اتق الله ، فإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس ، وإنها الموجبة ، التى توجب عليك العذاب ، فقال هلال : والله لايعذّبنى الله عليها ، كما لم يجلدنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهد الخامسة : (أنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إنْ كانَ مِنَ الكاذِبِينَ) ؛ ثم قيل لها : اشهدى ، فشهدت أربعَ شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، فقيل لها عند الخامسة : اتقى الله ، فإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس ، وإن هذه الموجبة ، التى توجب عليك العذاب ، فتلكّأت ساعة ، ثم قالت : والله لاأفضح قومى،فشهدت الخامسة : (أنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْها إنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) ففرّق بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقضى أن الولد لها ، ولا يُدْعَى لأب ، ولا يُرْمَى ولدها » .

حدثنى أحمد بن محمد الطُّوسىّ ، قال : ثنا أبو أحمد الحسين بن محمد ، قال : ثنا جرير بن حازم ، عن أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : لمَّا قَذَفَ هلال بن أميَّة امرأته ، قيل له : والله ليجلدنّك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانين جلدة ، قال : الله أعدل من ذلك ، أن يضربنى ضربة وقد علم أنى

قد رأيت حتى استيقنت ، وسمعت حتى استثبتُّ ، لا والله لايضربنى أبدا ؛ فنزلت آية الملاعنة ، فدعا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت الآية ، فقال : الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ فقال هلال : والله إنى لصادق ، فقال له : احْلِفْ باللهِ الَّذِى لاإلَهَ إلاَّ هُوَ : إنِّى لَصَادِقٌ ، يقول ذلك أربعَ مرّات ، فإن كنتُ كاذبا فعليّ لعنة الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قِفُوهُ عِنْدَ الخامِسَةِ ،فإنَّها مُوجِبَةٌ ؛ فحلف ، ثم قالت أربعا : والله الذى لاإله إلاهو : إنه لمن الكاذبين ، فإن كان صادقا فعليها غضب الله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قِفُوها عِنْدَ الخامِسَةِ ،فإنَّها مُوجِبَةٌ ، فتردّدت وهمّت بالاعتراف ، ثم قالت لاأفضَح قومى » .

حدثنا أبو كريب وأبو هشام الرفاعيّ ، قالا : ثنا عَبْدة ، عن الأعمش : عن إبراهيم ، عن علقمة ؛ عن عبد الله ، قال : كنا ليلة الجمعة فى المسجد ، فدخل رجل فقال : لو أن رجلا وجَد مع امرأته رجلا فقتله قتلتموه . وإن تكلم جلدتموه . فذُكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله آية اللِّعان ، ثم جاء الرجل بعد ، فقذف امرأته ، فلاعَنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما . فقال : عَسَى أنْ تَجِىءَ بِهِ أسْوَدَ جَعْدًا . فجاءت به أسود جَعْدا » .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا جرير بن عبد الحميد ، عن عبد الملك بن أبى سليمان ؛ عن سعيد بن جُبير قال : سألت ابن عمر ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن ، أيُفرَّق بين المتلاعنين ؟ فقال : نعم . سبحان الله ! إن أوّل من سأل عن ذلك فلان ، أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فسأله ؛ فقال : أرأيت لو أن أحدنا رأى صاحبته على فاحشة . كيف يصنع ؟ فلم يجبه فى ذلك شيئا . قال : فأتاه بعد ذلك فقال : إن الذى سألت عنه قد ابتليت به . فأنزل الله هذه الآية فى سورة النور ، فدعا الرجلَ فوعظه وذكَّره، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ؛ قال : والذى بعثك بالحقّ،لقد رأيتُ وما كذبت عليها ؛ قال : ودعا المرأة فوعظها . وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة . فقالت : والذى بعثك بالحقّ إنه لكاذب ، وما رأى شيئا ؛ قال : فبدأ الرجل، فشهدأربع شهادات بالله : إنه لمن الصادقين ،والخامسة :أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ؛ ثم إن المرأة شهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ،والخامسة أنّ غَضَبَ الله عليها إن كان من الصادقين ، وفرق بينهما .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، عن داود ، عن عامر ، قال: لما أنزل (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً) قال عاصم بن عدىّ : إن أنا رأيت فتكلمت جُلدت ثمانين ، وإن أنا سكت ، سكت على الغيظ ! قال : فكأنّ ذلك شقّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: فأنزلت هذه الآية : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إلاَّ أنْفُسُهُمْ) قال : فما لبثوا إلا جمعة ،حتى كان بين رجل من قومه وبين امرأته ، فلاعن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما .

حدثني عليّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ) . . . الآية ،والخامسة : أن يقال له : إن عليك لعنة الله إن كنت من الكاذبين ، وإن أقرّت المرأة بقوله رُجمت ، وإن أنكرت شهدت أربع شهادات بالله : إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن يقال لها : غضب الله عليك إن كان من الصادقين ، فيُدرأ عنها العذاب ، ويُفرّق بينهما ، فلا يجتمعان أبدا ، ويُلحق الولد بأمه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن عكرمة ، قوله (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ) قال هلال بن أميَّة : والذى رُميتْ به شريك بن سحماء ، والذى استفتى عاصم ابن عديّ .

قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرني الزهريّ عن الملاعنة والسنة فيها ، عن حديث سهل بن سعد ، أن رجلا من الأنصار جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : أرأيتَ رجلا وجد مع امرأته رجلا ، أيقتله فتقتلونه ؟ أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله في شأنه ما ذكر من أمر المتلاعنين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قَدْ قَضَى اللهُ فيكَ وفي امْرأتكَ ، فتلاعنا وأنا شاهد ، ثم فارقها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت السنة بعدها أن يُفرّق بين المتلاعنين ، وكانت حاملة ، فأنكره ، فكان ابنها يُدعى إلى أمه ، ثم جرت السنة أن ابنها يرثها ، وترث مافرض الله لها .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ) . . . إلى قوله (إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ) قال : إذا شهد الرجل خمس شهادات ، فقد برئ كل واحد من الآخر ، وعدّتها إن كانت حاملا أن تضع حملها ، ولا يجلد واحد منهما ، وإن لم تحلف أقيم عليها الحدّ والرجْم .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾

يعني جلّ ذكره بقوله (وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ) : ويدفع عنها الحدّ .

واختلف أهل العلم في العذاب الذى عناه الله في هذا الموضع ، أنه يدرؤه عنها شهاداتها الأربع ، فقال بعضهم بنحو الذى قلنا في ذلك ، من أنّ الحدّ جلْدُ مئة إن كانت بكرا ، أو الرجْم إن كانت ثيبا قد أحصنت .

وقال آخرون : بل ذلك الحبس ، وقالوا : الذى يجب عليها إن هي لم تشهد الشهادات الأربع بعد شهادات الزوج الأربع والتعانه : الحبس دون الحدّ .

وإنما قلنا : الواجب عليها إذا هي امتنعت من الالتعان بعد التعان الزوج ، الحدّ الذى وصفنا ، قياسا على

إجماع الجميع، على أن الحدّ إذا زال عن الزوج بالشهادات الأربع، على تصديقه فيما رماها به، أن الحدّ عليها واجب، فجعل الله أيمانه الأربع، والتعانه في الخامسة، مخرجا له من الحدّ الذي يجب لها، برميه إياها، كما جعل الشهداء الأربعة، مخرجا له منه في ذلك، وزائلا به عنه الحدّ، فكذلك الواجب أن يكون بزوال الحدّ عنه بذلك، واجبا عليها حدّها، كما كان بزواله عنه بالشهود واجبا عليها، لافرق بين ذلك، وقد استقصينا العلل في ذلك في باب اللعان من كتابنا المسمى «لطيف القول في شرائع الإسلام»، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله (أنْ تَشْهَدَ أرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ) يقول: ويدفع عنها العذاب أن تحلف بالله أربع أيمان: أن زوجها الذي رماها بما رماها به من الفاحشة، لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا. وقوله (والخامِسَةُ أنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْها) . . . الآية، يقول: والشهادة الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان زوجها فيما رماها به من الزنا من الصادقين؛ ورفع قوله (والخامِسَةُ) في كلتا الآيتين، بأنّ التي تليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذكره: ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عوّاد على خلقه بلطفه وطَوْله، حكيم في تدبيره إياهم، وسياسته لهم، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبهم؛ ولكنه ستر عليكم ذنوبكم، وترك فضيحتكم بها عاجلا، رحمة منه بكم، وتفضلا عليكم، فاشكروا نعمه، وانتهوا عن التقدّم عما عنه نهاكم من معاصيه. وترك الجواب في ذلك، اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذكره: إن الذين جاءوا بالكذب والبُهتان. (عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) يقول: جماعة منكم أيها الناس. (لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) يقول: لاتظنوا ما جاءوا به من الإفك شرًّا لكم عند الله، وعند الناس، بل ذلك خير لكم عنده وعند المؤمنين، وذلك أن الله يجعل ذلك، كفّارة للمرميّ به، ويُظهر براءته مما رُمي به، ويجعل له منه مخرجا. وقيل: إن الذي عنَى الله بقوله (إنَّ الَّذِينَ جاءُوا بالإفْكِ، عُصْبَةٌ مِنْكُمْ): جماعة، منهم حسان بن ثابت، ومِسْطَح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش.

كما حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد، قال: ثنا أبي، قال: ثنا أبان العطار، قال: ثنا هشام بن عروة، عن عروة: أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان: كتبت إليّ تسألني في الذين جاءوا بالإفك، وهم كما قال الله (إنَّ الَّذِينَ جاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ)، وأنه لم يُسَمَّ منهم أحد إلا حسان بن ثابت، ومِسْطَح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش، وهو يقال في آخرين لاعلم لي بهم، غير أنهم عصبة، كما قال الله.

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (جاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) هم أصحاب عائشة ، قال ابن جُرَيج : قال ابن عباس : قوله (جاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) . . . الآيةَ ، الذين افْتَرَوا على عائشة : عبد الله بن أُبَيّ ، وهو الذى تولى كِبْره ، وحسان بن ثابت ، ومِسْطَح ، وحَمْنة بنت جحش .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (الَّذِينَ جاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) الذين قالوا لعائشة الإفك والبهتان .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (إنَّ الَّذِينَ جاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لاتَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) قال : الشرّ لكم بالإفك الذى قالوا ، الذى تكلَّموا به ، كان شرًّا لهم ، وكان فيهم من لم يقله ، إنما سمعه ، فعاتبهم الله ، فقال : أوّلَ شيء (إنَّ الَّذِين جاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لاتَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) ثم قال : (والَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

وقوله (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ ما اكْتَسَبَ مِنَ الإثْمِ) يقول : لكلّ امرئ من الذين جاءوا بالإفك جزاء ما اجترم من الإثم ، بمجيئه بما جاء به ، من الأولى عبدالله . وقوله (وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ) يقول : والذى تحمل معظم ذلك الإثم والإفك منهم : هو الذى بدأ بالخوض فيه .

كما حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَه مِنْهُمْ) يقول : الذى بدأ بذلك .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) قال : أصحاب عائشة عبد الله بن أبىّ بن سَلُول ، ومِسْطَح ، وحَسَّان .

قال أبو جعفر : له من الله عذاب عظيم يوم القيامة .

وقد اختلف القرّاء فى قراءة قوله (كِبْرَهُ) فقرأت ذلك عامة قرّاء الأمصار (كِبْرَهُ) بكسر الكاف ، سوى حميد الأعرج ، فإنه كان يقرؤه (كُبْرَهُ) بمعنى : والذى تحمل أكبره .

❊ وأولى القراءتين فى ذلك بالصواب : القراءة التى عليها عوامّ القرّاء ، وهى كسر الكاف ، لإجماع الحجة من القرّاء عليها ، وأن الكبر : بالكسر : مصدر الكبير من الأمور ، وأن الكُبْر بضم الكاف : إنما هو من الولاء والنسب ، من قولهم : هو كُبْر قومه ؛ والكبر فى هذا الموضع : هو ما وصفناه من معظم الإثم والإفك . فإذا كان ذلك كذلك ، فالكسر فى كافه هو الكلام الفصيح ، دون ضمها ، وإن كان لضمها وجه مفهوم .

وقد اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بقوله (وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ) . . . الآية ، فقال بعضهم : هو حسان بن ثابت .

ذكر من قال ذلك

حدثنا الحسن بن قزعة ، قال : ثنا مسلمة بن علقمة ، قال : ثنا داود ، عن عامر ، أن عائشة قالت : ماسمعت بشيء أحسن من شعر حسان ، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبي سفيان :

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

أَتَشْتُمُهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ ... وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدِّلَاءُ[1]

فقيل : يا أمّ المؤمنين ، أليس هذا لغوا ؟ قالت : لا ، إنما اللّغو ماقيل عند النساء . قيل : أليس الله يقول : (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) قالت : أليس قد أصابه عذاب عظيم ، أليس قد ذهب بصره ، وكُنِّع بالسيف[2] .

قال : ثنا ابن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق قال : كنت عند عائشة ، فدخل حسان بن ثابت ، فأمرت ، فألقي له وسادة ؛ فلما خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا وقد قال الله ماقال ؟ فقالت : قال الله (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وقد ذهب بصره ، ولعلّ الله يجعل ذلك العذاب العظيم : ذهاب بصره .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن أبي عديّ ، عن شعبة ، عن سليمان ، عن أبي الضحى ، عن مسروق قال : دخل حسان بن ثابت على عائشة ، فشبّب بأبيات له ، فقال :

« وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ »[3]

فقالت عائشة : أما إنك لست كذلك! فقلت : تدعين هذا الرجل يدخل عليك ، وقد أنزل الله فيه (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ) . . . الآية ؟ فقالت : وأيّ عذاب أشدّ من العمى ، وقالت : إنه كان يدفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثني محمد بن عثمان الواسطي ، قال : ثنا جعفر بن عون ، عن المُعَلَّى بن عرفان ، عن محمد بن عبد الله ابن جحش ، قال : تفاخرت عائشة وزينب ، قال : فقالت زينب : أنا التي نزل تزويجي من السماء ،

---

(١) هذه الأبيات الأربعة لحسان بن ثابت الأنصاري ، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، يهجو بها أبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، شاعر قريش قبل إسلامه . وهي من قصيدته التي مطلعها : «عفت ذات الأصابع فالجواء» . والأبيات قرب نهاية القصيدة ، وقبلها « ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء » (وانظر القصيدة في سيرة ابن هشام طبعة الحلبي ج ٤ : ٩٤ – ٩٩) وقد استشهد بها المؤلف على أن حسان كان ممن خاض في حديث الإفك ، الذي رميت به أم المؤمنين عائشة المبرأة ، رضي الله عنها .

(٢) كنع بالسيف : ضرب به حتى يبس جلده (اللسان) .

(٣) هذا عجز بيت لحسان بن ثابت ، من أبيات له في مدح أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بعد أن نزلت براءتها في سورة النور ، من الإفك الذي خاض فيه بعض الصحابة ، وكان حسان من المقدم خوضا فيه ، حتى إذا حصحص الحق ، وظهرت براءة أم المؤمنين ، ندم حسان واعتذر ، وقال يمدحها في أبيات له . وصدر البيت : « حصان رزان ما تزن بريبة » والحصان : العفيفة والرزان : المرأة الوقور التي لا يستخفها الطيش . وتزن : ترمى وتتهم . والريبة : التهمة والشك . وغرثى : جائعة ، يريد لا تغتاب الناس . والغوافل : جمع غافلة ، وهي التي غفلت عما رميت به (وانظر سيرة ابن هشام طبعة الحلبي ٣ : ٣١٩ ، ٣٢٠) .

قال : وقالت عائشة : أنا التى نزل عذرى فى كتابه ،حين حملنى ابن المعطّل على الراحلة ، فقالت لها زينب : ياعائشة ، ماقلت حين ركبتيها ؛ قالت : قلت : حسبى الله ونعم الوكيل ، قالت : قلتِ كلمةَ المؤمنين .

وقال آخرون : هو عبد الله بن أُبىّ ابن سلُول .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبو أسامة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : كان الذين تكلموا فيه : المنافق عبد الله بن أُبىّ ابن سلول ، وكان يستوشيه ويجمعه ، وهو الذى تولى كِبْره ، ومِسْطَحا ، وحسان بن ثابت .

حدثنا سفيان ، قال : ثنا محمد بن بشر ، قال : ثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، عن علقمة بن وقّاص وغيره أيضا ، قالوا : قالت عائشة : كان الذى تولى كبره : الذى يجمعهم فى بيته ، عبد الله بن أُبىّ ابن سلُول .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن ابن شهاب ، قال : ثنى عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن عائشة ، قالت : كان الذى تولى كبره : عبد الله بن أُبىّ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس (إنّ الّذينَ جاءُوا) . . . الآية ، الذين افتَرَوا على عائشة : عبد الله بن أُبىّ ، وهو الذى تولى كِبْره ، وحسان ، ومِسْطَح ، وحَمْنة بنت جحش .

حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنا أبان العطار ، قال : ثنا هشام بن عروة فى الذين جاءوا بالإفك ، يزعمون أنه كان كِبْرُ ذلك عبدَ الله بن أبىّ ابن سلول ، أحد بنى عوف بن الخزرج . وأخبرت أنه كان يحدّث به عنهم ، فيقرّه ويسمعه ويستوشيه .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : أما الذى تولى كبره منهم ، فعبد الله ابن أُبىّ ابن سلول الخبيث ، هو الذى ابتدأ هذا الكلام ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقود بها .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، والذى تولى كِبْره هو عبد الله بن أُبىّ ابن سلول ، وهو بدأه .

❊ وأولى القولين فى ذلك بالصواب : قول من قال : الذى تولى كِبْره من عصبة الإفك ، كان عبدَ الله بن أُبىّ ، وذلك أنه لاخلاف بين أهل العلم بالسير ، أن الذى بدأ بذكر الإفك ، وكان يجمع أهله ويحدثهم ، عبدُ الله بن أُبىّ ابن سلُول ، وفعله ذلك على ما وصفت ، كان توليه كِبْر ذلك الأمر .

وكان سبب مجىء أهل الإفك ، ما حدّثنا به ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ،

عن محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب ، قال : ثني عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن حديث عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ،حين قال لها أهل الإفك ماقالوا ، فبرأها الله ، وكلهم حدثني طائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض ، وأثبت اقتصاصا ، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذى حدثني عن عائشة ، وبعض حديثهم يصدق بعضا :

زعموا أن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيّتهن خرج سهمها خرج بها ؛ قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزاة غزاها ، فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بعد ما أُنزِل الحجاب ، وأنا أُحمَل فى هودجى ، وأنزل فيه ، فسرنا ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه ، وقفل إلى المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ؛ فلما قضيت شأنى ، أقبلت إلى الرحل ، فلمست صدرى ، فإذا عِقد لى من جَزْع ظَفَارِ قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرْحَلون لى ، فاحتملوا هودجى ، فرَحَلوه على بعيرى الذى كنت أركب ، وهم يحسبون أنى فيه ؛ قالت : وكانت النساء إذ ذاك خِفافا ، لم يُهَبّلهن ولم يَغشَهن اللحم ، إنما يأكلن العُلْقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقلَ الهودج حين رَحَلُوه ورفعوه ، وكنت جارية حديثة السنّ ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عِقْدى بعد ما استمرّ الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونى ، ويرجعون إلىّ ، فبينا أنا جالسة فى منزلى ، غلبتنى عينى ، فنمت حتى أصبحت وكان صفوان بن المعطّل السُّلَمىّ ثم الذَّكْوانىّ ، قد عرَّس من وراء الجيش ، فادلَّج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى ، فعرفنى حين رآنى ، وكان يرانى قبل أن يُضرب الحجاب علىّ ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمَّرت وجهى بجلبابى ، والله ماتكلمت بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يديها ، فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة ، حتى أتينا الجيش ، بعد ما نزلوا مُوغِرينَ فى نحر الظهيرة ، فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كِبْره عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيت شهرا ، والناس يُفيضون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يَريبنى فى وجعى ، أنى لا أعرف من رسول الله اللُّطْف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبنى ، ولا أشعر بالشرّ ، حتى خرجت بعد ما نَقَهت ، فخرجت مع أمّ مِسْطَح قِبَلَ المَناصع ، وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأُوَل فى التنزه [1] ، وكنا نتأذّى بالكُنُف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأمّ مسطح ، وهى ابنة أبى رُهْم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر ، خالة أبى بكر الصدّيق ، وابنها مِسْطَح بن أُثاثة بن عباد بن المطّلب ، فأقبلت أنا وابنة أبى رُهْم قبل بيتى ، حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أمّ مِسْطَح فى مِرْطها ، فقالت : تَعِسَ مِسْطَح ! فقلت لها : بِئْسَ ماقلت ! أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ فقالت : أى هَنْتاه ، أوَلم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل

(١) كذا رواه الإمام مسلم فى صحيحه (١٧ : ١٠٩) بشرح النووى . وفى صحيح البخارى طبعة الحلبى (٥ : ١٥٠) : « قبل الغائط » فى ١٩٠ ، الجزء

الإفك ، فازددت مرَضا على مرضي ؛ فلما رجعت إلى منزلى ،ودخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ثم قال : كَيْفَ تِيكُمْ ؟ فقلت : أتأذن لى أن آتىَ أبوىّ ؟ قال : نعم . قالت : وأنا[1] حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قِبَلهما . فأذِن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أبوىّ،فقلت لأمى : أى أمتاه ،ماذا يتحدّث الناس ؟ فقالت : أى بُنية ، هوّنى عليك! فوالله لقلما كانت امرأة قطّ وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر ،إلا أكثرن عليها . قالت: قلت:سبحان الله ،أوَ قد تحدّث الناس بهذا ،وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت:نعم ، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لايرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت ، فدخل علىّ أبو بكر وأنا أبكى ، فقال لأمى : مايبكيها ؟ قالت:لم تكن علمت ما قيل لها ، فأكبّ يبْكى ، فبكى ساعة،ثم قال : اسكتى يابنية ، فبكيت يومى ذلك،لايرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلى المقبل لايرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتى المقبلة ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، حتى ظنّ أبواى أن البكاء سيفلق كبدى .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب ،وأُسامة بن زيد،حين استلْبث الوحى ،يستشيرهما فى فراق أهله ؛ قالت : فأما أُسامة ، فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى فى نفسه من الودّ ،فقال : يا رسول الله،هم أهلك،ولا نعلم إلا خيرا . وأما علىّ فقال : لم يضيق الله عليك،والنساء سواها كثير ،وإن تسأل الجارية تَصْدُقك ، يعنى بَريرة . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَريرة ، فقال : هَلْ رأيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عائِشَةَ ؟ قالت له بَريرة:والذى بعثك بالحقّ ، ما رأيت عليها أمرا قطّ أَغْمِصُه عليها ، أكثَر من أنها حديثة السنّ ، تنام عن عجين أهلها،فتأتى الداجن فتأكله. فقام النبىّ صلى الله عليه وسلم خطيبا ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : مَنْ يَعْذِرُنِى مِمنْ قَدْ بَلَغَنِى أذاهُ فِى أهْلى؟يعنى عبدَ الله بن أُبىّ ابن سَلُول . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر أيضا : يا مَعْشَرَ المُسْلمينَ ، مَنْ يَعْذِرُنِى مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنى أذاهُ فِى أهْلى،فَوَالله ماعَلِمْتُ عَلى أهْلى إلاّ خَيْرًا ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلاّ خَيْرًا ، وَما كانَ يَدْخُلُ عَلَى أهْلى إلاّ مَعى . فقام سعد بن مُعاذ الأنصارىّ،فقال:أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عُنُقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ؛ فقام سعد بن عُبادة، فقال،وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحا ،ولكن احتملتْه الحميّة،فقال : أىْ سعدَ بنَ معاذ ،لعمرُ الله لاتقتله ، ولا تقدر على قتله . فقام أُسَيد بن حُضَير ،وهو ابن عمة سعد بن معاذ،فقال لسعد بن عُبادة : كذبت،لعمر الله لنقتلنّه ، فإنك منافق، تجادل عن المنافقين . فثار الحيان: الأوس والخزرج ،حتى هموا أن يقتتلوا،ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخفّضهم حتى سكتوا ، ثم أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى بيت أبوىّ ، فبينا هما جالسان عندى وأنا أبكى ، استأذنت علىّ امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى ؛ قالت : فبينا نحن على ذلك ، دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جلس عندى ، ولم يجلس عندى منذ قيل ماقيل ، وقد لبث شهرا لايوحَى إليه

(١) هذه رواية مسلم . وفى صحيح البخارى (٥ : ١٥٠) : قالت : أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما . قالت : فأذن . . الخ .

فى شأنى بشىء ؛ قالت : فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ، ثم قال : أَمَّا بَعْدُ يا عائِشَةُ فإنَّهُ بَلَغَنِى عَنْكِ كَذَا وكَذا ، فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ ، وَإنْ كُنْتِ ألْمَمْتِ بذَنْبٍ،فاسْتَغْفِرِى اللهَ، وَتُوبِى إلَيْهِ . فإنَّ العَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تابَ ، تابَ اللهُ عَلَيْهِ . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته ، قَلَص دمعى،حتى ما أحسّ منه دمعة ؛ قلت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت لأمى : أجيبى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، : فقلت وأنا جارية حديثة السنّ، لاأقرأ كثيرا من القرآن : إنى والله لقد عرفت أنْ قد سمعتم بهذا ، حتى استقرّ فى أنفسكم، حتى كدتم أن تصدّقوا به ، فإن قلت لكم : إنى بريئة، والله يعلم أنى بريئة، لاتصدّقونى بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر،والله يعلم أنى منه بريئة،لتصدّقُنّى ، وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلاإلا كما قال أبو يوسف[1] : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ،وَاللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى ما تَصِفُونَ).

ثم تولّيت واضطجعت على فراشى ، وأنا والله أعلم أنى بريئة ، وأن الله سيبرّئنى ببراءتى ، ولكنى والله ما كنت أظنّ أن ينزل فى شأنى وحى يُتلى ، ولَشأنى كان أحقَر فى نفسى من أن يتكلّم الله فىّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام رؤيا يبرّئنى الله بها . قالت : والله مارام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ، ولا خرج من البيت أحد ، حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء عند الوحى ، حتى إنه ليتحدّر منه مثلُ الجُمان من العرق فى اليوم الشاتى ، من ثقل القول الذى أُنزل عليه ، قالت : فلما سُرِّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، كان أوّل كلمة تكلم بها أن قال : أَبْشِرِى يا عائِشَةُ ، إنَّ اللهَ قَدْ بَرَّأكِ . فقالت لى أمى ، قومى إليه ، فقلت: والله لاأقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ، هو الذى أنزل براءتى . فأنزل الله (إنَّ الَّذِينَ جاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) عشر آيات . فأنزل هذه الآيات براءة لى . قالت : فقال أبو بكر : وكان ينفق على مِسْطَح لقرابته وفقره : والله لاأنفق عليه شىء أبدا بعد الذى قال لعائشة . قالت : فأنزل الله:(وَلا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ) حتى بلغ (غَفُورٌ رَحِيمٌ) فقال أبو بكر : إنى لأحبّ أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مِسْطَح النفقةَ التى كان يُنفق عليه ، وقال : لاأنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسأل زينب بنت جحش عن أمرى ، وما رأت ، وما سمعت ، فقالت : يارسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله مارأيت إلا خيرا . قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني ، فعصمها الله بالوَرَع ، وطفقت أختها حَمْنة تحارب ، فهلكت فيمن هلك .

قال الزهرىّ بن شهاب : هذا الذى انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن الزهرىّ ، وعن علقمة بن وقّاص الليثىّ ، عن سعيد بن المسيب ، وعن عروة بن الزبير ، وعن عبيد الله بن عتبة بن مسعود . قال الزهرىّ : كلّ قد حدثنى بعض هذا الحديث ، وبعض القوم كان له أوعى من بعض . قال : وقد جمعت لك كل الذى قد حدثنى .

(١) لم تذكر أم المؤمنين رضى الله عنها اسم النبى يعقوب أبى يوسف عليهما السلام ، لأنها كانت جارية حديثة السن ، ولم تقرأ كثيرا من القرآن بعد

وحدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : وثنى محمد بن إسحاق ، قال : ثنا يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة ، قال : وثنى عبد الله بن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارىّ ، عن عَمْرة بنت عبد الرحمن ، عن عائشة قالت : وكل قد اجتمع فى حديثه قصة خبر عائشة عن نفسها ، حين قال أهل الإفك فيها ما قالوا ، وكله قد دخل فى حديثها عن هؤلاء جميعا ، ويحدث بعضهم ما لم يحدث بعض ، وكلّ كان عنها ثقة ، وكلّ قد حدث عنها ما سمع .

قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كانت غزاة بنى المصطلق ، أقرع بين نسائه ، كما كان يصنع ، فخرج سهمى عليهنّ ، فخرج بى رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ، قالت : وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العُلَق ، لم يهيّجهن اللحم فيثقلن ، قالت : وكنت إذا رحل بعيرى جلست فى هَوْدَجى ، ثم يأتى القوم الذين يرحلون بى بعيرى ويحملونى ، فيأخذون بأسفل الهودج ، يرفعونه فيضعونه على ظهر البعير ، فينطلقون به ، قال : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك ، وجه قافلا ، حتى إذا كان قريبا من المدينة ، نزل منزلا ، فبات بعض الليل ، ثم أذّن فى الناس بالرحيل ، فلما ارتحل الناس ، خرجت لبعض حاجتى ، وفى عنقى عقد لى من جَزْعَ ظَفَارِ ، فلما فرغت انسلّ من عنقى وما أدرى ، فلما رجعت إلى الرحْل ، ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل ، قالت : فرجعت عَوْدِى إلى بَدْئى ، إلى المكان الذى ذهبت إليه ، فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم خلافى الذين كانوا يرحلون بى البعير .

ثم ذكر نحو حديث ابن عبد الأعلى ، عن ابن ثور .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبو أسامة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : لما ذكر من شأنى الذى ذكر ، وما علمت به ، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا وما علمت ، فتشهد ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أمَّا بَعْدُ أشِيرُوا عَلَىَّ فِى أُناسٍ أَبَنُوا أهْلِى ، وَاللهِ ماعَلِمْتُ عَلَى أهْلِى سُوءً قَطُّ ، وأبَنُوهُمْ بِمَنْ وَاللهِ ما عَلِمْتُ عَلَيْهِ سُوءًا قَطُّ ، وَلا دَخَلَ بَيْتِى قَطُّ إلاَّ وأنا حاضِرٌ ، وَلا أغِيبُ فِى سَفَرٍ إلاَّ غابَ مَعِى ، فقام سعد بن مُعاذ فقال : يا رسول الله ، نرى أن نضرب أعناقهم ، فقام رجل من الخزرج ، وكانت أمّ حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل ، فقال : كذبتَ ، أما والله لو كانوا من الأوس ، ما أحببت أن تضرب أعناقهم ، حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج فى المسجد شرّ ، وما علمت به ، فلما كان مساء ذلك اليوم ، خرجت لبعض حاجتى ومعى أمّ مِسْطَح ، فعثرت ، فقالت : تَعَس مِسْطح ! فقلت علام تسبين ابنك ؟ فسكتت ، ثم عثرت الثانية ، فقالت : تَعَس مسطح ! قلت : علام تسبين ابنك ؟ فسكتت الثانية . ثم عثرت الثالثة ، فقالت : تَعَس مسطح ! فانتهرتها ، وقلت : علام تسبين ابنك ؟ قالت : والله ما أسبه إلا فيك ، قلت : فى أىّ شأنى ، فبقَرَت[1] لى الحديث ، فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله ، قالت : فرجعت إلى بيتى فكأن الذى خرجت له لم أخرج له ، ولا أجد منه قليلا ولا كثيرا ، ووُعِكْتُ ، فقلت : يا رسول الله ، أرسلنى إلى بيت أبى ، فأرسل معى الغلام ، فدخلت الدار ، فإذا أنا بأمى أمّ رومان ، قالت : ما جاء بك يا بُنَية ؟

(١) بقرت لى الحديث : أخبرتنى به مفصلا .

فأخبرتها ، فقالت : خَفِّضي عليك الشأن، فإنه والله ما كانت امرأة جميلة عند رجل يحبها ولها ضرائر ، إلا حسدنها وقلن فيها . قلت : وقد علم بها أبي ؟ قالت : نعم . قلت : ورسول الله ؟ قالت : نعم . فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ ، فنزل فقال لأمي : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذي ذُكر من أمرها ، ففاضت عيناه ، فقال : أقسمت عليك إلا رَجَعْتِ إلى بيتك . فرجعت .

فأصبح أبواي عندي ، فلم يزالا عندي حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بعد العصر ، وقد اكتنفني أبواي، عن يميني ،وعن شمالي، فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله،وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أمَّا بَعْدُ يا عائِشَةُ ،إنْ كُنْتِ قارَفْتِ سُوءًا أوْ ظَلَمْتِ ، فَتُوبي إلى اللهِ ، فإنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ .وقد جاءت امرأة من الأنصار وهي جالسة، فقلت: ألا تستحي من هذه المرأة أن تقول شيئا ؟ فقلت لأبي : أجبه . فقال : أقول ماذا ؟ قلت لأمي : أجيبيه . فقالت : أقول ماذا ؟ فلما لم يجيباه تشهدت ، فحمدت الله، وأثنيت عليه بما هو أهله ، ثم قلت : أما بعد ، فوالله لئن قلت لكم إني لم أفعل، والله يعلم إني لصادقة ،ماذا بنافعي عندكم، لقد تُكُلِّم به،وأُشْرِبته قلوبكم ؛وإن قلت إني قد فعلت ، والله يعلم أني لم أفعل ، لتَقولُنّ قد باءت به على نفسها، وايم الله مَا أجدلي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف وما أحفظ اسمه : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللهُ المُسْتَعانُ عَلَى ما تَصِفُونَ) . وأنزل الله على رسوله ساعتئذ ، فرفع عنه . وإني لأتبين السرور في وجهه ، وهو يمسح جبينه يقول : أَبْشِري يا عائِشَةُ ، فَقَدْ أنْزَلَ اللهُ بَراءَتَكِ . فكنت أشدّ ما كنت غضبا ، فقال لي أبواي : قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : والله لاأقوم إليه ، ولا أحمده ، ولاأحمدكما ، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ، ولاغيرتموه ، ولكني أحمد الله الذي أنزل براءتي ، ولقد جاء رسول الله بيتي ، فسأل الجارية عني ، فقالت : والله ما أعلم عليها عيبا ، إلا أنها كانت تنام ، حتى كانت تدخل الشاة ، فتأكل حصيرها أو عجينها ، فانتهرها بعض أصحابه ، وقال لها : اصْدُقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عروة : فعتب على من قاله ، فقال : لا ، والله ما أعلم عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر ، وبلغ ذلك الرجل الذي قيل له ، فقال : سبحان الله ! ما كشفت كَنَفَ أنثى قطّ ، فقتل شهيدا في سبيل الله . قالت عائشة : فأما زينب بنت جحش ، فعصمها الله بدينها ، فلم تقل إلا خيرا، وأما حَمْنة أختها ، فهلكت فيمن هلك . وكان الذين تكلموا فيه : المنافقَ عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول ، وكان يستوشيه ويجمعه ، وهو الذي تولى كِبْره ، ومِسْطحا ، وحسانَ بن ثابت ، فحلف أبو بكر أن لاينفع مِسْطَحا بنافعة ، فأنزل الله : (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) يعني أبا بكر (أنْ يُؤْتُوا أُولي القُرْبَى وَالمَساكِينَ) يعني مِسْطحا (ألا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قال أبو بكر : بلى والله ، إنا لنحبّ أن يغفر الله لنا ، وعاد أبو بكر لمِسْطَح بما كان يصنع به.

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا محمد بن بشر ، قال : ثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا يحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب ، عن علقمة بن وقاص وغيره أيضا ، قال : خرجت عائشة تريد المَذْهب[1] ، ومعها أمّ مسطح ، وكان مسطح بن أثاثة ممن قال ما قال ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس قبل ذلك ، فقال :

(١) المذهب : مكان التبرز في الخلاء .

كَيْفَ تَرَوْنَ فِيمَنْ يُؤْذِينِي فِي أَهْلِي، وَيَجْمَعُ فِي بَيْتِهِ مَنْ يُؤْذِينِي ؟ فقال سعد بن مُعاذ : أي رسول الله ، إن كان منا معشرَ الأوس جلدنا رأسه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ،أمرتنا فأطعناك . فقال سعد بن عبادة : يا بن معاذ ، والله مابك نُصْرة رسول الله ، ولكنها قدكانت ضغائن فى الجاهلية وإحن لم تحلل لنا من صدوركم بعد ، فقال ابن معاذ: الله أعلم ما أردت ، فقام أُسَيد بن حُضَير ،فقال: يا بن عبادة،إن سعدا ليس شديدا ، ولكنك تجادل عن المنافقين ، وتدفع عنهم ، وكثر اللَّغط فى الحيين فى المسجد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على المنبر ، فما زال النبيّ صلى الله عليه وسلم يومئ بيده إلى الناس ههنا وههنا ، حتى هدأ الصوت .

وقالت عائشة : كان الذى تولى كِبْره ،والذى يجمعهم فى بيته،عبد الله بن أُبىّ ابن سلول ، قال : فخرجت إلى المَذْهَب ومعي أمّ مسطح ،فعثرتْ،فقالتْ:تَعَس مِسْطَح ! فقلت: غفر الله لك ، أتقولين هذا لابنك ، ولصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت ذلك مرّتين ، وما شعرت بالذى كان ، فحُدثت ،فذهب عني الذى خرجت له ، حتى ما أجد منه شيئا ،ورجعت على أبوىّ:أبي بكر ، وأمّ رُومان ، فقلت : أما اتقيتما الله فىّ وما وصلتما رحمى ؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم الذى قال ، وتحدّث الناس بالذى تحدثوا به،ولم تُعْلِماني ،فأُخْبِر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟قالت:أي بنية،والله لقلما أحبّ رجل قطّ امرأته،إلا قالوا لها نحو الذى قالوا لك،أى بنية ارجعي إلى بيتك،حتى نأتيَكِ فيه ، فرجعت وارتكبني صالبٌ من حُمّى ، فجاء أبواى فدخلا ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس على سريرى وُجاهي ، فقالا:أى بنية ، إن كنتِ صنعت ماقال الناس ، فاستغفرى الله ، وإن لم تكونى صنعتيه ، فأخبرى رسول الله بعذرك . قلت : ما أجد لى ولكم إلا كأبي يوسف (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ،وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) . قالت : فالتمست اسم يعقوب،فما قدرت ، أوفلم أقدر عليه ، فشخص بصر رسول الله إلى السقف ، وكان إذا نزَل عليه وَجَد،قال الله (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) فوالذى هو أكرمه، وأنزل عليه الكتاب ،ما زال يضحك،حتى إنى لأ نظر إلى نواجذه سرورا،ثم مسح عن وجهه،فقال: يا عائِشَةُ أَبْشِرِي ، قَدْ أَنْزَلَ اللهُ عُذْرَكِ . قلت : بحمد الله لابحمدك ، ولا بحمد أصحابك ، قال الله (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) . . . حتى بلغ (وَلا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) وكان أبوبكر حلف أن لاينفع مسطحا بنافعة ، وكان بينهما رَحِم ، فلما أنزلت (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ) . . . حتى بلغ (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قال أبو بكر : بلى ، إى ربّ ، فعاد إلى الذى كان لمسطح (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) . . حتى بلغ (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) قالت عائشة : والله ماكنت أرجو أن ينزل فىّ كتاب ،ولا أطمع به ، ولكن أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا تُذْهِب ما فى نفسه ؛ قالت : وسأل الجارية الحَبَشية ، فقالت : والله لعائشة أطيب من طيب الذهب ، وما بها عيب إلا أنها ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل عجينها ، ولئن كانت صنعت ما قال الناس ، ليخبرنّك الله ، قال : فعجب الناس من فقهها .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

وهذا عتاب من الله تعالى ذكره أهلَ الإيمان به، فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرجف في أمر عائشة، بما أرجف به، يقول لهم تعالى ذكره: هلا أيها الناس إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة، ظنَّ المؤمنون منكم والمؤمنات بأنفسهم خيرا: يقول: ظننتم بمن قُرِف بذلك منكم خيرا، ولم تظنوا به أنه أتى الفاحشة، وقال بأنفسهم، لأن أهل الإسلام كلهم بمنزلة نفس واحدة، لأنهم أهل ملة واحدة.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن أبيه، عن بعض رجال بني النجار، أن أبا أيوب خالد بن زيد، قالت له امرأته أمّ أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أمّ أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك. قال: فلما نزل القرآن، ذكر الله من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا، ثم قال (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ)... الآية: أي كما قال أبو أيوب وصاحبته.

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) ما هذا الخير ظنَّ المؤمن أن المؤمن لم يكن ليفجر بأمه، وأن الأم لم تكن لتفجر بابنها، إن أراد أن يفجر فجر بغير أمه، يقول: إنما كانت عائشة أما، والمؤمنون بنون لها، محرّما عليها، وقرأ (لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)... الآية.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد، قوله (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) قال لهم خيرا، ألا ترى أنه يقول: لا تقتلوا أنفسكم، يقول بعضكم بعضا، وسلموا على أنفسكم، قال: يسلم بعضكم على بعض.

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا هَوْذة، قال: ثنا عوف عن الحسن، في قوله (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) يعني بذلك المؤمنين والمؤمنات.

وقوله (وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) يقول: وقال المؤمنون والمؤمنات: هذا الذي سمعناه من القول الذي رُمي به عائشة من الفاحشة: كذب وإثم، يبين لمن عقل وفكر فيه، أنه كذب وإثم وبهتان.

كما حدثنا ابن بشار، قال: ثنا هوذة، قال: أخبرنا عوف عن الحسن (وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) قالوا: إن هذا لا ينبغي أن يتكلم به إلا من أقام عليه أربعة من الشهود، وأقيم عليه حدّ الزنا.

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ لَوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ ١٣

يقول تعالى ذكره : هلا جاء هؤلاء العصبة الذين جاءوا بالإفك، ورمَوا عائشة بالبهتان، بأربعة شهداء يشهدون على مقالتهم فيها، وما رَمَوها به، فإذ لم يأتوا بالشهداء الأربعة على حقيقة ما رمَوْها به (فأُولئكَ عِندَ اللهِ هُمُ الكاذِبُونَ) يقول : فالعُصْبَة الذين رَمَوها بذلك عند الله هم الكاذبون ، فيما جاءوا به من الإفك :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٤

يقول تعالى ذكره (ولَوْلا فَضْلُ اللهَ عَلَيْكُمْ) أيها الخائضون فى أمر عائشة ، المُشيعُون فيها الكذب والإثم، بتركه تعجيل عقوبتكم (ورَحْمَتُه) إياكم، لعفوه عنكم (فى الدُّنيا والآخرَة) بقبول توبتكم مما كان منكم فى ذلك ، (لمَسَّكُمْ فيما) خضتم فيه من أمرها عاجلا فى الدنيا (عَذابٌ عَظِيمٌ) .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ) هذا للذين تكلموا ، فنشروا ذلك الكلام (لَمَسَّكُمْ فيما أفَضْتُمْ فيه عَذابٌ عَظِيمٌ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ١٥

يقول تعالى ذكره : لمسكم فيما أفضتم فيه من شأن عائشة عذاب عظيم ، حين تلقَّونه بألسنتكم ، و « إذ » من صلة قوله لمسَّكم . ويعنى بقوله (تَلَقَّوْنَهُ) تتلقون الإفك الذي جاءت به العصبة من أهل الإفك، فتقبلونه ، ويرويه بعضكم عن بعض ، يقال : تلقَّيت هذا الكلام عن فلان، بمعنى أخذته منه ؛ وقيل ذلك، لأن الرجل منهم فيما ذُكر يلقَى آخر ، فيقول : أوَ مَا بلغك كذا وكذا عن عائشة ؟ ليُشيع عليها بذلك الفاحشة. وذكر أنها فى قراءة أُبَىّ (إذْ تَتَلَقَّوْنَهُ) بتاءين ، وعليها قرَأَة الأمصار ، غير أنهم قرءوها (تَلَقَّوْنَهُ) بتاء واحدة ، لأنها كذلك فى مصاحفهم .

وقد رُوِى عن عائشة فى ذلك ، ما حدثنى به محمد بن عبد الله بن عبدالحكَم ، قال : ثنا خالد بن نزار ، عن نافع ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنها كانت تقرأ هذه الآية (إذْ تَلِقُونَهُ بألْسِنَتِكُمْ) تقول : إنما هو وَلْق الكذب ، وتقول : إنما كانوا يَلِقُون الكذب . قال ابن أبى مليكة : وهى أعلم بما فيها أنزلت . قال نافع : وسمعت بعض العرب [1] يقول : اللَّيْق : الكذب .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا نافع بن عمر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر الجُمَحِىّ ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة ، أنها كانت تقرأ (إذْ تَلِقُونَهُ بألْسِنَتِكُمْ) وهى أعلم بذلك وفيها أنزلت . قال ابن أبى مليكة : هو من وَلْق الكذب .

قال أبو جعفر : وكأن عائشة وَجَّهت معنى ذلك بقراءتها (تلِقُونَهُ) بكسر اللام وتخفيف القاف ، إلى إذ تستمرّون فى كذبكم عليها ، وإفككم بألسنتكم ، كما يقال : وَلَق فلان فى السير فهو يَلِق : إذا استمرّ فيه ؛ وكما قال الراجز :

إنَّ الجُلَيْدَ زَلِقٌ وَزُمَّلِقْ جاءتْ بهِ عَنْسٌ منَ الشَّأْمِ تَلِقْ
مُجَوَّعُ البَطْنِ كِلابِىُّ الخُلُقْ [2]

وقد روى عن العرب فى الوَلْق : الكذب : الأَلْق ، والإِلْق : بفتح الألف وكسرها ، ويقال فى فعلت منه : ألقت ، فأنا ألق ؛ وقال بعضهم :

مَنْ لِىَ بالمُزَرَّرِ اليَلامِقِ صاحِبِ أدْهانٍ وألْقٍ آلِقِ [3]

والقراءة التى لاأستجيز غيرها (إذْ تَلَقَّوْنَهُ) على ماذكرت من قراءة الأمصار ، لإجماع الحجة من القرّاء عليها .

وبنحو الذى قلنا من التأويل فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيْج ، عن مجاهد (إذْ تَلَقَّوْنَهُ بألْسِنَتِكُمْ) قال : تَرْوُونه بعضُكم عن بعض .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (إذْ تَلَقَّوْنَهُ) قال : تَرْوُونه بعضُكم عن بعض .

---

(١) لم نقف عليه فيما بأيدينا من كتب اللغة ، فلعله مصحف .

(٢) هذه أبيات ثلاثة من مشطور الرجز ، للقلاخ بن حزن المنقرى ، نقلها صاحب (اللسان : زلق) . قال : رجل زلق وزملق مثال هدبد وزمالق وزملق (بتشديد الميم) ، وهو الذى ينزل قبل أن يجامع . قال القلاخ بن حزن المنقرى ... الأبيات . ثم قال : والجليد : هو الجليد الكلابى . التهذيب : والعرب تقول : زلق وزملق ، وهو الشكاز ، الذى ينزل إذا حدث المرأة من غير جماع . قال : ويقال الخفيه . اللحيانى : زملق وزملوق وزمالق وفى (اللسان : ولق) قال : وولق فى سيره ولقا : أسرع . ونسب أبيات القلاخ للشماخ ، ولم أجدها فى ديوان الشماخ المطبوع بمصر سنة ١٣٢٧ هـ .

(٣) هذان بيتان من الرجز أنشدهما الأزهرى عن بعضهم (اللسان : ولق) . وألق الكلام : متابعته فى سرعة . والألق : الاستمرار فى الكذب ، وألق يألق ألقا مثال ضرب يضرب ضربا . واليلامق : جمع يلمق ، وهو القباء (فارسى معرب) . واستشهد المؤلف بالبيتين على أن بعضهم قرأ قوله تعالى : « إذ تلقونه بألسنتكم » بكسر اللام ، وتخفيف القاف ، على أنه بمعنى الاستمرار فى الكذب .

قوله (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) يقول تعالى ذكره : وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم من الأمر الذى تَرْوُونه ، فتقولون: سمعنا أن عائشة فعلت كذا وكذا، ولا تعلمون حقيقة ذلك، ولا صحته (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً) وتظنون أن قولكم ذلك وروايتكموه بألسنتكم ، وتلقّيكموه بعضكم عن بعض، هيِّن سهل، لاإثم عليكم فيه ولا حرج (وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ) يقول : وتلقّيكم ذلك كذلك، وقولكموه بأفواهكم، عند الله عظيم من الأمر، لأنكم كنتم تؤذون به رسول الله صلى الله عليه وسلم وحليلته .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

❊ يقول تعالى ذكره: (فَلَوْلا) أيها الخائضون فى الإفك، الذى جاءت به عصبة منكم (إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) ممن جاء به (قلتُم)ما يحلّ لنا أن نتكلم بهذا، وما ينبغى لنا أن نتفوّه به(سُبْحانَكَ، هَذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ)، تنزيها لك يا ربّ ، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء . (هَذَا بُهْتانٌ عَظِيمٌ) يقول: هذا القول بهتان عظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

❊ يقول تعالى ذكره : يذكّركم الله ، وينهاكم بآى كتابه ، لئلا تعودوا لمثل فعلكم الذى فعلتموه فى أمر عائشة ، من تلقّيكم الإفك الذى رُوى عليها بألسنتكم، وقولكم بأفواهكم ما ليس لكم به علم فيها أبدا (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) يقول : إن كنتم تتعظون بعظات الله ، وتأتمرون لأمره ، وتنتهون عما نهاكم عنه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) قال : والذى هو خير لنا من هذا ، أن الله أعلمنا هذا لكيلا نقع فيه ، لولا أن الله أعلمناه لهلكنا كما هلك القوم ، أن يقول الرجل : أنا سمعته ولم أخترقه[1] ولم أتقوّله ، فكان خيرا حين أعلمناه الله ، لئلا ندخل فى مثله أبدا ، وهو عند الله عظيم . وقوله (وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ) : ويفصّل الله لكم حججه عليكم، بأمره ونهيه ، ليتبين المطيع له منكم من العاصى ، والله عليم بكم وبأفعالكم ، لايخفى عليه شىء ، وهو مجاز المحسنَ منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، حكيم فى تدبير خلقه ، وتكليفه ما كلّفهم من الأعمال ، وفرضه مافرض عليهم من الأفعال .

(١) اخترق الكذب : مثل اخترعه ، وافتعله ، وصنعه .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ١٩

يقول تعالى ذكره: إن الذين يحبون أن يذيع الزنا فى الذين صدّقوا بالله ورسوله، ويظهر ذلك فيهم، لهم عذاب أليم: يقول: لهم عذاب وجيع فى الدنيا، بالحدّ الذى جعله الله حدّا لرامى المحصّنات والمحصّنين إذا رموهم بذلك، وفى الآخرة عذاب جهنم إن مات مصرّا على ذلك غير تائب.

كما حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد، قوله (يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفاحِشَةُ) قال: تظهر فى شأن عائشة.

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا، لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قال: الخبيث عبد الله بن أبىّ ابن سلول، المنافق، الذى أشاع على عائشة ما أشاع عليها من الفرية، لهم عذاب أليم.

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبوعاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثنى الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، قوله (أَنْ تَشِيعَ الفاحِشَةُ) قال: تظهر، يتحدّث عن شأن عائشة.

وقوله (وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) يقول تعالى ذكره: والله يعلم كذبَ الذين جاءوا بالإفك من صدقهم، وأنتم أيها الناس لاتعلمون ذلك، لأنكم لاتعلمون الغيب، وإنما يعلم ذلك علّام الغيوب. يقول: فلا تَرْوُوا ما لاعلم لكم به من الإفك على أهل الإيمان بالله، ولا سيما على حلائل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتهلكوا.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ٢٠

يقول تعالى ذكره: ولولا أن تفضّل الله عليكم أيها الناس ورحمكم، وأن الله ذو رأفة، ذو رحمة بخلقه، لهلكتم فيما أفضتم فيه، وعاجلتكم من الله العقوبة. وترك ذكر الجواب، لمعرفة السامع بالمراد من الكلام بعده، وهو قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ) . . . الآية.

القول في تأويل قوله تعالى:

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾

⁂ يقول تعالى ذكره للمؤمنين به : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ، لاتسلكوا سبيل الشيطان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره ، بإشاعتكم الفاحشة فى الذين آمنوا ، وإذاعتكموها فيهم ، وروايتكم ذلك عمن جاء به ، فإن الشيطان يأمر بالفحشاء ، وهى الزنا ، والمنكر من القول .

وقد بيَّنا معنى الخطوات والفحشاء فيما مضى بشواهد ذلك بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢١)

⁂ يقول تعالى ذكره : ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته لكم ، ما تَطَهَّرَ منكم من أحد أبدا ، من دنس ذنوبه وشركه ، ولكن الله يطهِّر من يشاء من خلقه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ أبَدًا) يقول : ما اهتدى منكم من الخلائق لشىء من الخير ، ينفع به نفسه ، ولم يتق شيئا من الشرّ يدفعه عن نفسه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ أبَدًا) قال : ما زكى : ما أسلم ، وقال : كلّ شىء فى القرآن من زكى أو تزَكَّى فهو الإسلام .

وقوله (وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) يقول : والله سميع لما تقولون بأفواهكم ، وتَلَقَّوْنه بألسنتكم ، وغير ذلك من كلامكم ، عليم بذلك كله ، وبغيره من أموركم ، محيط به ، محصيه عليكم ، ليجازيكم بكل ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢٢)

⁂ يقول تعالى ذكره : ولا يحلف بالله ذوو الفضل منكم ، يعنى ذوى التفضل والسَّعة : يقول : وذوو الجِدَة .

واختلف القرّاء فى قراءة قوله (وَلا يَأْتَلِ) فقرأته عامة قرّاء الأمصار (وَلا يَأْتَلِ) بمعنى : يفتعل من الأَلِيَّة ، وهى القسم بالله ، سوى أبى جعفر وزيد بن أسلم ، فإنه ذُكِر عنهما أنهما قرآ ذلك (وَلا يَتَأَلَّ) بمعنى : يتفعل من الألية .

والصواب من القراءة فى ذلك عندى : قراءة من قرأ : ولا يأتل بمعنى : يفتعل من الألية ، وذلك أن

ذلك فى خطّ المصحف كذلك ، والقراءة الأخرى مخالفة خطّ المصحف ، فاتباع المصحف مع قراءة جماعة القرّاء ، وصحّة المقروء به ، أولى من خلاف ذلك كله . وإنما عُنِى بذلك أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فى حلفه بالله لاينفق على مِسْطَح ، فقال جلّ ثناؤه : ولا يحلف من كان ذا فضل من مال وسعة منكم أيها المؤمنون ، بالله ألاّ يُعْطُوا ذَوِى قَرابتهم ، فيصلوا به أرحامهم ، كمِسْطح ، وهو ابن خالة أبى بكر ، (والمساكين) : يقول : وذوى خَلّة الحاجة ، وكان مِسْطح منهم ، لأنه كان فقيرا محتاجا ، (والمهاجرين فى سبيل الله) ، وهم الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم فى جهاد أعداء الله ، وكان مِسْطَح منهم ، لأنه كان ممن هاجر من مكة إلى المدينة ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا (وَلْيَعْفُوا) يقول وليعفوا عما كان منهم إليهم من جُرْم ، وذلك كجرم مِسْطح إلى أبى بكر ، فى إشاعته على ابنته عائشة ، ما أشاع من الإفك . (وَلْيَصْفَحُوا) يقول : وليتركوا عقوبتهم على ذلك ، بحرمانهم ما كانوا يؤتونهم قبل ذلك ، ولكن ليعودوا لهم إلى مثل الذى كانوا ٧ لهم عليه ، من الإفضال عليهم . (ألا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ) يقول : ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم ، بأفضالكم عليهم ، فيترك عقوبتكم عليها (وَاللهُ غَفُورٌ) لذنوب من أطاعه ، واتبع أمره ، رحيم بهم أن يعذّبهم مع اتباعهم أمره ، وطاعتهم إياه على ما كان لهم من زلة وهفوة ، قد استغفروه منها ، وتابوا إليه من فعلها .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن الزهرىّ ، عن علقمة بن وقّاص الليثىّ ، وعن سعيد بن المسيب ، وعن عروة بن الزبير ، وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن عائشة . قال : وثنى ابن إسحاق ، قال : ثنا يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزُّبير ، عن أبيه ، عن عائشة ؛ قال : وثنى ابن إسحاق ، قال : ثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارىّ ، عن عمرة بنت عبد الرحمن ، عن عائشة ، قالت : لما نزل هذا ، يعنى قوله (إنَّ الَّذِينَ جاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) فى عائشة ، وفيمن قال لها ما قال . قال أبو بكر ، وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته : والله لاأنفق على مسطح شيئا أبدا ، ولا أنفعه بنفع أبدا ، بعد الذى قال لعائشة ما قال ، وأدخل عليها ما أدخل ، قالت : فأنزل الله فى ذلك (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) . . . الآية ، قالت : فقال أبو بكر : والله إنى لأحبّ أن يغفر الله لى ، فرجّع إلى مسطح نفقته التى كان يُنفق عليه ، وقال : والله لاأنزعها منه أبدا .

حدثنى علىّ ، قال ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) يقول : لاتُقْسِموا ألاّ تنفعوا أحدا .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) . . . إلى آخر الآية ، قال : كان ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رَمَوْا عائشة بالقبيح ، وأفشوا ذلك ، وتكلموا به ، فأقسم ناس من أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم أبو بكر ، ألاّ يتصدّق على رجل تكلم بشيء من هذا ولا يصله ، فقال : لايُقْسِمِ أولوا الفضل منكم والسعة أن يصلوا أرحامهم ، وأن يعطوهم من أموالهم كالذى كانوا يفعلون قبل ذلك ، فأمر الله أن يُغْفَرَ لهم ، وأن يُعْفَى عنهم .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) : لما أنزل الله تعالى ذكره عذر عائشة من السماء ، قال أبو بكر وآخرون من المسلمين ، والله لانصل رجلا منهم تكلّم بشيء من شأن عائشة ، ولا ننفعه . فأنزل الله (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) يقول : ولا يحلف .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَلا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أنْ يُؤْتُوا أُولى القُرْبَى) قال : كان مِسْطَح ذا قرابة (وَالمَساكِينَ) قال : كان مسكينا (وَالمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله) كان بدْريا .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ) قال : أبو بكر حلف أن لاينفع يتيما فى حِجْره ، كان أشاع ذلك ، فلما نزلت هذه الآية قال : بلى أنا أحبّ أن يغفر الله لى ، فلأكوننّ ليتيمى خيرَ ما كنت له قطٌّ .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ٢٣

يقول تعالى ذكره (إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ) بالفاحشة (المُحْصَناتِ) يعنى العفيفات (الغافِلاتِ) عن الفواحش (المُؤْمِناتِ) بالله ورسوله ، وما جاء به من عند الله (لُعِنُوا فِى الدُّنْيا والآخِرَةِ) يقول : أُبْعِدوا من رحمة الله فى الدنيا والآخرة (وَلَهُمْ) فى الآخرة (عَذَابٌ عَظِيمٌ) وذلك عذاب جهنم .

واختلف أهل التأويل فى المحصنات اللاتى هذا حكمهن ، فقال بعضهم : إنما ذلك لعائشة خاصة ، وحكم من الله فيها وفيمن رماها ، دون سائر نساء أمة نبينا صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن أبى الشوارب ، قال : ثنا عبد الواحد بن زياد ، قال : ثنا خَصيف ، قال : قلت لسعيد بن جُبير : الزنا أشدّ أم قذف المحصَنة ؟ فقال : الزنا ، فقلت : أليس الله يقول (إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَناتِ) . . . الآية ، قال سعيد : إنما كان هذا لعائشة خاصة .

حدثنا أحمد بن عبدة الضبى ، قال : ثنا أبوعوانة ، عن عمر بن أبى سَلَمة ، عن أبيه ، قال : قالت عائشة : رُميت بما رُميت به وأنا غافلة ، فبلغنى بعد ذلك ، قالت : فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم

عندى جالس ، إذ أوحي إليه ، وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات ، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندى ، ثم استوى جالسا يمسح عن وجهه ، وقال : يا عائشة أبشرى ، قالت : فقلت : بحمد الله لا بحمدك فقرأ (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ) . . . حتى بلغ (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) .

وقال آخرون : بل ذلك لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، دون سائر النساء غيرهنّ .

ذكر من قال ذلك

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ) . . . الآية ، أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة .

وقال آخرون : نزلت هذه الآية فى شأن عائشة ، وعنى بها كلّ من كان بالصفة التى وصف الله هذه الآية ، قالوا : فذلك حكم كلّ من رَمى محصنة ، لم تقارف سُوءا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا علىّ بن سهل ، قال : ثنا زيد ، عن جعفر بن برقان ، قال : سألت ميمونا ، قلت : الذى ذكر الله (الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) . . . إلى قوله (إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا ، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فجعل فى هذه توبة ، وقال فى الأخرى : (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغافِلاتِ) . . . إلى قوله (لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) قال ميمون : أما الأولى فعسى أن تكون قد قارفت ، وأما هذه ، فهى التى لم تقارف شيئا من ذلك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا العوّام بن حوشب ، عن شيخ من بنى أسد ، عن ابن عباس ، قال : فسّر سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ) . . . الآية ، قال هذا فى شأن عائشة وأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهى مبهمة ، وليست لهم توبة ، ثم قرأ (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ) . . . إلى قوله (إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا) . . . الآية ، قال : فجعل لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة ، قال : فهمّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسّر سورة النور .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) قال : هذا فى عائشة ، ومن صنع هذا اليوم فى المسلمات ، فله ما قال الله ، ولكن عائشة كانت إمام ذلك .

وقال آخرون : نزلت هذه الآية فى أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك كذلك، حتى نزلت الآية التى فى أوّل السورة فأوجب الجلد ، وقبل التوبة .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي قال : ثنا أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ) . . . إلى (عَذابٌ عَظِيمٌ) يعنى أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، رماهنّ أهل النفاق ، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب ، وباءوا بسخط من الله . وكان ذلك فى أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم نزل بعد ذلك (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) . . . إلى قوله (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فأنزل الله الجلد والتوبة ، فالتوبة تُقبل ، والشهادة تردّ .

وأولى هذه الأقوال فى ذلك عندى بالصواب : قول من قال : نزلت هذه الآية فى شأن عائشة ، والحكم بها عامّ فى كلّ من كان بالصفة التى وصفه الله بها فيها .

وإنما قلنا ذلك أولى تأويلاته بالصواب ، لأن الله عمّ بقوله (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ) كلّ محصنة غافلة مؤمنة ، رماها رام بالفاحشة ، من غير أن يخصّ بذلك بعضا دون بعض ، فكلّ رام محصنة بالصفة التى ذكر الله جلّ ثناؤه فى هذه الآية ، فلعون فى الدنيا والآخرة ، وله عذاب عظيم ، إلا أن يتوب من ذنبه ذلك قبل وفاته ، فإن الله دلّ باستثنائه بقوله (إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا) على أن ذلك حكم رامى كل محصنة بأىّ صفة كانت المحصنة المؤمنة المرمية ، وعلى أن قوله (لُعِنُوا فى الدُّنيا والآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) معناه : لهم ذلك إن هلكوا ولم يتوبوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى ذكره : ولهم عذاب عظيم (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ) فاليوم الذى فى قوله (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ) من صلة قوله (وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) . وعُنِى بقوله (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ) يوم القيامة ، وذلك حين يجحد أحدهم ما اكتسب فى الدنيا من الذنوب ، عند تقرير الله إياه بها ، فيختم الله على أفواههم ، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

فإن قال قائل : وكيف تشهد عليهم ألسنتهم ، حين يختم على أفواههم ، قيل : عُنِى بذلك أن ألسنة بعضهم تشهد على بعض ، لا أن ألسنتهم تنطق وقد ختم على الأفواه .

وقد حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنا عمرو ، عن درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذَا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ عرفَ الكافِرُ بِعَمَلِهِ ، فَجَحَدَ وَخاصَمَ ، فَيُقالُ لَهُ هَؤُلاءِ جِيرانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ ، فَيَقُولُ : كَذَبُوا ، فَيَقُولُ أَهْلُكَ وعَشِيرَتُكَ ، فَيَقُولُ كَذَبُوا ، فَيَقُولُ : أَتَحْلِفُونَ ؟ فَيَحْلِفُونَ ، ثُمَّ يُصْمِتُهُمُ اللهُ ، وتَشْهَدُ أَلْسِنَتُهُمْ ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّارُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٢٥)

يقول تعالى ذكره (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) يوفيهم الله حسابهم وجزاءهم الحقّ على أعمالهم .

والدّين فى هذا الموضع : الحساب والجزاء كما حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ) يقول : حسابهم .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (الحَقَّ) فقرأته عامة قرّاء الأمصار (دِينَهُمُ الحَقَّ) نصبا على النعت للدين ، كأنه قال : يوفيهم الله ثواب أعمالهم حقا ، ثم أدخل فى الحقّ الألف واللام ، فنصبه بما نصب به الدين . وذُكر عن مجاهد أنه قرأ ذلك (يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقُّ) برفع الحقّ على أنه من نعت الله .

حدثنا بذلك أحمد بن يوسف ، قال : ثنا القاسم ، قال : ثنا يزيد ، عن جرير بن حازم ، عن حميد ، عن مجاهد ، أنه قرأها الحقُّ بالرفع . قال جرير : وقرأتها فى مصحف أُبىّ بن كعب (يُوَفِّيهِمُ اللهُ الحَقُّ دِينَهُمْ) .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا : ما عليه قرّاء الأمصار ، وهو نصب الحقّ على إتباعه إعراب الدين لإجماع الحجة عليه .

وقوله (وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ) يقول : ويعلمون يومئذ أن الله هو الحقّ الذى يبين لهم حقائق ما كان يعدهم فى الدنيا من العذاب ، ويزول حينئذ الشكّ فيه عن أهل النفاق ، الذين كانوا فيما كان يَعِدُهم فى الدنيا يمترون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٦)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معناه : الخبيثات من القول ، للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول ، والطيبات من القول ، للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس ، للطيبات من القول .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ) يقول : الخبيثات من القول ، للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال ، للخبيثات من القول .

وقوله (والطَّيِّباتُ للطَّيِّبِينَ) يقول : الطيبات من القول ، للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول ، نزلت فى الذين قالوا فى زوجة النبىّ صلى الله عليه وسلم ما قالوا من البهتان ، ويقال : الخبيثات للخبيثين : الأعمال الخبيثة تكون للخبيثين ، والطيبات من الأعمال تكون للطيبين .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عثمان بن الأسود ، عن مجاهد : الخبيثات من الكلام للخبيثين من الناس ، والطيبات من الكلام للطيبين من الناس .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ عن ابن أبى نجيح ، فى قول الله (الخَبِيثاتُ للْخَبِيثِينَ ، والخَبِيثُونَ للْخَبِيثاتِ ، والطَّيِّباتُ للطَّيِّبِينَ ، والطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ) قال : الطيبات : القول الطيب يخرج من الكافر والمؤمن فهو للمؤمن ؛ والخبيثات : القول الخبيث يخرج من المؤمن والكافر فهو للكافر (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) وذلك أنه برأ كليهما مما ليس بحقّ من الكلام .

حدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله : (الخَبِيثاتُ للْخَبِيثِينَ ، والخَبِيثُونَ للْخَبِيثاتِ ، والطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ ، والطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ) يقول : الخبيثات والطيبات : القول السيئ والحسن ، للمؤمنين الحسن ، وللكافرين السيئ (أُولَئِكَ مُبَرءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) وذلك بأنه ما قال الكافرون من كلمة طيبه فهى للمؤمنين ، وما قال المؤمنون من كلمة خبيثة فهى للكافرين ، كلّ برىء مما ليس بحقّ من الكلام .

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (الخَبِيثاتُ للْخَبِيثِينَ) قال : الخبيثات من الكلام للخبيثين من الناس ، والخبيثون من الناس للخبيثات من الكلا م .

حدثنا الحسن قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال أخبرنا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ، مثله :

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (الخَبِيثاتُ للْخَبِيثِينَ) . . . الآية ، يقول : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول ، والطيبات من القول للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول ، فهذا فى الكلام ، وهم الذين قالوا لعائشة ما قالوا ، هم الخبيثون . والطيبون هم المبرءون مما قال الخبيثون .

حدثنا أبو زرعة ، قال ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سلمة ، يعنى ابن نبيط الأشجعىّ ، عن الضحاك (الخَبِيثاتُ للْخَبِيثِينَ) قال : الخبيثات من الكلام للخبيثين من الناس ، والطيبات من الكلام للطيبين من الناس .

قال : ثنا قبيصة ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح وعثمان بن الأسود ، عن مجاهد (الخَبِيثاتُ للْخَبِيثِينَ ، والخَبِيثُونَ للْخَبِيثاتِ ، والطَّيِّباتُ للطَّيِّبِينَ ، والطَّيِّبُونَ للطَّيِّباتِ) قال : الخبيثات من الكلام للخبيثين من الناس ، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، والطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من القول .

قال : ثنا سفيان ، عن خصيف ، عن سعيد بن جبير ، قال (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، والْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، والطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ، والطَّيِّبُونَ للطَّيِّبَاتِ) قال : الخبيثات من القول للخبيثين من الناس ، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، والطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من القول .

قال : ثنى محمد بن بكر بن مقدم ، قال : أخبرنا يحيى بن سعيد ، عن عبد الملك ، يعنى ابن أبى سليمان ، عن القاسم بن أبى بَزَّة ، عن سعيد بن جبير ، عن مجاهد (والْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ) قال : الخبيثات من القول للخبيثين من الناس .

قال : ثنا عباس بن الوليد النَّرسىّ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتَادة (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، والْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، والطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ، والطَّيِّبُونَ للطَّيِّبَاتِ) يقول : الخبيثات من القول والعمل للخبيثين من الناس ، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول والعمل .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن طلحة بن عمرو ، عن عطاء ، قال : الطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ، قال : الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من القول ، والخبيثات من القول للخبيثين من الناس ، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، والْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، والطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ، والطَّيِّبُونَ للطَّيِّبَاتِ) قال : نزلت فى عائشة حين رماها المنافق بالبهتان والفرية ، فبرأها الله من ذلك . وكان عبد الله بن أُبىّ هو خبيث ، وكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة ويكونَ لها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبا ، وكان أولى أن تكون له الطيبة ، وكانت عائشة الطيبة ، وكانَ أولى أن يكون لها الطيب .(أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) قال : هاهنا بُرِّئت عائشة (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

وأولى هذه الأقوال فى تأويل الآية : قول من قال : عَنَى بالخبيثات : الخبيثات من القول ، وذلك قبيحه وسيئه ، للخبيثين من الرجال والنساء ، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، هم بها أولى ، لأنهم أهلها ، والطيبات من القول ، وذلك حسنه وجميله ، للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من القول ، لأنهم أهلها ، وأحقّ بها .

وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل الآية ، لأن الآيات قبل ذلك إنما جاءت بتوبيخ الله للقائلين فى عائشة الإفك ، والرامين المحصنات الغافلات المؤمنات ، وإخبارهم ما خصّهم به على إفكهم ، فكان ختم الخبر عن أولى الفريقين بالإفك من الرامى والمرمى به ، أشبه من الخبر عن غيرهم .

وقوله (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ) يقول : الطيبون من الناس مبرءون من خبيثات القول ، إن قالوها فإن الله يصفح لهم عنها ، ويغفرها لهم ، وإن قيلت فيهم ضرّت قائلها ولم تضرّهم ، كما لو قال الطيب من القول الخبيث من الناس لم ينفعه الله به ، لأن الله لايتقبّله ، ولو قيلت له لضرّته ، لأنه يلحقه عارها فى الدنيا ، وذلها فى الآخرة .

كما حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) فمن كان طيبا فهو مبرأ من كل قول خبيث ، يقول : يغفره الله ؛ ومن كان خبيثا فهو مبرأ من كل قول صالح ، فإنه يردّه الله عليه ، لايقبله منه ، وقد قيل : عُنِى بقوله (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) عائشة وصفوان بن المعطّل الذى رُميت به ، فعلى هذا القول قيل أولئك ، فجمع ، والمراد ذانك ، كما قيل : فإن كان له إخوة ، والمراد أخوان

وقوله (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) يقول لهؤلاء الطيبين من الناس : مغفرة من الله لذنوبهم ، والخبيث من القول إن كان منهم (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) يقول : ولهم أيضا مع المغفرة عطية من الله كريمة ، وذلك الجنة ، وما أُعِدّ لهم فيها من الكرامة .

كما حدثنا أبو زُرعة ، قال : ثنا العباس بن الوليد النّرسىّ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم فى الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ اختلف أهل التأويل فى ذلك ، فقال بعضهم تأويله يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ (لاتَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أهْلِها) قال : وإنما تستأنسوا وَهَمٌ من الكتاب .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس فى هذه الآية (لاتَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا على أهْلِها) وقال : إنما هى خَطَأ من الكاتب : حتى تستأذنوا وتسلموا .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا وهب بن جرير ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبير ، بمثله ، غير أنه قال : إنما هى حتى تستأذنوا ، ولكنها سقط من الكاتب .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن عطية ، قال : ثنا معاذ بن سليمان ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد عن ابن عباس (حتى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا) قال : أخطأ الكاتب . وكان ابن عباس يقرأ (حتى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا) وكان يقرؤها على قراءة أُبَيّ بن كعب .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبوعامر ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش أنه كان يقرؤها (حتى تَسْتَأْذِنوا وتُسَلِّمُوا) قال سفيان : وبلغني أن ابن عباس كان يقرؤها (حتى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا) وقال : إنها خطأ من الكاتب .

حدثنا محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا على أَهْلِهَا) قال : الاستئناس : الاستئذان .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني هشيم ، قال : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم ، قال في مصحف ابن مسعود (حتى تُسَلِّموا عَلَى أَهْلِها وَتَسْتَأْذِنُوا) .

قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا جعفر بن إياس ، عن سعيد ، عن ابن عباس أنه كان يقرؤها (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِها وَتَسْتَأْذِنُوا) قال : وإنما تستأنسوا وَهم من الكُتّاب .

قال : ثنا هشيم ، قال مغيرة ، قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة ، وقد آذاه الرَّمْضاء ، فأتى فُسطاط امرأة من قريش ، فقال : السلام عليكم ، أدخل؟ فقالت : ادخل بسلام ، فأعاد ، فأعادت ، وهو يراوح بين قدميه ، قال : قولي أَدْخل ، قالت : ادخل ، فدخل .

قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا منصور ، عن ابن سيرين ، وأخبرنا يونس بن عبيد ، عن عمرو بن سعيد الثقفيّ ، أنّ رجلا استأذن على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : أَلِجُ أو أَنْلِجُ ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأمة له يقال لها رَوْضة : قُومِى إلى هَذَا فَعَلِّمِيهِ ، فإنَّهُ لايُحْسِنُ يَسْتَأْذِنُ ، فَقُولِى لَهُ يَقُولُ : السَّلامُ عَلَيْكُمْ ، أَدْخُل ؟ فسمعها الرجل ، فقالها ، فقال : ادْخُل .

حدثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس ، قوله (حتى تَسْتَأْنِسوا) قال : الاستئذان ، ثم نُسخ واستثنى (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ مَسْكُونَةٍ)

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا أبو حمزة ، عن المغيرة ، عن إبراهيم ، قوله (لاتَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ بُيُوتِكُمْ) قال : حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (حتى تَسْتَأْنِسُوا) قال : حتى تستأذنوا وتسلِّموا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا أشعث بن سوار ، عن كردوس ، عن ابن مسعود ، قال : عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم ، قال أشعث ، عن عديّ بن ثابت ،

أن امرأة من الأنصار ، قالت : يا رسول الله ، إنى أكون فى منزلى على الحال التى لاأحبّ أن يرانى أحد عليها : والدولا ولد ، وإنه لايزال يدخل علىّ رجل من أهلى وأنا على تلك الحال ، قال : فنزلت (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لاتَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا على أهْلِها) . . . الآية .

وقال آخرون : معنى ذلك : حتى تُؤْنِسوا أهل البيت بالتنحنح والتنخم وما أشبهه ، حتى يعلموا أنكم تريدون الدخول عليهم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بزة ، عن مجاهد ، فى قوله (لاتَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أهْلِها) قال : حتى تتنحنحوا وتتنخموا .

حدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (حتى تَسْتَأْنِسُوا) قال : حتى تجسَّسوا وتسلموا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (حتى تَسْتَأْنِسُوا) قال : تَنَحْنحوا وتَنَخَّموا .

قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : سمعت عطاء بن أبى رباح يخبر عن ابن عباس ، قال : ثلاث آيات قد جحدهنّ الناس ، قال الله (إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقاكُمْ) قال : ويقولون : إن أكرمهم عند الله أعظمهم شأنا ؛ قال : والإذن كله قد جحده الناس ، فقلت له أستأذن على أخَواتى أيتام فى حِجرى معى فى بيت واحد ؟ قال : نعم [1] ، فرددت على من حضرنى ، فأبى ، قال : أتحبّ أن تراها عريانة ، قلت : لا ، قال : فاستأذِن ، فراجعته أيضا ، قال : أتحبّ أن تطيع الله ؟ قلت : نعم ، قال : فاستأذِن ، فقال لى سعيد بن جُبير : إنك لَتُتَرَدَّد عليه ، قلت : أردت أن يرخص لى .

قال ابن جُرَيج : وأخبرنى ابن طاوس ، عن أبيه ، قال : مامن امرأة أكره إلىّ أن أرى ، كأنه يقول عريتها أو عريانة ، من ذات محرم ، قال : وكان يشدّد فى ذلك .

قال ابن جُرَيج ، وقال عطاء بن أبى رباح : وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا ، فواجب على الناس أجمعين إذا احتلموا أن يستأذنوا على من كان من الناس ، قلت لعطاء : أواجب على الرجل أن يستأذن على أمه ومَنْ وراءَها من ذات قرابته ؟ قال : نعم ، قلت : أبِرّ وَجَبَ ؟ قال قوله (وَإذَا بَلَغَ الأطْفالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا) .

قال ابن جُرَيج : وأخبرنى ابن زياد : أن صفوان مولى لبنى زُهْرة ، أخبره عن عطاء بن يسار « أن

(١) فى ابن كثير فرددت عليه ليرخص لى ، فأبى ، فلعله تصحف عنه .

رجلا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: أَستأذِنُ على أمي ؟ قال : نَعَمْ، قال : إنها ليس لها خادم غيري، أفأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتُحِبُّ أنْ تَراها عُرْيانَةً ؟ قال الرجل : لا ، قال : فاستأذِنْ عَلَيْها » .

قال ابن جُرَيج عن الزهريّ ، قال : سمعت هزيل بن شُرَحبيل الأَوْدِيّ الأعمى، أنه سمع ابن مسعود يقول : عليكم الإذن على أمهاتكم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا .

حدثنا الحسين ، قال : ثنا محمد بن حازم ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرّة ، عن يحيى بن الجزّار ، عن ابن أخي زينب امرأة ابن مسعود ، عن زينب قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب، تنحنح وبَزَق ، كراهة أن يَهجُم منا على أمر يكرهه .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قول الله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَستأنِسُوا) قال : الاستئناس : التنحنح والتجرس ، حتى يعرفوا أن قد جاءهم أحد ، قال : والتجرّس : كلامه وتنحنحه .

✽ والصواب من القول في ذلك عندي: أن يقال : إن الاستئناس : الاستفعال من الأنس ، وهو أن يستأذن أهل البيت في الدخول عليهم ، مخبرا بذلك من فيه ، وهل فيه أحد ؟ وليؤذنهم أنه داخل عليهم ، فليأنس إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إياهم . وقد حُكِي عن العرب سماعا : اذهب فاستأنس ، هل ترى أحدا في الدار ؟ بمعنى : انظر هل ترى فيها أحدا ؟ .

فتأويل الكلام إذن ،إذا كان ذلك معناه : يا أيها الذين امنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تسلموا وتستأذنوا ، وذلك أن يقول أحدكم: السلام عليكم، أدخل؟ وهو من المقدم الذى معناه التأخير إنما هو حتى تسلموا وتستأذنوا، كما ذكرنا من الرواية ، عن ابن عباس .

وقوله (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ) يقول : استئناسكم وتسليمكم على أهل البيت الذى تريدون دخوله ، فإن دخولكموه خير لكم ، لأنكم لاتدرون أنكم إذا دخلتموه بغير إذن ، على ماذا تهجُمون ؟ على ما يسوءكم أو يسرّكم ؟ وأنتم إذا دخلتم بإذن ،لم تدخلوا على ماتكرهون ،وأدّيتم بذلك أيضا حقّ الله عليكم في الاستئذان والسلام . وقوله (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) يقول : لتتذكروا بفعلكم ذلك أو الله عليكم ، واللازم لكم من طاعته ، فتطيعوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

⁂ يقول تعالى ذكره : فإن لم تجدوا فى البيوت التى تستأذنون فيها أحدا ، يأذن لكم بالدخول إليها ، فلا تدخلوها ، لأنها ليست لكم ، فلا يحلّ لكم دخولها إلا بإذن أربابها ، فإن أذن لكم أربابها أن تدخلوها ، فادخلوها (وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فارْجِعُوا) يقول : وإن قال لكم أهل البيوت التى تستأذنون فيها ارجعوا فلا تدخلوها ، وارجعوا عنها ولا تدخلوها (هُوَ أَزْكَى لَكُمْ) يقول : رجوعكم عنها إذا قيل لكم ارجعوا ، ولم يؤذن لكم بالدخول فيها ، أطهر لكم عند الله . وقوله (هُوَ) : كناية من اسم الفعل[١] ، أعنى من قوله (فارْجِعُوا) . وقوله (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) يقول جلّ ثناؤه : والله بما تعملون من رجوعكم ، بعد استئذانكم فى بيوت غيركم ، إذا قيل لكم ارجعوا ، وترك رجوعكم عنها ، وطاعتكم الله فيما أمركم ، ونهاكم فى ذلك وغيره ، من أمره ونهيه ، ذو علم محيط بذلك كله ، مُحْصٍ جميعه عليكم ، حتى يجازيَكم على جميع ذلك .

وكان مجاهد يقول فى تأويل ذلك ما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَدًا) قال : إن لم يكن لكم فيها متاع ، فلا تدخلوها إلا بإذن (وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فارْجِعُوا) .

حدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا هاشم بن القاسم المزنىّ ، عن قَتادة ، قال : قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمرى كله هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذن على بعض إخوانى ، فيقول لى : ارجع ، فأرجع وأنا مغتبط ، لقوله (وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فارْجِعُوا ، هُوَ أَزْكَى لَكُمْ) . وهذا القول الذى قاله مجاهد فى تأويل قوله (فإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَدًا) بمعنى : إن لم يكن لكم فيها مَتاع ، قول بعيد من مفهوم كلام العرب ، لأن العرب لاتكاد تقول : ليس بمكان كذا أحد ، إلا وهى تعنى ليس بها أحد من بنى آدم . وأما الأمتعة وسائر الأشياء غير بنى آدم ، ومن كان سبيله سبيلهم ، فلا تقول ذلك فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

⁂ يقول تعالى ذكره : ليس عليكم أيها الناس إثم وحرج ، أن تدخلوا بيوتا لاساكن بها ، بغير استئذان .

ثم اختلفوا فى ذلك أىّ البيوت عَنَى ، فقال بعضهم : عَنَى بها الخانات والبيوت المبنية بالطرق التى ليس بها سكان معروفون ، وإنما بنيت لمارّة الطريق والسابلة ، ليأوُوا إليها ، ويُؤْوُوا إليها أمتعتهم .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حجاج ، عن سالم المكّىّ ، عن محمد بن الحنفية ،

(١) يريد باسم الفعل : المصدر ، لأنه اسم الحدث ، ولا يريد ما اصطلح النحاة على تسميته اسم فعل كصه وأف .

فى قوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ مَسْكُونَةٍ) قال : هى الخانات التى تكون فى الطرق .

حدثنى عباس بن محمد ، قال : ثنا مسلم ، قال : ثنا عمر بن فرّوخ ، قال : سمعت قَتادة يقول : (بُيُوتا غيرَ مَسْكُونَةٍ) قالْ : هى الخانات ، تكون لأهل الأسفار .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن أبى زائدة ، عن ورقاء ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ مَسْكُونَةٍ ، فِيها مَتاعٌ لَكُمْ) قال : كانوا يضعون فى بيوت فى طرق المدينة متاعا وأقتابا ، فرُخِّص لهم أن يدخلوها .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (بُيُوتا غيرَ مَسْكُونَةٍ) قال : هى البيوت التى ينزلها السفْر ، لايسكنها أحد .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (بُيُوتا غيرَ مَسْكُونَةٍ) قال : كانوا يصنعون أو يضعون بطريق المدينة أقتابا وأمتعة ، فى بيوت ليس فيها أحد ، فأحلّ لهم أن يدخلوها بغير إذن .

حدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله ، إلا أنه قال : كانوا يضعون بطريق المدينة بغير شكّ .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله ، غير أنه قال : كانوا يضعون بطريق المدينة أقتابا وأمتعة .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا مُعاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول ، فى قوله (أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ مَسْكُونَةٍ) هى البيوت التى ليس لها أهل ، وهى البيوت التى تكون بالطرق والخَرِبة (فِيها مَتاعٌ) منفعة للمسافر فى الشتاء والصيف ، يأوى إليها .

وقال آخرون : هى بيوت مكة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام بن سلم ، عن سعيد بن سائق ، عن الحجاج بن أرطاة ، عن سالم بن محمد بن الحنفية ، فى (بُيُوتا غيرَ مَسْكُونَةٍ) قال : هى بيوت مكة .

وقال آخرون : هى البيوت الخَرِبة . والمتاع الذى قال الله فيها لكم : قضاء الحاجة ، من الخلاء والبول فيها .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : سمعت عطاء يقول (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ مَسْكُونَةٍ ، فِيها مَتاعٌ لَكُمْ) قال : الخلاء والبول .

حدثنى محمد بن عُمارة ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا حسن بن عوسى بن زيد ، عن أبيه ، فى هذه الآية (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتا غيرَ مَسْكُونَةٍ ، فِيها مَتاعٌ لَكُمْ) قال : التخلى فى الخراب .

وقال آخرون : بل عنى بذلك بيوت التجار ، التى فيها أمتعة الناس .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ، فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ) قال : بيوت التجار ، ليس عليكم جناح أن تدخلوها بغير إذن ، الحوانيت التى بالقيساريات والأسواق . وقرأ (فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ) متاع للناس ، ولبنى آدم .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن يقال : إن الله عمّ بقوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ، فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ) كلّ بيت لا ساكن به ، لنا فيه متاع ، ندخله بغير إذن ، لأن الإذن إنما يكون ليؤنَس المأذون عليه قبل الدخول ، أو ليأذن للداخل إن كان له مالكا ، أو كان فيه ساكنا . فأما إن كان لا مالك له ، فيحتاج إلى إذنه لدخوله ولا ساكن فيه ، فيحتاج الداخل إلى إيناسه ، والتسليم عليه ، لئلا يهجُم على ما لا يحبّ رؤيته منه ، فلا معنى للاستئذان فيه . فإذا كان ذلك ، فلا وجه لتخصيص بعض ذلك دون بعض ، فكلّ بيت لا مالك له ولا ساكن ، من بيت مبنيّ ببعض الطرق للمارّة والسابلة ليأووا إليه ، أو بيت خراب قد باد أهله ولا ساكن فيه ، حيث كان ذلك ، فإن لمن أراد دخوله أن يدخل بغير استئذان ، لمتاع له يؤويه إليه ، أو للاستمتاع به ، لقضاء حقه ، من بول أو غائط أو غير ذلك . وأما بيوت التجار ، فإنه ليس لأحد دخولها إلا بإذن أربابها وسكانها .

فإن ظنّ ظانّ أن التاجر إذا فتح دكانه وقعد للناس ، فقد أذِن لمن أراد الدخول عليه فى دخوله ، فإن الأمر فى ذلك بخلاف ما ظنّ ، وذلك أنه ليس لأحد دخول ملك غيره ، بغير ضرورة ألجأته إليه ، أو بغير سبب أباح له دخوله ، إلا بإذن ربه ، لاسيا إذا كان فيه متاع ، فإن كان التاجر قد عُرِف منه أن فتحه حانوته إذن منه لمن أراد دخوله فى الدخول ، فذلك بعدُ راجع إلى ماقلنا ، من أنه لم يدخله من دخله إلا بإذنه . وإذا كان ذلك كذلك ، لم يكن من معنى قوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ) فى شئ ، وذلك أن التى وضع الله عنا الجُناح فى دخولها بغير إذن من البيوت ، هى ما لم يكن مسكونا ، إذ حانوت التاجر لا سبيل إلى دخوله إلا بإذنه ، وهو مع ذلك مسكون ، فتبين أنه مما عَنَى الله من هذه الآية بمعزل .

وقال جماعة من أهل التأويل : هذه الآية مستثناة من قوله (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا) .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس : (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ) ثم نسخ واستثنى فقال (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، عن الحسين ، عن يزيد ، عن عكرمة (حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا)

. . . الآية ، فنسخ من ذلك ، واستثنى فقال (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غيرَ مَسْكُونَةٍ ، فِيها مَتاعٌ لَكُمْ) . وليس فى قوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غيرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ) دلالة على أنه استثناء من قوله (لاتَدْخُلُوا بُيُوتًا غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُوا) ، لأن قوله (لاتَدْخُلُوا بُيُوتًا غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا على أَهْلِها) : حكم من الله فى البيوت التى لها سكان وأرباب . وقوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غيرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ) : حكم منه فى البيوت التى لاسكان لها ولا أرباب معروفون ، فكل واحد من الحكمين حكم فى معنى غير معنى الآخر ، وإنما يستثنى الشيء من الشيء إذا كان من جنسه أو نوعه ، فى الفعل أو النفس . فأما إذا لم يكن كذلك ، فلا معنى لاستثنائه منه . وقوله (وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ) يقول تعالى ذكره : والله يعلم ما تظهرون أيها الناس بألسنتكم ، من الاستئذان إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة (وَما تَكْتُمُونَ) يقول : وما تضمرونه فى صدوركم عند فعلكم ذلك ما الذى تقصدون به : إطاعة الله والانتهاء إلى أمره ، أم غير ذلك ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞

۞ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ) بالله وبك يامحمد (يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) يقول : يكفوا من نظرهم إلى مايشتهون النظر إليه ، مما قد نهاهم الله عن النظر إليه (وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) أن يراها مَنْ لايحلّ له رؤيتها ، بلبس ما يسترها عن أبصارهم (ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ) يقول : فإنّ غضها من النظر عما لايحلّ النظر إليه ، وحفظ الفرج عن أن يظهر لأبصار الناظرين ، أطهر لهم عند الله وأفضل (إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) يقول : إن الله ذو خبرة بما تصنعون أيها الناس ، فيا أمركم به من غضّ أبصاركم عما أمركم بالغض عنه ، وحفظ فروجكم عن إظهارها لمن نهاكم عن إظهارها له .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ بن سهل الرملىّ ، قال : ثنا حجاج ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية فى قوله (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ، وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) قال : كل فرج ذُكر حفظه فى القرآن ، فهو من الزنا ، إلا هذه (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) فإنه يعنى الستر .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (قُلْ

للمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ، وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ـ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) قال : يغضوا أبصارهم عما يكره الله .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) قال : يغضّ من بصره : أن ينظر إلى ما لايحلّ له،إذا رأى ما لايحلّ له غضّ من بصره ، لاينظر إليه ، ولا يستطيع أحد أن يغضّ بصره كله ، إنما قال الله (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وَقُلْ) يامحمد (لِلْمُؤْمِنَاتِ) من أمتك (يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) عما يكره الله النظر إليه،مما نهاكم عن النظر إليه (وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) يقول : ويحفظن فروجهنّ عن أن يراها من لايحلّ له رؤيتها ، بلبس ما يسترها عن أبصارهم .

وقوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) يقول تعالى ذكره : ولا يُظْهِرن للناس الذين ليسوا لهنّ بمحرم زينتهنّ ،وهما زينتان: إحداهما: ما خفي ، وذلك كالخلْخال والسِّوارين والقُرْطَين والقلائد . والأخرى : ما ظهر منها ، وذلك مختلف فى المعنيّ منه بهذه الآية ، فكان بعضهم يقول : زينة الثياب الظاهرة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا هارون بن المغيرة ، عن الحجاج ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن ابن مسعود ، قال : الزينة زينتان : فالظاهرة منها: الثياب ، وما خفي: الخلخالان والقُرطان والسِّواران .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرني الثوريّ ، عن أبي إسحاق الهمدانيّ ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ، أنه قال (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) : قال : هي الثياب .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ، قال (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : الثياب .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ، مثله .

قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن زيد ، عن عبد الله ، مثله .

قال : ثنا سفيان ، عن علقمة ، عن إبراهيم ، فى قوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) : قال : الثياب .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : أخبرنا بعض أصحابنا ، إما يونس ، وإما غيره ، عن الحسن ، فى قوله (إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : الثياب .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله (إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : الثياب .

قال أبو إسحاق : ألا ترى أنه قال (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : ثنا محمد بن الفضيل ، عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن زيد ، عن ابن مسعود (إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : هو الرداء .

وقال آخرون : الظاهر من الزينة التى أبيح لها أن تبديه : الكحل ، والخاتم ، والسواران ، والوجه .

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا مروان ، قال : ثنا مسلم المَلائى ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ماظَهَرَ مِنْها) قال : الكحل والخاتم .

حدثنا عمرو بن عبد الحميد الآملىّ ، قال : ثنا مروان ، عن مسلم المَلائىّ ، عن سعيد بن جُبير ، مثله ، ولم يذكر ابن عباس :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا هارون ، عن أبى عبد الله نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : الظاهر منها : الكحل والخدّان .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا سفيان ، عن عبد الله بن مسلم بن هُرْمُز ، عن سعيد ابن جُبير ، فى قوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : الوجه والكفّ .

حدثنا عمرو بن عبد الحميد ، قال : ثنا مروان بن معاوية ، عن عبد الله بن مسلم بن هُرْمُز المكىّ ، عن سعيد بن جُبير ، مثله .

حدثنى علىّ بن سهل ، قال : ثنا الوليد بن مسلم ، قال : ثنا أبو عمرو ، عن عطاء فى قول الله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : الكفّان والوجه .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ عن سعيد ، عن قتادة قال : الكحل ، والسواران والخاتم :

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : والزينة الظاهرة : الوجه ، وكُحل العين ، وخضاب الكفّ ، والخاتم ، فهذه تظهر فى بيتها لمن دخل من الناس عليها .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : المسكتان والخاتم والكحل ، قال قتادة : وبلغنى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم

قال « لايحلُّ لامْرأة تؤْمِنُ باللهِ واليوْمِ الآخِرِ أنْ تُخرِجَ يدَها إلاَّ إلى هاهُنا ،وقبض نصف الذراع »

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىّ ، عن رجل ،عن المِسْوَر ابن مخرمة ، فى قوله (إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : القلبين ، والخاتم ، والكحل : يعنى السوار .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس ، قوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : الخاتم والمسكة .

قال ابن جُرَيج ، وقالت عائشة : القُلْب والفَتْخة ، قالت عائشة : « دخلت علىّ ابنة أخى لأمى عبد الله ابن الطفيل مزينَّة ، فدخل النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأعرض ، فقالت عائشة : يا رسول الله إنها ابنة أخى وجارية ، فقال : إذا عَرَكَت المرأة لم يحلّ لها أن تظهر إلا وجهها ، وإلا ما دون هذا ، وقبض على ذراع نفسه ، فترك بين قبضته وبين الكفّ مثل قبضة أخرى » . وأشار به أبو علىّ .

قال ابن جُرَيج ، وقال مجاهد : قوله (إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : الكحل والخضاب والخاتم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عاصم ، عن عامر (إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : الكحل ، والخضاب ، والثياب .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) من الزينة : الكحل ، والخضاب والخاتم ، هكذا كانوا يقولون ، وهذا يراه الناس .

حدثنى ابن عبد الرحيم البرقى ، قال : ثنا عمر بن أبى سلمة ، قال : سئل الأوزاعى عن (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : الكفين والوجه .

حدثنا عمرو بن بندق ، قال : ثنا مروان ، عن جُويبر ، عن الضحاك فى قوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) قال : الكفّ والوجه .

وقال آخرون : عَنَى به الوجه والثياب .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر ، قال : قال يونس (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال الحسن : الوجه والثياب .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، وعبد الأعلى ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، فى قوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : الوجه والثياب .

⁂ وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : قول من قال : عُنِى بذلك : الوجهُ والكفان ، يدخل فى ذلك إذا كان كذلك : الكحل ، والخاتم ، والسِّوار ، والخِضاب .

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال فى ذلك بالتأويل : لإجماع الجميع على أن على كلّ مصلّ أن يستر عورته فى صلاته ، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها فى صلاتها ، وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها ، إلا ما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه أباح لها أن تبديه ، من ذراعها إلى قدر النصف . فإذ كان ذلك

(١) عركت الجارية تعرك (كتنصر) عركا وعراكا وعروكا : حاضت ، فهى عارك ؛ وأعركت فهى معرك .

من جميعهم إجماعا ، كان معلوما بذلك أن لها أن تبدى من بدنها ما لم يكن عورة كما ذلك للرجال ، لأن ما لم يكن عورة ، فغير حرام إظهاره . وإذا كان لها إظهار ذلك ، كان معلوما أنه مما استثناه الله تعالى ذكره ، بقوله (إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْهَا) ، لأن كل ذلك ظاهر منها .

وقوله (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ) يقول تعالى ذكره : وليلقين خُمُرَهن ، وهى جمع خمار ، على جيوبهن ، ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وقُرْطَهُنَّ .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا زيد بن حباب ، عن إبراهيم بن نافع ، قال : ثنا الحسن بن مسلم بن يناق ، عن صفية بنت شيبة ، عن عائشة ، قالت : لما نزلت هذه الآية (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ) قال : شققن البُرد مما يلى الحواشي ، فاختمرن به .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، أن قرة بن عبد الرحمن ، أخبره ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم أنها قالت : يرحم الله النساء المهاجرات الأول ! لما أنزل الله (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ) شققن أكثف مروطهن ، فاختمرن به .

وقوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ) يقول تعالى ذكره : (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) التى هى غير ظاهرة ، بل الخفية منها ، وذلك الخلخال والقُرط والدُّمْلُج ، وما أُمرت بتغطيته بخمارها من فوق الجيب ، وما وراء ما أبيح لها كشفه وإبرازه فى الصلاة وللأجنبيين من الناس ، والذراعين إلى فوق ذلك ، إلا لبعولتهن .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن طلحة بن مُصَرِّف ، عن إبراهيم (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أوْ آبائِهِنَّ) قال : هذه ما فوق الذراع .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن منصور ، قال : سمعت رجلا يحدّث عن طلحة ، عن إبراهيم ، قال فى هذه الآية (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أوْ آبائِهِنَّ أو آباءِ بُعُولَتِهِنَّ) قال : ما فوق الجيب ، قال شعبة : كتب به منصور إلىّ ، وقرأته عليه .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، فى قوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ) قال : تبدى لهؤلاء الرأس .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قال (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ) . . . إلى قوله (عَوْرَاتِ النِّساءِ) قال : الزينة التى يبديها لهؤلاء : قرطاها وقلادتها وسوارها ، فأما خلخالاها ومعضداها ونحرها وشعرها ، فإنه لاتبديه إلا لزوجها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جُرَيج ، قال ابن مسعود ، فى قوله (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ) قال : الطوق والقُرطين ، يقول الله تعالى ذكره :

قل للمؤمنات الحرائر: لايظهرن هذه الزينة الخفية، التي ليست بالظاهرة، إلا لبعولتهن ، وهم أزواجهن، واحدهم: بعل، أو لآبائهن ، أو لآباء بعولتهن ، يقول: أو لآباء أزواجهن ، أو لأبنائهن ، أو لأبناء بعولتهن، أو لإخوانهن، أو لبني إخوانهن . ويعني بقوله (أَوْ لإِخْوَانِهِنَّ) أو (إِخْوَاتِهِنَّ)، أو لبني إخوانهن، أو بني أخواتهن، أو نسائهن. قيل: عنى بذلك نساء المسلمين.

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جُرَيج، قوله (أَوْ نِسَائِهِنَّ) قال: بلغني أنهن نساء المسلمين، لايحل لمسلمة أن ترى مشركة عريتها، إلا أن تكون أمة لها، فذلك قوله: (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ).

قال: ثني الحسين، قال: ثني عيسى بن يونس، عن هشام بن الغازى، عن عبادة بن نسي، أنه كره أن تقبل النصرانية المسلمة، أو ترى عَوْرتها، ويتأوّل أو نسائهن.

قال: ثنا عيسى بن يونس، عن هشام، عن عبادة، قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عُبيدة بن الجرّاح رحمة الله عليهما: أما بعد، فقد بلغني أن نساء يدخلن الحمامات ومعهن نساء أهل الكتاب، فامنع ذلك، وحُلْ دونه. قال: ثم إن أبا عُبيدة قام في ذلك المقام مبتهلا: اللهم أيما امرأة تدخل الحمام من غير علة ولا سقم، تريد البياض لوجهها، فسوّد وجهها يوم تبيض الوجوه.

وقوله (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: أو مماليكهن، فإنه لابأس عليها أن تظهر لهم من زينتها ما تظهره لهؤلاء.

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جُرَيج، قال: أخبرني عمرو بن دينار، عن مخلد التميمي، أنه قال، في قوله (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) قال: في القراءة الأولى: أيمانكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أو ما ملكت أيمانهن من إماء المشركين، كما قد ذكرنا عن ابن جُرَيج قبل، من أنه لما قال (أَوْ نِسَائِهِنَّ) عنى بهن النساء المسلمات دون المشركات، ثم قال: أو ماملكت أيمانهن من الإماء المشركات.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذكره: والذين يَتْبَعونكم لطعام يأكلونه عندكم، ممن لاأرب له في النساء من الرجال، ولا حاجة به إليهن، ولا يريدهن.

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : قوله (أوِ التَّابِعِينَ غيرِ أُولى الإرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ) قال : كان الرجل يتبع الرجل فى الزمان الأوّل لايغار عليه ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده ، وهو الأحمق الذى لاحاجة له فى النساء .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (أوِ التَّابِعِينَ غيرِ أُولى الإرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ) فهذا الرجل يتبع القوم ، وهو مُغَفَّل فى عقله ، لايكترث للنساء ، ولا يشتهيهنّ ، فالزينة التى تبديها لهؤلاء : قرطاها ، وقلادتها ، وسواراها ؛ وأما خلخالاها ، ومِعْضداها ، ونحرها ، وشعرها ، فإنها لاتبديه إلا لزوجها .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله (أوِ التَّابِعِينَ) قال : هو التابع يتبعك يصيب من طعامك .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا إسماعيل بن عُلَيَّة ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (أوِ التَّابِعِينَ غيرِ أُولى الإرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ) قال : الذى يريد الطعام ، ولا يريد النساء .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (أوِ التَّابِعِينَ غيرِ أُولى الإرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ) الذين لايهمهم إلا بطونهم ، ولا يُخافون على النساء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا إسماعيل بن موسى السُّدىّ قال : ثنا شريك ، عن منصور ، عن مجاهد ، فى قوله (غيرِ أُولى الإرْبَةِ) قال : الأَبْلَه .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : سمعت ليثا ، عن مجاهد ، قوله (غيرِ أُولى الإرْبَةِ) قال : هو الأبله ، الذى لايعرف شيئا من النساء .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن عُلَيَّة ، قال : ثنا ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله (غيرِ أُولى الإرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ) الذى لاأرب له بالنساء مثل فلان .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن عطية ، قال : ثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق عمن حدثه ، عن ابن عباس (غيرِ أُولى الإرْبَةِ) قال : هو الذى لاتستحيى منه النساء .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مُغيرة ، عن الشعبىّ (غيرِ أُولى الإرْبَةِ) قال : من تَبِعَ الرجل وحشمه : الذى لم يبلغ أَرَبُه أن يطلّع على عَوْرة النساء .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن المغيرة ، عن الشعبيّ (غيرِ أُولى الإرْبَةِ) قال : الذى لاأرب له فى النساء .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا حماد بن سَلَمة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير ، قال : المعتوه .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهريّ فى قوله (أوِ التّابِعِينَ غَيرِ أُولى الإرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ) قال : هو الأحمق ، الذى لاهمة له بالنساء ولا أرب .

وبه عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، فى قوله (غيرِ أُولى الإرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ) يقول : الأحمق ، الذى ليست له همة فى النساء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال ابن عباس : الذى لاحاجة له فى النساء .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (أوَ التّابِعِينَ غيرِ أُولى الإرْبَةِ مِنَ الرجالِ) قال : هو الذى يَتْبَع القوم ، حتى كأنه كان منهم ، ونشأ فيهم ، وليس يتبعهم لإربة نسائهم ، وليس له فى نسائهم إربة ، وإنما يتبعهم لإرفاقهم إياه .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهريّ ، عن عروة ، عن عائشة قالت « كان رجل يدخل على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم مُخَنَّث ، فكانوا يعدّونه من غير أولى الإربة ، فدخل عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم يوما وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة ، فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : لاأرَى هَذَا يَعْلَمُ ما هَاهُنا ، لايَدْخُلَنّ هَذَا عَلَيْكُمْ ، فحَجَبُوه » .

حدثنى سعد بن عبد الله بن عبد الحَكَم المِصرىّ ، قال : ثنا حفص بن عمر العَدَنىّ ، قال : ثنا الحكم ابن أبان ، عن عكرمة فى قوله (أوِ التّابِعِينَ غيرِ أُولى الإرْبَةِ) قال : هو المُخَنَّث ، الذى لايقوم زُبّه .

واختلف القرّاء فى قوله (غيرِ أُولى الإرْبَةِ) فقرأ ذلك بعض أهل الشام ، وبعض أهل المدينة والكوفة ، (غيرَ أُولِى الإرْبَةِ) بنصب غير ؛ ولنصب غير هاهنا وجهان : أحدهما على القطع من التابعين ، لأن التابعين معرفة وغير نكرة ، والآخر على الاستثناء ، وتوجيه غير إلى معنى « إلا » ، فكأنه قيل : إلّا . وقرأ غير من ذكرت بخفض (غَيرِ) ، على أنها نعت للتابعين ، وجاز نعت التابعين بغير ، والتابعون معرفة ، وغيرُ نكرة ، لأن التابعين معرفة غير مؤقتة . فتأويل الكلام على هذه القراءة ، أو الذين هذه صفتهم .

والقول فى ذلك عندى : أنهما قراءتان متقاربتا المعنى ، مستفيضةٌ القراءة بهما فى الأمصار ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب ، غير أن الخفض فى غير : أقوى فى العربية ، فالقراءة به أعجب إلىّ ، والإربة : الفِعْلَة من الأَرَب ، المثل الجِلسة من الجُلوس ، والمِشية من المَشْى ، وهى الحاجة : يقال : لاأرب لى فيك : لاحاجة لى فيك ؛ وكذا أَرِبْتُ لكذا وكذا : إذا احتجت إليه ، فأنا آرب له أربا . فأما الأُرْبة ، بضم الألف : فالعُقْدة .

وقوله (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) يقول تعالى ذكره : أو الطفل الذين لم يكشفوا عن عورات النساء بجماعهن ، فيظهروا عليهن ، لصغرهن .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) قال : لم يدروا ما ثَمَّ ، من الصِّغَر قبل الحُلُم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

وقوله (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) يقول تعالى ذكره : ولا يجعلن فى أرجلهن من الحُلِىّ ، ما إذا مَشَيْن أو حرّكهن ، علم الناس الذين مشين بينهم ، ما يخفين من ذلك .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر ، عن أبيه ، قال : زعم حَضْرَمِىّ ، أن امرأة اتخذت بُرَتَيْن [1] من فضة ، واتخذت جَزْعا ، فمرّت على قوم ، فضربت برجلها ، فوقع الخلخال على الجَزْع . فصوّت ، فأنزل الله (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن السدىّ ، عن أبى مالك (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) قال : كان فى أرجلهن خَرَز ، فكنّ إذا مررن بالمجالس ، حرّكن أرجلهن ، ليعلم ما يُخفين من زينتهن .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ) فهو أن تَقْرَع الخَلْخال بالآخر عند الرجال ، ويكون فى رجليها خلاخل ، فتحرّكهنّ عند الرجال ، فنهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك ، لأنه من عمل الشيطان .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبدالرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) قال : هو الخَلْخال ، لاتضرب امرأة برجلها ، ليسمع صوت خَلْخالها .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ، لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) قال : الأجراس من حُلِيِّهنّ يجعلنها فى أرجلهن ، فى مكان الخلاخل ، فنهاهن الله أن يضربن بأرجلهن ، لتسمع تلك الأجراس .

---

(١) بُرتين : بتخفيف الراء وهي كل حلقة من سوار وقرط وخلخال وما أشبهها . قال : وكلهن الخلاخل والبريات . وفى الأصل : « برتين » بالياء بدون نقط . وانظر (اللسان : برا) .

وقوله (وَتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعا أيُّها المُؤْمِنُونَ) يقول تعالى ذكره : وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم ، من غَضّ البصَر ، وحفظ الفرج ، وترك دخول بيوت غير بيوتكم ، من غير استئذان ولا تسليم ، وغير ذلك من أمره ونهيه (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) يقول : لتفلحوا وتدركوا طَلِباتكم لديه ، إذا أنتم أطعتموه فيما أمركم ونهاكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذكره : وزوّجوا أيها المؤمنون من لازوج له من أحرار رجالكم ونسائكم ، ومن أهل الصلاح من عبيدكم ومماليككم . والأيامَى : جمع أيِّم ، وإنما جمع الأيِّم أيامَى ، لأنها فعيلة فى المعنى ، فجُمعت كذلك ، كما جمعت اليتيمة : يتامَى ؛ ومنه قول جميل :

أُحِبُّ الأيامَى إذْ بُثَيْنَةُ أيِّمٌ ... وأحْبَبْتُ لَمَّا أنْ غَنَيِتِ الغَوَانِيا[1]

ولو جمعت أيائم كان صوابا ، والأيِّم يوصف به الذكر والأنثى ، يقال : رجل أيِّم ، وامرأة أيِّم وأيِّمة : إذا لم يكن لها زوج ؛ ومنه قول الشاعر :

فإنْ تَنْكِحِي أنْكِحْ وَإنْ تَتَأيَّمِي ... (وإنْ كُنْتُ أفْتَى منكمُ) أتأيَّمِ[2]

(إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ) يقول : إن يكن هؤلاء الذين تنكحونهم من أيامَى رجالكم ونسائكم وعبيدكم وإمائكم ، أهلَ فاقة وفقر ، فإن الله يغنيهم من فضله ، فلا يمنعنكم فقرهم من إنكاحهم .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وأنْكِحُوا الأيامَى مِنْكُمْ ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإمائِكُمْ) قال : أمر الله سبحانه بالنكاح ، ورغَّبهم فيه

---

(١) البيت لجميل العذرى صاحب بثينة ، كما قال المؤلف ، وكما فى (اللسان : غنا) . قال : والغانية : التى غنيت بالزوج ، وقال جميل : « أحب الأيامى . . . البيت » وغنيت المرأة بزوجها غنيانا . أى استغنت . والأيامى : جمع أيم ، وهى فى الأصل : التى لازوج لها ، بكرا كانت أو ثيبا ، مطلقة كانت أو متوفى عنها (اللسان) . وفى التنزيل العزيز : « وأنكحوا الأيامى منكم » : دخل فيه الذكر والأنثى ، والبكر والثيب . واستشهد به المؤلف على أن الأيم : التى ليس لها زوج .

(٢) البيت أنشده صاحب (اللسان) فى أيم ، قال : وتأيم الرجل زمانا ، وتأيمت المرأة : إذا مكثا أياما وزمانا لايتزوجان ، وأنشد ابن برى :

فإنْ تَنْكِحِي أنْكِحْ وَإنْ تَتَأيَّمِي ... (يَدَ الدَّهْرِ ما لَمْ تَنْكِحِي) أتأيَّمِ

وفى رواية الشطر خلاف بين ما أنشده المؤلف ، وما أنشده ابن برى . والشاهد فيه عند المؤلف ، كما قدمناه فى الشاهد الذى قبله ، وهو أن الأيم من الرجال أو النساء : من لازوج له أولها . والفعل منه آم يئيم ، وتأيم يتأيم .

وأمرهم أن يزوّجوا أحرارَهم وعبيدَهم ، ووعدهم فى ذلك الغنى ، فقال (إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا حسن أبو الحسن ، وكان إسماعيل بن صُبيح مَوْلى هذا ، قال : سمعت القاسم بن الوليد ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : « التمسوا الغنى فى النكاح ، يقول الله (إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) » .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وأنْكِحُوا الأيامَى مِنكُمْ) قال : أيامى النساء : اللاتى ليس لهنّ أزواج .

وقوله (وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) يقول جلّ ثناؤه : والله واسع الفضل ، جواد بعطاياه ، فزوجوا إماءكم ، فإن الله واسع يوسع عليهم من فضله ، إن كانوا فقراء . عليم : يقول : هو ذو علم بالفقير منهم والغنيّ ، لايخفى عليه حال خلقه فى شيء وتدبيرهم .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ

يقول تعالى ذكره : (ولْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَيجِدُونَ) ماينكحون به النساء عن إتيان ماحرّم الله عليهم من الفواحش (حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ) سعة (فَضْلِهِ) ، ويوسِّع عليهم من رزقه .

وقوله (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أيمانُكُمْ) يقول جلّ ثناؤه : والذين يلتمسون المكاتبة منكم من مماليككم (فكاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) .

واختلف أهل العلم فى وجه مكاتبة الرجل عبده الذى قد علم فيه خيرا ، وهل قوله (فَكاتِبُوهُم إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) على وجه الفرض ، أم هو على وجه الندب ؟ فقال بعضهم : فرض على الرجل أن يكاتب عبده الذى قد علم فيه خيرا ، إذا سأله العبد ذلك .

ذكر من قال ذلك

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن جُرَيج ، قال : قلت لعطاء : أواجب علىّ إذا علمت مالا أن أكاتبه ، قال : ما أراه إلا واجبا ، وقالها عمرو بن دينار ، قال : قلت لعطاء : أتأثِره عن أحد ؟ قال :لا .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا محمد بن بكر ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك ، أن سيرين ، أراد أن يكاتبه ، فتلكأ عليه ، فقال له عمر : لتكاتبنه .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : لاينبغى لرجل إذا كان عنده المملوك الصالح الذى له المال ، يريد أن يكاتب ألا يكاتبه .

وقال آخرون: ذلك غير واجب على السيد،وإنما قوله (فَكَاتِبُوهُمْ): نَدْبٌ من الله سادةَ العبيد إلى كتابة من علم فيه منهم خير ، لا إيجاب .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال مالك بن أنس : الأمر عندنا: أن ليس على سيد العبد أن يكاتبه،إذا سأله ذلك ، ولم أسمع بأحد من الأئمة أكره أحدا على أن يكاتب عبده . وقد سمعت بعض أهل العلم،إذا سُئل عن ذلك ، فقيل له : إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) يتلو هاتين الآيتين (فَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ) قال مالك : فإنما ذلك أمر أذن الله فيه للناس،وليس بواجب على الناس ، ولا يلزم أحدا . وقال الثورىّ : إذا أراد العبد من سيده أن يكاتبه ، فإن شاء السيد أن يكاتبه كاتبه ، ولا يُجبَر السيد على ذلك .

حدثنى بذلك علىّ عن زيد عنه ؛ وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : ليس بواجب عليه أن يكاتبه ، إنما هذا أمر أذن الله فيه ودليل .

❁ وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب : قول من قال:واجب على سيد العبد أن يكاتبه ، إذا علم فيه خيرا ، وسأله العبد الكتابة،وذلك أن ظاهر قوله (فَكَاتِبُوهُمْ) ظاهر أمر ، وأمر الله فرضٌ الانتهاء إليه، ما لم يكن دليلٌ من كتاب أو سنة ، على أنه ندب،لما قد بيَّنا من العلة فى كتابنا المسمى « البيان عن أصول الأحكام » .

وأما الخير الذى أمر الله تعالى ذكره عباده بكتابة عبيدهم إذا علموه فيهم ، فهو القُدْرة على الاحتراف والكسب ، لأداء ما كوتبوا عليه .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أنه كره أن يكاتب مملوكه إذا لم تكن له حرفة ، قال : تطعمنى أوساخ الناس .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) يقول : إن علمتم لهم حيلة ، ولا تلقوا مُؤْنتهم على المسلمين .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنا أشهب ، قال : سئل مالك بن أنس ، عن قوله (فكاتبوهم إن علمتم فيه خيرا) فقال : إنه ليقال : الخير : القوة على الأداء .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنى ابن زيد ، عن أبيه ، قول الله (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : الخير : القوة على ذلك .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : إن علمتم فيهم صدقا ، ووفاء ، وأداء .

ذكر من قال ذلك

حدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، قال : أخبرنا يونس ، عن الحسن ، فى قوله (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : صدقا ، ووفاء ، وأداء ، وأمانة .

قال : ثنا ابن عُلَيَّة ، قال : ثنا عبد الله ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد وطاوس، أنهما قالا فى قوله (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قالا : مالا ، وأمانة .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح ، قال : ثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : أداء ، وأمانة .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن المغيرة ، قال : كان إبراهيم يقول فى هذه الآية (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : صدقا ، ووفاء ، أو أحدهما .

حدثنا أبو بكر ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : سمعت عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء ، فى قوله (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : أداء ومالا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن جُرَيْج ، قال : قال عمرو بن دينار : أحسبه كل ذلك المال والصلاح .

حدثني عليّ بن سهل ، قال : ثنا زيد ، قال : ثنا سفيان (إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) يعني : صدقا ، ووفاء ، وأمانة .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) ، قال : إن علمت فيه خيرا لنفسك ، يؤدّى إليك ويصدّقك ما حدثك ، فكاتبه .

وقال آخرون بل معنى ذلك : إن علمتم لهم مالاً .

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثنى أبي ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، فى قوله (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) يقول : إن علمتم لهم مالا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيْج ، قال : قال ابن عباس (إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : مالا .

حدثنا ابن بشار وابن المثنى ، قالا : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد : (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : مالا .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، مثله .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال لهم مالا ، فكاتبوهم .

حدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (فَكاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : إن علمتم لهم مالا ، كائنة أخلاقهم وأديانهم ما كانت .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن منصور ، عن زَاذان ، عن عطاء بن أبي رَباح (فَكاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : مالا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا أبو بشر ، عن مجاهد ، قال : إن علمتم عندهم مالا .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى محمد بن عمرو اليافعىّ ، عن ابن جُرَيج ، أن عطاء بن أبي رَباح ، كان يقول : ما نراه إلا المال ، يعنى قوله (إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) قال : ثم تلا (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذَا حَضَرَ أحَدَكُمُ المَوْتُ إنْ تَرَكَ خَيْرًا) .

⁂ وأولى هذه الأقوال فى معنى ذلك عندى : قول من قال : معناه : فكاتبوهم إن علمتم فيهم قوّة على الاحتراف والاكتساب ، ووفاء بما أوجب على نفسه وألزمها ، وصدق لهجة . وذلك أن هذه المعانى هى الأسباب التى بمولى العبد الحاجةُ إليها إذا كاتب عبده، مما يكون فى العبد؛ فأما المال وإن كان من الخير ، فإنه لايكون فى العبد ، وإنما يكون عنده أوله لا فيه ، والله إنما أوجب علينا مكاتبة العبد إذا علمنا فيه خيرا ، لا إذا علمنا عنده أو له . فلذلك لم نقل : إن الخير فى هذا الموضع معنىّ به المال .

وقوله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) يقول تعالى ذكره : وأعطُوهم من مال الله الذى أعطاكم .

ثم اختلف أهل التأويل فى المأمور بإعطائه من مال الله الذى أعطاه مَنْ هو؟ وفى المال أىّ الأموال هو؟ فقال بعضهم : الذى أمر الله بإعطاء المكاتب من مال الله : هو مولَى العبد المكاتَب ، ومال الله الذى أُمر بإعطائه منه هو مال الكِتابة ، والقدر الذى أمر أن يعطيه منه : الربع .

وقال آخرون : بل ما شاء من ذلك المولى .

ذكر من قال ذلك

حدثنى عمرو بن علىّ ، قال : ثنا عمران بن عيينة ، قال : ثنا عطاء بن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ ، عن علىّ فى قول الله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : ربع المكاتبة .

حدثنا الحسن بن عرفة ، قال : ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ ، عن علىّ ، فى قول الله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : ربع الكتابة يحطُّها عنه .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم، قال : ثنا ابن عُلَيّة ، عن ليث ، عن عبد الأعلى ، عن أبى عبد الرحمن ، عن علىّ رضى الله عنه ، فى قول الله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : الربع من أوّل نجومه .

قال : أخبرنا ابن عُلَيّة ، قال : عطاء بن السائب ، عن أبي عبد الرحمن السُّلَميّ ، عن عليّ ، في قوله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ) قال : الربع من مكاتبته .

حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسيّ ، قال : ثنا محمد بن عبيد ، قال : ثني عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عبد الملك بن أعين ، قال : كاتب أبو عبد الرحمن غلاما في أربعة آلاف درهم ، ثم وضع له الربع ، ثم قال : لولا أني رأيت عليا رضوان الله عليه كاتب غلاما له ، ثم وضع له الربع ، ما وضعت لك شيئا .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن عبد الأعلى ، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي أنه كاتب غلاما له على ألف ومئتين ، فترك الربع وأشهدني ، فقال لي : كان صديقك يفعل هذا ، يعني عليا رضوان الله عليه ، يتأوّل (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ) .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عبد الملك ، قال : ثني فضالة بن أبي أمية ، عن أبيه ، قال : كاتبني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فاستقرض لي من حَفْصة مِئَتَيْ درهم . قلت : ألا تجعلها في مكاتبتي ؟ قال : إني لا أدري أدرك ذاك أم لا .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، بلغني أنه كاتبه على مِئَة أوقية : قال : ثنا سفيان ، عن عبد الملك ، قال : ذكرت ذلك لعكرمة ، فقال : هو قول الله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ) .

حدثني عليّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، في قول الله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ) يقول : ضعوا عنهم من مكاتبتهم .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ) يقول : ضعوا عنهم مما قاطعتموهم عليه .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : سمعت عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء ، في قوله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ) قال : مما أخرج الله لكم منهم .

حدثني أبو السائب ، قال : ثنا ابن إدريس ، عن ليث ، عن مجاهد (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ) قال : آتيهم مما في يديك .

حدثني الحسين بن عمرو العنقزي ، قال : ثني أبي ، عن أسباط ، عن السديّ ، عن أبيه ، قال : كاتبتني زينب بنت قيس بن مَخْرمة من بني المطلب بن عبد مناف ، على عشرة آلاف ، فتركت لي ألفا ، وكانت زينب قد صلَّت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلتين جميعا .

حدثنا مجاهد بن موسى ، قال : ثنا يزيد ، قال : أخبرنا أبو مسعود الجريريّ ، عن أبي نَضْرة ، عن أبي سعيد ، مولى أبي أَسِيد ، قال : كاتبني أبو أَسِيد ، على ثنتي عشرة مئة ، فجئته بها ، فأخذ منها ألفا ، وردّ عليّ مئتين .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا هارون بن المغيرة ، عن عنبسة ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير ، قال : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه ، لم يضع عنه شيئا من أوّل نجومه ، مخافة أن يعجِز ، فترجع إليه صدقته ، ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته ، وضع عنه ما أحبّ .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرني مَخْرَمة ، عن أبيه ، عن نافع ، قال : كاتب عبد الله بن عمر غلاما له يقال له شرف ، على خمسة وثلاثين ألف درهم ، فوضع من آخر كتابته خمسة آلاف ، ولم يذكر نافع أنه أعطاه شيئا غير الذى وضع له .

قال : أخبرنا ابن وهب ، قال قال مالك : سمعت بعض أهل العلم يقول : إن ذلك أن يكاتب الرجل غلامه ، ثم يضع عنه من آخر كتابته شيئا مسمًّى ، قال مالك : وذلك أحسن ماسمعت ، وعلى ذلك أهل العلم ، وعملُ الناس عندنا .

حدثني عليّ ، قال : ثنا زيد ، قال : ثنا سفيان : أحبّ إليّ أن يعطيه الربع ، أو أقلّ منه شيئا ، وليس بواجب ، وأن يفعل ذلك حسن .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عطاء ، عن عبد الله بن حبيب أبى عبد الرحمن السُّلَمىّ ، عن عليّ رضى الله عنه (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : هو ربع المكاتبة .

وقال آخرون : بل ذلك حضّ من الله أهل الأموال ، على أن يعطوهم سهمهم الذى جعله لهم من الصدقات المفروضة لهم فى أموالهم بقوله : (إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَساكِينِ والعامِلِينَ عَلَيْها والمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهمْ وفِى الرِّقابِ) قال : فالرّقاب التى جعل فيها أحد سُهْمان الصدقة الثمانية : هم المكاتَبون ، قال : وإياه عنى جلّ ثناؤه بقوله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) : أى سَهْمهم من الصدقة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنى يحيى بن واضح ، قال : ثنا الحسين ، عن ابن زيد ، عن أبيه ، قوله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : يحثّ الله عليه ، يُعْطَوْنه .

حدثني يعقوب ، قال : ثنى ابن عُلَيّة ، قال : أخبرنا يونس ، عن الحسن (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : حثّ الناسَ عليه : مولاه وغيره .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن حماد ، عن إبراهيم ، فى قوله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : يعطى مكاتَبه وغيره ، حثّ الناس عليه .

حدثني يعقوب قال : ثنا هُشيم ، عن مغيرة ، عن إبراهيم أنه قال فى قوله (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : أمر مولاه والناس جميعا أن يعينوه .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد ، قال : ثنا شعبة ، عن مغيرة ، عن إبراهيم (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : أمر المسلمين أن يُعْطُوهم مما آتاهم الله .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنى ابن زيد ، عن أبيه (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : ذلك فى الزكاة على الوُلاة يعطونهم من الزكاة ، يقول الله (وفِى الرِّقابِ) .

قال : ثنى ابن زيد ، عن أبيه (وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ) قال : الفَىْء والصدقات . وقرأ قول الله (إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَساكِينِ) ، وقرأ حتى بلغ (وفِى الرِّقابِ) فأمر الله أن يوفوها

منه، فليس ذلك من الكتابة، قال: وكان أبي يقول ماله وللكتابة، هو من مال الله الذى فرض له فيه نصيبا .

وأولى القولين بالصواب فى ذلك عندى : القول الثانى ، وهو قول من قال: عنى به إيتاءهم سهمهم من الصدقة المفروضة .

وإنما قلنا ذلك أولى القولين ؛ لأن قوله (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) أمر من الله تعالى ذكره بإيتاء المكاتبين من ماله الذى آتى أهل الأموال، وأمر الله فرض على عباده الانتهاء إليه، ما لم يخبرهم أن مراده الندب ، لما قد بينا فى غير موضع من كتابنا ، فإذ كان ذلك كذلك، ولم يكن أخبرنا فى كتابه، ولا على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، أنه ندب ، ففرض واجب . وإذ كان ذلك كذلك ، وكانت الحجة قد قامت أن لا حق لأحد فى مال أحد غيره من المسلمين ، إلا ما أوجبه الله لأهل سهمان الصدقة، فى أموال الأغنياء منهم، وكانت الكتابة التى يقتضيها سيد المكاتب من مكاتبه مالا من مال سيد المكاتب ، فيفاد أن الحق الذى أوجب الله له على المؤمنين ، أن يؤتوه من أموالهم ، هو ما فرض على الأغنياء فى أموالهم له ، من الصدقة المفروضة ، إذ كان لا حق فى أموالهم لأحد سواها .

القول فى تأويل قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

يقول تعالى ذكره: زوجوا الصالحين من عبادكم وإمائكم ، ولا تكرهوا إماءكم على البغاء، وهو الزنا . (إن أردن تحصنا) يقول : إن أردن تعففا عن الزنا (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) يقول : لتلتمسوا بإكراهكم إياهن على الزنا عرض الحياة، وذلك ما تعرض لهم إليه الحاجة، من رياشها وزينتها وأموالها، (ومن يكرههن) يقول: ومن يكره فتياته على البغاء ، فإن الله من بعد إكراهه إياهن على ذلك، لهن (غفور رحيم) ، ووزر ما كان من ذلك عليهم دونهن . .

وذكر أن هذه الآية أنزلت فى عبد الله بن أبى ابن سلول ، حين أكره أمته مسيكة على الزنا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا الحسن بن الصباح ، قال : ثنا حجاج بن محمد ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى أبو الزبير ، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : جاءت مسيكة لبعض الأنصار فقالت : إن سيدى يكرهنى على الزنا ، فنزلت فى ذلك (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) .

حدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودى ، قال : ثنا أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان عن جابر ، قال : كانت جارية لعبد الله بن أبى بن سلول ، يقال لها مسيكة، فآجرها وأكرهها ، الطبرى شباك ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم ، فشكت ذلك إليه ، فأنزل الله (ولا تكرهوا فتياتكم على

البِغاءِ إنْ أرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فإنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يعنى بهن .

حدثنا أبوحصين عبد الله بن أحمد بن يونس، قال: ثنا عَبْثَر، قال: ثنا حصين، عن الشعبيّ، فى قوله (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغاءِ) قال: رجل كانت له جارية تفجر، فلما أسلمت نزلت هذه.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، قال: أخبرنى أبوالزبير، عن جابر، قال: جاءت جارية لبعض الأنصار، فقالت: إن سيدى أكرهنى على البغاء، فأنزل الله فى ذلك: (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغاءِ) قال ابن جُرَيج: وأخبرنى عمرو بن دينار، عن عكرمة، قال: أمة لعبد الله بن أُبيّ، أمرها فزنت، فجاءت بِبُرد، فقال لها ارجعى فازنى، قالت: والله لاأفعل، إن يك هذا خيرا، فقد استكثرت منه، وإن يك شرا فقد آن لى أن أدعه. قال ابن جُرَيج، وقال مجاهد نحو ذلك، وزاد قال: البِغاء: الزنا. (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قال: للمكرَهات على الزنا، وفيها نزلت هذه الآية.

حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن الزهريّ، أن رجلا من قريش أُسر يوم بدر. وكان عبد الله بن أُبيّ أسره، وكان لعبد الله جارية يقال لها مُعاذة، فكان القرشيّ الأسير يريدها على نفسها، وكانت مسلمة، فكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان ابن أُبيّ يكرهها على ذلك ويضربها، رجاء أن تحمل للقرشيّ، فيطلب فداء ولده، فقال الله: (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغاءِ إنْ أرَدْنَ تَحَصُّنًا) قال الزهريّ (وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فإنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يقول: غفور لهنّ ما أُكرِهن عليه.

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا ابن يمان، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد بن جُبير: أنه كان يقرأ (فإنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ لَهُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

حدثنا علىّ، قال: ثنا أبوصالح، قال: ثنى معاوية، عن علىّ، عن ابن عباس، قوله (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغاءِ إنْ أرَدْنَ تَحَصُّنًا) يقول: ولا تكرهوا إماءكم على الزنا، فإن فعلتم فإن الله سبحانه لهنّ غفور رحيم، وإثمهنّ على من أكرههنّ.

حدثنى محمد بن سعد، قال: ثنى أبى، قال: ثنى عمى، قال: ثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغاءِ) . . . إلى آخر الآية، قال: كانوا فى الجاهلية يُكْرِهون إماءهم على الزنا، يأخذون أجورهنّ، فقال الله: لاتكرهوهنّ على الزنا من أجل المَنالة فى الدنيا، ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم لهن: يعنى إذا أكرهن.

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبوعاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغاءِ) على الزنا، قال عبد الله بن أُبيّ ابن سَلُولَ أمر أمة له بالزنا، فجاءته بدينار أو بِبُرد، شكّ أبو عاصم، فأعطته، فقال: ارجعى فازنى بآخر، فقالت: والله ما أنا براجعة، فالله غفور رحيم للمكرَهات على الزنا، فى هذا أنزلت هذه الآية.

حدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، نحوه ، إلا أنه قال في حديثه : أمر أمة له بالزنا ، فزنت ، فجاءته ببرد فأعطته ، فلم يشكُّ .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ) يقول : على الزنا (فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يقول : غفور لهنّ ، للمكرهات على الزنا .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ) قال : غفور رحيم لهنّ حين أكرهن ، وقُسِرْنَ على ذلك .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد ، قال : كانوا يأمرون ولائدهم يُباغين ، يفعلن ذلك ، فيصبن ، فيأتينهم بكسبهنّ ، فكانت لعبد الله بن أُبيّ ابن سلُولَ جارية ، فكانت تُباغي ، فكرهت وحلفت أن لاتفعله ، فأكرهها أهلها ، فانطلقت فباغت ببرد أخضر ، فأتتهم به ، فأنزل الله تبارك وتعالى (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ) . . . الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٤)

يقول تعالى ذكره : ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس دلالات وعلامات مبيِّنات : يقول : مفصَّلاتٍ الحقّ من الباطل ، وموضِّحات ذلك .

واختلفت القرّاء في قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء المدينة وبعض الكوفيين والبصريين (مُبَيَّنَاتٍ) بفتح الياء : بمعنى مفصَّلات ، وأن الله فصَّلهن وبيَّنهنّ لعباده ، فهنّ مفصَّلات مبيَّنات . وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة (مُبَيِّنَاتٍ) بكسر الياء ، بمعنى أن الآيات هن تبين الحقّ والصواب للناس ، وتهديهم إلى الحقّ .

والصواب من القول في ذلك عندنا : أنهما قراءتان معروفتان ، وقد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء ، متقاربتا المعنى ، وذلك أن الله إذ فصَّلها وبيَّنها صارت مبيِّنة بنفسها الحقّ ، لمن التمسه من قبلها ، وإذا بيَّنت ذلك لمن التمسه من قبلها ، فبيّن الله ذلك فيها ، فبأيّ القراءتين قرأ القارئ ، فمصيب في قراءته الصواب .

وقوله (وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ) من الأمم ، وموعظة لمن اتقى الله ، فخاف عقابه وخشي عذابه .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ

نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

☼ يعنى تعالى ذكره بقوله (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ) هادى من فى السموات والأرض ، فهم بنوره إلى الحقّ يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون .

واختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : فيه نحو الذى قلنا .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ) يقول : الله سبحانه هادى أهل السموات والأرض .

حدثنى سليمان بن عمر بن خَلَدة الرّقى ، قال : ثنا وهب بن راشد ، عن فرقد ، عن أنس بن مالك ، قال : إن إلهى يقول : نورى هُداى .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : الله مدبّر السموات والأرض .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال مجاهد وابن عباس فى قوله (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ) يدبّر الأمر فيهما : نجومَهما وشمسَهما وقمرَهما .

وقال آخرون : بل عنى بذلك النور : الضياء . وقالوا : معنى ذلك : ضياء السموات والأرض .

ذكر من قال ذلك

حدثنى عبد الأعلى بن واصل ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : ثنا أبو جعفر الرازىّ ، عن الربيع ابن أنَس ، عن أبى العالية ، عن أُبىّ بن كعب ، فى قول الله (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ) قال : فبدأ بنور نفسه ، فذكره ، ثم ذكر نور المؤمن .

وإنما اخترنا القول الذى اخترناه فى ذلك ؛ لأنه عَقيب قوله (وَلَقَدْ أنْزَلْنا إلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ ، وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) فكان ذلك بأن يكون خبرا عن موقع يقع تنزيله من خلقه . ومن مدح ما ابتدأ بذكر مدحه ، أولى وأشبه ، ما لم يأت ما يدلّ على انقضاء الخبر عنه من غيره . فإذا كان ذلك كذلك ، فتأويل الكلام : ولقد أنزلنا إليكم أيُّها الناس ، آيات مبينات الحق من الباطل . (وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) فهديناكم بها ، وبيَّنا لكم معالم دينكم بها ، لأنى هادى أهل السموات وأهل الأرض ، وترك وصل الكلام باللام ، وابتدأ الخبر عن هداية خلقه ابتداء ؛ وفيه المعنى الذى ذكَرْت ، استغناء بدلالة الكلام عليه من ذكره ، ثم ابتدأ فى الخبر عن مثل هدايته خلقه بالآيات المبينات التى أنزلها إليهم ، فقال (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ) يقول : مثل ما أنار من الحقّ بهذا التنزيل فى بيانه : كمشكاة .

وقد اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بالهاء فى قوله (مَثَلُ نُورِهِ) علام هى عائدة ، ومن ذكر ماهى ؟ فقال بعضهم : هى من ذكر المؤمن،وقالوا : معنى الكلام:مثل نور المؤمن الذى فى قلبه من الإيمان والقرآن : مثل مشكاة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا عبد الأعلى بن واصل ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا أبو جعفر الرازىّ ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أُبىّ بن كعب ، فى قول الله (مَثَلُ نُورِهِ) قال : ذكر نور المؤمن فقال : مثل نوره ، يقول:مثل نور المؤمن . قال : وكان أُبىّ يقرؤها كذلك : مَثَلُ المؤمن ، قال : هو المؤمن قد جعل الإيمان والقرآن فى صدره :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى جعفر الرازىّ ، عن أبى العالية ، عن أُبىّ ابن كعب (اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ) قال : بدأ بنور نفسه، فذكره ، ثم قال (مَثَلُ نُورِهِ) يقول : مثل نور مَنْ آمن به . قال : وكذلك كان يقرأ أُبىّ ، قال : هو عبد جعل الله القرآن والإيمان فى صدره .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير (مَثَلُ نُورِهِ) قال : مثل نور المؤمن .

حدثنى علىّ بن الحسن الأزدى ، قال : ثنا يحيى بن اليمان ، عن أبى سنان ، عن ثابت ، عن الضحاك فى قوله (مَثَلُ نُورِهِ) قال : نور المؤمن .

وقال آخرون : بل عُنِى بالنور : محمد صلى الله عليه وسلم ،وقالوا : الهاء التى فى قوله (مَثَلُ نُورِهِ): عائدة على اسم الله .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب القُمّىّ، عن حفص ، عن شَمِر ،قال : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار ، فقال له : حدثنى عن قول الله عزّ وجلّ (اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ) . . . الآية ، فقال كعب : الله نور السموات والأرض ، مَثَلُ نوره : مثل محمد صلى الله عليه وسلم : كمشكاة .

حدثنى علىّ بن الحسن الأزدى ، قال : ثنا يحيى بن اليمان ، عن أشعث ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جُبير فى قوله (مَثَلُ نُورِهِ) قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال آخرون : بل عُنِى بذلك : هُدَى اللهِ وبيانه ،وهو القرآن ، قالوا:والهاء من ذكر الله ؛ قالوا : ومعنى الكلام : الله هادى أهل السموات والأرض بآياته المبينات ، وهى النور الذى استنار به السموات والأرض ، مَثَلُ هداه وآياته التى هَدَى بها خلقه ، ووعظهم بها فى قلوب المؤمنين : كمشكاة .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس (مَثَلُ نُورِهِ) مثل هُدَاه فى قلب المؤمن .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن عُلَيَّة ، عن أبى رجاء ، عن الحسن ، فى قوله (مَثَلُ نُورِهِ) قال : مثل هذا القرآن فى القلب : كمشكاة .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (مَثَلُ نُورِهِ) : نور القرآن الذى أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعباده ، هذا مثل القرآن (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) .

قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى عبد الله بن عيّاش ، قال : قال زيد بن أسلم ، فى قول الله تبارك وتعالى (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ) ونوره الذى ذكر : القرآن ، ومَثَلُه الذى ضَرَب له .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : مثل نور الله ، وقالوا : يعنى بالنور : الطاعة .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) وذلك أن اليهود قالوا لمحمد : كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مَثَلَ ذلك لنوره ، فقال (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ) قال : وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمَّى طاعته نورا ، ثم سماها أنوارا شتَّى .

وقوله (كَمِشْكَاةٍ) اختلف أهل التأويل فى معنى المشكاة والمصباح ، وما المراد بذلك ، وبالزجاجة ، فقال بعضهم : المشكاة كل كَوَّة لامنفذ لها ، وقالوا : هذا مثل ضربه الله لقلب محمد صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب ، عن حفص ، عن شَمِر ، قال : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار ، فقال له : حدثنى عن قول الله (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ) قال : المشكاة وهى الكَوَّة ، ضربها الله مثلا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، المشكاة (فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ) قلبه (فِى زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ) صدره الزجاجة (كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) شبه صدر النبىّ صلى الله عليه وسلم بالكوكب الدرىّ ، ثم رجع المصباح إلى قلبه ، فقال (تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ، لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) لم تمسّها شمس المشرق ولا شمس المغرب (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ) يكاد محمد يبين للناس ، وإن لم يتكلم أنه نبىّ ، كما يكاد ذلك الزيت يضىء (وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ) .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (كَمِشْكَاةٍ) يقول : موضع الفتيلة .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) . . . إلى (كَمِشْكَاةٍ) قال : المِشكاة : كَوّة البيت .

وقال آخرون : عنى بالمشكاة : صدر المؤمن ، وبالمصباح : القرآن والإيمان ، وبالزجاجة : قلبه .

ذكر من قال ذلك

حدثني عبد الأعلى بن واصل ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا أبوجعفر الرازيّ ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أُبَيّ بن كعب ، (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) قال : مَثَل المؤمن قد جعل الإيمان والقرآن في صدره كمشكاة ، قال : المشكاة : صدره (فِيهَا مِصْبَاحٌ) قال : والمصباح القرآن والإيمان الذي جعل في صدره (المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ) قال : والزجاجة : قلبه . (الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ تُوقَدُ) ، قال : فمثله مما استنار فيه القرآن والإيمان كأنه كوكب درّيّ ، يقول: مُضِيء (تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) والشجرة المباركة ؛ أصله المباركة الإخلاص لله وحده وعبادته ، لاشريك له (لاشَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) قال : فمثله مَثَل شجرة التفّ بها الشجر ، فهي خضراء ناعمة ، لاتصيبها الشمس على أيّ حال كانت ، لا إذا طلعت ، ولا إذا غَرَبت ؛ وكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصيبه شيء من الغِيَر ، وقد ابتُلي بها ، فثبته الله فيها ؛ فهو بين أربع خلال ، إن أُعْطِي شكر ، وإن ابتُلي صبر ، وإن حَكَم عدل ، وإن قال صدق ، فهو في سائر الناس كالرجل الحيّ يمشي في قبور الأموات ، قال (نُورٌ عَلَى نُورٍ) فهو يتقلّب في خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومَدْخله نور ، ومَخْرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة في الجنة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني يحيى بن اليمان ، عن أبي جعفر الرازيّ ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أُبيّ بن كعب ، قال : المشكاة : صدر المؤمن (فيها مصباح) ، قال : القرآن .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن أبي جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، عن أُبيّ بن كعب ، نحو حديث عبد الأعلى ، عن عبيد الله .

حدثني عليّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ) قال : مثل هداه في قلب المؤمن ، كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسّه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوء ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ، ونورا على نور ، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه قبل أن تجيئه المعرفة (قَالَ هَذَا رَبِّي) حين رأى الكوكب من غير أن يخبره أحد أن له ربا ، فلما أخبره الله أنه ربه ، ازداد هُدًى على هدى .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) وذلك أن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : كيف يخلص نور الله من دون السماء ، فضرب الله مَثَل ذلك لنوره ، فقال (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) والمِشكاة : كَوّة البيت فيها مصباح ،

(١) الكوة : بفتح الكاف ، والضم لغة (اللسان) .

(المِصْبَاحُ فِى زُجاجَةٍ ، الزُّجاجَةُ كأنّها كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) والمصباح : السراج يكون فى الزجاجة ، وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى طاعته نورا ، وسماها أنواعا شتى .

قوله (تُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ، لاشَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ) قال : هى شجرة لايفىء عليها ظلّ شرق، ولا ظلّ غرب ، ضاحية ، ذلك أصفى للزيت[1] ، (يَكادُ زَيْتُها يُضِىءُ ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ) قال معمر ، وقال الحسن : ليست من شجر الدنيا ، ليست شرقية ولا غربية .

وقال آخرون : هو مثل للمؤمن غير أن المصباح وما فيه مثل لفؤاده ، والمشكاة مثل لجوفه .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد وابن عباس جميعا ، المصباح وما فيه مثل فؤاد المؤمن وجوفه ، المصباح مثل الفؤاد ، والكوّة مثل الجوف .

قال ابن جُرَيج (كمِشْكاةٍ) : كوّة غير نافذة . قال ابن جُرَيج ، وقال ابن عباس : قوله (نُورٌ عَلَى نُورٍ) يعنى : إيمان المؤمن وعمله .

وقال آخرون : بل ذلك مثل للقرآن فى قلب المؤمن .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن علية ، عن أبى رجاء ، عن الحسن ، فى قوله (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كمِشْكاةٍ) قال : ككوّة (فِيها مِصْباحٌ ، المِصْباحُ فِى زُجاجَةٍ ، الزُّجاجَةُ كأنّها كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قول الله (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ مَثَلُ نُورِهِ) نور القرآن الذى أنزل على رسوله وعباده ، فهذا مثل القرآن (كمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ ، المِصْباحُ فِى زُجاجَةٍ) فقرأ حتى بلغ (مُبارَكَةٍ) فهذا مثل القرآن يستضاء به فى نوره ويعلمونه ويأخذون به ، وهو كما هو لاينقص ، فهذا مثل ضربه الله لنوره. وفى قوله (يَكادُ زَيْتُها يُضِىءُ) قال : الضوء : إشراق ذلك الزيت ، والمشكاة : التى فيها الفتيلة التى فى المصباح ، والقناديل تلك المصابيح .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن سعيد بن عياض فى قوله (كمِشْكاةٍ) قال : الكوّة .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبو عامر ، قال : ثنا قرة ، عن عطية ، فى قوله (كمِشْكاةٍ) قال : قال ابن عمر : المشكاة : الكوّة .

وقال آخرون : المشكاة : القنديل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (كمِشْكاةٍ) قال : القنديل ، ثم العمود الذى فيه القنديل .

(١) فى الأصل : الزيت ، بدون لام قبلها ، وأظنه محرفا عما أثبتناه .

حدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (كَمِشْكَاةٍ): الصُّفْر الذى فى جوف القنديل .

حدثنى إسحاق بن شاهين ، قال : ثنا خالد بن عبد الله عن داود ، عن رجل ، عن مجاهد ، قال : المِشكاة : القنديل .

وقال آخرون : المشكاة : الحديد الذى يعلق به القنديل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن المفضل ، قال : ثنا هشيم ، قال : ثنا داود بن أبى هند ، عن مجاهد ، قال : المشكاة : الحدائد التى يعلق بها القنديل .

❊ وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : قول من قال : ذلك مثل ضربه الله للقرآن فى قلب أهل الإيمان به ، فقال : مَثَل نور الله الذى أنار به لعباده سبيل الرشاد ، الذى أنزله إليهم ، فآمنوا به ، وصدّقوا بما فيه ، فى قلوب المؤمنين ، مثل مِشكاة ، وهى عمود القنديل الذى فيه الفَتيلة ، وذلك هو نظير الكَوّة التى تكون فى الحيطان التى لامنفذ لها ، وإنما جعل ذلك العمود مِشكاة ، لأنه غير نافذ ، وهو أجوف مفتوح الأعلى ، فهو كالكَوّة التى فى الحائط التى لاتنفذ ، ثم قال (فِيهَا مِصْبَاحٌ) وهو السراج ، وجعل السراج وهو المصباح مثلا لما فى قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات ، ثم قال (المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ) يعنى : أن السراج الذى فى المِشكاة : فى القنديل ، وهو الزجاجة ، وذلك مثل للقرآن ، يقول : القرآن الذى فى قلب المؤمن الذى أنار الله قلبه فى صدره ، ثم مثل الصدر فى خلوصه من الكفر بالله ، والشك فيه ، واستنارته بنور القرآن ، واستضاءته بآيات ربه المبينات ، ومواعظه فيها ، بالكوكب الدرّىّ ، فقال : الزجاجة ، وذلك صدر المؤمن الذى فيه قلبه كأنها كوكب درّىّ .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (دُرِّيٌّ) فقرأته عامة قرّاء الحجاز (دُرِّيٌّ) بضم الدال ، وترك الهمز : وقرأ بعض قراء البصرة والكوفة : (دِرِّيءٌ) بكسر الدال وهمزة . وقرأ بعض قرّاء الكوفة (دُرِّيءٌ) بضم الدال وهمزة ، وكأن الذين ضموا داله ، وتركوا الهمزة ، وجهوا معناه إلى ماقاله أهل التفسير الذى ذكرنا عنهم ، من أن الزجاجة فى صفائها وحسنها كالدرّ ، وأنها منسوبة إليه لذلك من نعتها وصفتها . ووجه الذين قرءوا ذلك بكسر داله وهمزه ، إلى أنه فِعِّيل من دُرِىء الكوكبُ : أى دُفِع ورجم به الشيطان ، من قوله (وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ) : أى يدفع ، والعرب تسمى الكواكب العظام التى لاتعرف أسماءها الدرارىّ بغير همز .

وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يقول : هى الدرارئ بالهمز ، من يَدْرأن . وأما الذين قرءوه بضمّ داله وهمزه ، فإن كانوا أرادوا به دُرُّوء مثل سُبُّوح وقُدُّوس من درأت ، ثم استثقلوا كثرة الضمات فيه ، فصرفوا بعضها إلى الكسرة ، فقالوا : دُرِّىء ، كما قيل : (وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا) وهو فُعُول ، من عتوت عُتُوًّا ، ثم حوّلت بعض ضماتها إلى الكسر ، فقيل : عِتِيًّا ، فهو مذهب ، وإلا فلا

أعرف لصحة قراءتهم ذلك كذلك وجها، وذلك أنه لايُعرف فى كلام العرب فِعِّيل ، وقد كان بعض أهل العربية يقول : هو لحن .

والذى هو أولى القراءات عندى فى ذلك بالصواب : قراءة من قرأ (دُرِّىّ) بضمّ داله ، وترك همزه ، على النسبة إلى الدرّ ، لأن أهل التأويل بتأويل ذلك جاءوا ، وقد ذكرنا أقوالهم فى ذلك قبل ، فى ذلك مُكْتَفًى عن الاستشهاد على صحتها بغيره ، فتأويل الكلام : الزجاجة : وهى صدر المؤمن ، (كأنها) : يعنى كأن الزجاجة ، وذلك مثل لصدر المؤمن (كَوْكَب) : يقول : فى صفائها وضيائها وحسنها . وإنما يصف صدره بالنقاء من كلّ ريب وشكّ ، فى أسباب الإيمان بالله ، وبعده من دنس المعاصى ، كالكوكب الذى يُشبه الدرّ فى الصفاء والضياء والحسن .

واختلفوا أيضا فى قراءة قوله (تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ) فقرأ ذلك بعض المكّيين والمدنيّين وبعض البصريين (تَوَقَّدَ مِنْ شَجَرَةٍ) بالتاء ، وفتحها ، وتشديد القاف ، وفتح الدال ، وكأنهم وجهوا معنى ذلك إلى تَوَقَّدَ المصباحُ من شجرة مباركة . وقرأه بعض عامة قرّاء المدنيين (يُوقَدُ) بالياء ، وتخفيف القاف ، ورفع الدال ، بمعنى : يُوقِدُ المصباح مُوْقِدُه من شجرة ، ثم لم يُسَمّ فاعله . وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة (تُوقَدُ) بضم التاء وتخفيف القاف ورفع الدال ، بمعنى : يُوقِدُ الزجاجةَ مُوقِدُها من شجرة مباركة [١] لما لم يسمّ فاعله ، فقيل تُوقد . وقرأه بعض أهل مكة (تَوَقَّدُ) بفتح التاء ، وتشديد القاف ، وضم الدال ، بمعنى : تَتَوَقَّد الزجاجة من شجرة ، ثم أسقطت إحدى التاءين ، اكتفاء بالباقية من الذاهبة .

وهذه القراءات مُتقاربات المعانى ، وإن اختلفت الألفاظ بها ، وذلك أن الزجاجة إذا وُصِفت بالتوقد ، أو بأنها تَوَقَّد ، فمعلوم معنى ذلك ، فإن المراد به تَوَقَّدَ فيها المصباح ، أو يُوقَد فيها المصباح ، ولكن وجّهوا الخبر إلى أن وصفها بذلك ، أقرب فى الكلام منها ، وفهم السامعين معناه . والمراد منه ، فإذا كان ذلك كذلك ، فبأىّ القراءات قرأ القارئ فمصيب ، غير أن أعجب القراءات إلىّ ، أن أقرأ بها فى ذلك (تَوَقَّدَ) بفتح التاء ، وتشديد القاف ، وفتح الدال ، بمعنى : وصف المصباح بالتوقد ، لأن التوقد والاتقاد لاشكّ أنهما من صفته ، دون الزجاجة ، فمعنى الكلام إذن : كمشكاة فيها مصباح ، المصباح من دهن شجرة مباركة ، زيتونة ، لا شرقية ولا غربية .

وقد ذكرنا بعض ما رُوى عن بعضهم من الاختلاف فى ذلك فيما قد مضى ، ونذكر باقى ماحضرنا مما لم نذكره قبل ، فقال بعضهم : إنما قيل لهذه الشجرة : لاشرقية ولا غربية : أى ليست شرقية وحدها ، حتى لاتصيبها الشمس إذاغربت ، وإنما لها نصيبها من الشمس بالغداة ما دامت بالجانب الذى يلى الشرق ، ثم لايكون لها نصيب منها إذا مالت إلى جانب الغرب ؛ ولا هى غربية وحدها ، فتصيبها الشمس بالعشىّ ، إذا مالت إلى جانب الغرب ، ولا تصيبها بالغداة ، ولكنها شرقية غربية ، تطلع عليها الشمس بالغداة ، وتغرب عليها ، فيصيبها حرّ الشمس بالغداة والعشىّ ، قالوا : وإذا كانت كذلك ، كان أجود لزيتها .

---

(١) لعل هنا سقطا فى العبارة ، تقديره : « ثم بنى » كما يفهم من السياق .

ذكر من قال ذلك

حدثنا هنّاد ،قال : ثنا أبو الأحوص ، عن سماك ، عن عكرمة ، فى قوله (زَيْتُونَةٍ ،لاشَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) قال : لايسترها من الشمس جبل ولا واد ، إذا طلعت ، وإذا غربت .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا حرمىّ بن عُمارة ، قال : ثنا شعبة ، قال : أخبرنى عُمارة ، عن عكرمة ، فى قوله (لاشَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) قال: الشجرة تكون فى مكان لايسترها من الشمس شىء ، تطلع عليها ، وتغرب عليها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قال مجاهد وابن عباس (لاشَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) قالا : هى التى بشِقّ الجبل ، التى يصيبها شروق الشمس وغروبها ، إذا طلعت أصابتها ، وإذا غربت أصابتها .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ليست شرقية ولا غربية .

ذكر من قال ذلك

حدثنى سليمان بن عبد الجبار ، قال : ثنى محمد بن الصلت ، قال : ثنا أبو كدينة ، عن قابوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس (لاشَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) قال : هى شجرة وَسْط الشجر ، ليست من الشرق، ولا من الغرب .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (زَيْتُونَةٍ لاشَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) متيامنة الشأم ، لاشرقىّ ولا غربىّ .

وقال آخرون : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن ، فى قول الله (لاشَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) قال : والله لو كانت فى الأرض لكانت شرقية أو غربية ، ولكنها هو مثل ضربه الله لنوره .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عثمان ، يعنى ابن الهيثم ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن ، فى قول الله (زَيْتُونَةٍ لاشَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) قال : لو كانت فى الأرض هذه الزيتونة، كانت شرقيه أو غربية، ولكن والله ماهى فى الأرض ، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عوف ، عن الحسن ، فى قوله (لاشَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) قال : هذا مثَل ضربه الله ، ولو كانت هذه الشجرة فى الدنيا ، لكانت إما شرقية ، وإما غربية .

وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك : قول من قال : إنها شرقية غربية ؛ وقال : ومعنى الكلام : ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشىّ دون الغداة ، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب ، فهى شرقية غربية .

وإنما قلنا ذلك أولى بمعنى الكلام ، لأن الله إنما وصف الزيت الذى يوقَد على هذا المصباح بالصفاء والجودة ، فإذا كان شجره شرقيا غربيا ، كان زيته لاشكّ أجود وأصفى وأضوأ .

وقوله (يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ) يقول تعالى ذكره : يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه ، وحسن ضيائه . (وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نار) يقول : فكيف إذا مسته النار .

وإنما أُريد بقوله (تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ) أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه كلامه ، فجعل مَثَله ومَثَل كونه من عنده ، مثلَ المصباح الذى يوقد من الشجرة المباركة ، التى وصفها جلّ ثناؤه فى هذه الآية . وعنى بقوله (يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ) : أن حُجَج الله تعالى ذكره على خلقه ، تكاد من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر ، أو أعرض عنها ولَهَا (وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ) يقول : فكيف إذا زادها الله بيانا ووضوحا ، بإنزاله هذا القرآن إليهم ، منبها لهم على توحيده ، فكيف إذا نبههم به ، وذكّرهم بآياته ، فزادهم به حجة إلى حُجَجه عليهم قبل ذلك ، فذلك بيان من الله ، ونور على البيان ، والنور الذى كان قد وضعه لهم ونصبه قبل نزوله .

وقوله (نُورٌ عَلَى نُورٍ) يعنى النار على هذا الزيت الذى كاد يضيء ، ولو لم تمسسه النار .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (نُورٌ عَلَى نُورٍ) قال : النار على الزيت .

قال أبو جعفر : وهو عندى كما ذكرت مَثَلُ القرآن ، ويعنى بقوله (نُورٌ عَلَى نُورٍ) هذا القرآن نور من عند الله ، أنزله إلى خلقه يستضيئون به . (على نور) على الحُجج والبيان الذى قد نصبه لهم قبل مجيء القرآن إنزاله إياه ، مما يدلّ على حقيقة وحدانيته ، فذلك بيان من الله ، ونور على البيان ، والنور الذى كان وضعه لهم ، ونصبه قبل نزوله .

وذكر عن زيد بن أسلم فى ذلك ، ما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى عبد الله بن عياش ، قال : قال زيد بن أسلم ، فى قوله (نُورٌ عَلَى نُورٍ) يضيء بعضه بعضا ، يعنى القرآن .

وقوله (يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ) : يقول تعالى ذكره : يُوَفِّق الله لاتباع نوره ، وهو هذا القرآن ، من يشاء من عباده . وقوله (وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلنَّاسِ) يقول : ويُمثّل الله الأمثال والأشباه للناس ، كما مثّل لهم مثل هذا القرآن فى قلب المؤمن ، بالمصباح فى المشكاة ، وسائر ما فى هذه الآية من الأمثال .
(وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) يقول : والله بضرب الأمثال ، وغيرها من الأشياء كلها ، ذو علم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ

وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

﴿ يعنى تعالى ذكره بقوله (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، فى بيوت أذن الله أن ترفع .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : المشكاة : التى فيها الفتيلة التى فيها المصباح ، قال : المصابيح فى بيوت أذن الله أن ترفع .

قال أبو جعفر : قد يحتمل أن تكون من فى صلة توقد ، فيكون المعنى : توقد من شجرة مباركة ذلك المصباح فى بيوت أذن الله أن ترفع ، وعنى بالبيوت : المساجد .

وقد اختلف أهل التأويل فى ذلك ، فقال بعضهم بالذى قلنا فى ذلك .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، ونصر بن عبد الرحمن الأَوْدِيّ ، قالا : ثنا حكّام ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى صالح فى قول الله (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) قال : المساجد .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) وهى المساجد تُكْرَم ، ونهى عن اللغو فيها .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، فى قوله (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) يعنى : كل مسجد يصلى فيه ، جامع أو غيره .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) قال : مساجد تُبْنَى .

حدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن ، فى قوله (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) قال : فى المساجد .

قال : أخبرنا معمر ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، قال : أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : المساجد : بيوت الله ، وإنه حقّ على الله أن يُكْرِم من زاره فيها .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا ابن المبارك ، عن سالم بن عمر ، فى قوله (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) قال : هى المساجد .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) قال : المساجد .

وقال آخرون : عنى بذلك البيوت كلّها .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد، ونصر بن عبد الرحمن الأَوْدىّ، قالا : حدثنا حكّام بن سلم، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن عكرمة (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ) قال : هى البيوت كلها .

وإنما اخترنا القول الذى اخترناه فى ذلك، لدلالة قوله (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) على أنها بيوت بنيت للصلاة، فلذلك قلنا هى المساجد .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ) فقال بعضهم : معناه : أذن الله أن تُبْنَى .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو، قال : ثنا أبو عاصم، قال : ثنا عيسى؛ وحدثنى الحارث، قال : ثنا الحسن، قال : ثنا ورقاء جميعا، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد (أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ) قال : تُبْنَى .

حدثنا القاسم، قال : ثنا الحسين، قال : ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد مثله .

وقال آخرون : معناه : أذن الله أن تعظّم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا الحسن بن يحيى، قال : أخبرنا عبد الرزاق، قال : أخبرنا معمر، عن الحسن، فى قوله (أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ) يقول : أن تعظّم لذكره .

❁ وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب : القول الذى قاله مجاهد، وهو أن معناه : أذن الله أن ترفع بناء، كما قال جلّ ثناؤه (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) وذلك أن ذلك هو الأغلب من معنى الرفع فى البيوت والأبنية .

وقوله (وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) يقول : وأذن لعباده أن يذكروا اسمه فيها . وقد قيل : عُنِى به، أنه أذن لهم بتلاوة القرآن فيها .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ، قال : ثنا عبد الله، قال : ثنى معاوية، عن علىّ، عن ابن عباس، قال : ثم قال : (وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) يقول : يُتْلَى فيها كتابه . وهذا القول قريب المعنى مما قلناه فى ذلك، لأن تلاوة كتاب الله من معانى ذكر الله، غير أن الذى قلنا به أظهر معنييه، فلذلك اخترنا القول به .

وقوله (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) : اختلفت القرّاء فى قراءة قوله (يُسَبِّحُ لَهُ)، فقرأ ذلك عامة قرّاء الأمصار (يُسَبِّحُ لَهُ) بضم الياء، وكسر الباء، بمعنى : يصلّى له فيها رجال، ويجعل يسبّح فعلا للرجال، وخبرا عنهم، وترفع به الرجال، سوى عاصم وابن عامر، فإنهما قرآ ذلك (يُسَبَّحُ له) بضمّ الياء، وفتح الباء، على ما لم يسمّ فاعله، ثم يرفعان الرجال بخبر ثان مضمر، كأنهما أرادا : يسبَّح الله فى البيوت التى أذن الله أن ترفع، فسبّحه رجال فرفعا الرجال، بفعل مضمر .

والقراءة التى هى أولاهما بالصواب : قراءة من كسر الباء ، وجعله خبرا للرجال وفعلا لهم . وإنما كان الاختيار رفع الرجال بمضمر من الفعل ، لو كان الخبر عن البيوت لايتم إلا بقوله (يُسَبِّحُ لَهُ فِيها) ، فأما والخبر عنها دون ذلك تام ، فلا وجه لتوجيه قوله (يُسَبِّحُ لَهُ) إلى غيره ، أى[1] غير الخبر عن الرجال . وعنى بقوله (يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصَالِ) يصلِّى له فى هذه البيوت بالغُدُوات والعَشيات رجال .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ بن الحسن الأزدىّ ، قال : ثنا المعافَى بن عمران ، عن سفيان ، عن عمَّار الدُّهنى[2] ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : كلّ تسبيح فى القرآن فهو صلاة .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قال : ثم قال (يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصَالِ) يقول : يصلى له فيها بالغداة والعشىّ ، يعنى بالغدوّ : صلاة الغَداة ، ويعنى بالآصال : صلاة العصر ، وهما أوّل ما افترض الله من الصلاة ، فأحبّ أن يذكرهما ، ويذكر بهما عبادته .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن (يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصَالِ رِجالٌ) أذن الله أن تبنى ، فيصلَّى فيها بالغدوّ والآصال .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول فى قوله (يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصَالِ) يعنى الصلاة المفروضة .

وقوله (رِجالٌ لاتُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) يقول تعالى ذكره : لايشغل هؤلاء الرجال الذين يصلُّون فى هذه المساجد ، التى أذن الله أن ترفع ، عن ذكر الله فيها ، وإقام الصلاة ، تجارة ولا بيع .

كما حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن سعيد بن أبى الحسن عن رجل نسى اسمه فى هذه الآية (فِى بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ ، وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصَالِ رِجالٌ لاتُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) . . . إلى قوله (والأبْصَارِ) قال : هم قوم فى تجاراتهم وبيوعهم ، لاتلهيهم تجاراتهم ولا بيوعهم عن ذكر الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا جعفر بن سليمان ، عن عمرو بن دينار ، عن سالم بن عبد الله ، أنه نظر إلى قوم من السُّوق ، قاموا وتركوا بياعاتهم إلى الصلاة ، فقال هؤلاء الذين ذكر الله فى كتابه (لاتُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) . . . الآية .

قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا هشيم ، عن سيار ، عمن حدثه ، عن ابن مسعود ، نحو ذلك .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هُشَيم ، عن سيار ، قال : حُدثت عن ابن مسعود ، أنه رأى قوما من أهل السوق حيثُ نودى بالصلاة ، تركوا بياعاتهم ، ونهضوا إلى الصلاة ، فقال عبد الله : هؤلاء

(١) فى الأصل : إلى غير ، ولعله تحريف . (٢) هو عمار بن معاوية الدهنى بضم المهملة ، الكوفى ، وثقه أحمد ، مات سنة ١٣٣هـ

من الذين ذكر الله فى كتابه (لاتُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) .

وقال بعضهم : معنى ذلك (لاتُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ) عن صلاتهم المفروضة عليهم .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قال : ثم قال (رِجالٌ لاتُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) يقول : عن الصلاة المكتوبة .

وقوله (وَإقامِ الصَّلاةِ) يقول : ولا يشغلهم ذلك أيضا عن إقام الصلاة بحدودها فى أوقاتها .

وبنحو قولنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا محمد ، قال : ثنا عوف ، عن سعيد بن أبى الحسن ، عن رجل نسى عوف اسمه فى (وَإقامِ الصَّلاةِ) قال : يقومون للصلاة عند مواقيت الصلاة .

فإن قال قائل : أوليس قوله (وَإقامِ الصَّلاةِ) مصدرا من قوله أقمت ؟ قيل : بلى . فإن قال : أو ليس المصدر منه إقامة ، كالمصدر من آجرت إجارة ؟ قيل : بلى . فإن قال : وكيف قال (وَإقامِ الصَّلاةِ) ، أو تجيز أن تقول : أقمت إقاما ؟ قيل : ولكنى أجيز أعجبنى إقام الصلاة . فإن قيل : وما وجه جواز ذلك ؟ قيل : إن الحكم فى أقمت إذا جعل منه مصدر ، أن يقال إقواما ، كما يقال : أقعدت فلانا إقعادا ، وأعطيته إعطاء . ولكن العرب لما سكنت الواو من أقمت ، فسقطت لاجتماعها وهى ساكنة ، والميم وهى ساكنة ، بنوا المصدر على ذلك ، إذ جاءت الواو ساكنة قبل ألف الإفعال وهى ساكنة ، فسقطت الأولى منهما ، فأبدلوا منها هاء فى آخر الحرف ، كالتكثير للحرف ، كما فعلوا ذلك فى قولهم : وَعَدته عِدَة ، ووزنته زِنة ، إذ ذهبت الواو من أوّله ، كثّروه من آخره بالهاء ؛ فلما أضيفت الإقامة إلى الصلاة ، حذفوا الزيادة التى كانوا زادوها للتكثير ، وهى الهاء فى آخرها ، لأن الخافض وما خفض عندهم كالحرف الواحد ، فاستغنوا بالمضاف إليه من الحرف الزائد ، وقد قال بعضهم فى نظير ذلك :

إنَّ الخَلِيطَ أجَدُّوا البَيْنَ فانْجَرَدُوا ... وأخْلَفُوكَ عِدَ الأمْرِ الَّذِى وَعَدُوا[1]

يريد : عدة الأمر ، فأسقط الهاء من العدة لما أضافها ، فكذلك ذلك فى إقام الصلاة .

وقوله (وَإيتاءِ الزَّكاةِ) قيل : معناه : وإخلاص الطاعة لله .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وأقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ) وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وقوله (وأوْصانِى بالصَّلاةِ والزَّكاةِ) ، وقوله

---

(١) البيت للفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب ، وهو فى (اللسان : وعد) قال : وقال الفراء : وعدت عدة ، ويحذفون الهاء إذا أضافوا ، وأنشد : « إن الخليط ... البيت » . وقال ابن الأنبارى وغيره : الفراء يقول عدة وعدى ، وأنشد : « وأخلفوك عدى... البيت » . وقال : أراد : عدة الأمر ، فحذف الهاء عند الإضافة ، قال : ويكتب بالياء . وقال الجوهرى : والعدة الوعد ، والهاء عوض من الواو . والخليط : اسم لمن يخالطك بجوار أو قرابة أو عمل أو نحوه . وأجدوا البين : أسرعوا فى الفراق ، واجتهدوا فيه . وانجردوا : أسرعوا وشمروا . والشاهد فى البيت عند المؤلف ، أن الهاء فى عدة ونحوها تحذف منها عند الإضافة ، استغناء عنها بالمضاف إليه عن الحرف الزائد .

(وَلَوْلا فَضْلُ اللهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا) ، وقوله (وَحَنانا مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً) ونحو هذا فى القرآن ؛ قال: يعنى بالزكاة : طاعة الله والإخلاص ، وقوله (يخافُونَ يَوْما تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلُوبُ والأَبْصارُ) يقول : يخافون يوما تتقلب فيه القلوب من هوله، بين طمع بالنجاة ، وحذر بالهلاك . (والأبصار): أىّ ناحية يؤخذ بهم: أذات اليمين أم ذات الشمال ؟ ومن أين يؤتون كتبهم: أمن قبل الأيمان ، أم من قبل الشمائل ؟ وذلك يوم القيامة .

كما حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال عبد الله بن عياش ، قال زيد بن أسلم ، فى قول الله (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ) . . . إلى قوله (تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأَبْصارُ) يوم القيامة .

وقوله (لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا) يقول: فعلوا ذلك؛ يعنى أنهم لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وأقاموا الصلاة ، وآتوُا الزكاة ؛ وأطاعوا ربهم، مخافة عذابه يوم القيامة ، كى يثيبهم الله يوم القيامة بأحسن أعمالهم التى عملوها فى الدنيا، ويزيدهم على ثوابه إياهم على أحسن أعمالهم التى عملوها فى الدنيا، من فضله ، فيُفْضِل عليهم من عنده، بما أحبّ من كرامته لهم. وقوله (وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ): يقول تعالى ذكره : يتفضل على من شاء وأراد، من طَوْله وكرامته، مما لم يستحقه بعمله، ولم يبلغه بطاعته (بغير حساب) يقول : بغير محاسبة على ما بذل له وأعطاه .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

وهذا مَثَل ضربه الله لأعمال أهل الكفر به ، فقال: والذين جحدوا توحيد ربهم ، وكذّبوا بهذا القرآن، وبمن جاء به ، مَثَل أعمالهم التى عملوها (كسراب) يقول : مثلُ سَراب ، والسراب : ما لَصِق بالأرض ، وذلك يكون نصف النهار ، وحين يشتدّ الحرّ . والآل ماكان كالماء بين السماء والأرض ، وذلك يكون أوّل النهار ، يرفع كلّ شىء ضُحًى. وقوله (بِقِيعَةٍ) وهى جمع قاع ، كالجيرة جمع جار ، والقاع : ما انبسط من الأرض واتسع ، وفيه يكون السراب . وقوله (يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً) يقول : يظن العطشان من الناس السراب ، ماء (حتى إذا جاءه) والهاء من ذكر السَّراب ، والمعنى :حتى إذا جاء الظمآن السراب، ملتمسا ماء يستغيث به من عطشه ، لم يجده شيئا ، يقول : لم يجد السراب شيئا ، فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التى عملوها فى غرور ، يحسبون أنها منجيتهم عند الله من عذابه ، كما حسب الظمآن الذى رأى السراب ، فظنه ماء يرويه من ظمئه ، حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذى كان يرى أنه نافعه عند الله ، لم يجده ينفعه شيئا ، لأنه كان عمله على كفر بالله ، ووجد الله هذا الكافر عند هلاكه بالمرصاد ، فوفاه يوم القيامة حساب أعماله التى عملها فى الدنيا ، وجازاه بها جزاءه الذى يستحقه عليها منه .

فإن قال قائل : وكيف قيل (حتى إذَا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) فإن لم يكن السراب شيئا ، فعلام أدخلت الهاء فى قوله (حتى إذَا جاءَهُ) ؟ قيل : إنه شئ يُرَى من بعيد كالضباب الذى يرى كثيفا من بعيد ، والهباء ، فإذا قرب منه المرء ، رقّ وصار كالهواء . وقد يحتمل أن يكون معناه : حتى إذا جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئا : فاكتفى بذكر السراب من ذكر موضعه (وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ) يقول : والله سريع حسابه ، لأنه تعالى ذكره لايحتاج إلى عقد أصابع ، ولا حفظ بقلب ، ولكنه عالم بذلك كله ، قبل أن يعمله العبد ، ومن بعد ما عمله .

وبنحو الذى قلنا فى معنى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى عبد الأعلى بن واصل ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا أبو جعفر الرازىّ ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أُبىّ بن كعب ، قال : ثم ضرب مثلا آخر ، فقال (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ) قال : وكذلك الكافر يجىء يوم القيامة ، وهو يَحْسِب أن له عند الله خيرا ، فلا يجد ، فيُدخله النار .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى جعفر الرازىّ ، عن أبى العالية ، عن أُبىّ بن كعب بنحوه .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله (أعمالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) يقول : الأرض المستوية .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، فى قوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أعْمالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) . . . إلى قوله (وَاللهُ سَرِيعُ الْحِساب) قال : هو مَثَل ضربه الله لرجل عطش ، فاشتدّ عطشه ، فرأى سرابا ، فحسبه ماء ، فطلبه وظنّ أنه قد قدر عليه ، حتى أتاه ، فلما أتاه لم يجده شيئا ، وقُبِض عند ذلك . يقول : الكافر كذلك ، يحسب أن عمله مُغْنٍ عنه ، أو نافعه شيئا ، ولا يكون آتيا على شىء حتى يأتيه الموت ، فإذا أتاه الموت ، لم يجد عمله أغنى عنه شيئا ، ولم ينفعه إلا كما نفع العطشانَ المشتدّ إلى السرَّاب .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) قال : بقاعٍ من الأرض ، والسراب : عَمَلُه ، زاد الحارث فى حديثه عن الحسن : والسراب عمل الكافر (إذَا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) . إتيانه إياه : موته وفراقه الدنيا . (وَوَجَدَ اللهَ) عند فراقه الدنيا ، (فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ) .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، فى قوله (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) قال : بقيعة من الأرض (يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ماءً) : هو مثل ضربه الله لعمل الكافر ، يقول : يحسب أنه فى شىء ، كما يحسب هذا السراب ماء (حتى إذَا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) : وكذلك الكافر إذا مات ، لم يجد عمله شيئا (وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) . . .

إلى قوله (وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ) قال : هذا مَثَل ضربه الله للذين كفروا (أعمالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) : قد رأى السراب ، ووثق بنفسه أنه ماء ، فلما جاءه لم يجده شيئا ؛ قال : وهؤلاء ظنوا أن أعمالهم صالحة ، وأنهم سيَرْجعون منها إلى خير ، فلم يرجعوا منها إلا كما رجع صاحب السراب ، فهذا مَثَلٌ ضربه الله جلّ ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه .

القول في تأويل قوله تعالى :

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

﴿ وهذا مَثَل آخر ضربه الله لأعمال الكفار ، يقول تعالى ذكره : ومَثَل أعمال هؤلاء الكفار ، في أنها عُمِلت على خطأ وفساد ، وضلالة وحيرة من عمالها فيها ، وعلى غير هدى ، مَثَل ظلمات في بحر لُجّيّ ، ونسب البحر إلى اللُّجة ، وصفا له بأنه عميق كثير الماء ، ولجةُ البحر : معظمه : (يَغْشَاهُ مَوْجٌ) يقول : يغشى البحر موج ، (مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ) : يقول : من فوق الموج موج آخر يغشاه ؛ (مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ) : يقول : من فوق الموج الثاني الذي يغشى الموج الأوّل سحاب ، فجعل الظلمات مثلا لأعمالهم ، والبحر اللجيّ مثلا لقلب الكافر ، يقول : عَمِل بنية قلب قد غَمَره الجهل ، وتغشّته الضلالة والحيرة ، كما يغشى هذا البحر اللُّجيّ موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، فكذلك قلب هذا الكافر الذي مَثَل عمله مَثَل هذه الظلمات ، يغشاه الجهل بالله ، بأن الله ختم عليه ، فلا يعقل عن الله ، وعلى سمعه ، فلا يسمع مواعظ الله ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا يبصر به حجج الله ، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض[1] .

وبنحو الذي قلنا في ذلك ، قال أهل التأويل :

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثنا أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ) . . . إلى قوله (مِنْ نُورٍ) قال : يعني بالظلمات : الأعمال ، وبالبحر اللُّجيّ : قلب الإنسان ، قال : يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، قال : ظلمات بعضها فوق بعض ، يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر ، وهو كقوله (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) . . . الآية ، وكقوله (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) . . . إلى قوله (أَفَلا تَذَكَّرُونَ) .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، في قوله (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ) عميق ، وهو مثل ضربه الله للكافر يعمل في ضلالة وحيرة ، قال (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) .

(١) قال الشوكاني في فتح القدير (٤ : ٣٨) ومن غرائب التفاسير : أن سبحانه وتعالى أراد بالظلمات أعمال الكافر ، وبالبحر اللجي قلبه ، وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة . والسحاب : الرين والختم والطبع على قلبه . وهذا تفسير هو عن لغة العرب بمكان بعيد . اهـ .

ورُوِي عن أُبىّ بن كعب ، ماحدثنى عبد الأعلى بن واصل ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا أبو جعفر الرازىّ ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، عن أبىّ بن كعب ، فى قوله (أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ) . . . الآية ، قال : ضرب مثلا آخر للكافر ، فقال : (أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ) . . . الآية ، قال : فهو يتقلب فى خمس من الظلم ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومَدخله ظلمة ، ومَخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة ، إلى النار :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى جعفر الرازىّ ، عن أبى الربيع ، عن أبى العالية ، عن أُبىّ بن كعب ، بنحوه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (أو كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ، يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ) . . . إلى قوله (ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ) قال : شرّ بعضه فوق بعض :

وقوله (إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها) يقول : إذا أخرج الناظر يده فى هذه الظلمات ، لم يكد يراها .

فإن قال لنا قائل : وكيف قيل : لم يكد يراها ، مع شدّة هذه الظلمة التى وصف ، وقد علمت أن قول القائل : لم أكد أرى فلانا ، إنما هو إثبات منه لنفسه رؤيته بعد جهد وشدّة ؛ ومن دون الظلمات التى وصف فى هذه الآية ، ما لا يرى الناظر يده إذا أخرجها فيه ، فكيف فيها ؟ قيل : فى ذلك أقوال نذكرها ، ثم نخبر بالصواب من ذلك . أحدها : أن يكون معنى الكلام : إذا أخرج يده رائيا لها لم يكد يراها : أى لم يعرف من أين يراها ، فيكون من المقدّم الذى معناه التأخير ، ويكون تأويل الكلام على ذلك : إذا أخرج يده لم يقرب أن يراها . والثانى : أن يكون معناه : إذا أخرج يده لم يرها [1] ، ويكون قوله (لَمْ يَكَدْ) فى دخوله فى الكلام ، نظير دخول الظنّ فيما هو يقين من الكلام ، كقوله (وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ) ونحو ذلك . والثالث : أن يكون قد رآها بعد بطء وجهد ، كما يقول القائل لآخر : ما كدت أراك من الظلمة ، وقد رآه ، ولكن بعد إياس وشدة . وهذا القول الثالث أظهر معانى الكلمة من جهة ما تستعمل العرب « أكاد » فى كلامها . والقول الآخر الذى قلنا إنه يتوجه إلى أنه بمعنى لم يرها ، قول أوضح من جهة التفسير ، وهو أخفى معانيه . وإنما حسُنَ ذلك فى هذا الموضع ، أعنى أن يقول : لم يكد يراها مع شدة الظلمة التى ذكر ، لأن ذلك مثَل لاخبر عن كائن كان (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً) يقول : من من لم يرزقه الله إيمانا وهدى من الضلالة ، ومعرفة بكتابه ، (فَما لَهُ مِنْ نُورٍ) يقول : فما له من إيمان وهدى ومعرفة بكتابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

(١) فى فتح القدير للشوكانى (طبعة الحلبى ٤ : ٣٨) قال الزجاج وأبو عبيدة : لم يرها ولم يكد . وقال الفراء : إن كاد زائدة . وقال المحقق الرضى فى شرحه لكافية بن الحاجب (٢ : ٣٠٦) إن نفى القرب من الفعل ، أبلغ فى انتفاء ذلك الفعل ، من نفى الفعل نفسه ؛ فإن ما قربت من الضرب ، آكد فى نفى الضرب من ما ضربت . اهـ .

❊ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ألم تنظر يامحمد بعين قلبك ، فتعلم أن الله يصلى له من فى السموات والأرض، من ملَك وإنس وجنّ (والطَّيْرُ صَافَّاتٍ) ً الهواء أيضا تسبح له (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) ،! والتسبيح عندك صلاة ، فيقال : قيل : إن الصلاة لبنى آدم ، والتسبيح لغيرهم من الخلق ، ولذلك فصّل فيما بين ذلك .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل :

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنى عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) قال : والصلاة للإنسان ، والتسبيح لما سوى ذلك من الخلق .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) قال : صلاته : للناس ، وتسبيحه : عامة لكلّ شىء .

ويتوجه قوله (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) لوجوه : أحدها : أن تكون الهاء التى فى قوله (صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) من ذكر كلّ ، فيكون تأويل الكلام : كل مصلّ ومسبح منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه ، ويكون الكلّ حينئذ مرتفعا بالعائد من ذكره فى قوله (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) ، وهو الهاء التى فى الصلاة .

والوجه الآخر : أن تكون الهاء فى الصلاة والتسبيح أيضا للكلّ ، ويكون الكلّ مرتفعا بالعائد من ذكره عليه فى (عَلِمَ) ، ويكون (عَلِمَ) فعلا للكلّ ، فيكون تأويل الكلام حينئذ : قد علم كلّ مصلّ ومسبح منهم صلاة نفسه وتسبيحه ، الذى كُلِّفه وأُلزمه .

والوجه الآخر : أن تكون الهاء فى الصلاة والتسبيح من ذكر الله ، والعلم للكلّ ، فيكون تأويل الكلام حينئذ: قد علم كلّ مسبِّح ومُصلّ صلاة الله التى كلفه إياها ، وتسبيحه . وأظهر هذه المعانى الثلاثة ؛ على هذا الكلام : المعنى الأوّل ، وهو أن يكون المعنى : كلّ مصلّ منهم ومسبِّح ، قد علم الله صلاته وتسبيحه .

وقوله (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) يقول تعالى ذكره : والله ذو علم بما يفعل كلّ مصلّ ومسبح منهم ، لايخفى عليه شىء من أفعالهم ، طاعتها ومعصيتها ، محيط بذلك كله ، وهو مجازيهم على ذلك كله .

وقوله (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) يقول جلّ ثناؤه : ولله سلطان السموات والأرض وملكها ، دون كلّ من هو دونه من سلطان وملِك ، فإياه فارهبوا أيها الناس ، وإليه فارغبوا ، لاإلى غيره ؛ فإن بيده خزائن السموات والأرض ، لايخشى بعطاياكم منها فقرا . (وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) : يقول : وإليه

(١) يظهر أن فى الكلام سقطا ، تقديره : فإن قيل : ما الفائدة عطف « وتسبيحه » على صلاته . . . الخ ، بدليل قوله : قيل . . . الخ ، وهو جواب عن سؤال .

بعد وفاتكم ، مصيركم ومَعادكم ، فيوفيكم أجور أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، فأحسنوا عبادته ، واجتهدوا فى طاعته ، وقدّموا لأنفسكم الصالحاتِ من الأعمال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ۝ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (أَلَمْ تَرَ) يا محمد (أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي) يعنى : يسوق (سَحَابا) حيث يريد . (ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ) : يقول : ثم يؤلف بين السحاب ، وأضاف بين إلى السحاب ، ولم يذكر معه غيره ، وبين لاتكون مضافة إلا إلى جماعة أو اثنين ، لأن السحاب فى معنى جمع ، واحده سحابة ، كما يجمع النخلة : نَخْل ، والتمرة : تمر ، فهو نظير قول قائل : جلس فلان بين النخل ؛ وتأليف الله السحاب : جمعه بين متفرّقها .

وقوله (ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاما) يقول : ثم يجعل السحاب الذى يزجيه ، ويؤلف بعضه إلى بعض (رُكاما) : يعنى : متراكما بعضه على بعض .

وقد حدثنا عبد الحميد بن بيان ، قال : أخبرنا خالد ، قال : ثنا مطر ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن عُبيد بن عُمير الليثىّ ، قال : الرياح أربع : يبعث الله الريح الأولى ، فتقمّ الأرض قَمًّا ، ثم يبعث الثانية ، فتنشئ سحابا ، ثم يبعث الثالثة ، فتؤلف بينه ، فتجعله رُكاما ، ثم يبعث الرابعة فتمطره .

وقوله (فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ) يقول : فترى المطر يخرج من بين السحاب ، وهو الوَدْق ، قال الشاعر :

فَلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها وَلا أَرْضَ أَبْقَلَ إبْقالَها[1]

والهاء فى قوله (مِنْ خِلالِهِ) من ذكر السحاب ، والخلال : جمع خَلَل . وذُكر عن ابن عباس وجماعة ، أنهم كانوا يقرءون ذلك (مِنْ خَلَلِهِ) .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا حرمىّ بن عُمارة ، قال : ثنا شعبة ، قال : ثنا قَتادة ، عن الضحاك بن مزاحم أنه قرأ هذا الحرف (فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ) : مِنْ خَلَلِهِ .

(١) البيت لعامر بن جوين الطائى (اللسان : ودق) قال : الودق المطر كله : شديده وهينه . وقد ودق يدق ودقا : أى قطر . قال عامر بن جوين الطائى : « فلا مزنة . . . البيت » . والمزنة : السحابة . واستشهد المؤلف بالبيت على أن معنى الودق : المطر .

قال: ثنا شُعبة، قال: أخبرنى عُمارة، عن رجل، عن ابن عباس، أنه قرأ هذا الحرف (فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ): من خَلَلِه.

حدثنا أحمد بن يوسف، قال: ثنا القاسم، قال: ثنا حجاج، عن هارون، قال: أخبرنى عُمارة بن أبى حفصة، عن رجل، عن ابن عباس، أنه قرأها (مِنْ خَلَلِهِ) بفتح الخاء، من غير ألف.

قال هارون: فذكرت ذلك لأبى عمرو، فقال: إنها لحسنة، ولكن خِلاله أعمّ.

وأما قرّاء الأمصار، فإنهم على القراءة الأخرى: من خِلاله، وهى التى نختار، لإجماع الحجة من القراء عليها.

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فى قوله (فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ) قال: الودْق: القطر، والخِلال: السحاب.

وقوله (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ): قيل فى ذلك قولان: أحدهما: أن معناه: وأن الله ينزل من السماء من جبال فى السماء من بَرَد، مخلوقة هنالك خلقة، كأن الجبال على هذا القول، هى من بَرَد، كما يقال: جبال من طين. والقول الآخر: أن الله ينزل من السماء قَدْر جبال، وأمثال جبال من بَرَد إلى الأرض، كما يقال: عندى بيتان تبنا. والمعنى: قدر بيتين من التبن، والبيتان ليسا من التبن.

وقوله (فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشاءُ) يقول: فيعذّب بذلك الذى ينزل من السماء، من جبال فيها من بَرَد، من يشاء فيهلكه، أو يهلك به زروعه وماله (وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشاءُ) من خلقه، يعنى عن زروعهم وأموالهم.

وقوله (يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصارِ): يقول: يكاد شدّة ضوء برق هذا السحاب يذهب بأبصار من لاقى بصره، والسنا: مقصورٌ، وهو ضوء البرق.

كما حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، عن عطاء الخُراسانىّ، عن ابن عباس، قوله (يَكادُ سَنا بَرْقِهِ) قال: ضوء برقه.

حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، فى قوله (يَكادُ سَنا بَرْقِهِ) يقول: لَمَعان البرق يذهب بالأبصار.

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فى قوله (يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصارِ) قال: سناه: ضوء يذهب بالأبصار.

وقرأت قرّاء الأمصار (يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ) بفتح الياء من يَذْهب، سوى أبى جعفر القارئ، فإنه قرأه بضم الياء (يُذْهِبُ بِالأَبْصارِ).

والقراءة التى لا أختار غيرها هى فتحها، لإجماع الحجة من القرّاء عليها، وأن العرب إذا أدخلت الباء فى مفعول ذهبت، لم يقولوا: إلا ذهبت به، دون أذهبت به، وإذا أدخلوا الألف فى أذهبت، لم يكادوا أن يدخلوا الباء فى مفعوله، فيقولون: أذهبته، وذهبت به.

وقوله (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ) يقول: يُعقّب الله بين الليل والنهار ويصرفهما، إذا أذهب هذا

جاء هذا ، وإذا أذهب هذا ، جاء هذا (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ) يقول : إن فى إنشاء الله السحاب ، وإنزاله منه الودق ، ومن السماء البرد ، وفى تقليبه الليل والنهار ، لعبرة لمن اعتبر به ، وعظة لمن اتعظ به ، ممن له فهم وعقل ، لأن ذلك ينبئ ويدل على أن له مدبرا ومصرفا ومقلبا ، لايشبهه شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

اختلفت القراء فى قراءة قوله (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ) فقرأته عامة قراء الكوفة غير عاصم : (وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ دَابَّةٍ) وقرأته عامة قراء المدينة والبصرة وعاصم (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ) بنصب كل ، وخلق على مثال فعل ، وهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى ، وذلك أن الإضافة فى قراءة من قرأ ذلك « خالق » تدل على أن معنى ذلك المضى ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب . وقوله (خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ) يعنى : من نطفة ، (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ) كالحيات وما أشبهها ، وقيل إنما قيل : (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ) والمشى لايكون على البطن ، لأن المشى إنما يكون لما له قوائم ، على التشبيه ، وأنه لما خالط ماله قوائم ما لاقوائم له ، جاز ، كما قال (وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ) كالطير (وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) كالبهائم .

فإن قال قائل : فكيف قيل : فمنهم من يمشى ، ومن للناس ، وكل هذه الأجناس أو أكثرها لغيرهم ؟ قيل : لأنه تفريق ما هو داخل فى قوله (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ) وكان داخلا فى ذلك الناس وغيرهم ، ثم قال : فمنهم ، لاجتماع الناس والبهائم وغيرهم فى ذلك واختلاطهم ، فكنى عن جميعهم كنايته عن بنى آدم ، ثم فسرهم بمن ، إذ كان قد كنى عنهم كناية بنى آدم خاصة . (يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) يقول : يحدث الله مايشاء من الخلق (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) يقول : إن الله على إحداث ذلك وخلقه ، وخلق مايشاء من الأشياء غيره ، ذو قدرة لايتعذر عليه شىء أراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذكره : لقد أنزلنا أيها الناس علامات واضحات ، دالات على طريق الحق ، وسبيل الرشاد . (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يقول : والله يرشد من يشاء من خلقه بتوفيقه ، فيهديه إلى دين الإسلام ، وهو الصراط المستقيم ، والطريق القاصد ، الذى لااعوجاج فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ

بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

❁ يقول تعالى ذكره : ويقول المنافقون : صدّقنا بالله وبالرسول، وأطعنا الله وأطعنا الرسول ، (ثُمَّ يَتَوَلَّى فريق مِنْهُمْ) يقول : ثم تُدْبِر كلّ طائفة منهم، من بعد ما قالوا هذا القول، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتدعو إلى المحاكمة إلى غيره خصمَها . (وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) يقول: وليس قائلو هذه المقالة، يعني قوله (آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا) بالمؤمنين، لتركهم الاحتكام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإعراضهم عنه إذا دُعُوا إليه . وقوله (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) يقول: وإذا دُعِي هؤلاء المنافقون إلى كتاب الله وإلى رسوله (لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) فيما اختصموا فيه بحكم الله (إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ) عن قبول الحقّ ، والرضا بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

❁ يقول تعالى ذكره : وإن يكن الحقّ لهؤلاء الذين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، فيأبَون ويُعْرِضون عن الإجابة إلى ذلك ، قِبَلَ الذين يدعونَهم إلى الله ورسوله ، يأتوا إلى رسول الله مذعنين ، يقول مذعنين : منقادين لحكمه ، مقرّين به ، طائعين غير مكرهين ؛ يقال منه : قد أذعن فلان بحقه : إذا أقرّ به طائعا غير مستكرَه ، وانقاد له وسلَّم .

وكان مجاهد فيما ذكر عنه يقول في ذلك، ما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) قال : سِراعا .

وقوله (أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) يقول تعالى ذكره : أفي قلوب هؤلاء الذين يُعْرِضون إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، شكٌّ في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه لله رسول ، فهم يمتنعون من الإجابة إلى حكمه، والرضا به (أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ) إذا احتكموا إلى حكم كتاب الله، وحكم رسوله، وقال (أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ) والمعنى : أن يحيف رسولُ الله عليهم ، فبدأ بالله تعالى ذكره، تعظيما لله، كما يقال: ما شاء الله، ثم شئت، بمعنى : ماشئت . ومما يدلّ على أن معنى ذلك كذلك، قوله (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) فأفرد الرسول بالحكم، ولم يقل: ليحكما. وقوله (بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) يقول : ما خاف هؤلاء المعرضون عن حكم الله وحكم رسوله ، إذ أعرضوا عن الإجابة إلى ذلك، مما دُعوا إليه، أن يحيف عليهم رسول الله، فيجورَ في حكمه عليهم، ولكنهم

قوم أهل ظلم لأنفسهم ، بخلافهم أمر ربهم ، ومعصيتهم الله فيما أمرهم من الرضا بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما أحبوا وكرهوا ، والتسليم له .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى ذكره : إنما كان ينبغي أن يكون قول المؤمنين إذا دُعُوا إلى حكم الله وإلى حكم رسوله ، (لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) وبين خصومهم (أنْ يَقُولُوا سَمِعْنا) ما قيل لنا ، (وأطَعْنا) من دعانا إلى ذلك . ولم يُعْنَ بكان فى هذا الموضع الخبر عن أمر قد مضى فيقضى ، ولكنه تأنيب من الله الذين أُنزلت هذه الآية بسببهم ، وتأديب منه آخرين غيرهم . وقوله (وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ) يقول تعالى ذكره : والذين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم وبين خصومهم ، أن يقولوا : سمعنا وأطعنا . (المفلحون) : يقول : هم المنجِحون المدرِكون طَلِباتهم ، بفعلهم ذلك ، المخلدون فى جنات الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

يقول تعالى ذكره : ومن يطع الله ورسوله فيما أمره ونهاه ، ويسلِّمْ لحكمهما له وعليه ، ويَخَفْ عاقبة معصية الله ويحذره ، ويتق عذاب الله بطاعته إياه فى أمره ونهيه (فَأُولَئِكَ) يقول : فالذين يفعلون ذلك ، هم الفائزون برضا الله عنهم يوم القيامة ، وأمنهم من عذابه .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى ذكره : وحلف هؤلاء المعرضون عن حكم الله وحكم رسوله ، إذ دعوا إليه (بِاللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ) يقول : أغلظ أيمانهم وأشدّها : (لَئِنْ أمَرْتَهُمْ) يامحمد بالخروج إلى جهاد عدوّك وعدوّ المؤمنين (لَيَخْرُجُنَّ ؛ قُلْ لاتُقْسِمُوا) : لاتحلفوا ، فإن هذه (طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ) منكم ، فيها التكذيب .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (قُلْ لاتُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ) قال : قد عُرفت طاعتكم إلىَّ أنكم تكذبون (إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) : يقول : إن الله ذو خبرة بما تعملون من طاعتكم الله ورسوله ، أوخلافكم أمرهما ، أو غير ذلك من أموركم ، لايخفى عليه من ذلك شىء ، وهو مجازيكم بكل ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

يقول تعالى ذكره (قُلْ) يا محمد لهؤلاء المقسمين بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرُجُنّ، وغيرهم من أمتك (أطِيعُوا اللهَ) أيها القوم، فيما أمركم به، ونهاكم عنه (وأطيعُوا الرَّسُولَ) فإن طاعته لله طاعة. (فإنْ تَوَلَّوْا) يقول: فإن تُعْرِضوا وتُدْبِروا عما أمركم به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أو نهاكم عنه، وتأبوا أن تُذْعنوا لحكمه لكم وعليكم. (فإنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ) يقول: فإنما عليه فعل ما أُمِر بفعله، من تبليغ رسالة الله إليكم، على ما كلّفه من التبليغ (وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ) يقول: وعليكم أيها الناس أن تفعلوا ما ألزمكم، وأوجب عليكم، من اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، والانتهاء إلى طاعته فيما أمركم ونهاكم.

وقلنا: إن قوله (فإنْ تَوَلَّوْا) بمعنى: فإن تتولوا؛ فإنه في موضع جزم؛ لأنه خطاب للذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم (أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ) يدلّ على أن ذلك كذلك؛ قوله (وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ)، ولو كان قوله (تَوَلَّوْا) فعلا ماضيا، على وجه الخبر عن غيب، لكان في موضع قوله (وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَعَلَيْهِمْ ما حُمِّلُوا)

وقوله (وَإنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) يقول تعالى ذكره: وإن تطيعوا أيها الناس رسول الله فيما يأمركم وينهاكم، ترشُدوا، وتصيبوا الحقّ في أموركم (وَما عَلى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاغُ المُبِينُ) يقول: وغير واجب على من أرسله الله إلى قوم برسالة إلا أن يبلّغهم رسالته، بلاغا يبين لهم ذلك البلاغ عما أراد الله به؛ يقول: فليس على محمد أيها الناس إلا أداء رسالة الله إليكم، وعليكم الطاعة؛ وإن أطعتموه[1] لحظوظ أنفسكم تصيبون، وإن عصيتموه بأنفسكم فتوبقون.[2]

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

يقول تعالى ذكره: (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا) بالله ورسوله (مِنْكُمْ) أيها الناس (وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) يقول: وأطاعوا الله ورسوله فيما أمراه ونهياه (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرْضِ) يقول: ليُورثنّهم الله أرض المشركين من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) يقول: كما فعل من قبلهم ذلك ببني إسرائيل، إذ أهلك الجبابرة بالشأم، وجعلهم ملوكها

(١) كأنه على تقدير الفاء في جواب الشرط، أي فلحظوظ... الخ.
(٢) لعله الأولى أن يقول: وإن عصيتموه فلأنفسكم توبقون.

وسكانها (وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ) يقول : وليوطئنّ لهم دينهم ، يعنى ملتهم التي ارتضاها لهم ، فأمرهم بها . وقيل : وعد الله الذين آمنوا ، ثم تلقى ذلك بجواب اليمين بقوله (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) لأن الوعد قول يصلح فيه « أن » ، وجواب اليمين كقوله : وعدتك أن أكرمك ، ووعدتك لأكرمنك .

واختلف القرّاء فى قراءة قوله (كَمَا اسْتَخْلَفَ) فقرأته عامة القرّاء (كَمَا اسْتَخْلَفَ) بفتح التاء واللام ، بمعنى : كما استخلف الله الذين من قبلهم من الأمم . وقرأ ذلك عاصم (كَمَا اسْتُخْلِفَ) بضم التاء ، وكسر اللام ، على مذهب ما لم يُسَمَّ فاعله .

واختلفوا أيضا فى قراءة قوله (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ) فقرأ ذلك عامة قرّاء الأمصار سوى عاصم (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ) بتشديد الدال ، بمعنى : وليغيِّرَنّ حالهم عما هى عليه ، من الخوف إلى الأمن ، والعرب تقول : قد بُدِّل فلان : إذا غيرت حاله ، ولم يأت مكان فلان غيره ، وكذلك كلّ مغير عن حاله ، فهو عندهم مبدّل بالتشديد . وربما قيل بالتخفيف ، وليس بالفصيح . فأما إذا جعل مكان الشيء المبدل غيره ، فذلك بالتخفيف : أبدلته فهو مُبْدَل . وذلك كقولهم : أَبدل هذا الثوب : أى جُعِل مكانه آخر غيره ، وقد يقال بالتشديد ، غير أن الفصيح من الكلام ما وصفت . وكان عاصم يقرؤه (وَلَيُبْدِلَنَّهُمْ) بتخفيف الدال :

والصواب من القراءة فى ذلك : التشديد ، على المعنى الذى وصفت قبلُ ، لإجماع الحجة من قرّاء الأمصار عليه ، وأن ذلك تغيير حال الخوف إلى الأمن ، وأرى عاصما ذهب إلى أن الأمن لما كان خلاف الخوف ، وجّه المعنى إلى أنه ذهب بحال الخوف ، وجاء بحال الأمن ، فخفّف ذلك :

ومن الدليل على ما قلنا ، من أن التخفيف إنما هو ما كان فى إبدال شيء مكان آخر ، قول أبى النجم :

* عزْلُ الأميرِ للأَميرِ المُبْدَلِ [1] *

وقوله (يَعْبُدُونَنِي) يقول : يخضعون لى بالطاعة ، ويتذللون لأمرى ونهيي (لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) يقول : لايشركون فى عبادتهم إياى الأوثان والأصنام ولا شيئا غيرها ، بل يخلصون لى العبادة ، فيفردونها إلىّ ، دون كلّ ماعُبد من شيء غيرى . وذُكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل شكاية بعض أصحابه إليه ، فى بعض الأوقات التى كانوا فيها من العدوّ فى خوف شديد ، مماهُمْ فيه من الرُّعب والخوف ، وما يَلْقَوْن بسبب ذلك من الأذى والمكروه .

ذكر الرواية بذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن أبى جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، قوله (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) . . . الآية ، قال : « مكث النبىّ صلى الله عليه وسلم عَشْر سنين خائفا ، يدعو إلى الله سرّا وعلانية ، قال : ثم أُمر بالهجرة إلى المدينه ، قال : فمكث بها

---

(١) البيت من مشطور الرجز ، لأبى النجم العجلى الراجز (اللسان : بدل) قال : قال أبو العباس (يعنى ثعلبا) وحقيقته : أن التبديل تغيير الصورة إلى صورة أخرى ، والجوهرة بعينها ؛ والإبدال : تنحية الجوهرة ، واستئناف جوهرة أخرى . منه قول أبى النجم « عزل الأمير للأمير المبدل » ألا ترى أنه نحى جسما ، وجعل مكانه جسما غيره ؟

هو وأصحابه خائفون ، يُصبحون فى السلاح ، ويُمسون فيه ، فقال رجل : ماياًتى علينا يوم نأمن فيه ، ونضع عنا السلاح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لاتَغْبُرُونَ إلاّ يَسيرًا ، حتى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنكُمْ فى المَلإِ العَظِيمِ مُحتَبِيا فيه ، لَيْسَ فيهِ[1] حَدِيدَةٌ ، فأنزل الله هذه الآية (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ) . . . إلى قوله (فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلكَ) » قال : يقول : من كفر بهذه النعمة (فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ) وليس يعنى الكفر بالله . قال : فأظهره الله على جزيرة العرب ، فآمنوا ، ثم تجبّروا ، فغيّر الله ما بهم ، وكفروا بهذه النعمة ، فأدخل الله عليهم الخوف الذى كان رفعه عنهم ؛ قال القاسم : قال أبو على[2] : بقتلهم عثمان بن عفان رضى الله عنه .

واختلف أهل التأويل فى معنى الكفر الذى ذكره الله فى قوله (فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلكَ) فقال أبو العالية ماذكرنا عنه من أنه كفر بالنعمة لا كفر بالله .

ورُوى عن حُذيفة فى ذلك ما حدثنا به ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب ابن أبى الشعثاء ، قال : كنت جالسا مع حُذيفة وعبد الله بن مسعود ، فقال حُذيفة : ذهب النفاق ، وإنما كان النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو الكفر بعد الإيمان ، قال : فضحك عبد الله ، فقال : لم تقول ذلك ؟ قال : علمت ذلك ، قال (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ) . . . حتى بلغ آخرها .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى الشّعْثاء ، قال : قعدت إلى ابن مسعود وحُذيفة ، فقال حذيفة : ذهب النّفاق فلا نفاق ، وإنما هو الكفر بعد الإيمان ، فقال عبد الله : تعلم ما تقول ؟ قال : فتلا هذه الآية (إِنَّمَا كانَ قَوْلَ المُؤْمِنِينَ) . . . حتى بلغ (فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ) قال : فضحك عبد الله ، قال : فلقيت أبا الشعثاء بعد ذلك بأيام ، فقلت : من أىّ شىء ضحك عبد الله ؟ قال : لاأدرى ، إن الرجل ربما ضحك من الشىء الذى يُعْجبه ، وربما ضحك من الشىء الذى لايعجبه ، فمن أىّ شىء ضحك ؟ لاأدرى . والذى قاله أبو العالية من التأويل أشبه بتأويل الآية ، وذلك أن الله وعد الإنعام على هذه الأمة بما أخبر فى هذه الآية ، أنه منعم به عليهم ؛ ثم قال عقيب ذلك : فمن كفر هذه النعمة بعد ذلك (فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قول : (يَعْبُدُونَنِى لايُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا) قال : تلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ليث ، عن مجاهد (أمنا يَعْبُدُونَنِى لايُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا) قال : لايخافون غيرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞ ﴾

(١) فى مجمع الزوائد كذا (٤ : ٤٧) ليست فيهم حديدة . ولعلها رواية أخرى .

(٢) لعله أبو العالية ، وهو الصحيح .

❊ يقول تعالى ذكره (وأقيموا) أيها الناس (الصلاة) بحدودها ، فلا تضيعوها (وآتوا الزكاة) التى فرضها الله عليكم أهلها ، وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم ونهاكم (لعلكم ترحمون) يقول : كى يرحمكم ربكم ، فينجيكم من عذابه، وقوله (لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض) يقول تعالى ذكره : لاتحسبن يامحمد الذين كفروا بالله معجزيه فى الأرض، إذا أراد إهلاكهم (ومأواهم) بعد هلاكهم (النار ، ولبئس المصير) الذى يصيرون إليه ذلك المأوى . وقد كان بعضهم يقول : لايحسبن الذين كفروا بالياء ، وهو مذهب ضعيف عند أهل العربية ، وذلك أن تحسب محتاج إلى منصوبين . وإذا قرئ (يحسبن) لم يكن واقعا إلا على منصوب واحد، غير أنى أحسب أن قائله بالياء ظن أنه قد عمل فى معجزين ، وأن منصوبه الثانى فى الأرض ، وذلك لامعنى له إن كان ذلك قصد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٥٨﴾

اختلف أهل التأويل فى المعنى بقوله (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) فقال بعضهم : عنى بذلك : الرجال دون النساء ، ونهوا عن أن يدخلوا عليهم فى هذه الأوقات الثلاثة، هؤلاء الذين سموا فى هذه الآية إلا بإذن .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن ليث ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قوله : (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) قال : هى على الذكور دون الإناث .

وقال آخرون : بل عنى به الرجال والنساء .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى حصين ، عن أبى عبد الرحمن ، فى قوله (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) قال : هى فى الرجال والنساء ، يستأذنون على كل حال ، بالليل والنهار .

❊ وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب : قول من قال : عنى به الذكور والإناث ، لأن الله عم بقوله (الذين ملكت أيمانكم) جميع أملاك أيماننا ، ولم يخصص منهم ذكرا ولا أنثى ، فذلك على جميع من عمه ظاهر التنزيل .

فتأويل الكلام : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ، ليستأذنكم فى الدخول عليكم عبيدُكم وإماؤكم، فلا يدخلوا عليكم إلا بإذن منكم لهم .

(وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ) يقول : والذين لم يحتلموا من أحراركم ثلاث مرّات ، يعنى ثلاث مرات ، فى ثلاثة أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، فى قوله (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) قال : عبيدكم المملوكون (وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ) قال : لم يحتلموا من أحراركم :

قال ابن جُرَيج : قال لى عطاء بن أبى رباح : فذلك على كل صغير وصغيرة أن يستأذن ، كما قال (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ) قالوا : هى العَتَمة ، قلت : فإذا وضعوا ثيابهم بعد العتمة ، استأذنوا عليهم حتى يصبحوا ، قال نعم : قلت لعطاء : هل استئذانهم إلا عند وضع الناس ثيابهم ؟ قال لا :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن صالح بن كيسان ويعقوب ابن عُتبة ، وإسماعيل بن محمد ، قالوا : لا استئذان على خدم الرجل عليه ، إلا فى العورات الثلاث :

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله : (لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) يقول : إذا خلا الرجل بأهله بعد صلاة العشاء ، فلا يدخل عليه خادم ولا صبىّ إلا بإذن ، حتى يصلّى الغداة ، فإذا خلا بأهله عند صلاة الظهر فمثل ذلك :

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى قرة بن عبد الرحمن ، عن ابن شهاب ، عن ثعلبة ، عن أبى مالك القرظى ، أنه سأل عبد الله بن سُوَيد الحارثىّ ، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإذن فى العورات الثلاث ، فقال : إذا وضعت ثيابى من الظهيرة ، لم يلج علىّ أحد من الخدم الذى بلغ الحلم ، ولا أحد ممن لم يبلغ الحلم من الأحرار ، إلا بإذن .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا ابن عُلَيّة ، عن ابن جُرَيج ، قال : سمعت عطاء يقول : قال ابن عباس : ثلاث آيات جحدهن الناس : الإذن كله ، وقال (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) وقال الناس : أكرمكم أعظمكم بيتا ، ونسيت الثالثة :

حدثنا ابن أبى الشوارب ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا يونس ، عن الحسن ، فى هذه الآية : (لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) قال : كان الحسن يقول : إذا أبات الرجل خادمه معه ، فهو إذنه ، وإن لم يبته معه ، استأذن فى هذه الساعات .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : ثنا سفيان ، قال : ثنى موسى بن أبى عائشة ، عن الشعبى فى قوله (لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) قال : لم تُنسخ ، قلت : إن الناس لا يعملون به ، قال الله المستعان .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن موسى بن أبى عائشة ، عن الشعبىّ ، وسألته عن هذه الآية (لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) قلت : منسوخة هى ؟ قال : لا والله ما نُسخت ، قلت : إن الناس لايعملون بها ، قال : الله المستعان .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا أبوعوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبير ، قال : إن ناسا يقولون نسخت ، ولكنها مما يتهاون الناس به .

قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبير فى هذه الآية (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) . . . إلى آخر الآية ، قال : لايعمل بها اليوم .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : ثنا حنظلة ، أنه سمع القاسم بن محمد يُسأَل عن الإذن ، فقال : يستأذن عند كلّ عورة ، ثم هو طوّاف ، يعنى الرجل على أمه .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا عثمان بن عمر ، قال : أخبرنا عبد العزيز بن أبى روّاد ، قال : أخبرنى رجل من أهل الطائف ، عن غيلان بن شُرَحبيل ، عن عبد الرحمن بن عوف ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لايَغْلِبَنَّكُمُ الأعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلاَتِكُمْ ، قالَ اللهُ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ) وإنَّمَا العَتَمَةُ عَتَمَةُ الإبِلِ . »

وقوله (ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ) اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة : (ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ) برفع الثلاث ، بمعنى الخبر عن هذه الأوقات التى ذكرت ، كأنه عندهم قيل : هذه الأوقات الثلاثة التى أمرناكم بأن لايدخل عليكم فيها من ذكرنا إلا بإذن ، ثلاثُ عورات لكم ، لأنكم تضعون فيها ثيابكم ، وتخلُون بأهليكم . وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة (ثَلاثَ عَوْرَاتٍ) بنصب الثلاث على الردّ على الثلاث الأولى . وكأن معنى الكلام عندهم : ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاثَ مرّات ، ثلاثَ عورات لكم .

والصواب من القول فى ذلك : أنهما قراءتان متقاربتا المعنى ، وقد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب .

وقوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ) يقول تعالى ذكره : ليس عليكم معشر أرباب البيوت والمساكن ، ولا عليهم ، يعنى : ولا على الذين ملكت أيمانكم من الرجال والنساء ، والذين لم يبلغوا الحلم من أولادكم الصغار حرج ولا إثم بعدهنّ ، يعنى بعد العورات الثلاث ، والهاء والنون فى قوله (بَعْدَهُنَّ) عائدتان على الثلاث من قوله (ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ) ، وإنما يعنى بذلك أنه لاحرج ولا جُناح على الناس ، أن يدخل عليهم مماليكهم البالغون ، وصبيانهم الصغار بغير إذن بعد هذه الأوقات الثلاث ، اللاتى ذكرهنّ فى قوله (مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشاءِ) .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل :

ذكر من قال ذلك

حدثني عليّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قال : ثم رخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن ، يعني فيما بين صلاة الغداة إلى الظهر ، وبعد الظهر إلى صلاة العشاء ، أنه رخص لخادم الرجل والصبيّ أن يدخل عليه منزله بغير إذن ، قال : وهو قوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ) فأما من بلغ الحلُم ، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال :

وقوله (طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ) رفع الطوّافون بمضمر ، وذلك هم ، يقول لهؤلاء المماليك والصبيان الصغار هم طوّافون عليكم أيها الناس ، ويعني بالطوّافين : أنهم يدخلون ويخرجون على مواليهم وأقربائهم في منازلهم غدوة وعشية بغير إذن ، يطوفون عليهم ، بعضكم على بعض في غير الأوقات الثلاث التي أمرهم أن لا يدخلوا على ساداتهم وأقربائهم فيها إلا بإذن (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ) يقول جلّ ثناؤه : كما بينت لكم أيها الناس أحكام الاستئذان في هذه الآية ، كذلك يبين الله لكم جميع أعلامه وأدلته وشرائع دينه (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) يقول : والله ذو علم بما يصلح عباده ، حكيم في تدبيره إياهم ، وغير ذلك من أموره .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

يقول تعالى ذكره : وإذا بلغ الصغار من أولادكم وأقربائكم ، ويعني بقوله (مِنْكُمْ) من أحراركم . (الحُلُمَ) يعني الاحتلام واحتلموا (فَلْيَسْتَأْذِنُوا) يقول : فلا يدخلوا عليكم في وقت من الأوقات إلا بإذن ، لا في أوقات العورات الثلاث ولا في غيرها . وقوله (كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : يقول : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقربائه الأحرار ، وخصّ الله تعالى ذكره في هذه الآية الأطفال بالذكر ، وتعريف حكمهم عباده في الاستئذان ، دون ذكر ما ملكت أيماننا ، وقد تقدّمت الآية التي قبلها بتعريفهم حكم الأطفال الأحرار والمماليك ، لأن حكم ما ملكت أيماننا من ذلك حكم واحد ، سواء فيه حكم كبارهم وصغارهم ، في أن الإذن عليهم في الساعات الثلاث التي ذكرها الله في الآية التي قبل .

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثني عليّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عباس ، قال : أما من بلغ الحلُم ، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله ، يعني من الصبيان الأحرار ، إلا بإذن على كل حال ، وهو قوله (وَإِذَا بَلَغَ الأطْفَالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء (وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا) قال: واجب على الناس أجمعين أن يستأذنوا إذا احتلموا ، على من كان من الناس .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن ابن المسيب ، قال : يستأذن الرجل على أمه ، قال : إنما أنزلت (وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ) فى ذلك (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ) يقول : هكذا يبين الله لكم آياته ، أحكامه وشرائع دينه ، كما بين لكم أمر هؤلاء الأطفال فى الاستئذان بعد البلوغ (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) يقول : والله عليم بما يصلح خلقه وغير ذلك من الأشياء ، حكيم فى تدبيره خلقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذكره : واللواتى قد قعدن عن الولد ، من الكبر ، من النساء ، فلا يحضن ولا يلدن ، واحدتهن قاعد (اللاَّتِى لاَيَرْجُونَ نِكَاحًا) يقول : اللاتى قد يئسن من البعولة ، فلا يطمعن فى الأزواج (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ) يقول : فليس عليهن حرج ولا إثم أن يضعن ثيابهن ، يعنى جلابيبهن ، وهى القناع الذى يكون فوق الخمار ، والرداء الذى يكون فوق الثياب ، لاحرج عليهن أن يضعن ذلك عند المحارم من الرجال ، وغير المحارم من الغرباء ، غير متبرجات بزينة .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبوصالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وَالقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِى لاَيَرْجُونَ نِكَاحًا) وهى المرأة لاجناح عليها أن تجلس فى بيتها بدرع وخمار ، وتضع عنها الجلباب ، مالم تتبرج لما يكره الله ، وهو قوله (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ) ثم قال (وأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ) :

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ) يعنى : الجلباب ، وهو القناع ، وهذا للكبيرة التى قد قعدت عن الولد ، فلا يضرّها أن لاتجلبب فوق الخمار . وأما كلّ امرأة مسلمة حرّة ، فعليها إذا بلغت المحيض أن تدنىَ الجلباب على الخمار . وقال الله فى سورة الأحزاب (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ) وكان بالمدينة رجال من المنافقين إذا مرّت بهم امرأة سيئة الهيئة والزىّ ، حسب

المنافقون أنها مزنية ، وأنها من بغيتهم ، فكانوا يؤذون المؤمنات بالرفث ، ولا يعلمون الحرّة من الأمة ، فأنزل الله فى ذلك (يا أيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ المُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ، ذلكَ أدْنَى أنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ) يقول : إذا كان زيهن حسنا ، لم يطمع فيهن المنافقون :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جُرَيج ، فى قوله (وَالقَوَاعِدُ مِنَ النِّساءِ) التى قعدت من الوَلَد وكبِرت . قال ابن جُرَيج : قال مجاهد : (اللاتى لايَرْجُونَ نِكاحا) قال : لايردنه (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ) قال : جلابيبهن .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وَالقَوَاعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِى لايَرْجُونَ نِكاحا ، فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غيرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ) قال : وضع الخمار ، قال : التى لاترجو نكاحا ، التى قد بلغت أن لايكون لها فى الرجال حاجة ، ولا للرجال فيها حاجة ، فإذا بلغن ذلك وضعن الخمار ، غير متبرّجات بزينة ، ثم قال (وأنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ) كان أبى يقول هذا كله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى وعبد الرحمن ، قالا : ثنا سفيان، عن علقمة بن مَرْثَد ، عن ذرّ ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ، فى قوله (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ) قال : الجلباب أو الرداء ، شكّ سفيان .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث : عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله (لَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ) قال : الرداء .

حدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودى ، قال : ثنا أبى ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن الأعمش ، عن مالك ابن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، قال : قال عبد الله فى هذه الآية (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ) قال : هى المِلْحَفة .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن الحكم ، قال : سمعت أبا وائل قال : سمعت عبد الله يقول فى هذه الآية (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ) قال : الجلباب .

حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، قال : أخبرنى الحَكَم ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ، مثله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن الثَّورى ، عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن ابن مسعود ، فى قوله (أنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غيرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ) قال : هو الرداء .

قال الحسن ، قال : عبد الرزاق ، قال الثورىّ : وأخبرنى أبو حصين وسالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير ، قال : هو الرداء .

حدثنا ابن عبد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن الشعبى (أنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غيرَ مُتَبَرِّجاتٍ

بزينة) قال : تضع الجلباب المرأة التى قد عجزت ولم تزوّج . قال الشعبىّ : فإن أُبىّ بن كعب يقرأ (أنْ يَضَعْنَ مِنْ ثيابِهِنَّ) .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، قال : قلت لابن أبى نجيح ، قوله (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غيرَ مُتَبَرّجاتٍ بِزِينَةٍ) قال : الجلباب ، قال يعقوب ، قال أبو يونس : قلت له : عن مجاهد ؟ قال : نعم ، فى الدار والحجرة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ) قال : جلابيبهنّ .

وقوله (غيرَ مُتَبَرّجاتٍ بِزِينَةٍ) يقول : ليس عليهنّ جناح فى وضع أرديتهنّ إذا لم يُرِدن بوضع ذلك عنهنّ ، أن يبدين ما عليهنّ من الزينة للرجال . والتبرّج : هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغى لها أن تستره .

وقوله (وأنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ) يقول : وإن تعففن عن وضع جلابيبهنّ وأرديتهنّ ، فيلبسنها ، خير لهنّ من أن يضعنها .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (أنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ) قال : أن يلبسن جلابيبهنّ .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مُغيرة ، عن الشعبىّ (وأنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ) قال : تركُ ذلك ، يعنى ترك وضع الثياب .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (وأنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ) والاستعفاف : لبس الخمار على رأسها ، كان أبى يقول هذا كله (وَاللهُ سَمِيعٌ) ما تنطقون بألسنتكم (عَلِيمٌ) بما تضمره صدوركم ، فاتقوه أن تنطقوا بألسنتكم ، ماقد نهاكم عن أن تنطقوا بها ، أو تضمروا فى صدوركم ماقد كرهه لكم ، فتستوجبوا بذلك منه عقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى هذه الآية فى المعنى الذى أنزلت فيه ، فقال بعضهم : أنزلت هذه الآية ترخيصا للمسلمين فى الأكل مع العُمْيان والعُرْجان والمرضى وأهل الزَّمانة من طعامهم، من أجل أنهم كانوا قد امتنعوا من أن يأكلوا معهم من طعامهم، خشية أن يكونوا قد أتَوْا بأكلهم معهم من طعامهم ، شيئا مما نهاهم الله عنه بقوله (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تأكُلُوا أمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطِلِ ، إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنكم) .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنى عبد الله ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أنْ تأكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ) . . . إلى قوله (أوْ أشْتاتا) وذلك لمّا أنزل الله (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تأكُلُوا أمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطِلِ) فقال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام من أفضل الأموال ، فلا يحلّ لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكفّ الناس عن ذلك ، فأنزل الله بعد ذلك (لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ) . . . إلى قوله (أوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ) :

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ) . . . الآية ، كان أهل المدينة قبل أن يُبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم لايخالطهم فى طعامهم أعمى ولا مريض ، فقال بعضهم : إنما كان بهم التقذّر والتقزّز : وقال بعضهم : المريض لايستوفى الطعام كما يستوفى الصحيح ، والأعرج المنحبس لايستطيع المزاحمة على الطعام ، والأعمى لايبصر طيب الطعام ، فأنزل الله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ) فى مؤاكلة المريض والأعمى والأعرج ، فمعنى الكلام على تأويل هؤلاء : ليس عليكم أيها الناس فى الأعمى حرج، أن تأكلوا منه ومعه ، ولا فى الأعرج حرج ، ولا فى المريض حرج ، ولا فى أنفسكم ، أن تأكلوا من بيوتكم ، فوجّهوا معنى « على » فى هذا الموضع إلى معنى « فى » . .

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية ترخيصا لأهل الزمانة، فى الأكل من بيوت من سمى الله فى هذه الآية، لأن قوما كانوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا لم يكن عندهم فى بيوتهم مايطعمونهم، ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم ، أو بعض من سمّى الله فى هذه الآية ، فكان أهل الزمانة يتخوّفون من أن يطعموا ذلك الطعام ، لأنه أطعمهم غير ملكه .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ) قال : كان رجال زَمْنَى . قال ابن عمرو فى حديثه : عُمْيان وعُرْجان . وقال الحارث : عُمْى عُرْج أولو حاجة ، يستتبعهم رجال إلى بيوتهم ، فإن لم يجدوا طعاما ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم ، ومن عدد منهم من البيوت ، فكره ذلك المستتبعون ، فأنزل الله فى ذلك (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) ، وأحلّ لهم الطعام حيث وجدوه .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : كان الرجل يذهب بالأعمى والمريض والأعرج إلى بيت أبيه ، أو إلى بيت أخيه ، أو عمه ، أو خاله ، أو خالته ، فكان الزَّمْنى يتحرّجون من ذلك ، يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ، فنزلت هذه الآية رُخْصة لهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، نحو حديث ابن عمرو ، عن أبى عاصم .

وقال آخرون : بل نزلت ترخيصا لأهل الزمانة الذين وصفهم الله فى هذه الآية ، أن يأكلوا من بيوت من خلّفهم فى بيوته من الغزاة .

ذكر من قال ذلك

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، قال : قلت للزهرى ، فى قوله (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ) ما بال الأعمى ذكر هاهنا ، والأعرج والمريض ، فقال : أخبرنى عُبيد الله بن عبد الله ، أن المسلمين كانوا إذا غزَوا خلّفوا زَمْناهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ، يقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا ، وكانوا يتحرّجون من ذلك ، يقولون : لاندخلها وهم غُيَّب ، فأنزلت هذه الآية رخصة لهم .

وقال آخرون : بل عُنى بقوله (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) فى التخلف عن الجهاد فى سبيل الله ، قالوا : وقوله (وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ) كلام منقطع عما قبله .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) قال : هذا فى الجهاد فى سبيل الله ، وفى قوله (وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ) . . . إلى قوله (أَوْ صَدِيقِكُمْ) قال : هذا شىء قد انقطع ، إنما كان هذا فى الأوّل ، لم يكن لهم أبواب ، وكانت الستور مُرْخاة ، فربما دخل الرجل

البيت وليس فيه أحد، فربما وجد الطعام وهو جائع ، فسوّغه الله أن يأكله . قال : وقد ذهب ذلك اليوم ، البيوت اليوم فيها أهلها ، وإذا أخرجوا أغلقوها ، فقد ذهب ذلك .

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية ترخيصا للمسلمين الذين كانوا يتقون مؤاكلة أهل الزمانة فى مؤاكلتهم إذا شاءوا ذلك .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن قيس بن مسلم، عن مِقْسم ، فى قوله (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ) قال : كانوا يتقون أن يأكلوا مع الأعمى والأعرج ، فنزلت (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) .

واختلفوا أيضا فى معنى قوله (أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ) فقال بعضهم : عنى بذلك : وكيل الرجل وَقَيِّمَه ، أنه لابأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ، ونحو ذلك .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنا معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله (أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ) وهو الرجل يوكّل الرجل بضيعته، فرخص الله له أن يأكل من ذلك الطعام والتمر ، ويشربَ اللبن .

وقال آخرون : بل عُنِى بذلك : منزل الرجل نفسه ، أنه لابأس عليه أن يأكل .

ذكر من قال ذلك

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ) يعنى : بيت أحدهم ، فإنه يملكه ، والعبيد منهم مما ملكوا .

حدثنا الحسن ، قال: أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، فى قوله (أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ) مما تخبون يا بن آدم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قال (أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ) قال : خزائن لأنفسهم ، ليست لغيرهم .

وأشبه الأقوال التى ذكرنا فى تأويل قوله (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ) . . . إلى قوله (أَوْ صَدِيقِكُمْ) القول الذى ذكرنا عن الزهرىّ ، عن عبيد الله بن عبد الله ، وذلك أن أظهر معانى قوله (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ): أنه لاحرج على هؤلاء الذين سُمُّوا فى هذه الآية، أن يأكلوا من بيوت من ذكره الله فيها ، على ما أباح لهم من الأكل منها ، فإذ كان ذلك أظهر معانيه ، فتوجيه معناه إلى الأغلب الأعرف من معانيه ، أولى من توجيهه إلى الأنكر منها . فإذ كان ذلك كذلك ، كان ماخالف من التأويل قول من قال : معناه : ليس فى الأعمى والأعرج حرج ، أولى بالصواب . وكذلك أيضا الأغلب من تأويل قوله (وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ) أنه يعنى : ولا عليكم أيها الناس، ثم جمع هؤلاء

والزَّمنَى الذين ذكرهم قبل فى الخطاب ، فقال : أن تأكلوا من بيوت أنفسكم ، وكذلك تفعل العرب إذا جمعت بين خبر الغائب والمخاطب ، غلَّبت المخاطب ، فقالت : أنت وأخوك قمتما ، وأنت وزيد جلستما ، ولا تقول : أنت وأخوك جلسا ، وكذلك قوله (وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) والخبر عن الأعمى والأعرج والمريض ، غلَّب المخاطب ، فقال : أن تأكلوا ، ولم يقل : أن يأكلوا .

فإن قال قائل: فهذا الأكل من بيوتهم قد علمناه ، كان لهم حلالا ، إذ كان ملكا لهم ، أَوَكانَ أيضا حلالا لهم الأكل من مال غيرهم ؟ قيل له : ليس الأمر فى ذلك على ماتوهَّمتَ ، ولكنه كما ذكرناه عن عبيد الله ابن عبد الله ، أنهم كانوا إذا غابوا فى مغازيهم ، وتخلف أهل الزمانة منهم ، دفع الغازى مفتاح مسكنه إلى المتخلف منهم ، فأطلق له فى الأكل مما يخلف فى منزله من الطعام ، فكان المتخلفون يتخوّفون الأكل من ذلك وربه غائب ، فأعلمه الله أنه لاحرج عليه فى الأكل منه ، وأذِن لهم فى أكله ، فإذ كان ذلك كذلك تبين أن لامعنى لقول من قال : إنما أنزلت هذه الآية من أجل كراهة المستتبع أكل طعام غير المستتبع ، لأن ذلك لو كان كما قال من قال ذلك ، لقيل : ليس عليكم حرج أن تأكلوا من طعام غيْر من أضافكم ، أو من طعام آباء من دعاكم ، ولم يقل : أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم ، وكذلك لاوجه لقول من قال : معنى ذلك : ليس على الأعمى حرج فى التخلف عن الجهاد فى سبيل الله ، لأن قوله (أَنْ تَأْكُلُوا) خبر ليس ، وأن فى موضع نصب على أنها خبر لها ، فهى متعلقة بليس ، فمعلوم بذلك أن معنى الكلام : ليس على الأعمى حرج أن يأكل من بيته ، لاما قاله الذين ذكرنا، من أنه لاحرج عليه فى التخلف عن الجهاد . فإذ كان الأمر فى ذلك على ماوصفنا ، تبين أن معنى الكلام : لاضيقَ على الأعمى ، ولا على الأعرج ، ولا على المريض ، ولا عليكم أيها الناس، أن تأكلوا من بيوت أنفسكم ، أو من بيوت آبائكم ، أو من بيوت أمهاتكم ، أو من بيوت إخوانكم ، أو من بيوت أخواتكم، أو من بيوت أعمامكم ، أو من بيوت عماتكم ، أو من بيوت أخوالكم، أومن بيوت خالاتكم ، أو من البيوت التى ملكتم مَفاتحها، أو من بيوت صديقكم ، إذا أذنوا لكم فى ذلك، عند مغيبهم ومشهدهم . والمفاتح : الخزائن ، واحدها : مَفْتَح ، إذا أريد به المصدر ، وإذا كان من المفاتيح التى يفتح بها ، فهى مِفْتح ومفاتح، وهى هاهنا على التأويل الذى اخترناه جمع مِفتح الذى يفتح به .

وكان قتادة يتأوّل فى قوله(أَوْ صَدِيقِكُمْ): ما حدثنا به الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة (أَوْ صَدِيقِكُمْ) فلو أكلْت من بيت صديقك من غير أمره ، لم يكن بذلك بأس ، قال معمر : قلت لقتادة : أَوَلاَ أشربُ من هذا الحُبّ ، قال : أنت لى صديق .

وأما قوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً) فإن أهل التأويل اختلفوا فى تأويله ، فقال بعضهم : كان الغنىّ من الناس يتخوّف أن يأكل مع الفقير ، فرخَّصَ لهم فى الأكل معهم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيْج ، عن عطاء الخراسانىّ ، عن

ابن عباس ، قوله (أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) قال : كان الغنيّ يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصديقه ، فيدعُوه إلى طعامه ليأكل معه ، فيقول : والله إنى لأجنح أنْ آكل معك ، والجنح : الحرج ، وأنا غنيّ وأنت فقير ، فأُمروا أن يأكلوا جميعا ، أو أشتاتا .

وقال آخرون : بل عُنى بذلك حيّ من أحياء العرب ، كانوا لا يأكل أحدهم وحده ، ولا يأكل إلا مع غيره ، فأذِن الله لهم أن يأكل من شاء منهم وحده ، ومن شاء منهم مع غيره .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قال : كانوا يأنفون ويتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم ، فقال (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : كانت بنو كِنانة يستحى الرجل منهم أن يأكل وحده ، حتى نزلت هذه الآية .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول : كانوا لا يأكلون إلا جميعا ، ولا يأكلون متفرّقين ، وكان ذلك فيهم دينا ، فأنزل الله : ليس عليكم حرج فى مؤاكلة المريض والأعمى ، وليس عليكم حرج أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) قال : كان من العرب من لا يأكل أبدا جميعا ، ومنهم من لا يأكل إلا جميعا ، فقال الله ذلك .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : نزلت (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) فى حيّ من العرب كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده ، كان يحمله بعض يوم ، حتى يجد من يأكله معه ؛ قال : وأحسب أنه ذكر أنهم من كِنانة .

وقال آخرون : بل عُنِى بذلك قوم كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم ، فرُخِّص لهم فى أن يأكلوا كيف شاءوا .

ذكر من قال ذلك

حدثنى أبو السائب ، قال : ثنا حفص ، عن عمران بن سليمان ، عن أبى صالح وعكرمة ، قالا : كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف ، لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم ، فرُخِّص لهم ، قال الله (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن يقال : إن الله وضع الحَرَج عن المسلمين ، أن يأكلوا جميعا معا إذا شاءوا ، أو أشتاتا متفرّقين إذا أرادوا ، وجائز أن يكون ذلك نزل بسبب من كان يتخوّف من الأغنياء الأكل مع الفقير ، وجائز أن يكون نزل بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا لا يَطْعَمون وُحْدانا ، وبسبب

غير ذلك ، ولا خبر بشيء من ذلك يقطع العذر ، ولا دلالة فى ظاهر التنزيل على حقيقة شيء منه . والصواب التسليم لما دلّ عليه ظاهر التنزيل ، والتوقف فيما لم يكن على صحته دليل .

وقوله (فإذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتا فَسَلِّموا عَلَى أنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ) اختلف أهل التأويل فى ذلك ، فقال بعضهم : معناه : فإذا دخلتم أيها الناس بيوت أنفسكم ، فسلموا على أهليكم وعيالكم .

ذكر من قال ذلك

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرىّ وقتادة فى قوله (فَسَلِّموا عَلَى أنْفُسِكُمْ) قالا : بيتك إذا دخلته ، فقل : سلام عليكم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (فإذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتا فَسَلِّمُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ) قال : سلم على أهلك . قال ابن جُرَيج ، وسُئل عن عطاء بن أبى رباح : أحقّ على الرجل إذا دخل على أهله أن يسلم عليهم ، قال : نعم ، وقالها عمرو بن دينار ، وتَلَوا (فإذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتا فَسَلِّمُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ ، تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً) قال عطاء بن أبى رباح ذلك غير مرّة .

قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : أخبرنى أبو الزُّبير ، قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم (تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً) قال : ما رأيته إلا يوجبه .

قال ابن جُرَيج ، وأخبرنى زياد ، عن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخل أحدكم بيته فليسلم .

قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، قال : قلت لعطاء : إذا خرجت أواجب السلام ، هل أسلم عليهم ؟ فإنما قال (إذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتا فَسَلِّمُوا) قال : ما أعلمه واجبا ، ولا آثِرُ عن أحد وجوبه ، ولكن أحبّ إلىّ ، وما أدعه إلا ناسيا .

قال ابن جُرَيج ، وقال عمرو بن دينار : لا ، قال : قلت لعطاء : فإن لم يكن فى البيت أحد ؟ قال : سلم ، قل : السلام على النبىّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، السلام على أهل البيت ورحمة الله ، قلت له : قولك هذا إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد عمن تَأْثِره؟ ، قال : سمعته ولم يؤثرلى عن أحد .

قال ابن جُرَيج ، وأخبرنى عَطَاءٌ الخُراسانىّ ، عن ابن عباس ، قال : السلام علينا من ربنا ، وقال عمرو بن دينار : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

حدثنا أحمد بن عبد الرحيم ، قال : ثنا عمرو بن أبى سلمة ، قال : ثنا صدقة ، عن زُهَير ، عن ابن جُرَيج ، عن أبى الزبير ، عن جابر بن عبد الله ، قال : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، تحية من عند الله مباركة طيبة ، قال : ما رأيته إلاّ يوجبه .

حدثنا محمد بن عباد الرازى ، قال : ثنا حجاج بن محمد الأعور ، قال : قال لى ابن جُرَيج ، أخبرنى أبو الزبير ، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول ، فذكر مثله .

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول ، فى قوله (فإذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ) يقول : سلموا على أهاليكم إذا دخلتم بيوتكم ، وعلى غير أهاليكم ، فسلموا إذا دخلتم بيوتهم .

وقال آخرون : بل معناه : فإذا دخلتم المساجد فسلّموا على أهلها .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس (إذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتا فَسَلِّمُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ) قال : هى المساجد ، يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، فى قوله (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتا فَسَلِّمُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ) قال : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله ، وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإذا دخلت بيتك فقل : السلام عليكم :

وقال آخرون : بل معنى ذلك : إذا دخلتم بيوتا من بيوت المسلمين فيها ناس منكم ، فليسلم بعضكم على بعض .

ذكر من قال ذلك

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن ، فى قوله ، فَسَلِّمُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ) أى ليسلم بعضكم على بعض ، كقوله (وَلا تَقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فاذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتا فَسَلِّمُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ) قال : إذا دخل المسلم سُلِّم عليه ، كمثل قوله (لاتَقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ) إنما هو : لاتقتل أخاك المسلم :

وقوله (ثُمَّ أنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أنْفُسَكُمْ) قال : يقتل بعضكم بعضا ، قُرَيظة والنَّضِير :

وقال آخرون : معناه : فإذا دخلتم بيوتا ليس فيها أحد ، فسلموا على أنفسكم .

ذكر من قال ذلك

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حصين ، عن أبى مالك ، قال : إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإذا دخلت بيتا فيه ناس من المسلمين وغير المسلمين ، فقل مثل ذلك .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى سنان ، عن ماهان ، قال : إذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم ، قال : تقولوا : السلام علينا من ربنا .

حدثنا ابن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : أخبرنا شعبة عن منصور ، قال شعبة : وسألته عن

هذه الآية (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ) قال : قال إبراهيم : إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن بكير بن الأشجّ ، عن نافع ، أن عبد الله كان إذا دخل بيتا ليس فيه أحد ، قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، قال : ثنا منصور ، عن إبراهيم (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) قال : إذا دخلت بيتا فيه يهود ، فقل : السلام عليكم ، وإن لم يكن فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : قول من قال معناه : فإذا دخلتم بيوتا من بيوت المسلمين ، فليسلم بعضكم على بعض .

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب ، لأن الله جلّ ثناؤه قال (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً) ولم يخصُصْ من ذلك بيتا دون بيت ، وقال (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) يعنى : بعضكم على بعض ، فكان معلوما إذ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض ، أنه معنىّ به جميعها ، مساجدها وغير مساجدها . ومعنى قوله (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) نظير قوله (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) ، وقوله (تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ) ونصب تحية ، بمعنى : تُحيُّون أنفسكم تحية من عند الله السلام تحية ، فكأنه قال : فليحىّ بعضكم بعضا تحية من عند الله . وقد كان بعض أهل العربية يقول : إنما نصبت بمعنى : أَمَرَكم بها تفعلونها تَحيّة منه ، ووصف جلّ ثناؤه هذه التحية المباركة الطيبة ، لما فيها من الأجر الجزيل ، والثواب العظيم .

وقوله (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ) يقول تعالى ذكره : هكذا يفصل الله لكم معالم دينكم ، فيبينها لكم ، كما فصل لكم فى هذه الآية ما أحلّ لكم فيها ، وعرّفكم سبيل الدخول على من تدخلون عليه ، (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) يقول : لكى تفقهوا عن الله أمره ونهيه وأدبه .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره : ما المؤمنون حقّ الإيمان ، إلا الذين صدّقوا الله ورسوله (وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ) ، يقول : وإذا كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ) يقول : على أمر يجمع جميعهم من حرب حضرت ، أو صلاة اجتمع لها ، أو تشاور فى أمر نزل (لَمْ يَذْهَبُوا) يقول : لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر ، حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

❊ وأولى التأويلين فى ذلك بالصواب عندى : التأويل الذى قاله ابن عباس، وذلك أن الذى قبل قوله (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) نهى من الله المؤمنين ،أن يأتوا من الانصراف عنه ،فى الأمر الذى يجمع جميعهم ،مايكرهه ،والذى بعده وعيد للمنصرفين بغير إذنه عنه ، فالذى بينهما بأن يكون تحذيرا لهم سخطه ،أن يضطره إلى الدعاء عليهم ،أشبه من أن يكون أمرا لهم بما لم يجر له ذكر ، من تعظيمه وتوقيره بالقول والدعاء .

وقوله (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) يقول تعالى ذكره : إنكم أيها ، المنصرفون عن نبيكم بغير إذنه ، تسترا وخفية منه ، وإن خفى أمر من يفعل ذلك منكم ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله يعلم ذلك ، ولا يخفى عليه، فليتق من يفعل ذلك منكم ، الذين يخالفون أمر الله فى الانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بإذنه ، أن تصيبهم فتنة من الله ، أو يصيبهم عذاب أليم ، فيطبع على قلوبهم ، فيكفروا بالله .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا الحكم بن بشير ، قال : ثنا عمرو بن قيس ، عن جويبر ، عن الضحاك ، فى قول الله (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) قال : كانوا يستتر بعضهم ببعض ، فيقومون ، فقال : فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، قال: يطبع على قلبه ، فلا يأمن أن يظهر الكفر بلسانه ، فتضرب عنقه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قوله (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) قال : خلافا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) قال : هؤلاء المنافقون الذين يرجعون بغير إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : اللواذ : يلوذ عنه ويروغ : ويذهب بغير إذن النبى صلى الله عليه وسلم (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) الذين يصنعون هذا (أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم). الفتنة هاهنا : الكفر ، واللواذ : مصدر لاوذت بفلان ملاوذة ولواذا ، ولذلك ظهرت الواو ، ولو كان مصدرا للذت لقيل : لياذا ، كما يقال : قمت قياما ، وإذا قيل : قاومتك ، قيل: قواما طويلا . واللواذ : هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض ، يستتر هذا بهذا ، وهذا بهذا ، كما قال الضحاك .

وقوله (أو يصيبهم عذاب أليم) يقول : أو يصيبهم فى عاجل الدنيا عذاب من الله موجع ، على صنيعهم ذلك ، وخلافهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) وأدخلت « عن » ، لأن معنى الكلام : فليحذر الذين يلوذون ، عن أمره ، ويدبرون عنه معرضين .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ألا إن لله مُلك جميع السموات والأرض: يقول: فلا ينبغى لمملوك أن يخالف أمر مالكه فيعصيه، فيستوجب بذلك عقوبته. يقول: فكذلك أنتم أيها الناس، لايصلح لكم خلاف ربكم الذى هو ما لككم، فأطيعوه، وأْتمروا لأمره، ولا تنصرفوا عن رسوله إذا كنتم معه على أمر جامع، إلا بإذنه.

وقوله (قَدْ يَعْلَمُ ما أنْتُمْ عَلَيْهِ) من طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم من ذلك، كما حدثنى أيضا يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فى قوله (قَدْ يَعْلَمُ ما أنْتُمْ عَلَيْهِ) صنيعكم هذا أيضا (وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إلَيْهِ) يقول: ويوم يرجع إلى الله الذين يخالفون عن أمره، (فَيُنَبِّئُهُمْ) يقول: فيخبرهم حينئذ (بِمَا عَمِلُوا) فى الدنيا، ثم يجازيهم على ما أسلفوا فيها، من خلافهم على ربهم (وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) يقول: والله ذو علم بكل شيء عملتموه أنتم وهم وغيركم، وغير ذلك من الأمور، لايخفى عليه شيء، بل هو محيط بذلك كله، وهو مُوَفٍّ كلَّ عامل منكم أجر عمله يوم ترجعون إليه.

آخر تفسير سورة النور

(٢٥) سورة الفرقان مكية وآياتها سبع وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾

قال أبو جعفر: تبارك: تَفاعَلَ من البركة، كما حدثنا أبو كريب، قال: ثنا عثمان بن سعيد، قال: ثنا بشر بن عمارة، قال: ثنا أبو رَوق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: تبارك: تَفاعَلَ من البركة، وهو كقول القائل: تقدّس ربنا، فقوله (تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقانَ) يقول: تبارك الذى نزّل الفصل بين الحقّ والباطل، فصلا بعد فصل، وسورة بعد سُورة، على عبده محمد صلى الله عليه وسلم، ليكون محمد لجميع الجنّ والإنس، الذين بعثه الله إليهم داعيا إليه، نذيرا: يعنى منذِرا يُنذرهم عِقابه، ويخوّفهم عذابه، إن لم يوحدوه، ولم يخلصوا له العبادة، ويخلعوا كلّ ما دونه من الآلهة والأوثان.

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) قال النبيّ النذير ، وقرأ (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) وقرأ (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ) قال : رسل ، قال : المنذرون : الرسل قال : وكان نذيرا واحدا بلّغ ما بين المشرق والمغرب ، ذوالقرنين ، ثم بلغ السدّين ، وكان نذيرا ، ولم أسمع أحدا يُحِقّ أنه كان نبيا (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) قال : من بلغه القرآن من الخلق ، فرسول الله نذيره ، وقرأ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) وقال : لم يرسل الله رسولا إلى الناس عامة إلا نوحا ، بدأ به الخلق ، فكان رسولَ أهل الأرض كلهم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خُتِم به .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ۝

❁ يقول تعالى ذكره : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ - الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) فالذي الثانية من نعت الذي الأولى ، وهما جميعا في موضع رفع ، الأولى بقوله تبارك ، والثانية نعت لها ، ويعني بقوله (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) الذي له سلطان السموات والأرض ينفُذ في جميعها أمره وقضاءه ، ويُمْضِي في كلها أحكامه ، يقول : فحقّ على من كان كذلك أن يطيعه أهل مملكته ، ومَنْ في سلطانه ، ولا يعصُوه ، يقول : فلا تعصُوا نذيري إليكم أيها الناس ، واتبعوه ، واعملوا بما جاءكم به من الحقّ (وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) يقول : تكذيبا لمن أضاف إليه الولد ، وقال : الملائكة بنات الله ، ما اتخذ الذي نزّل الفرقان على عبده ولدا ، فمن أضاف إليه ولدا فقد كذب وافترى على ربه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ) يقول تكذيبا لمن كان يضيف الأُلوهة إلى الأصنام ويعبدها من دون الله من مشركي العرب ، ويقول في تلبيته : لبّيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، كذب قائلو هذا القول ، ما كان لله من شريك في مُلكه وسلطانه ، فيصلح أن يُعبَد من دونه ، يقول تعالى ذكره : فأفردوا أيها الناس لربكم الذي نزّل الفرقان على عبده محمد نبيه صلى الله عليه وسلم الألُوهة ، وأخلصوا له العبادة ، دون كلّ ماتعبدونه من دونه من الآلهة والأصنام ، والملائكة والجنّ والإنس ، فإن كلّ ذلك خلقه وفي ملكه ، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك ، وقوله (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) يقول تعالى ذكره : وخلق الذي نزّل على محمد الفرقان كل شيء ، فالأشياء كلها خلقه ومِلْكه ، وعلى المماليك طاعة مالكهم ، وخدمة سيدهم دون غيره ، يقول : وأنا خالقكم ومالككم ، فأخلصوا لي العبادة دون غيري ، وقوله (فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) يقول : فسوّى كلّ ما خلق ، وهيأه لما يصلح له ، فلا خلل فيه ولا تفاوت ؛

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾

يقول تعالى ذكره : مُقَرِّعا مشركى العرب بعبادتهم مادونه من الآلهة ، ومعجِّبا أولى النهى منهم ، ومنبِّهَهم على موضع خطأ فِعْلهم ، وذهابهم عن منهج الحقّ ، وركوبهم من سُبُل الضلالة ما لايركبه إلا كل مدخول الرأى ، مسلوب العقل ، واتخذ هؤلاء المشركون بالله من دون الذى له مُلك السموات والأرض وحده ، من غير شريك ، الذى خلق كلّ شىء فقدّره ، آلهة : يعنى أصناما بأيديهم يعبدونها ، لاتخلق شيئا وهى تُخلَق ، ولا تملك لأنفسها نفعا تجرّه إليها ، ولا ضرّا تدفعه عنها ممن أرادها بضرّ ، ولا تملك إماتة حىّ ، ولا إحياء ميت ، ولا نشره من بعد مماته ، وتركوا عبادة خالق كلّ شىء ، وخالق آلهتهم ، ومالك الضرّ والنفع ، والذى بيده الموت والحياة والنشور . والنشور : مصدر نُشِر الميت نشورا ، وهوأن يُبعث ويحيا بعد الموت .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا ﴾

يقول تعالى ذكره : وقال هؤلاء الكافرون بالله ، الذين اتخذوا من دونه آلهة : ما هذا القرآن الذى جاءنا به محمد (إلاّ إفْكٌ) يعنى : إلاكذب وبُهتان (افْتَرَاهُ) اختلقه وتخرّصه بقوله (وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) ذكر أنهم كانوا يقولون : إنما يُعَلِّم محمدا هذا الذى يجيئنا به اليهود ، فذلك قوله (وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) يقول : وأعان محمدا على هذا الإفك الذى افتراه يهود .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله (وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) قال : يهود .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله :

وقوله (فَقَدْ جاءُوا ظُلْما وَزُورًا) يقول تعالى ذكره : فقد أتى قائلو هذه المقالة ، يعنى الذين قالوا : (إنْ هَذَا إلاّ إفْكٌ افْتَرَاهُ وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) ظلما ، يعنى بالظلم نسبتهم كلام الله وتنزيله ، إلى أنه إفك افتراه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد بيَّنا فيا مضى أن معنى الظلم : وضع الشىء

فى غير موضعه ، فكأنَّ ظلم قائلى هذه المقالة القرآن بقيلهم هذا،وصفُهم إياه بغير صفته . والزور : أصله تحسين الباطل . فتأويل الكلام : فقد أتى هؤلاء القوم فى قيلهم (إنْ هَـٰذَا إلاَّ إفْكٌ افْتَرَاهُ وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) كذبا محضا .

وبنحو الذى قلنا قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح : عن مجاهد ؛ وحدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (فَقَدْ جاءُوا ظُلْما وَزُورًا) قال : كذبا .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝

ذكر أن هذه الآية نزلت فى النَّضْر بن الحارث ، وأنه المعنىّ بقوله (وَقَالُوا أساطيرُ الأوَّلِينَ) :

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبوكريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنا محمد بن إسحاق ، قال : « ثنا شيخ من أهل مصر ، قدم منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كان النَّضْر بن الحارث بن كَلَدَة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصىّ ،من شياطين قريش،وكان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصب له العداوة،وكان قد قدم الحيرة، تعلّم بها أحاديث ملوك فارس ، وأحاديث رُسْتَم وأسفنديار ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلسا ، فذكّر بالله ، وحدّث قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم ، من نقمة الله،خلَفه فى مجلسه إذا قام ، ثم يقول : أنا والله يامعشر قُريش أحسن حديثا منه ، فهلموا فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدّثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : ما محمد أحسن حديثا منى ، قال : فأنزل الله تبارك وتعالى فى النضر ثمانىَ آيات من القرآن ، قوله (وَإذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أساطيرُ الأوَّلِينَ) وكلّ ما ذُكر فيه الأساطير فى القرآن . »

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس نحوه ، إلا أنه جعل قوله « فأنزل الله فى النضْر ثمانى آيات ، » عن ابن إسحاق ، عن الكلبىّ ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (أساطيرُ الأوَّلِينَ) أشعارهم وكهانتهم ، وقالها النضر بن الحارث .

فتأويل الكلام : وقال هؤلاء المشركون بالله ، الذين قالوا لهذا القرآن : إن هذا إلا إفك افتراه محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الذى جاءنا به محمد ، أساطير الأوّلين ، يَعنُون أحاديثهم التى كانوا يُسَطِّرونها فى كتبهم ، اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم من يهود ، (فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ) يعنون بقوله (فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ) فهذه الأساطير تُقرأ عليه ، من قولهم : أمليت عليك الكتاب ، وأمللْت (بُكْرَةً وأَصِيلاً) يقول : وتملى عليه غُدْوة وعشيا .

وقوله (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ) يقول تعالى ذكره : قل يامحمد لهؤلاء المكذّبين بآيات الله من مشركي قومك : ما الأمر كما تقولون ، من أن هذا القرآن أساطير الأوّلين ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، بل هو الحقّ ، أنزله الربّ الذى يعلم سرّ من فى السموات ومن فى الأرض ، ولا يخفى عليه شيء ، ومُحْصِي ذلك على خلقه ، ومُجازيهم بما عزمت عليه قلوبهم ، وأضمروه فى نفوسهم (إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً) يقول : إنه لم يزل يصفح عن خلقه ويرحمهم ، فيتفضلُ عليهم بعفوه ، يقول : فلأنّ ذلك من عادته فى خلقه ، يُمْهِلكم أيها القائلون ما قلتم من الإفك ، والفاعلون ما فعلتم من الكفر .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل :

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ) قال : ما يسرّ أهل الأرض وأهل السماء :

القول في تأويل قوله تعالى :

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

ذُكر أن هاتين الآيتين نزلتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان مشركو قومه قالوا له ليلة اجتماع أشرافهم بظهر الكعبة ، وعرضوا عليه أشياء ، وسألوه الآيات .

فكان فيما كلّموه به حينئذ ، فيما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى محمد ابن أبي محمد ، مولى زيد بن ثابت ، عن سعيد بن جُبير ، أو عكرمة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ، «أن قالوا له : فإن لم تفعل لنا هذا ، يعني ماسألوه من تسيير جبالهم عنهم ، وإحياء آبائهم ، والمجيء بالله والملائكة قبيلا ، وما ذكره الله فى سورة بنى إسرائيل ، فخذ لنفسك ، سلْ ربك يبعثْ معك ملكا يصدّقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسَلْه فيجعل لك قصورا وجنانا ، وكنوزا من ذهب وفضة ، تغنيك عما نراك ،

تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعلم فضلك ومنزلتك من ربك،إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بفاعل ، فأنزل الله فى قولهم: أنْ خُذْ لنفسك ما سألوه أن يأخذ لها : أن يجعل له جنانا وقصورا وكنوزا ، أو يبعث معه ملكا يصدّقه بما يقول ، ويردّ عنه من خاصمه ،(وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ، وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ، لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا) .

فتأويل الكلام: وقال المشركون (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ): يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم ،الذى يزعم أن الله بعثه إلينا (يَأْكُلُ الطَّعَامَ) كما نأكل ، (وَيَمْشِي) فى أسواقنا كما نمشى. (لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ): يقول: هلا أنزل إليه (مَلَكٌ) إن كان صادقا من السماء (فَيَكُونَ مَعَهُ) منذرا للناس ،مصدّقا له على مايقول ،أويلقى إليه كنز من فضة أو ذهب ، فلا يحتاج معه إلى التصرّف فى طلب المعاش (أَوْ تكون له جنة) : يقول : أو يكون له بستان (يَأْكُلُ مِنْهَا) .

واختلف القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين (يَأْكُلُ) بالياء ، بمعنى : يأكل منها الرسول . وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفيين (نَأْكُلُ مِنْهَا) بالنون ، بمعنى : نأكل من الجنة.

وأولى القراءتين فى ذلك عندى بالصواب : قراءة من قرأه بالياء ، وذلك للخبر الذى ذكرنا قبل بأن مسألة من سأل من المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم ،أن يسأل ربه هذه الخلال لنفسه لا لهم ، فإذ كانت مسألتهم إياه ذلك كذلك ، فغير جائز أن يقولوا له : سلْ لنفسك ذلك ، لنأكل نحن .

وبعدُ ، فإن فى قوله تعالى ذكره : (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) ، دليلا بيّنا على أنهم إنما قالوا له : اطلب ذلك لنفسك،لتأكل أنت منه ، لا نحن .

وقوله (وَقَالَ الظَّالِمُونَ) يقول : وقال المشركون للمؤمنين بالله ورسوله (إِنْ تَتَّبِعُونَ) أيها القوم ، باتباعكم محمدا (إِلاَّ رَجُلاً) به سحر :

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ۝ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا ۝ ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : انظر يا محمد إلى هؤلاء المشركين الذين شبهوا لك الأشباه بقولهم لك : هو مسحور ، فضلّوا بذلك عن قصد السبيل ، وأخطئوا طريق الهُدى والرشاد ، فلا يستطيعون : يقول : فلا يجدون سبيلا إلى الحقّ ، إلا فيما بعثتك به ، ومن الوجه الذى ضلوا عنه .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : ثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جُبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ، فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) أى التمسوا الهدى فى غير ما بعثتك به إليهم فضلوا ، فلن يستطيعوا أن يصيبوا الهُدَى فى غيره .

وقال آخرون فى ذلك ما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) قال : مَخْرجا يخرجهم من الأمثال التى ضربوا لك .

وقوله (تَبارَكَ الَّذِى إنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذلكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ) يقول تعالى ذكره : تقدس الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك .

واختلف أهل التأويل فى المعنىّ « بذلك » التى فى قوله (جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذلكَ) فقال بعضهم : معنى ذلك : خيرا مما قال هؤلاء المشركون لك يا محمد ، هلا أوتيته وأنت لله رسول ، ثم بين تعالى ذكره عن الذى لو شاء جعل له من خير مما قالوا ، فقال (جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ) .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (تَبارَكَ الَّذِى إنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذلكَ) خيرا مما قالوا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، قوله (تَبارَكَ الَّذِى إن شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذلكَ) قال : مما قالوا ، وتمنَّوا لك ، فيجعل لك مكان ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وقال آخرون : عُنِى بذلك المشى فى الأسواق ، والتماس المعاش .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، فيما يرى الطبرىّ ، عن سعيد بن جُبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : ثم قال : (تَبارَكَ الَّذِى إنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ) من أن تمشىَ فى الأسواق ، وتلتمس المعاش كما يلتمسه الناس ، (جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا) .

❊ قال أبو جعفر : والقول الذى ذكرناه عن مجاهد فى ذلك : أشبه بتأويل الآية ، لأن المشركين إنما استعظموا أن لاتكون له جنة يأكل منها ، وأن لايُلْقى إليه كنز ، و استنكروا أن يمشى فى الأسواق ، وهو لله رسول ، فالذى هو أولى بوعد الله إياه ، أن يكون وعدا بما هو خير مما كان عند المشركين عظيما ، لا مما

كان منكرا عندهم ، وعُنِي بقوله (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) : بساتين تجرى فى أصول أشجارها الأنهار .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) قال : حوائط .

وقوله (وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا) يعنى بالقصور : البيوت المبنية .

وبنحو ما قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا) قال : بيوتا مبنية مشيدة ، كان ذلك فى الدنيا ، قال : كانت قريش ترى البيت من الحجارة قصرا كائنا ما كان .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا) مشيدة فى الدنيا ، كل هذا قالته قريش ، وكانت قريش ترى البيت من حجارة ما كان صغيرا [1] قَصْرا .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن حبيب قال : « قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن شئت أن نعطيك من خزائن الأرض ومفاتيحها ، ما لم يعط نبى قبلك ، ولا يعطى من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله تعالى ، فقال : اجمعوها لى فى الآخرة ، فأنزل الله فى ذلك (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا) » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذكره : ما كذّب هؤلاء المشركون بالله ، وأنكروا ما جئتهم به يامحمد من الحقّ ، من أجل أنك تأكل الطعام ، وتمشى فى الأسواق ، ولكن من أجل أنهم لايوقنون بالمعاد ، ولا يصدّقون بالثواب والعقاب ، تكذيبا منهم بالقيامة ، وبعث الله الأموات أحياء لحشر القيامة . وأعتدنا : يقول : وأعددنا لمن كذّب ببعث الله الأموات أحياء بعد فنائهم لقيام الساعة ، نارا تسعّر عليهم ، وتتقد إذا رأتهم من مكان بعيد ، يقول : إذا رأت هذه النار التى أعتدناها لهؤلاء المكذّبين ، أشخاصهم من مكان بعيد ، تغيظت

(١) الظاهر أنه سقط من قلم الناسخ « أوكبيرا » ، كما يفيده ما قبله . والذى فى ابن كثير « صغيرا كان أو كبيرا » .

عليهم ، وذلك أن تغلي وتفور ، يقال : فلان تغيظ على فلان ، وذلك إذ غضب عليه ، فغلى صدره من الغضب عليه ، وتبين فى كلامه ، وزفيرا ، وهو صوتها .

فإن قال قائل : وكيف قيل (سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا) والتغيظ : لايسمع ، قيل : معنى ذلك : سمعوا لها صوت التغيظ ، من التلهب والتوقد .

حدثنى محمود بن خداش ، قال : ثنا محمد بن يزيد الواسطىّ ، قال : ثنا أصبغ بن زيد الورّاق ، عن خالد بن كثير ، ، عن فُدَيك ، عن رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَقُولُ عَلَيَّ ما لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ بينَ عَيْنَيْ جَهَنَّمَ مَقْعَدًا » قالوا : يا رسول الله ، وهل لها من عين ؟ قال : أَلَمْ تَسْمَعُوا إلى قَوْلِ اللهِ (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) .. الآية » .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر فى قوله (سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) قال : أخبرنى المنصور بن المعتمر ، عن مجاهد ، عن عبيد بن عمير ، قال : إن جهنم لتزفر زفرة لايبقى ملك ولا نبيّ إلا خرّ ترعد فرائصه حتى إن إبراهيم ليجثو على ركبتيه ، فيقول : يا ربّ لاأسألك اليوم إلا نفسى .

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّورقى ، قال : ثنا عُبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : « إن الرجل ليُجَرّ إلى النار ، فتنزوى ، وينقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : مالك ؟ فتقول : إنه ليستجير منى ، فيقول : أرسلوا عبدى ، وإن الرجل ليُجَرّ إلى النار ، فيقول : يا ربّ ما كان هذا الظنّ بك ؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعنى رحمتك ، قال : فيقول أرسلوا عبدى . وإن الرجل ليجَرّ إلى النار ، فتشهق إليه النار شُهوق البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لايبقى أحد إلا خاف . »

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ۝ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ۝ ﴾

يقول تعالى ذكره : وإذا ألقى هؤلاء المكذّبون بالساعة من النار مكانا ضيقا ، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال (دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُورًا) .

واختلف أهل التأويل فى معنى الثُّبور ، فقال بعضهم : هو الوَيْل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، فى قوله (وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) يقول : وَيْلا .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه : عن ابن عباس : لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا : يقول : لاتدعوا اليوم ويلا واحدا ، وادعوا ويلا كثيرا .

وقال آخرون : الثبور : الهلاك .

ذكر من قال ذلك

حُدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد . قال : سمعت الضحاك يقول ، في قوله (لاتَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا) الثبور : الهلاك .

قال أبو جعفر : والثبور في كلام العرب : أصله انصراف الرجل عن الشيء ؛ يقال منه : ما ثَبَرك عن هذا الأمر : أي ماصرفك عنه ، وهو في هذا الموضع دعاء هؤلاء القوم بالندم ، على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا ، والإيمان بما جاءهم به نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، حتى استوجبوا العقوبة منه ، كما يقول القائل : واندامتاه ، واحسرتاه على مافرّطت في جنب الله . وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول في قوله (دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) أي هَلَكَة ؛ ويقول : هو مصدر من ثُبر الرجل : أي أهلك ، ويستشهد لقيله في ذلك ببيت ابن الزِّبَعْرَى :

إذْ أُجارِي الشَّيْطانَ فِي سَنَنِ الغَيِّ وَمَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ[١]

وقوله (لاتَدْعُوا اليَوْمَ) أيها المشركون ندما واحدا : أي مرّة واحدة ، ولكن ادعوا ذلك كثيرا ، وإنما قيل (لاتَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا) لأن الثبور مصدر ، والمصادر لاتجمع ، وإنما توصف بامتداد وقتها وكثرتها ، كما يقال : قعد قعودا طويلا ، وأكل أكلا كثيرا .

حدثنا محمد بن مرزوق ، قال : ثنا حجاج ، قال : ثنا حماد ، قال : ثنا عليّ بن زيد ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أوَّلُ مَنْ يُكْسَى حُلَّةً مِنَ النَّارِ إبْلِيسُ ، فَيَضَعُها عَلَى حاجِبَيْهِ ، وَيَسْحَبُها مِنْ خَلْفِهِ ، وَذُرِّيَّتُهُ مِنْ خَلْفِه ، وَهُوَ يَقُولُ : يا ثُبُورَاه ، وَهُمْ يُنادُونَ يا ثُبُورَهُمْ حتى يَقِفُوا عَلَى النَّارِ ، وَهُوَ يَقُولُ : يا ثُبُوراهُ ، وَهُمْ يُنادُونَ يا ثُبُورَهُمْ فَيُقالُ (لاتَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا ، وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) » .

القول في تأويل قوله تعالى :

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)

(١) البيت لعبد الله بن الزبعرى شاعر قريش ، الذي كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم خرج إليه وأسلم بعد فتح مكة ، وقال حين أسلم شعرا ، منه هذا البيت ، من مقطوعة أربعة أبيات ، أنشدها ابن إسحاق في السيرة (طبعة الحلبي ٤ : ٦١) ومعنى أجاري : أباري ، أعارض . والسنن بالتحريك : وسط الطريق . ومثبور : هالك . والشاهد فيه عند المؤلف أن الثبور معناه الهلاك ، والمثبور : الهالك .

يقول تعالى ذكره : قل يامحمد لهؤلاء المكذّبين بالساعة : أهذه النار التى وصف لكم ربُّكم صفتها وصفة أهلها، خير؟ أم بستان الخلد الذى يدوم نعيمه ولا يبيد، الذى وَعَد من اتقاه فى الدنيا، بطاعته فيما أمره ونهاه ؟ وقوله (كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا) يقول : كانت جنة الخلد للمتقين جزاء أعمالهم لله فى الدنيا بطاعته ، وثواب تقواهم إياه ، ومصيرا لهم ، يقول : ومصيرا للمتقين يصيرون إليها فى الآخرة . وقوله (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) يقول: لهؤلاء المتقين فى جنة الخلد التى وعَدَهموها الله، ما يشاءون مما تشتهيه الأنفس ، وتلذّ الأعين (خَالِدِينَ) فيها ، يقول : لابثين فيها ماكثين أبدا ، لايزولون عنها ، ولا يزول عنهم نعيمها . وقوله (كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً) وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم ذلك فى الدنيا حين قالوا (آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ) يقول الله تبارك وتعالى : كان إعطاء الله المؤمنين جنة الخلد التى وصف صفتها فى الآخرة ، وعْدا وعدهمُ الله على طاعتهم إياه فى الدنيا ، ومسئلتهم إياه ذلك .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانىّ ، عن ابن عباس (كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً) قال : فسألوا الذى وعدَهُم وتنجزوه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً) قال : سألوه إياها فى الدنيا ، طلبوا ذلك فأعطاهم وعدهم، إذ سألوه أن يعطيهم ، فأعطاهم، فكان ذلك وعدا مسئولا ، كما وقّت أرزاق العباد فى الأرض قبل أن يخلقهم ، فجعلها أقواتا للسائلين ، وقّت ذلك على مسئلتهم ، وقرأ (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ) .

وقد كان بعض أهل العربية يوجه معنى قوله (وَعْدًا مَسْئُولاً) إلى أنه معنىّ به وعدا واجبا ، وذلك أن المسئول واجب ، وإن لم يُسْأل كالدين ، ويقول ذلك نظير قول العرب : لأعطينك ألفا وعدا مسئولا ، بمعنى واجب لك ، فتسأله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذكره : ويوم نحشر هؤلاء المكذّبين بالساعة ، العابدين الأوثان ، وما يعبدون من دون الله من الملائكة والإنس والجنّ .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) فيقول (أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ) قال : عيسى وعُزيرٌ والملائكة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، نحوه .

واختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأه أبو جعفر القارئ وعبد الله بن كثير (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ) بالياء جميعا ، بمعنى : ويوم يحشرهم ربك ، ويحشر مايعبدون من دونه فيقول . وقرأته عامة قرّاء الكوفيين (نَحْشُرُهُمْ) بالنون ، فنقول . وكذلك قرأه نافع .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن يقال : إنهما قراءتان مشهورتان ، متقاربتا المعنى ، فبأيّتهما قرأ القارئ فمصيب .

وقوله (فَيَقُولُ أأنْتُمْ أضْلَلْتُمْ عِبادِى هَؤُلاءِ) يقول : فيقول الله للذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء : يقول : أنتم أزلتموهم عن طريق الهدى ، ودعوتموهم إلى الغىّ والضلالة ، حتى تاهوا وهلكوا ، أم هم ضلوا السبيل ، يقول : أم عبادى هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحقّ ، وسلكوا العَطَب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾

❊ يقول تعالى ذكره : قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى : تنزيها لك يا ربنا ، وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون ، ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء نواليهم ، أنت ولينا من دونهم ، ولكن متعتهم بالمال يا ربنا فى الدنيا والصحة ، حتى نسُوا الذكر ، وكانوا قوما هَلْكَى ، قد غلب عليهم الشقاء والخِذْلان .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل :

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن سعد ، قال : ثنى أبى ، قال : ثنى عمى ، قال : ثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قوله (وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وآباءَهُمْ حتى نَسُوا الذِّكْرَ وكانُوا قَوْما بُورًا) يقول : قوم قد ذهبت أعمالهم وهم فى الدنيا ، ولم تكن لهم أعمال صالحة .

حدثنى علىّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس ، قوله (وكانُوا قَوْما بُورًا) يقول : هلكى .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قوله (وكانُوا قَوْما بُورًا) يقول : هَلْكَى :

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر عن الحسن (وكانُوا قَوْما بُورًا) قال : هم الذين لاخير فيهم .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله (وكانُوا قَوْما بُورًا) قال : يقول : ليس من الخير في شيء . البور : الذى ليس فيه من الخير شيء .

واختلفت القرّاء فى قراءة قوله (ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أوْلِياءَ) فقرأ ذلك عامة قرّاء الأمصار (نَتَّخِذَ) بفتح النون ، سوى الحسن ، ويزيد بن القعقاع ، فإنهما قرآه (أنْ نُتَّخَذَ) بضمّ النون ، فذهب الذين فتحوها إلى المعنى الذى بيّنّاه فى تأويله ، من أن الملائكة وعيسى ، ومن عُبِد من دون الله من المؤمنين ، هم الذين تبرّءوا أن يكون كان لهم ولىّ غير الله تعالى ذكره . وأما الذين قرءوا ذلك بضمّ النون ، فإنهم وجهوا معنى الكلام إلى أن المعبودين فى الدنيا ، إنما تبرّءوا إلى الله أن يكون كان لهم أن يُعْبَدوا من دون الله جلّ ثناؤه ، كما أخبر الله عن عيسى ، أنه قال : إذا قيل (أأنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّيَ إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أنْ أقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ - ما قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ ما أمَرْتَنِي بِهِ : أنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) .

قال أبو جعفر : وأولى القراءتين فى ذلك عندى بالصواب : قراءة من قرأه بفتح النون ، لعلل ثلاث : إحداهنّ إجماع الحجة من القرّاء عليها ، والثانية أن الله جلّ ثناؤه ذكر نظير هذه القصة فى سورة سبأ ، فقال (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعا ثم يقولُ للملائكة : أهؤلاء إيَّاكُم كانُوا يَعْبُدُون ؟ قالوا : سُبْحانَكَ أنتَ وَلِيُّنا مِن دُونِهِمْ) ، فأخبر عن الملائكة أنهم إذا سُئلوا عن عبادة من عبدهم ، تبرّءوا إلى الله من ولايتهم ، فقالوا لربهم : (أنت وليُّنا من دونهم) ، فذلك يوضّح عن صحة قراءة من قرأ ذلك (ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أوْلِياءَ) بمعنى : ما كان ينبغى لنا أن نتخذهم من دونك أولياء . والثالثة : أن العرب لا تدخل « مِنْ » هذه التى تدخل فى الجحد إلا فى الأسماء ، ولا تدخلها فى الإخبار ، لا يقولون : ما رأيت أخاك من رجل ، وإنما يقولون : ما رأيت من أحد ، وما عندى من رجل ، وقد دخلت هاهنا فى الأولياء ، وهى فى موضع الخبر ، ولو لم تكن فيها « مِن » ، كان وجها حسنا . وأما البُور : فمصدر واحد ، وجمع للبائر ، يقال : أصبحت منازلهم بُورا : أى خالية لا شيء فيها ، ومنه قولهم : بارت السُّوق ، وبار الطعام : إذا خلا من الطّلاب والمشترى ، فلم يكن له طالب ، فصار كالشيء الهالك ؛ ومنه قول ابن الزِّبَعْرَى :

يا رَسُولَ المَلِيكِ إنَّ لِسانِي رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ[1]

وقد قيل : إن بور : مصدر ، كالعدل والزور والقطع ، لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، وإنما أريد بالبور فى هذا الموضع أن أعمال هؤلاء الكفار كانت باطلة ، لأنها لم تكن لله كما ذكرنا عن ابن عباس .

---

(١) البيت لعبد الله بن الزبعرى ، قاله حين أسلم عند فتح مكة . وهو فى أول المقطوعة قبل البيت الذى مضى شرحه قبل هذا . وراتق : مصلح لما أفسدت ، وأصل الرتق : السد للثوب الممزق ، بإصلاح ما تقطع منه . وفتقت : أى أفسدت من الدين ، فكل إثم فتق وتمزيق ، وكل توبة رتق وإصلاح . وبور : هالك . يقال رجل بور وبائر ، وقوم بور ، وأصل البور : مصدر باريبور بورا ، ثم وصف به ، فلزم الإفراد ، لأن المصادر لا تجمع . وقال المؤلف إنه مصدر واحد (غير مجموع) ، وجمع للبائر ، قال يقال : أصبحت منازلهم بورا ، أى خالية .

القول في تأويل قوله تعالى :

فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا

❊ يقول تعالى ذكره مخبرا عما هو قائل للمشركين عند تبرّى من كانوا يعبدونه فى الدنيا من دون الله منهم، قد كذّبوكم أيها الكافرون . من زعمتم أنهم أضلوكم ، ودعوكم إلى عبادتهم بما تقولون ، يعنى بقولكم ، يقول : كذّبوكم بكذبكم .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ) يقول الله للذين كانوا يعبدون عيسى وعُزيرا والملائكة ، يكذّبون المشركين .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ) قال : عيسى وعُزير والملائكة ، يكذّبون المشركين بقولهم .

وكان ابن زيد يقول فى تأويل ذلك ، ما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا) قال : كذّبوكم بما تقولون بما جاء من عند الله جاءت به الأنبياء والمؤمنون آمنوا به ، وكذب هؤلاء ، فوجه ابن زيد تأويل قوله (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ) إلى : فقد كذّبوكم أيها المؤمنون المكذّبون بما جاءهم به محمد من عند الله ، بما تقولون من الحقّ ، وهو أن يكون خبرا عن الذين كذّبوا الكافرين ، فى زعمهم أنهم دعَوْهم إلى الضلالة ، وأمروهم بها ، على ما قاله مجاهد من القول الذى ذكرناه عنه ، أشبه وأولى ، لأنه فى سياق الخبر عنهم . والقراءة فى ذلك عندنا (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ، بالتاء) على التأويل الذى ذكرناه ، لإجماع الحجة من قرّاء الأمصار عليه . وقد حُكى عن بعضهم أنه قرأه (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا يَقُولُونَ) بالياء ، بمعنى : فقد كذّبوكم بقولهم .

وقوله جلّ ثناؤه (فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا) يقول : فما يستطيع هؤلاء الكفار صرف عذاب الله حين نزل بهم عن أنفسهم ، ولا نصرَها من الله حين عذّبها وعاقبها .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ؛ وحدثنى الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا) قال : المشركون لا يستطيعونه .

قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً) قال : المشركون لايستطيعونه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد (فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً) قال : المشركون . قال ابن جُرَيج : لايستطيعون صرف العذاب عنهم ، ولا نصر أنفسهم .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قوله (فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفا وَلا نَصْراً) قال : لايستطيعون يصرفون عنهم العذاب الذى نزل بهم حين كَذَّبوا ، ولا أن ينتصروا . قال : وينادى مناد يوم القيامة حين يجتمع الخلائق : مالكم لاتناصرون ، قال : من عبد من دون الله لاينصر اليوم من عبده ، وقال العابدون من دون الله لاينصره اليوم إلهه الذى يعبد من دون الله ، فقال الله تبارك وتعالى : (بَلْ هُمُ اليَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ) ، وقرأ قول الله جلّ ثناؤه (فإنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ) .

ورُوِى عن ابن مسعود فى ذلك ما حدثنا به أحمد بن يونس ، قال : ثنا القاسم ، قال : ثنا حجاج ، عن هارون ، قال : هى فى حرف عبد الله بن مسعود (فَمَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ صَرْفا) فإن تكن هذه الرواية عنه صحيحة ، صحّ التأويل الذى تأوّله ابن زيد فى قوله (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ) ، ويصير قوله (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ) خبرا عن المشركين أنهم كذّبوا المؤمنين ، ويكون تأويل قوله حينئذ (فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً) فما يستطيع يامحمد هؤلاء الكفار لك صرفا عن الحقّ الذى هداك الله له ، ولا نصر أنفسهم ، مما بهم من البلاء الذى هم فيه ، بتكذيبهم إياك .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به (وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ) أيها المؤمنون ، يعنى بقوله (وَمَنْ يَظْلِمْ) ومن يشرك بالله فيظلم نفسه ، فذلك نذقه عذابا كبيرا ، كالذى ذكرنا أنا نذيقه الذين كذّبوا بالساعة .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم ، قال : ثنى الحسين ، قال : ثنى حجاج ، قال : قال ابن جُرَيج ، فى قوله (وَمَنْ يَظْلِمْ مِنكُمْ) قال : بشرك (نُذِقْهُ عَذَابا كَبِيرًا) :

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن ، فى قوله (وَمَنْ يَظْلِمْ مِنكُمْ) قال : هو الشرك .

القول في تأويل قوله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ
وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

وهذا احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه على مشركي قومه الذين قالوا (مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) وجواب لهم عنه يقول لهم جلّ ثناؤه: وما أنكر يا محمد هؤلاء القائلون ما لهذا: الرسول يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، من أكلك الطعام ، ومشيك في الأسواق ، وأنت لله رسول ، فقد علموا أنا ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، كالذي تأكل أنت وتمشي ، فليس لهم عليك بما قالوا من ذلك حجة .

فإن قال قائل : فإن « مَنْ » ليست في التلاوة ، فكيف قلت: معنى الكلام : إلا مَنْ إنهم ليأكلون الطعام ؟ قيل : قلنا في ذلك : معناه : أن الهاء والميم في قوله : إنهم ، كناية أسماء لم تُذكر ، ولا بدّ لها من أن تعود على من كُنِي عنه بها ، وإنما ترك ذكر « مَنْ » وإظهاره في الكلام ، اكتفاء بدلالة قوله (مِنَ الْمُرْسَلِينَ) عليه . كما اكتفى في قوله (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ) من إظهار « مَنْ » ؛ ولا شكّ أن معنى ذلك : وما منا إلا من له مقام معلوم ؛ كما قيل (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) ومعناه : وإن منكم إلا من هو واردها . فقوله (إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ) صلة لِمَنِ المتروك ، كما يقال في الكلام : ما أرسلت إليك من الناس إلا مَنْ إنه ليبلغك الرسالة ، فإنه ليبلغك الرسالة : صلة لِمَنْ .

وقوله (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً) يقول تعالى ذكره : وامتحنا أيها الناس بعضكم ببعض ، جعلنا هذا نبيا ، وخصصناه بالرسالة ، وهذا ملكا ، وخصصناه بالدنيا ، وهذا فقيرا ، وحرمناه الدنيا ، لنختبر الفقير بصبره على ما حُرِم مما أعطيه الغنيّ ، والملك بصبره على ما أعطيه الرسول من الكرامة ، وكيف رضي كل إنسان منهم بما أعطي ، وقُسِم له ، وطاعته ربه مع ما حُرِم مما أعطي غيره . يقول : فمن أجل ذلك لم أعط محمدا الدنيا ، وجعلته يطلب المعاش في الأسواق ، ولأبتليكم أيها الناس ، وأختبر طاعتكم ربكم ، وإجابتكم رسوله إلى ما دعاكم إليه ، بغير عَرَض من الدنيا ترجونه من محمد أن يعطيكم على اتباعكم إياه ، لأني لو أعطيته الدنيا ، لسارع كثير منكم إلى اتباعه ، طمعا في دنياه أن ينال منها .

وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل :

ذكر من قال ذلك

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن أبي رجاء ، قال : ثني عبد القدوس ، عن الحسن ، في قوله (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً) . . . الآية ، يقول : هذا الأعمى لو شاء الله لجعلني بصيرا مثل فلان ، ويقول هذا الفقير : لو شاء الله لجعلني غنيا مثل فلان ، ويقول هذا السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحا مثل فلان .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، في قوله « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ » ؟ قال : يُمسك عن هذا ، ويُوسِّع على هذا ، فيقول : لم يعطني مثل ما أعطى فلانا ، ويبتلى بالوجع كذلك ، فيقول : لم يجعلني ربي صحيحا مثل فلان، في أشباه ذلك من البلاء ، ليعلم من يصبر ممن يجزع .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثني ابن إسحاق ، قال : ثني محمد بن أبي محمد ، فيما يروى

الطبرى ، عن عكرمة ، أو عن سعيد ، عن ابن عباس ، قال : وأنزل عليه فى ذلك من قولهم (ما لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ) . . . الآية (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ ، وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) : أى جعلت بعضكم لبعض بلاء، لتصبروا على ما تسمعون منهم ، وترون من خلافهم ، وتتبعوا الهدى بغير أن أعطيهم عليه الدنيا ، ولوشئت أن أجعل الدنيا مع رسلى ، فلا يخالفون لفعلت ، ولكنى قد أردت أن أبتلى العباد بكم ، وأبتليكم بهم .

وقوله (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) يقول : وربك يامحمد بصير بمن يجزع ، ومن يصبر على ما امتُحِن به من المحن .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنى حجاج ، عن ابن جُرَيج (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) إن ربك لبصير بمن يجزع ، ومن يصبر .

تمّ الجزء الثامن عشر من تفسير الإمام محمد بن جرير الطبريّ

ويليه الجزء التاسع عشر

وأوله : القول في تأويل قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ) . . .